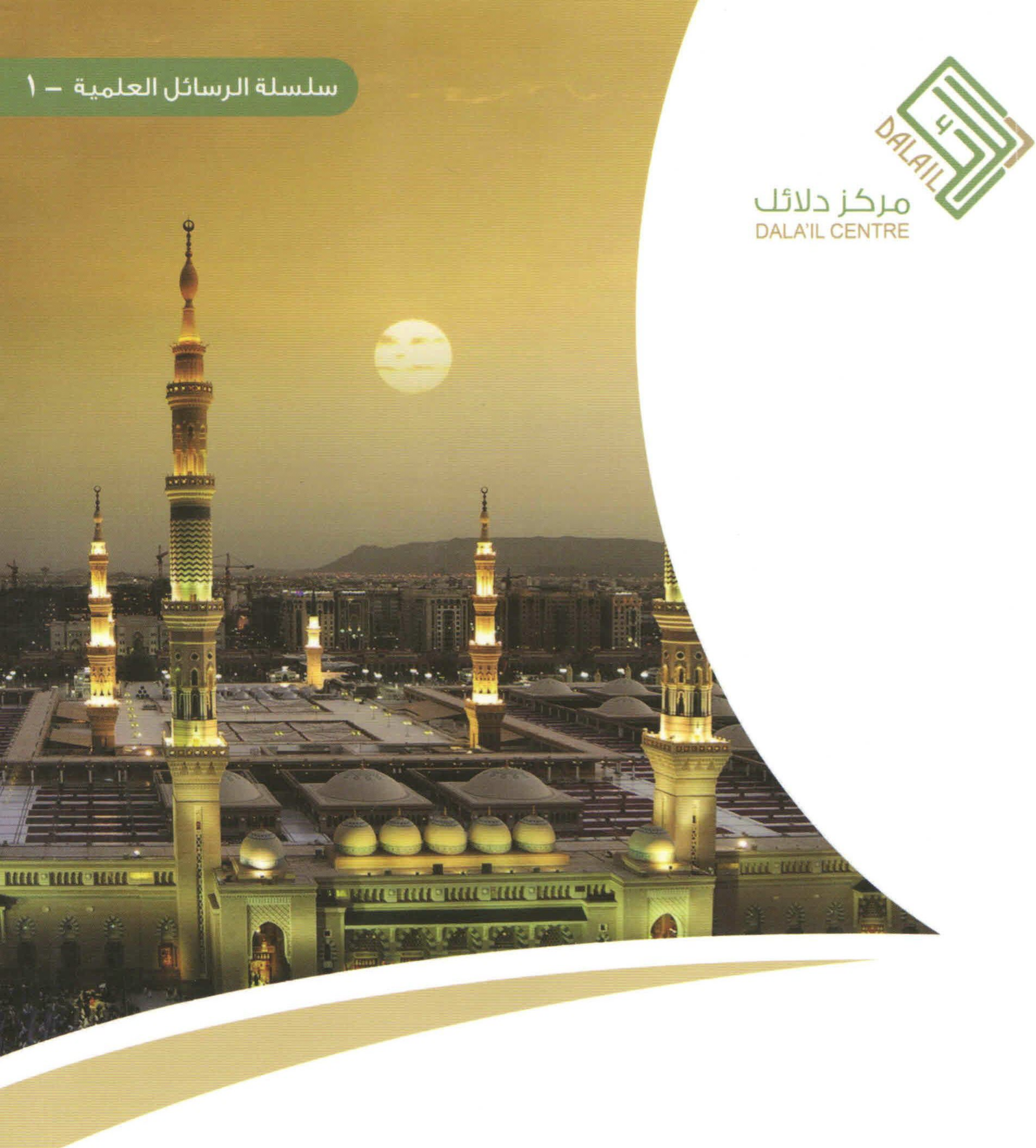


سلسلة الرسائل العلمية - ١

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

أفي النبوءة شك؟!

الأدلة العقلية النقلية على نبوءة محمد ﷺ

د. سامية بنت ياسين البدري

أفي النبوءة شك ؟!

ح مركز دلائل، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المؤلف: سامية بنت ياسين بن عبدالرحمن البدري
أفي النبوءة شك / المؤلف - الرياض، ١٤٣٧ هـ
٤٧٢ ص، ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٠٣٦٣-٥
١- نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم
٢- العقيدة الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٢٤٢ رقم الإيداع ٣٠٢٩/ ١٤٣٧



الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ



Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

إصدارات مركز دلائل

سلسلة الرسائل العلمية - ١

أصل هذا الكتاب: رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة أم القرى قسم العقيدة بتاريخ ٢١/ ٨/ ١٤٣٥هـ، وقد حصلت على درجة الامتياز.



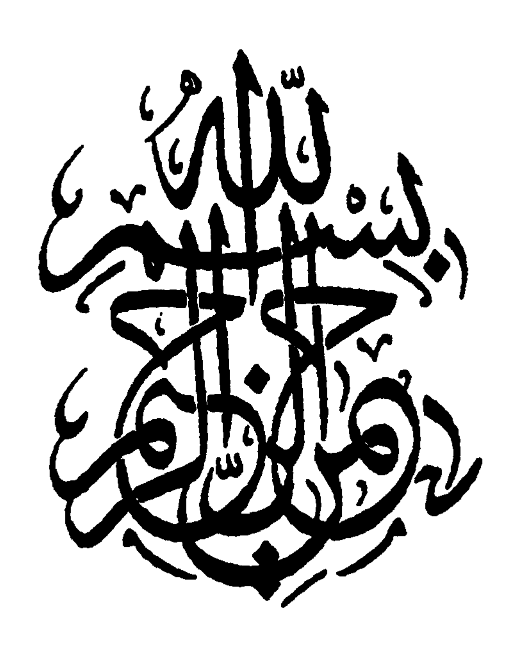
تصدير:

لا زالت تمتلئ جامعاتنا العربية والإسلامية بالعقول المفكرة ومجهوداتها المميزة في شتى مجالات العلوم الدينية والدنيوية، ولعل من أبرز الساحات التي تبرز من خلالها هذه المجهودات هي ساحات الرسائل العلمية سواءً أكانت ماجستير أم دكتوراه، ومن هنا كان اهتمام مركز دلائل بانتقاء عدد منها وتسليط الضوء عليها ونشرها لتعم فائدتها، ولاسيما التي تناسب مجال اهتمامنا في تعزيز الإيمان وتقويته.

وفي هذا الكتاب نبحر معًا في جانب لم ينل حقه بعد من الدراسة والبحث رغم أهميته البالغة، ألا وهو جانب الأدلة العقلية النقلية في القرآن على نبوءة محمد ﷺ، وبما يكفي القارئ المنصف وكل طالب حق للتيقن من صدق رسالته إذا أعمل عقله فيما سيطالعه من حقائق.

مركز دلائل





﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]

إلى خالدٍ . . .

ليبقى الإهداءُ خالداً .

الفهرس الموضوعي





بداية الرحلة...

اللُّغزُ الذي يستحثُّ عقولنا... هل نجد إجابة عليه !!

هناك لغزٌ عظيمٌ يستحثُّ عقولنا:

(ما العالم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاءا ؟ مَن صنعهما ؟ مَن يدبرهما؟ ما هدفهما ؟ كيف بدأا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا ؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود ؟

هذه الأسئلة لا توجد أمة، ولا شعب، ولا مجتمع، إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو متحولة)[1].

فلماذا لا نضع نحن لها حلًّا بهذا البحث؟!

لأني إخالني على أرض بها كل شيءٍ مُسخرٍ للإنسان الذي أوجده الله تعالى، وعلى هذه الأرض أناسٌ يعيشون شعوباً وقبائل، حضراً وبدواً، روماً وفرساً، عرباً وعجماً، هم بين رحى السلم والحرب، والغنى والفقر، والعدل والظلم، ضعيفهم مسلوب الحق، قويهم همه الأخذ، يفنى جيل الآباء وتبقى عاداته يتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل، فلا يخرجون عن تلكم العادات قيد أنملة، غُيب العقل عَنوة، وأُهملت الفطرة قسراً.

ما أن يجتمعوا حتى يفترقوا، يدين غالبهم بآلهة عدة لتقربهم إلى الإله الأعظم زلفى، فإن هاج البحر، واضطربت الحياة لجؤوا إليه، يعرفون بأن

---

(١) بارتيملي سانت هيلير. B.St.Hilaire, Mahomet et le Coran, P. XXXIV نقلاً عن الدين: د/ دراز، ص ٨٣.

لهذا الكون خالقاً ومدبراً، لكنهم لا يعرفون الطريق إليه، يجهلون كيفية الوصول إليه، لا يعرفون المصير الذي يؤولون إليه بعد هذه الحياة، عقولهم توقفت عن اكتشاف ما وراء هذه الحياة، لا تستطيع معرفة ما وراء الطبيعة، فهو في حيز العدم بالنسبة لهم.

إنَّه لغزٌ يحتاج لإجابة، يحتاج لبحثٍ مدعوم بالدليل، عله يشبع نهمة العقل السؤول!

فهو لا يتصور أن الذي خلق هذا الكون وأوجده وأحكمه وخلق هؤلاء الناس وسخر لهم ما في السماوات والأرض أن يتركهم سُدى! فهم لا يعرفون شيئاً عن تفاصيل صفات خالقهم، ولا يعرفون وصف الطريق إليه، ولا يعرفون مآلهم إلى أين ! ويجدون ضرورةً ملحةً للجوء إليه.

فما السبيل إلى معرفة الإله ؟! وكيف الطريق إليه ؟!

فنحن بين أمرين لا ثالث لهما:

إمَّا أن يترك الله الناس دون أن يبين لهم الطريق إليه.

وإمَّا أن يبين لهم الطريق بأقوى الأدلة والبراهين التي لا تدعُ مجالاً للشك فيها، فحينما يسير الناس في هذا الطريق يكونون على يقين به.

والأمر الأول محال تصوره، ولئن تصوره العقل مرةً فلن يسلم لهذا مطلقًا، وإن قال به فردٌ فلن تجمع على القول به أمةٌ، بل هو خلاف المعقول.

فلم يبقَ إلا الأمر الثاني، وهو ممكن، متحقق، يستطيع العقل تصوره، وقبوله.

ليعود اللغزُ من جديد ما هو الطريق إلى الله تعالى؟! ما هو الطريق الذي يجيب على كل تلك الألغاز التي تستحث العقل ؟!

إنَّ الطريق التي توصل الناس إلى الله تعالى لمعرفة صفاته، وحكمه وشرعه، ومآل الناس لا تكون إلا عن طريق الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله، وأيدهم بآياته، إذ الطريق إلى الله تعالى لا بد من أن تكون مبنية على اليقين الذي لا يخالطه شك، كي لا يرتاب السائر في طريقه لربه، فكما أن الله أحكم هذا الكون خلقاً وتدبيراً، فكذلك أحكم الدين شرعة ومنهاجاً، ليعبد العبد ربه على بصيرة منه، فكمال الشريعة وبقاؤها دليل على كمال وبقاء مُشَرِّعها، ومن اعترف بأنَّ للعالم خالقاً حكيماً فليعترف بأنه آمر ناهٍ حاكم على خلقه.

فالتأله لا يكون قاصراً على خلق الكون وتدبيره بل هو يشمل التشريع والحكم أيضاً، لإشباع تلكم النزعة الإنسانية من التدين، التي لا يسدها إلا الخضوع للإله المعبود، الذي لا يُدرك بالمحسوس.

فإن كان المسافر يحتاج إلى خِرّيتٍ يهديه للطريق دلالة وتوجيهاً كي يصل، وإلى بوصلة تحدد له مسار الاتجاهات كي يواصل، فإننا بحاجة ماسة إلى الأنبياء والرسل الذين يبينون لنا الطريق إلى الله، يجيبون على اللغزِ الذي يستحث العقول!

ولا يوجد طريقٌ بيّنٌ واضحٌ مثل طريقهم، ولا أدل على ذلك من دلالة القرآن، قف معه بتجرد، خالياً، فرداً، تأمله، تدبره، أعد النظر فيه مراراً، ابحث فيه، ستجد ما يدلك، ويطمئنك.

وعلّي في هذه الصفحات أجوب بفكر القارئ في دلالات القرآن على صدق نبوءة النبي محمد ﷺ باستحالة صدوره منه، لأنّ ثبوت الدين يقوم على ثبوت النبوءة، سيما نبوءة النبي الخاتم ﷺ، حتى يتبدد الشك باليقين، وتقوم الحُجَّة وتستبين المَحجَّة، فالإيمان بالنبوءة حقيقة

وجودية، وقضية تصديقية، تقوم على أدلة عقلية نقلية يقينية، إذ بثبوت صدقها يثبت الدين كله، لذا كان لزاماً علينا بيان دلالاتها.

فلدينا ها هنا مسألتان:

الأولى: البرهنة على إمكان النبوءة، والثانية: البرهنة على صدق نبوءة النبيﷺ واستحالة أن يكون القرآن منه، والمسألة الثانية متضمنة للأولى، إذ كيف أبرهن على صدق النبوءة ما لم تكن ممكنة، والرحلة في هذا البحث تدور في فلكها.

*****

مقدمات أساسية

أولاً: أهمية البحث وحدوده:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وليكون للعالمين نذيرًا، أحمده حمداً طيباً مباركاً، وأصلي وأسلم على نبينا محمد، خاتم النبيين، تركنا على محجّة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة.

وبعد:

أول سؤال يمكن أن يتبادر للذهن هو:

لماذا هذا البحث ؟!

ويمكنني الإجابة عليه:

بأنَّ الدين الإسلامي يحتوي على أصول المسائل والأدلة عليها، فلا تجد مسألة من مسائل الدين إلا وقد قام البرهان عليها بأدلة نقليّة وعقليّة،

لتقوم الحجَّة وتستبين المَحجَّة، فيكون التسليم لدين الله تعالى مبنيّاً على البراهين التي لا تدعُ مجالاً للشك فيها.

وإنَّ مِن أعظم الأدلة التي برهنت على مسائل الدين الإسلامي القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمدﷺ وحيًا، وهذا يتبين من خبر النبيﷺ حيث يقول: « مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكونَ أَكثَرَهُم تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1].

فالله تعالى بيّن للإنسان في القرآن سُبل المعرفة حتى لا يضل، فوضح المسائل ونبه للدلائل عليها، والتي منها مسألة النبوءة، حتى أنّ غير المسلمين يجدون في القرآن مصدراً هامّاً للمعلومات عن نبوءة محمدﷺ، حيث يوجد في القرآن البرهنة على صدق نبوءته؛ الأمر الذي يعد فريداً في تأريخ الأديان[2].

فدلالة القرآن على صدق النبيﷺ، وأنه وحي من الله تعالى أيّد به نبيهﷺ لا تتوقف على أدلة خارجة عنه على ضرورتها، بل هي دلالة ضمنية على أنَّه من عند الله تعالى، فهو آية برهنت على صدق نبوءة النبي محمدﷺ، فهو بهذا الدليل والمدلول معـًا، ودلالة التضمن هي من أقوى الدلالات، فهي قطعية يقينية لا يمكن الشك فيها، بخلاف دلالة الاستلزام التي يمكن القدح فيها من جهة الشك في نسبة التلازم بين أمرين متلازمين لحصول المغايرة بينهما، إلا أنَّه لا يمكن الشك في دلالة التضمن، لأن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب، (٤٩٨١)، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمدﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، (١٥٢).

(٢) ينظر: سيرة النبي محمد: كارين أرمسترونج ص ٧٩ ـ ٨٠.

الدليل حينئذٍ هو المدلول، وإذا انتفت المغايرة بين الدليل والمدلول استحال الشك في الدليل[1].

فتقرير مسألة النبوءات من القرآن هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية، وينبوع كل خير، وجماع كل هدى، فمعرفة الله تعالى بأسمائه الحُسنى، وصفاته العُليا، ومعرفة كمال شرعه، وأمره ونهيه، ومعرفة الجزاء المترتب على عبادته لا يمكننا معرفتها إلَّا من خلال الأنبياء، لذا كانت مسألة النبوءة وبيان أدلة صدقها من قضايا الوجود الكبرى، التي تُجيب على أسئلة الوجود والغاية، فهي من أهم مسائل الدين ودلائله، ذلك أنَّ الإيمان بنبوءة النبي محمد ﷺ هو أصل النجاة والسعادة، وبه تثبت نبوءة من قبله من الأنبياء، فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب.

فالأدلة التي تدل على صدق النبوءة ظاهرة بينة متنوعة، وهي من جِنْس أدلة الربوبية.

لذا جاءت صفحات هذا البحث تبحث في مسألة دلالة القرآن على صدق نبوءة النبي محمد ﷺ، لتقرير كثيرٍ من مسائلها وأدلتها.

ثانيـًا: هل الكتابة في أدلة صدق النبوءة ترف فكري أم ضرورة مُلِحّة؟!

إنَّ الكتابات في مسألة النبوءات هي بين مد المنهج المعرفي العقلاني، وجزر المنهج العرفاني الكشفي، فيمثل المتكلمون المنهج المعرفي العقلاني وهم الذين تولوا الرد على الملاحدة من غير تأصيل شرعي ينبني على أدلة النقل والعقل، حتى بدت من خلاله مصطلحات لم ترد في

(١) ينظر: المعرفة في الإسلام مصادرها ومجالاتها: د/ عبد الله القرني، ص ١٣١.

الكتاب والسنة ولم يستخدمها سلف الأمة تسببت في خلل كبير في فهم مسائل ودلائل النبوءة، كانت نتاج جدل المتكلمين لملاحدةٍ ظهروا في الساحة منكرين لمسألة النبوءة، فجاءت الردود على منكري النبوءات ردة فعل آنية، لم تكن مبنية على قاعدة التأصيل والتقعيد لمسائل ودلائل النبوءة، إضافة إلى الخلل المعرفي والمنهجي والمفاهيمي في قضية الاستدلال على كثير من مسائل العقيدة المتمثل في معارضة العقل للنقل التي تلوثت بها عقيدة المتكلمين إبّان حركة الترجمة لكتب فلاسفة اليونان، فحصر بعضهم أدلة النبوءة في الآية الكونية المشاهدة المحسوسة (المعجزة)، منكرين ما عداها من دلالات، وهي جهودٌ للمتكلمين في التصدي للرد على منكري النبوءات، تذكر فتشكر[1]، إضافة إلى خلل معرفي ومنهجي في مسألة النبوءة وأدلتها، ومخالفة منهجهم المعرفي مسائل العقيدة الأخرى، ما أحدث خللاً منهجيّاً ومعرفيّاً لديهم، لا يمكن تقرير مسألة النبوءة وأدلتها من خلاله.

كما يمثل هذا المنهج الذين انبهروا بمنهج الغرب المادي العلمي التجريبي الحسي النقدي، فقاموا بتطبيق المنهج برمته من جهة الاستدلال والنقد، الذي يستند على أنَّ المعرفة هي للحس والمشاهدة فقط، وما عدا ذلك لا يمكن الإيمان به، فأمور الغيب هي ضربٌ من ضروب الأساطير، لأن الحس لا يدركها كما أنها غير مشاهدة، ومن ذلك مسألة النبوءة وأدلتها، وقابلهم البعض في تطبيق الجانب العلمي التجريبي للمكتشفات

---

(١) من أمثلة ذلك كتاب تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار لم يتنفس فيه بالاعتزال إلا قليلاً، ورد فيه على منكري النبوءة، والإمامية، واعتمد على منهج الاستنباط من آيات القرآن على أدلة النبوءة وهو ذاته منهج د/ محمد دراز في النبأ العظيم.

الحديثة والاستدلال بها على مسألة النبوءة، وهذا المنهج فيه خلل معرفي يعترض تقرير مسألة النبوءة وأدلتها من خلاله.

وهناك من حاول تطبيق المنهج العقلي المادي النقدي على القرآن الكريم وفق منهج تلفيقي إسقاطي، محاولاً إعادة قراءة القرآن الكريم بمسائله ودلائله وفق ما أسموه أرخنة وأنسنة النص ليصبح الإنسان معياراً لكل شيء، بهدف زحزحة الجانب الغيبي عن مسألة النبوءة وأدلتها، حيث تصبح النبوءة فيه رأسية لا أفقية، وهذا يعني زحزحة المفهوم الغيبي الإلهي من النبوءة، فهو منهج يقوم على إنكار إلهية القرآن الكريم، وإنكار النبوءة عمومـًا ونبوءة النبي ﷺ خصوصـًا تلميحـًا وتصريحـًا، وهو ذاته منهج المشركين والكفار منكري نبوءة النبي ﷺ قديمـًا، إلَّا أن المنطلقات الفكرية تتباين بين الفريقين.

إضافة إلى ما انتهت إليه الأدبيات الجدلية الاستشراقية التي أنتجها الباحثون رجال اللاهوت من اليهود والنصارى من خلال دراساتهم لترجمة معاني القرآن وسيرة محمد ﷺ من أن القرآن محرّف ومزيف لأنه لا يتفق مع عقائد اليهود والنصارى المحرّفة والتي كانت عُمدة أدبياتهم، فتم تسليط الضوء على أن القرآن ليس وحيـًا أصيلاً من الله، وعليه لا يمكن أن يكون محمد ﷺ نبيّـًا، وأصبحت هذه الأدبيات أنموذجـًا يكرر ويستجر لأدبيات حداثيي العرب ومن نحا نحوهم[1].

وأصحاب المنهج العرفاني والكشفي يُغيب عندهم الاستدلال بالعقل بالكلية، مما يفضي لانسحاب الدلالة على الخرافة والدجل من الروايات الموضوعة والمختلقة، فالنبوءة لدى بعضهم مكتسبة، وهي في

---

(١) ينظر: تاريخ الاستشراق: زكاري لوكمان ص ٧٦ ـ ٧٧، ص ٨٣ ـ ٨٤، ص ٩٩.

استمرار دائم، ناقض في حقيقته ختم نبوءة النبي ﷺ، وهو منهجٌ لا يمكن أن تقرر عليه مسائل النبوءة وأدلتها.

فالكتابة في النبوءات نشأت في أرحام ردود غير مؤصلة، ولم تبنَ على منهجٍ سليم، فنتج عنها مسائل ودلائل خِداج، كما كانت بعض الكتابات ضمن حملات تهدف إلى محاربة الإسلام، فأفرزت كتابات مشوهة، مما حدا بمنكري النبوءات إلى التهكم والاستطالة على النبيﷺ بين فينة وأخرى للتشكيك في مسائل الدين بشكل أو بآخر، وحدا بآخرين إلى الخروج عن دائرة الشرع بدعوى التنوير العقلاني !!

لذا رأيت الكتابة عن موضوع مهم في بابه، ضروري في مسائله ودلائله، لأنه يتعلق بالإجابة على الأسئلة الكبرى للوجود والغاية، والتي تُعنى بالإنسان، حيث لا يفتأ يبحث عنها للإجابة عليها، فالكتابة في الموضوع باتت ملحة، فهي لا تعد ترفـًا فكريـًا بقدر ما هي محاولة ومساهمة بحثية لقضية معرفية وجودية علَّ الله أن ينفع بها كاتبتها وقارئها.

ولمَّا كان القرآن هو أظهر وأقوى آية على صدق النبيﷺ وجب على كل باحثٍ عن الحق استخراج دلالاته العقلية للبرهنة على صدق نبوءة النبي ﷺ وفق منهج علمي شرعي مؤصل، يبتغي الحق وإظهاره لأنه أحق أن يتبع.

ثالثـًا: مسارات البحث:

لقد سار البحث وفق فصول جاءت على الترتيب الآتي:

الفصل الأول: النبوءة المفهوم والدلالة، عرّفتُ فيه بمفهوم النبوءة والدليل، وبرهنتُ على إمكان النبوءة، وبينتُ العلاقة بين مسألة النبوءة

ومسائل العقيدة، وجليتُ منهج القرآن الكريم في عرض النبوءة وأدلتها.

الفصل الثاني: دلالة اتصاف النبيﷺ بالكمال الأخلاقي على نبوءته، بيّنت فيه دلالة اتصافه بكمال الصدق وانتفاء الكذب والخيانة عنه.

الفصل الثالث: دلالة الأمية على نبوءة النبيﷺ، وضحت فيه معنى الأمية والأدلة عليها.

الفصل الرابع: دلالة الكمال التشريعي لرسالة النبيﷺ على نبوءته، جليت فيه علاقة مضمون الرسالة **والعقل** والفطرة، وبين رسالة النبيﷺ والأنبياء السابقين، والرسالة والعلم والحقائق الكونية.

الفصل الخامس: دلالة إكثار النبيﷺ من الإخبار بالغيوب على نبوءته من جهة الإخبار عن أمور غيبية مستقبلية، والإخبار عما يسأل عنه النبيﷺ، والإخبار عن الأمور الماضية.

الفصل السادس: دلالة النظم والأسلوب وعدم مقدرة الخلق على الإتيان بمثله على نبوءة النبي ﷺ، وبينت فيه المفارقات بين أسلوب القرآن ونظمه وغيره، ووضحت موقف قريش.

الفصل السابع: دلالة عتاب النبيﷺ على نبوءته، عرفت بالعتاب ثُمّ بينت آيات عتاب النبيﷺ.

الفصل الثامن: تأخر نزول القرآن مع مسيس الحاجة إليه، وتبين في حادثة الإفك، وفي تحويل القبلة، وفي الإجابة على سؤال أهل مكة، وفي بيان الآيات المجملة، وفي صلح الحديبية، وفي قصة المجادلة.

ويمكن أن يكون تقسيم الدلالات على نحو مجمل: المسلك الشخصي، والمسلك النوعي، إلا أنني رأيت إفراد كل دلالة في فصل مستقل لأنه الأفضل من وجهة نظري من جهة تنوع دلالات النبوءة على ما سيأتي تفصيله في ثنايا البحث بإذن الله تعالى فالقرآن أشار إلى دلالات عدّة ومتنوعة، وهذا يستحثُّ العقل لاستنباط الأدلة التي لم ترد في هذا البحث، كما أنه يعسر الفصل بين المسلك النوعي والشخصي للتداخل بينهما، إضافة إلى أن هذا التقسيم لا دليل ينُص عليه، وهو اجتهاد من علماء أجلاء، لذا اجتهدت في تقسيم مسارات البحث على نحو ما ذكرت سابقاً... فإنْ أصبت فهذا من فضل الله وحده، وهذا ما قصدت وأردت، ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]، ولا حرمني المولى أجر الاجتهاد وأجر الإصابة ، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان ، وأستغفر الله من خطأ لم أتعمده، وزلل لم أتقصده، وأسلي نفسي بأن لي أجر الاجتهاد.

وفي النهاية كانت الخاتمة والتي ذكرت فيها أهم النتائج، وأبرز التوصيات التي توصلت إليها من خلال دراستي.

رابعًا: منهجية الكتابة في البحث:

ثمة مناهج عدّة عوَّلت عليها في كتابة هذا البحث منها:

المنهج الاستقرائي لاستقراء أدلة النبوءة من القرآن الكريم، واستقراء الكتب المدونة في ذلك، فقمت باستقراء القرآن الكريم مراراً وتكراراً، لأتتبع دلالاته على النبوءة ونبوءة النبيﷺ، واستقراء الكتب التي دونت في النبوءة وأدلتها استقلالاً، أو ذُكرت ضمن مصنفات أخرى.

والمنهج التحليلي لبيان وجه الدلالة، ولتحليل كثير من مسائل الدراسة والربط بينها.

والمنهج النقدي بشقيه الإيجابي والسلبي الإجمالي لتجلية كثير من مسائل الدراسة.

والمنهج التأريخي لتتبع أصول المسائل والدلائل.

والمنهج الفيلولوجي لتتبع المعطيات الفكرية حول مفهوم النبوءة.

ولقد صنفت الآيات بعد التأمل والاجتهاد لأبرز دلالات القرآن على نبوءة النبي ﷺ حتى لا يتشتت البحث، والتي يمكن من خلالها البرهنة على صدق نبوءة النبي ﷺ لمنكري النبوءات، مبينة وجه الدلالة، مشيرة إلى مَن أثبتها أو نفاها أو استشكلها، مجملة الرد عليه، وفي الإشارة كفاية حتى لا تتشعب مسائل البحث؛ إذ هدف الدراسة تجلية وإبراز دلالات القرآن على نبوءة النبي ﷺ.

ولقد اعتمدت على الروايات الصحيحة في دراستي هذه، لأن فيها غنية وكفاية للبناء المعرفي المؤصل، ولابد من تطبيقه.

ولا يعني هذا أني استوعبت كافة الدلالات القرآنية على صدق نبوءة النبي ﷺ، وإنما اجتهدت وبذلت قصارى جهدي، وكامل قوتي، وباب البحث مفتوح لكل باحث عن الحق، فدلالات القرآن لا تنقضي، وقد يفتح الله على غيري وهو من فضل الله علينا.

فاللهم أرنا الحق حقّاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تلبسه علينا واجعلنا للمتقين إماماً.

وأتوجه بالشكر والتقدير إلى فضيلة الشيخ أ. د/ خالد الدريس الذي مكّن لهذه الدراسة أن تخرج في حلتها للناظرين، فالله أسال أن يجزيه عني خيراً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

همسة:

أسعد بملاحظاتكم القيمة التي تفتق المعرفة، فحب المعرفة لا ينضب، على البريد الإلكتروني: syalbadry@gmail.com

الباحثة...

الفصل الأول

النبوءة المفهوم والدلالة

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بمفهوم النبوءة والدليل

المبحث الثاني: الأدلة العقلية على إمكان النبوءة

المبحث الثالث: العلاقة بين مسألة النبوءة ومسائل العقيدة

المبحث الرابع: منهج القرآن الكريم في عرض النبوءة وأدلتها

المبحث الأول

التعريف بمفهوم النبوءة والدليل

ويشتمل على ستة مطالب:

المطلب الأول:	مفهوم النبوءة (التعريف. الدلالة. النشأة)
المطلب الثاني:	مفهوم الدليل ومرادفاته (التعريف والتدليل)
المطلب الثالث:	التعريف بالقرآن (تنبيهات ضرورية)
المطلب الرابع:	النبوءة وأدلتها (مفارقات منهجية)
المطلب الخامس:	النبوءة وأدلتها (خصائص وسمات)
المطلب السادس:	مصطلح المعجزة والإعجاز (الإشكاليات المنهجية)

المطلب الأول

مفهوم النبوءة (التعريف[1] - الدلالة - النشأة)

أولا: بين النَّبأ والنبا:

في اشتقاق لفظ النبوءة والنبيّ من جهة اللُّغة قولان:

القول الأول: أنَّ مصدره (نبَأَ) بالهمز؛ وهو الخبر، يُقال: نبأ وأنبأ: أيْ أخبر، والنبيُ مَن أنبأ عن الله، أيْ أخبر عنه، لأنه يُخبر عن الله تعالى، ومُخْبَر من الله تعالى، ويُقال نبأ على القوم إذا طلع عليهم وظهر، و(النبيء) المكان المرتفع، لرفعة قدر النبي وظهور نبوءته، والنبيء الطريق الواصل والموصل والمعرف بالله تعالى؛ إذ الأنبياء هم طرقٌ للهداية وللسعادة[2]، والمعنى هُنا يبين الحقيقة والماهية.

القول الثاني: أنَّ مصدره من (نبا) بدون همز، مأخوذ من النَّبْوَة والنَّبَاوَة وهي المكان المرتفع، والنبي العلم من أعلام الأرض التي يُهتدى بها،

---

(١) مقصود الحدود والتعريفات: هو تصوُّر المحدود والمُعرَّف، والتميز بينه وبين غيره؛ لأنه لا يصِحُّ الحُكْم على الشيء قبل تصوُّره، ولذا أجمع العلماء على أنه لا يجوز حدُّ المحدود بغيره، بل لا يُحَدُّ إلَّا بنفسه؛ وما وضعت الحدود إلا لإقامة الحدود بين المعاني المختلفة، حتى لا يبغي بعضها على بعض، ينظر في أهمية معرفة الحدود والتعريفات: الواضح في أصول الفقه؛ لابن عقيل (١/ ١٣-١٥)، ودرء تعارض العقل والنقل؛ لابن تيمية (٣/ ٣١٩-٣٢١)، والتوضيح والبيان لشجرة الإيمان؛ لابن سعدي ص٨٩.

(٢) ينظر: تهذيب اللغة؛ للأزهري (٥/ ٢١٦)، ومقاييس اللغة؛ لابن فارس (٥/ ٣٠٨)، والصحاح؛ للجوهري (١/ ٧٤)، والقاموس المحيط؛ للفيروز آبادي (١/ ٦٧)، ولسان العرب؛ لابن منظور (١/ ١٦٢) مادة (نبأ).

ومنه النبي لارتفاع قدره وشرفه على سائر الخلق[1]، والمعنى هُنا محصور في الرفعة والأفضلية.

والأظهر أنه مشتق من النبأ بالهمز، للأسباب الآتية:

١ـ إجماع العرب على أنَّ أصل اشتقاق كلمة النبي من (نبأ) بالهمز، وليس من النبوة والنبا[2].

٢ـ كلمة النَّبأ بتخفيف الباء في القرآن ومشتقاتها إنما وردت بمعنى الخبر الذي به فائدة عظيمة يحصل به العلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧] ، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التغابن: ٥]، وقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [إبراهيم: ٩]، وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٠]، وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]،وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧]، وقال: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢].

وكلمة نبّأ وأنبأ بتشديد الباء وتضعيفها تنبه على تحقق الخبر ووقوعه من قبل الله تعالى، وهي أبلغ[3]، يقول تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، ويقول تعالى عن الخضر حين قال لموسى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ

---

(١) ينظر: القاموس المحيط (١/ ١٧٢٣)، وتهذيب اللغة (٥/ ٢١٦)، ومقاييس اللغة (٥/ ٣٠٧)، ولسان العرب (١٥/ ٣٠١) مادة (نبا).

(٢) ينظر: المخصص ؛ لابن سِيْدَه (٣/ ٤٧٤)، (٤/ ٤٢٢).

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن ؛ للراغب الأصفهاني ص ٣٤١.

﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، ويقول تعالى في قصة يوسف: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] ، ويقول تعالى عن يوسف: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف:٣٧]، ويقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١]، ويقول تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

والخبر يدل على خاصة النبوءة بخلاف غيره، لأنَّ النبوءة تتضمن الخبر.

٣ـ أنَّ معنى العلو والرِّفعة المأخوذ من (النبا) داخلٌ في معنى (النبأ)؛ فمَن أنبأه الله وجعله مُنْبِئًا عنه لا بد أن يكون رفيع القدر عَليًّا، كما أن العلو والرفعة لا يدل على خصوص النبوءة، فقد يوصف به مَن ليس بنبي؛ وبهذا جزم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ إذ يقول: (فيجب القطع بأن النبي مأخوذ من الإنباء لا من النبوة)[1]، فنبأ شامل لمعانٍ عدة تدل على النبوءة.

٤ـ إنَّ ترك الهمز المقصود منه التخفيف[2].

---

(١) النبوات (٢/ ٨٨٣)، وينظر من الكتاب أيضاً: (٢/ ٨٨١ـ٨٨٣)، والإرشاد؛ للجويني ص ٣٠٢.

(٢) ينظر: الحجة في القراءات السبع؛ لابن خالويه (١/ ٨٠)، والنشر في القراءات العشر؛ لابن الجزري (٢/ ٢٥٨)، والنبوات (٢/ ٨٨١).

وقد يُعترض على هذا الترجيح في أصل اشتقاق النبوة برواية تروى عن النبيﷺ أنه قال: «أنا نبي الله ولست بنبيء»[1]؛ فيقال: في هذه الرواية إثبات اشتقاق كلمة نبي من نبا بلا همز، ونفي اشتقاقها من الهمز نبأ.

وهذه الرواية يستدل بها مَن قال بأن نبي مشتقة من النبا أي النبوة.

ويمكن الرد على هؤلاء بأن هذه الرواية لم تثبت عن النبيﷺ، وعليه فلا يمكن الاحتجاج بها[2].

وبما أن أصل اشتقاق كلمة النبي من (نبأ) بالهمز؛ والنبوءة تتضمن الخبر، وهي مشتقَّة من الإنباء أي الإخبار عن الله (الغيب) ـ كما سيأتي تفصيله في النقطة التالية ـ، وللأسباب السابقة الذكر، لذا اعتمدت كلمة النبوءة في هذا البحث برمته، تفعيلاً للمفهوم.

ثانيًا: النبوءة والغيب (المصدر والمرتكز)

إنَّ النبوءة مشتقة من الإنباء أي الإخبار عن الغيب (الله)، فالله يُنبئ (يخبر) النبي بأمره ونهيه وشرعه، بواسطة جبريل، والنبي(يُنبئ) يخبر الناس بما نبأه الله به من الأمر والنهي والشريعة[3]، وطريقة إخبار الله تعالى لجبريل، وإخبار جبريل للنبي ﷺ غيبية عنّا، وإنْ رأى الصحابة رضوان الله عليهم آثار ذلك على جسد النبيﷺ فإن هذا لا يقدح في صدق النبوءة، فثمة فرق بين طريقة وصول الوحي للنبيﷺ فهذا غيبي لا سبيل لنا إلى معرفة كيفيته، وبين البرهنة على صدق الوحي، فهذا ممكن.

---

(١) أورده الحاكم في مستدركه (٢/ ٢٣١)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٨١)، وضعَّفه الألباني ؛ ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١٢/ ٥٤٧) برقم(٥٧٥٩).

(٢) ينظر: النبوات (٢/ ٨٨٢).

(٣) ينظر: نهاية الإقدام ؛ للشهرستاني ص ٤٢٨ ؛ ودرء تعارض العقل والنقل؛ لابن تيمية (١/ ١٧٩)، والنبوات له (١/ ٢٣)، (٢/ ٧١٤).

فها هنا أربعة أركان أساسية يحتوي عليها مفهوم النبوءة والرسالة، ولا يمكن أن يتصور المفهوم بدونها، وهي:

١. المُخْبِر، المُنَبِئ، المُرْسِل، (الله).
٢. المُخْبَر، والمُنْبَأ، والمُرْسَل (النبي).
٣. المضمون، النبوءة، والرسالة (الشريعة ـ الدين) المُنزلة.
٤. الواسطة.

فالله يُنبئ النبي بما يريد أن يبلغه عنه من الشرع، وقد يكون بواسطة، أو بدون واسطة، والواسطة بين الله تعالى وأنبيائه هي جبريل أمين الوحي، والنبي يخبر بما نبأه الله به، وأوحاه إليه، ومضمون النبوءة وهو دين الله المنزل وشرعه المحكم، فقوام النبوءة الوحي وهو الإخبار والإعلام والإنباء من الله لأنبيائه، فالنبي يخبر عن ربه، فالمصدر الوحيد للوحي الذي يرتكز عليه مفهوم النبوءة هو الله تعالى، وتتضح هذه الحقيقة جليّاً في قول الحق جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الشورى: ٥١]، فمصدر الوحي هو الله، وهو الذي يحدد طريقته ومضمونه وطبيعته ووقته وزمانه ومكانه، فالنبي يبلغ ويخبر ويُنبِئ بما أوحى الله إليه، دون أيّ تدخل منه، تأمل الآيات التي برهنت على هذا في أكثر من موضع من القرآن الكريم لتجلية هذه الحقيقة، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، ويقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، ويقول: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، ويقول: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[الرعد:

٤٠]، ويقول: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، ويقول: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، ويقول: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ويقول: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ويقول: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧]، ويقول: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ويقول: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، كل هذه الآيات تبين أن النبي ﷺ مُبلغ عن الله، أي لا بد من جهة غيبية خارجة عن النبي ﷺ.

وبهذا المفهوم للنبوءة يتأكد البعد الرأسي لها من الله إلى النبي، والبعد الأفقي من النبي للناس، ولا يمكن أن تعتمد على بعدٍ واحدٍ، لأنه لا يمكن لمفهوم النبوءة بحال من الأحوال أن تكون من ذات النبي، ولا من مخيلته، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكتم النبي ما نبّأه الله به(١).

مما سبق يتبين لنا أن مفهوم النبوءة مرتكز على الجانب الغيبي (الميتافيزيقي)(٢)،من جهة خبر النبي عن الله تعالى، ومن جهة طريقة وحي الله لنبيه، وهي ترتكز على البعد الرأسي والأفقي معًا.

---

(١) هناك من يزعم أن النبوءة مستمرة عند الأئمة والعارفين، لكن يجب كتمانها، ينظر: بسط التجربة النبوية ؛ د. عبد الكريم سروش ص ١٤٩.

(٢) الميتافيزيقا: معرفة ما غاب ولا يقع تحت الحواس. ينظر: موسوعة لالاند الفلسفية (٢/ ٧٩٠).

ثالثاً: النبوءة والدين (المصدر والمرتكز)

بين مفهوم (النبوءة) و(الدين) ارتباط وثيق من جهة إلهية المصدر، فالدين يرتكز على الجانب الإلهي الذي يتسم بالغيب، حيث لا يقف عند المحسوس، فعبادة الأصنام تهدف إلى الوصول للإله الأعظم الذي لا يُرى، وما هياكل الأصنام إلا رمزٌ لتلك القوة الغيبية للإله كما يتوهمون إضافة إلى أن الخضوع الديني يهدف إلى تقديس ذات ليست هي مثل الذوات المحسوسة بل هي متصفة بالعظمة، وهذا الذي يميز الديني من اللاديني، فالغريزة الدينية لدى الإنسانية تهتم بالمعنى الإلهي، وبما هو فوق الطبيعة، وهذه إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية، وستبقى الحاجة للدين ما بقيت الإنسانية، فالدين لا يجعل من الإله مبدأ تدبير فعال فحسب، بل هو مصدر حُكم وتشريع في الوقت نفسه، وهذا هو الإله المعبود بحق[1]، فأي دين لابد فيه من إله، ومَن يقل بوجود دين بلا إله يقترف خطأً نفسيّاً جمعيّاً أساسيّاً، فالوصف المشترك في الأديان هو الغيب[2]، والأديان جميعاً تتعلق بحقيقة متعالية قصوى، يختلف تفسيرها لكنها حقيقة لا يمكن إنكارها، ففي الأديان التوحيدية يطلق على هذه الحقيقة المتعالية اسم (الله)[3].

---

(١) ينظر: الدين: د/ دراز، ص٥٢، وص٨٢-٨٣، وص٤١-٤٢، وص٥٦.

(٢) ينظر: روح الحقائق: جوستاف لوبون ص ٢٣، ٢٥.

(٣) ينظر: سيرة النبي محمد: كارين أمستورنج ص ٢٣.

ولو أردنا أن نبحر في مفهوم النبوءة من جهة ارتكازه على الغيب في الأديان دون تحديد لمصدر هذا الغيب بشكل تأريخي[1]،فسنجد أنه موجودٌ في:

* الديانات الوضعية، كالديانة المصرية، وعند بعض العرب حيث رُبِط مفهوم النبوءة بالكاهن الذي يتنبأ عن المغيبات في المستقبل ليخبر بها، كما أنه رُبِطَ في أديان الشرق وعند الإغريق بالعرَّاف الذي يتنبأ عن الأمور الغيبية ليخبر بها[2].

يُلاحظ هنا أنّ مفهوم النبوءة ارتكز على الغيب، ومعرفة صحة التنبؤ من كذبه، وهذا ما يحتاج لبرهنته وتجليته.

* الديانات التي لها أصل إلهي ثم حرفت، كاليهودية والنصرانية، فمفهوم النبوءة عند اليهود الإخبار بالغيب[3]، وهي التحدُّث نيابة عن الإله[4]، أو هي المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر عن شيء

---

(١) الهدف من هذا السرد التأريخي هو إزالة اللبس للقائلين بنزع الغيب عن مفهوم النبوءة.

(٢) ينظر: النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ ؛ د. علي مبروك ص ٦٠ ـــ ٦٢، وص ٦٨ ـــ ٧٨، تاريخ الفلسفة الغربية ؛ لبرتراند رسل (٢/ ١٩).وفي الفرق بين النبي والكاهن يراجع: الفصل الخامس: كمال الشريعة من هذا البحث، حيث جليت الفرق بينهما هناك.

(٣) ينظر: قاموس الكتاب المقدس ص ٩٤٩، وشبهات وهمية حول الكتاب المقدس: د/ القس منيس عبد النور، ص ٣٢، وص ٣٦، ودلالة الحائرين ؛ لموسى بن ميمون، ص٤٠٠ ـــ ٤٠٤، وهو يجعل مصدر الإخبار بالغيب متعدداً، وما يهم في تعريفه هو إثبات أن النبوءة من خارج النبي، أي إثبات الجانب الغيبي. وينظر: سفر التكوين ٤٩:١، وسفر العدد ٢٤:١٤.

(٤) ينظر: سفر الخروج٧ : ١، ٤:١٦.

ما[1]، (فهي الإخبار عن الله وخفايا مقاصده وعن الأمور المستقبلية، ومصير الشعوب، والمدن، والأقدار، بوحي خاص منزل من الله على فم أنبيائه المصطفين)[2]، فهدفها الأساسي توصيل كلمة الله للناس متضمنة التبصير والتحذير[3]،

إلّا أن مفهوم النبوءة لدى اليهود طرأت عليه تغيرات حادت به عن حقيقته، ففي عصر السبي البابلي تحوَّر مفهوم النبوءة من نبوءة إخبار إلى نبوءة رؤى بحثاً عن الخلاص[4]، فالنبي هو كل شخص أظهر شجاعته من أجل بناء دولة عبرية[5]، فتحوَّل مفهوم النبوءة في اليهودية إلى طابع قومي سياسي مغلق[6].

ومفهوم النبوءة لدى النصارى هي عطية المسيح، وقد أعلن المسيح أنه سيرسل أنبياء[7]،لقد تحول الوحي الإلهي في النصرانية إلى الوحي المتجسد في المسيح عيسى عليه السلام فالآيات التي يؤيد الله بها أنبياءه الصادقين لابد أن تكون من ذات النبي لا خارجة عنه[8]، وعلى هذا فالإنجيل ليس هو كلام الله تعالى، وإنما هو الخبر السار لإعلان محبة الله

---

(١) ينظر: المعتقدات الدينية لدى الغرب ؛ لعبد الراضي عبد المحسن ص ٢١٤ــ ٢١٥، وص ٣٩٣.

(٢) معجم الكتاب المقدس: ص ٩٤٩، وينظر: التفسير المعاصر للكتاب المقدس: دون فيلمنج ص ٣٣٩.

(٣) ينظر: التفسير النصي للكتاب المقدس ٢٤٥٢.

(٤) النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ ؛ د. علي مبروك ص ١٠٦، وقاموس الكتاب المقدس ص ٩٤٩. ٩٥٠، والتفسير النصي ص ٢٠٦٩.

(٥) ينظر: قاموس الكتاب المقدس ص ٩٥٠.

(٦) ينظر: الأيدلوجية الصهيونية ؛ د. عبد الوهاب المسيري ١/ ٢٣٦.

(٧) ينظر: معجم الكتاب المقدس ص ٩٥١، ومتى ٢٣: ٣٤.

(٨) ينظر: شبهات وهمية حول الكتاب المقدس، ص ٣٣.

العظيمة بموت المسيح كفارة عن الخطيئة، حتى لا يهلك كل مَن يؤمن به منهم، وتكون لهم الحياة الأبدية[1].

ومن الملاحظ أن الغيب هو القاسم المشترك في مفهوم النبوءة لدى الجميع، مع التنبيه إلى الاختلاف الجوهري في مصدر ذلك الغيب، والبرهنة على صدق الخبر والمُخبِر.

يبدو أنه ظهر جليّاً بعد هذا السرد التاريخي الذي أطلت فيه لا لشيء إلا لتأكيد ارتباط مفهوم النبوءة والدين بالغيب، وأنها خارجة عن النبي ﷺ، لأنه على وضوح هذه الحقيقة إلا أن هناك مَن يحاول زحزحة الجانب الغيبي منها ليلغيها بشكل مباشر أو غير مباشر مما يؤدي إلى إنكارها.

رابعـًا: النبوءة (كواشف وزيوف)

لقد أكدت سابقـًا ارتكاز النبوءة على مفهوم الغيب أيْ أنها لا يمكن أن تكون من ذات النبي ﷺ البتة، لأن النبي يخبر عن الله، والله غيب عنه، ومضمون ما يخبر به النبي من شرع الله ودينه غيب عنه أيضـًا، وتحديد مكان النبوءة وزمانها ومضمونها كل هذه أمور خارجة عن النبي، ولا أحد يحدد هذا إلا الله تعالى الذي اصطفى الأنبياء من خلقه، فمحال أن تكون النبوءة منه.

وبهذا يُعلم بطلان مفهوم النبوءة القائل بأنها من خيال النبي ﷺ، وبأن الوحي صوت باطني يسمعه النبي ﷺ من داخله نتيجة لقوة حدسه، أو

---

(١) ينظر: يوحنا (١٦:٣)، وشبهات وهمية حول الكتاب المقدس، ص ٤١.

لعملية الاختزال الذهني الكبير عبر تردُّده على غار حراء، فهي تتطلب خيالاً خصباً فقط[1].

وبطلان القول بأن النبوءة لا تعدو أن تكون حالة إنسانية من الإنسان إلى الإنسان، ولا يصح أن تفهم على أنها ارتباط أو تواصل بين مُرْسِل (الله) ومُرْسَل (النبي)، ولو فرض نوع من هذا الاتصال فهو لمرحلة من عمر البشرية تجاوزها الإنسان، ثم يموت الإله على حدِّ زعمهم، فالنبوءة في نظرهم وحيٌ يتلقاه الإنسان من داخله، ذو طبيعة ناسوتية، وصفة دنيوية[2]، فهي ليست غيبية بل دنيوية حسية، فلا يهم مصدرها[3].

و على هذا خرج مفهوم النبوءة المعلوم لدى عموم المثبتين لجنس النبوءات عن حقيقته، فتم نزع المضمون الإلهي الغيبي، ليصبح تحديده لديهم (من أعسر ما يتصدى له الباحث، نظراً إلى أنه معنى متغير بتغير الأديان والثقافات والأزمنة)[4].

ولو بحثنا عن سبب نزع الجانب الغيبي من مفهوم النبوءة لوجدنا أنه إنكار للوحي أي الشرع الذي أوحى الله به لنبيه، وهو متضمن للأحكام

---

(١) هذه الشبهة أُثيرت قديماً على أيدي الفلاسفة ؛ ينظر: آراء المدينة الفاضلة ؛ للفارابي ص ٩٣ ــ٩٤، والسياسة المدنية له أيضاً ص ٤٩ــ٥٠، والفعل والانفعال ؛ لابن سينا ص ٣، والنبوة بين الفلسفة والتصوف؛ لعبد الفتاح الفاوي ص ١١٣، والعلمانيون والقرآن الكريم ؛ د. أحمد الطعان ص ٦٢٤، والتفسير الماركسي ؛ د. محمد عمارة ص ٥٥، وأُثيرت حديثاً على أيدي المستشرقين؛ ينظر: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر ؛ لمونتجمري وات ص ٥٣، وعلى أيدي الحداثيين العرب ؛ ينظر: مقدمات أولية ؛ للطيب تيزيني ص ٥٣٥، ومفهوم النص ؛ لنصر أبو زيد ص ٤٩، ومقدمة رسالة اللاهوت والسياسة ؛ لاسبينوزا: ترجمة حسن حنفي ص ١٣٤.

(٢) ينظر: نقد الحقيقة ؛ علي حرب ص ٦١، وأسئلة الشعر ؛ لأدونيس ص ١٤١.

(٣) مقدمة رسالة في اللاهوت والسياسة: د/ حسن حنفي، ص ٤٤.

(٤) الإسلام بين الرسالة والتاريخ ؛ لعبد المجيد الشرفي ص ١٦.

والأوامر والنواهي، بمعنى عزل الدين عن شؤون الحياة ليعيش الإنسان كما يريد الإنسان، وفق ما يمليه عليه عقل الإنسان، لم يتم التصريح علانية بتنحية الدين عن مناحي الحياة بل تم سلوك طريق طويل ملتوٍ يهدف لتحريك الأسّ الذي يقوم عليه الدين برمته وهو النبوءة.

لنا أن نتصور كيف ستكون الحياة في حينها ؟!

إنَّ إنكار النبوءة معناه حياة لا دينية، وما هذه الحياة إلا نسخة مصورة ومكررة ومستجرة من الحياة التي كان يعيشها الناس قبيل بعثة النبي ﷺ، ومن الحياة المادية التي لا تؤمن إلا بما هو مشاهد ومحسوس وملموس.

إنَّ صلاح الناس كان بعد بعثة النبي ﷺ، وهكذا يكون صلاح الناس في كل زمان ومكان، فالنهضة الحقيقية هي التي تهتم وتبحث عن تلكم الأسباب التي نهضت بالبشرية، والتنوير الحقيقي هو الذي يستضيء بنور الوحي ولا ينكره.

خامساً: خلاصة الخلاصة:

إنّ مفهوم النبوءة يرتكز على الغيب، ولا بد للنبي الصادق الذي يخبر بأنه نبي مُرْسَل من عند الله من دليل يبرهن على صدقه، لأنّ (النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على

أجهل الجاهلين)[1] لذا كانت النبوءة بحاجة للأدلة والبراهين التي تُبنى على اليقين.

فما الدليل وما مرادفاته؟!

هذا ما سأبحر فيه في المطلب التالي بإذن الله تعالى.

* * * * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز، (١/ ١٠٩).

المطلب الثاني

مفهوم الدليل ومرادفاته (التعريف والتدليل)

لقد ورد في القرآن الكريم مصطلح الدليل والآية والبرهان والسلطان والبينة والبصيرة والحجة حيال الاستدلال على مسائل النبوءات، فهي مفاهيم شرعية لا لُبس فيها، ولا غبار عليها، وسأجلي معانيها في الآتي:

أولاً: تعريف الدليل

الدَّلِيل الأمارة في الشيء، وهو ما يُسْتَدَلُّ به، والدَّلِيل الدَّالُّ وقد دَلَّه على الطريق يَدُلُّه دَلالة ودِلالة ودُلولة، وهو المرشد والهادي للمطلوب[1].

فالدليل ما يلزم من العلم به العلم بشيء آخر[2]، والاستدلال هو طلب الدلالة، ويكون بالنظر والروية، وقد يكون بالسؤال عنها، والمدلول هو مقتضى الدليل ونتيجته[3]، والدلالة بفتح الدال وكسرها هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول[4]، ويسمى الدال والدليل دلالة كتسمية الشيء بمصدره[5]، وهي ما يمكن الاستدلال به أو يتوصل بها إلى معرفة الأشياء كدلالة الألفاظ على المعنى[6]، سواء كان ذلك بقصد ممَن يجعله دلالة، أو لم يكن بقصد، كمَن يرى حركة الإنسان فيعلم أنه حي قال

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة (٤/ ٤٣٦)، ومقاييس اللغة (٢/ ٢٥٩)، ولسان العرب (١١-٢٤٧) مادة (دلَّ).

(٢) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون؛ للتهانوي (٢/ ٢٩٢).

(٣) ينظر: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد: د. سعود العريفي ص١٧.

(٤) ينظر: التعريفات ؛ للجرجاني ص ١٠٤.

(٥) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن ص ١٧١، والكافية في الجدل ؛ للجويني ص ٤٧.

(٦) ينظر: الفروق ؛ للعسكري (١/ ١٥٩).

تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾[سبأ: ١٤]، فالدلالة على الشيء ما يمكن لكل ناظر فيه أن يستدل بها عليه، كالعالَم لما كان دلالة على الخالق كان دالًّا عليه لكل مستدل به[١].

وبذا يعرف أن من سمات الدليل أنه يستلزم عين المدلول، ولا يكون أمراً كليّاً مشتركاً بين المطلوب وغيره، وفي هذا يقول ابن تيمية: (والدليل هو الذي يستلزم عين المدلول، لا يكون مدلوله أمراً كليّاً مشتركاً بين المطلوب وغيره، بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلول، كما أن الشمس آية النهار قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]؛ فنفس العلم بطلوع الشمس يوجب العلم بوجود النهار. وكذلك آيات نبوة محمد ﷺ نفس العلم بها يوجب العلم بنبوته بعينه لا يوجب أمراً كليّاً مشتركاً بينه وبين غيره. وكذلك آيات الربِّ تعالى نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى لا يوجب علماً كليّاً مشتركاً بينه وبين غيره. والعلم بكون هذا مستلزماً لهذا هو جهة الدليل؛ فكل دليل في الوجود لا بد أن يكون مستلزماً للمدلول، والعلم باستلزام المعين للمعين المطلوب أقرب إلى الفطرة)[٢].

ووجه الدلالة في الدليل هو من أهم ما ينبغي الاعتناء به، وطريق العلم به تكون بالنظر إلى ما تستلزمه الأشياء؛ فلابد من التلازم بين الدليل

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن ص ١٩١، كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٢٨٤.
(٢) الرد على المنطقيين(١/ ١٥١).

والمدلول حينئذٍ، (وسبيل العلم بوجه الدلالة في الدليل إنما هو سبيل العلم بوجه لزوم اللازم للملزوم ليس إلَّا)[1].

وقد يكون الدليل واحداً وله وجوه دلالة متعددة تدل على أمر واحد، وهذا مثل دليل القرآن؛ فقد دلَّ على صدق نبوءة محمدﷺ، تعددت وتنوعت فيه وجوه الدلالة، فهو من أعظم الآيات وأظهرها وأبقاها[2]. وهذا ما سأوضحه من خلال فصول البحث بمشيئة الله تعالى.

وعند التأمل في آيات الذكر الحكيم نجد أن الدليل ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾[الفرقان: ٤٥] وهو بمعنى الأمارة والعلامة[3]، وورد في قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:١٤]، وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه: ١٢٠]، وفي قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾[طه: ٤٠][4]، وهو بمعنى الهداية والإرشاد[5].

ولم يرد في القرآن الكريم لفظ الدليل بمعنى ما يستدل به على قضية النبوءة، وإنما ورد لفظ الآية والبرهان والسلطان والبينة والبصيرة حيال

(١) ينظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ؛ للرازي ص٧٠، والرد على المنطقيين (١/ ٢٠١ـ ٢٠٢)، وص ٢٥٢ ـ ٤٠١، والنبوات (١/ ٢٨٢ـ٢٨٤)، والأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ص٢٢.

(٢) ينظر: الجواب الصحيح؛ لابن تيمية، (٤/ ٤٨٠ـ ٤٨٤).

(٣) ينظر: تأويل مشكل القرآن؛ لابن قتيبة، ص ٣١٤، وجامع البيان؛ لابن جرير، (١٩/ ١٩).

(٤) ينظر كذلك: [القصص: ١٢]، و[الصف:١٠].

(٥) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٧٣ـ٧٤)، وتفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير، (٣/ ٥٢٩).

الاستدلال على قضية النبوءة، وهي ألفاظ شرعية صحيحة مرادفة للدليل[1]، وتعريفها كالتالي:

ثانيًا: تعريف الآية.

الآية هي العلامة والدليل والسلطان والأمارة[2]، وهي علامة ظاهرة تدل دلالة واضحة على الدعوى، وسُمِّيَتِ الآية من القرآن آيَةً لأنها علامة على الله تعالى[3]، وسميت دلائل صدق الأنبياء آيات لأنها علامات قاطعة على صدقهم[4]، ومن الآيات التي وردت في القرآن بهذا المعنى، قول الله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦ - ١٠٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] وقوله: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢] وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]، وقوله: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) ينظر: النبوات (١/ ٢٨٩).

(٢) ينظر: المحيط في اللغة؛ للصاحب بن عباد، (٢/ ٤٨٩)؛ ومقاييس اللغة: لابن فارس، (١/ ١٦٨)؛ ومفردات ألفاظ القرآن ص٣٣؛ والمحكم والمحيط الأعظم ؛ لابن سيده، (١٠/ ٥٩٤)، والكليات: للكفوي، (١/ ٣٢٢) مادة (آيَ).

(٣) ينظر: المحيط في اللغة (٢/ ٤٨٩).

(٤) ينظر: النبوات (١/ ٢٣٨، ٢٦٢ـ ٢٦٤).

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٤٨].

ثالثًا: تعريف البرهان

بَرهن يُبرهن بَرهنةً إذا جاء بحجة قاطعة لكبت الخصم، فهو مُبرهن، وهو الحُجة وبيانها، وهو أوكد للأدلة، ويقتضي الصدق واليقين أبداً لا محالة، فهو الحُجة الفاصلة البينة[1]، وقد ورد البرهان في ثمانية مواضع من القرآن، ومن ذلك تسمية آيتي موسى العصا واليد برهانيْن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣١-٣٢]، وهما دليلان واضحان على صدق موسى عليه السلام، وسمى الله تعالى نبوءة محمدﷺ برهانـًا لأن معه القرآن وهو النور المبين، وقد اشتمل على الدعوى والدليل[2]،قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١٧٤].

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة؛ للأزهري، (٢/ ٣٣٣)؛ ومفردات ألفاظ القرآن ص٤٥، ولسان العرب (١٣/ ٥١) مادة (بره) و(برهن).

(٢) ينظر: جامع البيان (٧/ ٧١٠)، ومعالم التنزيل؛ للبغوي، (٢/ ٣١٥)، وتفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٨١)، وتيسير الكريم الرحمن؛ لابن سعدي ص ٢١٧.

رابعًا: تعريف السلطان.

السين واللام والطاء أصل واحد يدل على التمكن والقوة والقهر[1]، ويطلق السلطان ويراد به الحُجة والبرهان، وكل سلطان في القرآن فهو حُجة، وإنما سُمي سلطاناً لأنه حُجة الله جل وعز في أرضه، ولذلك قيل للأمراء: سلاطين لأنهم الذين تُقام بهم الحجج والحقوق[2]، وقد جاء طلب السلطان من منكري النبوءة من أنبيائهم، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[إبراهيم: ١٠-١١].

خامسًا: تعريف البينة

بان الشيء بياناً أي اتضح وظهر فهو بيِّن[3]، وهي الأدلة والبراهين البينة في نفسها التي يتبيَّن بها غيرها[4]، وهي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة[5]،

وهي اسم لكل ما يبيِّن من الحق[6]، ووردت في القرآن بصيغة الإفراد كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٩٥).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة (٤/ ٢٥٥)؛ والقاموس المحيط؛ للفيروز آبادي، ص٨٦٧، ولسان العرب (٧/ ٣٢٠) مادة (سلّط).

(٣) ينظر: لسان العرب (١/ ٤٠٦).

(٤) ينظر: النبوات: لابن تيمية، (٢/ ٦٤٠).

(٥) ينظر: مفردات القرآن: للراغب، ص٦٨.

(٦) ينظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين؛ لابن القيم، (١/ ٩٠).

﴿لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[البينة: ١] أي لم يكونوا مهتدين حتى تأتيهم الحُجة الواضحة، أي النبي محمدﷺ آتاهم بالقرآن[1]، ووردت بصيغة الجمع بينات كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[غافر: ٣٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[البقرة: ٩٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [المائدة: ٣٢]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[آل عمران: ١٨٣].

سادساً: تعريف البصيرة

هي البُرْهان والحُجة، وأصل ذلك كلّه وُضُوحُ الشيء، يقال بَصُرْتُ بالشيءِ إذا صِرْتَ به بصيراً عالماً[2]، والبصيرة: اسم لما اعتقد في القلب من الدِّين وتَحقُّق الأمر[3]، وجمعها بصائر، وقد وردت في القرآن الكريم على صيغة الجمع، فبعد ذِكْر آيات موسى عليه السلام التسع يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[الإسراء: ١٠١-١٠٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[القصص: ٤٣]،

---

(١) ينظر: معالم التنزيل (٧/ ٢٧٧)، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣٧)، ومجموع الفتاوى ؛ لابن تيمية، (١٦/ ٤٨٣).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٢٥٣)، ولسان العرب (٤/ ٦٤).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة (٤/ ٢٠٢)، ولسان العرب (٤/ ٦٤).

وقوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٣]، وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾[الأنعام: ١٠٤]، وهي بمعنى الحُجج البينة والبراهين التي يُبصر بها ويستدل[1].

سابعًا: تعريف الحُجة.

الحُجة هي البرهان والدليل، وهي ما يدل على صحة الدعوى[2]، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾[الأنعام: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنعام: ١٤٩].

*****

---

(١) ينظر: مجاز القرآن؛ لأبي عبيدة، (١/ ٢٠٣)، وجامع البيان (١٢/ ٢٤).

(٢) ينظر: التعريفات؛ للجرجاني ص ٨٢.

المطلب الثالث

التعريف بالقرآن (تنبيهات ضرورية)

أولاً: القرآن الكريم الدليل والمدلول:

لقد برهن القرآن على صدق نبوءة النبي محمد ﷺ من جهة كونه أوحاه الله تعالى إليه، أي التأكيد على المصدر الغيبي الإلهي للنبوءة ودليلها، وتتجلى هذه الحقيقة في قول النبيﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ومما يبرهن على المصدر الغيبي للقرآن الكريم أنه منزل من عند الله، فمادة (نزل) تبرهن على مصدر النزول من جهة عليا غيبية إلى جهة أدنى منها، أي أن القرآن لا يمكن أن يكون من لدن النبي محمدﷺ، فلو كان منه فلماذا يقول (نزل)؟! ألا يوحي هذا بالتناقض؟! وهل سيسكت فصحاء العرب على تناقض مثل هذا؟! وهم أرباب اللغة العربية، وتتكرر مادة نزول القرآن في القرآن ولا أحد منهم ينكر عليه !! ولو تأملت كلامه الذي كان يقوله (الحديث) لم يذكر البتة أنه منزل من عند الله، فلفظه من النبيﷺ وإن كان المعنى وحياً من الله.

كما لا يمكن أن يكون القرآن من عند مخلوق بشري لأن فاعلية مادة (نزل) ستُلغى، كما أن في مادة نزول القرآن ما يستحثّ العقول على معرفة المُنزِل (الله) وصفات كماله، ومعرفة مثل هذه لا تتأتى إلا عن طريق النبي الذي يخبر عن الله تعالى بما أوحاه إليه.

ثانياً: تعريف القرآن بخصائصه.

حينما أردت أن أعرف بالقرآن الذي هو مادة هذا البحث في كتب السـلف، فإنني لم أجد فيها تعريفاً له، بحد يبين ماهيته، وكل ما ذكروه هو خصائص القرآن التي تميزه عن غيره، وتتبين فيها عقيدة السلف التي ترد على المخالفين، فيمكن أن يُعرف القرآن بأنه:

كلام الله تعالى، مُنزَّل غير مخلوق، نزل به جبريل على محمدﷺ، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، منه بدأ وإليه يعود[١].

يلاحظ في التعريف أنه يجمع خصـائص القرآن، ليميزه عن غيره، من خلال مصدره الغيبي الإلهي (كلام الله، الـمُنَزل على النبي محمد ﷺ، منه بدأ وإليه يعود)، فهو كلام الله لفظاً ومعنى، فالقرآن دليل على صدق نبوءته من جهة نظمه ومعناه للتعبد به، - وهذا ما بُني عليه البحث - لا من جهة أحدهما فقط [٢]، فـــ(مَن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصـلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل مَن لفظه ومعناه فصيح لا يُجارى ولا يُدانى) [٣].

ثالثاً: دلالة القرآن على نبوءة النبي ﷺ من جهة النظم والمعنى.

لقد برهن القرآن على صدق نبوءة النبي ﷺ من جهة النظم والمعنى، ولا يمكن أن تقتصر برهنته على جهة واحدة.

---

(١) ينظر: العلو: للذهبي ص ١٥٦، وتفسير القرآن الكريم؛ لابن عثيمين (١/ ٨).
(٢) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز، (١/ ٢٨٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (١/ ٥٦).

لماذا الإشارة إلى هذه الدلالة ؟!

* لأنَّ المعتزلة يرون أن كلام الله يقتصر على اللفظ فقط دون المعنى[1]، والأشاعرة يرون أن كلام الله يقتصر على المعنى فقط دون اللفظ[2]، لذا كانت هناك علاقة بين مذهبهم في صفة الكلام وبين نظم القرآن ودلالته على نبوءة النبي ﷺ[3]، مع أنهم لم يلتزموا بمذهبهم في صفة الكلام الإلهي حيال تحرير كثير من دلائل القرآن على صدق نبوءة النبي ﷺ، ولعل السبب يعود إلى أنَّ المتكلمين من معتزلة وأشاعرة كانوا يردون على مَن ينكر النبوءات من الملاحدة، ولقد استفدت من كلامهم في بيان وجوه دلالة القرآن الكريم على صدق نبوءة النبي ﷺ، فلهم جهود في الرد على الملاحدة ومنكري النبوءات للأسف أُغفلت، لما شاع عن مذهبهم في مسائل صفات الكمال لله تعالى، خاصة صفة الكلام والحكمة والرحمة، ومسائل القدر.

والإنصاف والعدل والموضوعية تقتضي الاستفادة من أقوالهم، خاصة في حجاجهم العقلي، ما لم يخالف أصلاً من أصول أهل السنة والجماعة، عملاً بقول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ

---

(١) ينظر: الحيوان: للجاحظ، (٤/ ٩٠)، والنكت في إعجاز القرآن: للرماني، ص ٧٦، وإعجاز القرآن: للقاضي عبد الجبار، ص ١٩٧.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: للباقلاني، ص ٨٦، ودلائل الإعجاز: لعبد القاهر الجرجاني، ص ٩٧، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: للرازي، ص ٩٦.

(٣) ينظر: تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية: د/ مهدي السامرائي، ص٧٧، وإعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د/ منير السلطان، ص ٢١٣، والمنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن: أحمد أبو زيد، ص٢٩٣، وكتب الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم دراسة عقدية نقدية: د/ أحمد عاكش، (٢/ ٤١٥).

لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[المائدة: ٨].

وقد عثرت على نص لابن تيمية نبه فيه إلى ما أشرت إليه قائلاً: (ما من هؤلاء إلا مَن له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على مَن عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف) [١].

*ومن الأسباب التي تدعو للقول بدلالة نظم القرآن ومعناه أن هناك مَن يقول بأسبقية النظم على المعنى، ومن ثم يكسب النظم (النص) معناه من الواقع المعيش، فالنظم (النص) لا يحمل دلالة ذاتية محددة، وإنما يخضع معناه لجدلية التطور والتغير مع الواقع[٢]، وهذا فيه إسقاط للنظم (النص) تماماً وإسقاط لدلالاته على صدق نبوءة النبي ﷺ وإن لم يصرح به.

*كما أن هناك مَن يرى أن معاني القرآن موحى بها دون نظمه[٣]، وهذا أيضاً يسقط دلالة النظم على نبوءة النبي ﷺ، وإن لم يصرح به.

رابعاً: البشرية والأنسنة والأرخنة والمحاولات البائسة.

إنَّه على وضوح خصائص القرآن الكريم من خلال تعريفه إلا أن بعض المكذبين بنبوءة النبي ﷺ قديماً وحديثاً حاولوا زحزحة مصدره

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٠٢).

(٢) ينظر: قضايا في نقد العقل الديني: محمد أركون، ص ١٧٦، وص ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) ينظر: مفهوم النص: نصر أبو زيد، ص ٤٢-٤٥، وحصاد العقل: محمد سعيد العشماوي، ص ٨٩، والنص القرآني: طيب تيزيني، ص ٢٨٩، والاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن: أحمد الفاضل، ص ١٨٤-١٨٦.

الإلهي، فحاول كفار قريش نزع القداسة الإلهية عن القرآن الكريم، فأحالوه إلى نص بشري لم يوحِ الله به إلى نبيه محمدﷺ، إنما هو مما تعلمه من بعض البشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[النحل: ١٠٣]، أو أنه افتراء من محمدﷺ قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾[الأنبياء: ٥]، أو أنه افتراه بمساعدة آخرين له قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾[الفرقان: ٤].

وحقيقة قولهم هو الافتراء والكذب، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

مع العلم والتأكيد بأن كفار قريش كانوا معترفين بأن القرآن ليس من جنس كلام المخلوقين، لكنهم لم يُسلِّموا لحقيقة ذائقتهم اللغوية التي لا ينكرها إلا مكابر أو جاهل بلغة العرب، وأسلموا عقولهم لأهوائهم لرد ما جاء به النبي ﷺ من الحق[1].

وما زال قولهم يتكرر ويجتر بمنطلقات فكرية أخرى إلى يومنا هذا، وفق أسس فلسفية تقول بأرخنة وأنسنة[2] النص القرآني، لنزع المصدر الغيبي من مفهوم النبوءة ودليل صدقها (القرآن)، حيث يزعمون أن

---

(١) سيأتي التفصيل في الفصل السادس: دلالة النظم والبيان.

(٢) يقصد بالأرخنة أو التاريخية هو فهم النص فهماً تأريخياً ولا يوجد فهمٌ مطلقٌ. بمعنى أن يفسر النص تأريخياً. أمّا الأنسنة فهي تركز على الإنسان لإعلاء سلطان العقل بمسمى جديد، وتجعل الإنسان مقياساً لكل شيء، وتنكر كل شيء عدا الإنسان. ينظر: موسوعة الفلسفة والفلاسفة: لحسن حنفي (١/ ١٩٩).

ثقافات عدة أثَّرت في القرآن، فكانت صياغته من واقع البيئة التي عاش فيها محمد ﷺ[1]، فـ(الواقع إذاً هو الأصل ولا سبيل لإهداره، ومن الواقع تكوَّن النص، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، ومن خلال حركته بفاعلية البشر تتجدد دلالاته، فالواقع أولاً، والواقع ثانياً، والواقع أخيراً)[2].

فالقرآن على هذا ليس كلام الله بل هناك تداخل بين كلام الله وكلام البشر في أصل الوحي بالقرآن[3]، والزعم بأن الإصرار على كون القرآن إلهي المصدر مجرد وهم[4].

ولتدعيم هذه الفكرة تم استدعاء قول المعتزلة بخلق القرآن، وتم تفسيره على أساس هذه الفكرة، فـ(مسألة خلق القرآن كما طرحتها المعتزلة تعني في التحليل الفلسفي أن الوحي واقعة تاريخية ترتبط أساساً بالبعد الإنساني من ثنائية الله والإنسان، أو المطلق والمحدود)[5]، لقد تغير مفهوم القرآن على المستوى المعرفي، والمستوى البنيوي، بناءً على القول ببشرية وأنسنة وأرخنة القرآن الكريم[6].

---

(١) سيأتي ذكر هذه الشبهة في الفصل الرابع: دلالة كمال الشريعة من هذا البحث.

(٢) نقد الخطاب الديني: نصر أبو زيد، ص ٩٩، وينظر: ص ٢٠٦، ومفهوم النص: له أيضاً، ص ١٠٩، ونقد التجربة النبوية: د/ عبد الكريم شروس، ص ١٢٥، ومدخل للقرآن الكريم: د/ محمد عابد الجابري، ص ٢٣ـ٢٦، ومصادر الإسلام: تسدال، ص ٦، ومقدمة القرآن: ريتشارد، ص ٩، وآراء المستشرقين في القرآن وتفسيره: د/ عمر رضوان، ص ٢٤٠.

(٣) ينظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ: عبد المجيد الشرفي، ص ٣٦.

(٤) ينظر: مفهوم النص: د/ حامد أبو زيد، ص ٢٤.

(٥) النص والسلطة والحقيقة ؛ نصر حامد أبو زيد ص ٣٣، وينظر: تحديث العقل الإسلامي: محمد سعيد عشماوي ص ٧، والنص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ؛ طيب تيزيني ص ٣٦٤.

(٦) ينظر: الحداثيون العرب والقرآن الكريم: د/ الجيلاني مفتاح، ص ٧٠ـ٨٥.

خامسـاً: القول بخلق القرآن بين المعتزلة وعلمانييّ العرب (النظرية والتطبيق).

ثمة سؤال يطرح نفسه لبيان الحقيقة بإنصاف:

هل قول المعتزلة بخلق القرآن يخدم زعم العلمانيين في نزع القداسة الإلهية والقول ببشرية وأنسنة القرآن ؟!.. بمعنى آخر:

هل التطبيق العلماني لنظرية خلق القرآن هو التطبيق المعتزلي ذاته؟! أم أن هناك تبايناً معرفيّاً منهجيّاً بين النظرية والتطبيق؟!

المعتزلة وإن قالوا بأن القرآن مخلوق، ووقعوا في تأويل الآيات لتنزيه الله عن مشابهة المخلوق استناداً على أدلتهم العقلية، إلا أنهم يثبتون إلهية مصدره، ودلالته على صدق نبوءة النبيﷺ، ويحتجون به على مَن خالفهم، ويردون به على الملاحدة منكري النبوءات[1]، بخلاف العلمانيين الذين تبنوا قول المعتزلة بخلق القرآن لأرخنته وأنسنته لإنكار إلهية مصدره، ولنزع القداسة عنه، ومعاملته كنص أدبي، فلا دلالة فيه على صدق النبوءة[2]، ولا تعظيم لآياته ودلائله وقائله، فتم تعطيل فاعلية العمل بالقرآن وفق قراءة معاصرة تتناسب مع إنسان هذا الزمان.

وهل يمكن للإنسان أن يعيش في معزل عن هدي القرآن؟!.

هو ضرب من المحال وأمر لا يخال.

---

(١) ينظر: الانتصار والرد على ابن الراوندي ؛ للخياط، ص ٥٠.

(٢) ينظر: العلمانيون والقرآن؛ د/ أحمد الطعان، ص ٤٦٠ـــ ٤٦٢، والتيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن؛ منى الشافعي، ص ١٠٤، وص ٢٢٣ـــ٢٢٤، وظاهرة التأويل الحديثة؛ د/ خالد السيف ص ١٩٦.

المطلب الرابع

النبوءة وأدلتها

(التلازم بين المدلول والدليل)

النبيء يخبر قومه الذين بعث فيهم بأنه نبيء مرسل من عند الله تعالى، نبأه الله بدينه وشرعه، فيقول للناس: إني رسول الله إليكم، فهذا الكلام خبر منه، فلا بد من براهين تبرهن على صدقه، إذ التمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما هو دون النبوءة، فكيف بالنبوءة؟!

حيث يعلم صدق النبي بما يقترن به من قرائن، ويحصل بذلك علم ضروري لا يمكن للمرء أن يدفعه عن نفسه.

فما من أحد ادعى النبوءة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من دلائل الصدق ما ظهر لمن له أدنى تمييز، وما من أحد ادعى النبوءة من الكاذبين إلا وقد ظهر عليه من دلائل الكذب ما ظهر لمن له أدنى تمييز[1].

فالتمييز بين النبي الصادق ومدعي النبوءة يكون بالدلائل العقلية القاطعة، والمتنبئ الكاذب لا تستند دعواه على أدلة عقلية قاطعة مطلقاً.

فالناس تتباين مواقفهم من النبي الصادق للنبوءة فمنهم مَن يقر بجنس النبوءات وهم أنواع، ومنهم مَن ينكر جنس النبوات [2].

فمَن يقر بجنس النبوءات يؤمن بالنبي ويصدق خبره، لصدقه المعلوم والمعروف عنه لديهم، فمحال أن يكذب في خبر يخبر به، حيث لم يجرب عليه كذب قط، فخديجة رضي الله عنها وأبو بكر رضي الله عنه وغيرهما

---

(١) ينظر: الداعي إلى الإسلام؛ لابن الأنباري، ص٢٧٩ـــ ٢٨٠، وإثبات دعوة نبوة النبي محمد ﷺ له أيضاً ص١٣، وشرح العقيدة الأصفهانية ص ٥٣٩، و٥٤٦.

(٢) ينظر: الجواب الصحيح (٦/ ٥٢١).

من السابقين الأولين الذين آمنوا به، وكل مَن كان على الحنيفية السمحة ملة إبراهيم فهو مُقر بجنس النبوءات على وجه الجملة لا التفصيل، وهرقل ملك الروم[1] والنجاشي[2]، فهؤلاء آمنوا به وصدقوا بما جاء به من خلال ما ظهر لهم من شخص النبي الصادق وما يدعو له، وقبل انشقاق القمر والإخبار بالغيوب والتحدي بالقرآن[3]، فهذا في حد ذاته دليل على صدق نبوءته. فكلامه وإخباره وما عُرف عنه من أحواله مستلزم لصدقه.

ومنهم مَن يقر بجنس النبوءات وهم في تحديد عين النبي الخاتم أنواع:

فمنهم مَن يعرف بأن هناك نبيًا سيُبعث يعرفون نعوته وهم بحاجة إلى معرفة عينه، وذلك كهرقل والنجاشي وورقة من أهل الكتاب.

ومنهم مَن لا يعلم هل هناك نبي سيبعث أم لا، فهو بحاجة إلى معرفة أن هذا النبي الذي سيُبعث هل هو من جنس الأنبياء الصادقين أو من جنس المتنبئين الكذابين؟

وهم يعرفونه بما جاء من آيات صدقه، وما جاء به الأنبياء من قبله، فهذه أصول لا يمكن للأنبياء أن يختلفوا فيها.

---

(١) هرقل هو ابن أبوسطنيوس، ملك الروم ببلاد الشام، خبره عن إثبات نبوءة النبي ﷺ ثابت في الأخبار الصحيحة. ينظر: الكامل ؛ لابن الأثير (١/ ١٢٩)، والبداية والنهاية؛ لابن كثير (٧/ ٩٧).

(٢) النجاشي هو أصحمة ملك الحبشة، لم يرَ النبي ﷺ، وآمن به رضي الله عنه، صلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب. ينظر: سير أعلام النبلاء؛ للذهبي (١/ ٤٢٨)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة؛ لابن الأثير، (١/ ٣٨).

(٣) ينظر: الجواب الصحيح (٦/ ٥١٢).

ومنهم مَن ينكر عين نبوءة أحد الأنبياء[1] فهو مصدق ببعض الأنبياء مكذب ببعضهم الآخر، مفرق بينهم، مع أن لديه من الأدلة التي تدل على ثبوت نبوءة مَن أنكر، فتأتي الأدلة لتبرهن وتؤكد لهم عين نبوءة النبي الذي أنكروا نبوءته بالطريق نفسها التي أثبتوا بها نبوءة مَن أقروا به من الأنبياء وبطرق أخرى.

أما مَن ينكر جنس النبوءات[2] فهؤلاء لا يقرون بالنبوءة أصلاً، فتأتي الأدلة لتدل وتبرهن لهم على إمكان النبوءات أولاً.

فلكل نوع من الناس أدلة تبرهن لهم صدق النبي، فتنوعت دلائل النبوءة، ولم تنحصر في طريق واحد، ودعوى النبوءة واحدة.

فجنس النبوءة يُعرف أولاً ثم يُعرف أن هناك أدلة تدل على صدقها، فلا تعرف الأدلة حتى يُعرف جنس النبوءات[3].

وإن مَن يعرف جنس النبوءات وما جاء به الأنبياء يعلم يقيناً أن نبوءة محمدﷺ من ذلك الجنس، كهرقل والنجاشي وورقة، إذ لم يستنكروا عين نبوءة محمدﷺ لأن جنس النبوءة لديهم معلوم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٩]، ويقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[آل عمران: ١٤٤].

---

(١) كاليهود أقروا بالنبوءة لموسى وأنكروها في حق عيسى ومحمدﷺ لذا أنكروا النسخ، والنصارى أقرت بنبوءة عيسى وأنكروا نبوءة محمدﷺ حيث اكتمل الوحي بمجيء عيسى وتجسد فيه، ينظر: شبهات وهمية حول الكتاب المقدس د/ القس منيس عبد النور، ص ٣٤.

(٢) وهذا كحال بعض كفار قريش.

(٣) ينظر: النبوات (١/ ١٧٤، ١٧٨).

فجنس النبوءة سابق على أدلة صدقها، وأدلتها لا توجد إلا مع دعوى النبوءة الصادقة، ولا يمكن أن يكون دليل النبوءة مع ما يناقضها[1].

و (ثبوت النبوة في نفسها وثبوت صدق النبي، وثبوت ما أخبر به في نفس الأمر ليس موقوفاً على وجودنا، فضلاً أن يكون موقوفاً على عقولنا، أو على الأدلة التي نعلمها بعقولنا، وهذا كما أن وجود الرب تعالى وما يستحق من الأسماء والصفات ثابت في نفس الأمر، سواء علمناه أم لم نعلمه)[2].

و ليس من شرط دليل النبوءة اقترانه بزمن دعواها، فآيات النبوءة وبراهينها تكون في حياة الرسول وقبل ولادته وبعد مماته[3].

وأما آيات الأنبياء التي لم نشاهدها فإنها تعلم بمجرد الأخبار المتواترة[4].

و (الضابط في الدليل أن يكون مستلزماً للمدلول، فكل ما كان مستلزماً لغيره أمكن أن يستدل به) [5]، فالدليل الدال على صدق نبوءة النبي ﷺ يقتضي ثبوت جميع ما أخبر به، ومن المعلوم أنَّ الدليل يجب طرده، فيجب من ثبوت الدليل ثبوت المدلول عليه، ولا يجب عكس

---

(١) ينظر: النبوات (١/ ١٤٤). وهذا فيه رد على مَن لم يفرق بين ما يأتي به الأنبياء الصادقون وما يظهر على أيدي الصالحين من كرامات، وأيدي المكذبين من السحرة والكهنة.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٨٨).

(٣) ينظر: النبوات (١/ ٤٩١، ٥١٢-٥١٣، ٥٤١، ٥٩٩)، والجواب الصحيح (٦/ ٣٨٠).

(٤) ينظر: النبوات (١/ ٥١٤).

(٥) الرد على المنطقيين ص ١٦٥، وينظر: النبوات (٢/ ٧٧٣)، والرد على المنطقيين، ص٢٩٦، ٣٤٨-٣٥٠، و٨٤٩، و٩٤٧، ودرء التعارض (٣/ ١٢٣).

الدليل، فلا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فـ (الآيات الدالة على نبوة النبي يلزم من ثبوتها ثبوت الحكم، ولا يلزم من عدمها عدمه، إذ قد يكون الحكم معلوماً بدليل آخر)[١]، فيلزم من وجود دليل النبوءة وجود الأنبياء[٢]، ويمتنع ثبوته بدون النبوءة[٣].

فآية النبي دليل صدقه وعلامة صدقه وبرهان صدقه، فلا توجد قط إلا مستلزمة لصدقه، ولا يمكن أن تنفك دلائل الصدق عن دعوى الصادق، سواء استدل بها أو لم يستدل[٤].

والدليل الدال على صدق النبوءة يقتضي بالضرورة العقلية ثبوت جميع ما أخبر به النبي للعمل به[٥]، وهذه هي غاية النبوءة وأدلتها.

كما أنه لا يستدل بالإجماع على مقدمات أدلة النبوءة إلا بعد ثبوت النبوءة نفسها[٦].

فالمثبت للنبوءة عليه الدليل على ما يثبته، كما أن النافي للنبوءة عليه الدليل على ما ينفيه[٧].

* * * * *

---

(١) درء التعارض (٥/ ٢٧٠).
(٢) ينظر: النبوات (٢/ ٩٧٩).
(٣) ينظر: النبوات (٢/ ٧٩٥).
(٤) ينظر: النبوات (١/ ٤٩١، ٥١٢)، (٢/ ٧٨٠، ٨١٨)، والرد على المنطقيين، ص٢٩٦، ٣٤٨-٣٥٠، ٨٤٩، ٩٤٧، والجواب الصحيح، (٥/ ٦).
(٥) ينظر: درء التعارض (٥/ ٢٨٢).
(٦) ينظر: النبوات (١/ ٥٥٠).
(٧) ينظر: الجواب الصحيح (٦/ ٤٥٨).

المطلب الخامس

النبوءة وأدلتها (خصائص وسمات)

من الضرورة بمكان أن أُشير إلى أنَّ الدين الذي أُمرنا أنْ ندين الله به مبني على الأدلة التي جاء بها الوحي، وهذا يعني غناها التام عن مقدمات الأدلة الأجنبية، وهذا من إكرام الله لهذه الأمة وتفضله عليها بإكمال الدين وإتمام النعمة، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]، وهذا الإكمال هو إكمال متعلق بالمسائل والدلائل، وقد جاء تأكيد معنى الكفاية بالوحي في القرآن صريحاً، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت: ٥١][1].

وهذا الغناء والإكمال والإتمام تبين لي حيال استقرائي لسمات النبوءة وأدلتها، وسأجليها على النحو الآتي:

أولاً: سمات النبوءة:

سبق وأن بينت مفهوم النبوءة في المطلب الأول من هذا المبحث، وهنا سأجلي سمات مسألة النبوءة، وبين المفهوم والسمات تداخل كبير، فقد تعاد بعض النقاط لكن لا يعني هذا تكراراً لها بل تأكيداً على مرتكزات النبوءة تارة من جهة المفهوم، وأخرى من جهة السمات، والتي وجدتها من خلال استقرائي كالتالي:

---

(١) صناعة الاستدلال العقدي: عبد الله العجيري ص ١٨٥ ــ ١٨٦ ضمن صناعة التفكير العقدي.

□ النبوءة ترتكز على الوحي، و(الوحي حقيقة غيبية، لا يطلع عليها مع العصمة واليقين أنه من عند الله إلا الأنبياء)[1]، فاختصاص الأنبياء بالوحي هو ما يميزهم عن باقي البشر[2]،فهي ترتكز على المصدر الغيبي فالله يوحي للنبي، والنبي يخبر عن الله، وطريقة وحي الله لنبيه غيبية، وهذا المفصل بين مذاهب شتى، فالمذهب المادي ينكر الوحي لأنه حقيقة غيبية، فهو يقوم على أساس أنه لا وجود إلا للواقع المحسوس، والحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة، فادعاء النبي أنه يدرك ما لا يمكن لغيره إدراكه ادعاء زائف من منظور المذهب المادي كما يزعم أصحابه[3].

والرد على هؤلاء يكون بإثبات إمكان الوحي بالدلائل العقلية القاطعة التي دلت على صدق النبي، وإذا ثبت صدق النبي لزم أن يكون صادقًا بأنه يوحى إليه، لأن إثبات الوحي لا يتوقف على مجرد الإدراك الحسي، وإنما يتوقف على صدق النبي، وستأتي البرهنة على إمكان النبوءة في المبحث التالي بإذن الله.

وهناك مَن يحاول زحزحة المصدر الغيبي الإلهي عن النبوءة بشكل أو بآخر، فيزعم أن القول بإلهية النبوءة نوع من التعمية والتضليل، وهو إخراج لها من طبيعتها الحسية وصفتها البشرية، للقضاء على الإنسانية[4]، فالنبوءة مستمرة عن طريق نزوع الطبيعة التي تمد الإنسان بالوحي،

---

(١) المعرفة في الإسلام ص ٨٦.

(٢) ينظر: الاعتصام: للشاطبي (٣/ ٣٠٩).

(٣) ينظر: فصوص الحكم؛ لابن عربي (١/ ٧١، ١٣٣)، والأسس الفلسفية للعلمانية؛ عادل ظاهر ص ٢٩٤، ومفهوم النص؛ د/ نصر أبو زيد ص ٢٤.

(٤) ينظر: من العقيدة إلى الثورة ؛ حسن حنفي (٤/ ٣٤)، والدين والثورة؛ حسن حنفي (٢/ ٦٦)، فلسفة المشروع الحضاري؛ أحمد جاد عبد الرزاق (٢/ ٩٠٢).

فالوحي والطبيعة شيء واحد، فالوحي الطبيعي أكبر ردة فعل على الوحي الرأسي فهو وحي بلا معجزات ولا ملائكة ولا أنبياء[1].

وهذا يتنافى مع طبيعة النبوءة التي تستند على الحقيقة الغيبية، ويرد هذا الزعم بالحقيقة التأريخية التي تبرهن وتؤكد أن النبي عاش زمناً بين قومه ولم يدَّعِ النبوءة، حتى أوحى الله تعالى له، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

- وبما أن النبوءة ترتكز على الغيب والمتمثل في وحي الله لأنبيائه، فهي بدورها تجيب على أسئلة الوجود والغاية الكبرى، التي لا سبيل للإجابة عليها إلا عن طريق الذي أوجدها وخلقها، كالمبدأ والمنتهى، الماضي والمستقبل، إذ لو كانت هذه الأمور في حيز المجهول الذي لا خبر عليه يطمئن له القلب والروح والنفس لأصبحت مصدراً للحيرة والقلق، وللبحث الذي لا يفتر، وقد يقود إلى الشك، وهذا الذي حدا بمفكري الغرب إلى التنبؤ بمستقبل العالم ونهايته وفق تنبؤات علمانية[2].

فالتسليم لكل ما يقوله النبي ﷺ ينبني على البراهين العقلية القطعية التي نستيقن من خلالها بصدقه في كل ما يخبر به، فلا مجال للشك فيها.

فالأنبياء هم الذين يبلغون عن الله تعالى، والله بعثهم لإخراج الناس من ظلمات الجهل والشك والحيرة والباطل إلى نور المعرفة واليقين

---

(١) ينظر: من العقيدة إلى الثورة (٤/ ١٥٢ ــــ ١٥٣)، هموم الفكر والوطن له أيضاً (١/ ٢٠).

(٢) ينظر: النبوة؛ د/ علي مبروك ص ٥٧-٥٨.

والحق، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[إبراهيم:٥] ، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

□ ومن سمات النبوءة أيضـًا أن الناس في حاجة مُلحّة إليها في كل زمان ومكان، فالفترة التي لا يكون فيها نبوءة هي فترة مظلمة، لا تعرف النور المبين إلا من خلال النبي، ومن خلال هذه السمة للنبوءة يمكننا تفنيد مسألتين مهمتين وهما على طرفي نقيض.

○ **المسألة الأولى**: النبوءة مرحلة حتمية احتاجتها البشرية في طور من أطوار تقدمها، ثم انتفت الحاجة إليها بعد انتقالها إلى طور آخر[(١)]، لا سيما في عصور التقدم الحضاري[(٢)]، فالبشرية على حد زعم أصحاب هذا القول في طورها الجديد لم تعد بحاجة إلى مَن يتولى قيادتها باسم السماء فقد بلغت سن الرشد وهي قادرة على إدارة شؤونها بنفسها[(٣)].

○ **المسألة الثانية**: النبوءة باقية مستمرة كما يزعمون، لأنها نابعة من ذات الإنسان ووحي الطبيعة، من البشر للبشر أنفسهم، فلا حاجة لمُرسِل

---

(١) ينظر: نزعة الأنسنة؛ أركون ص ٥٤٢، ودراسات إسلامية؛ حسن حنفي ص ٣٠٥، وهموم الفكر والوطن له أيضـًا (١/ ٤٠٠)، ومن العقيدة إلى الثورة له أيضـًا (٤/ ٢١٤)، والأسس القرآنية للتقدم؛ محمد خلف الله ص ٥٧.

(٢) مقدمة حسن حنفي لكتاب تربية الجنس البشري؛ لسنج، ص ٦٧، وفلسفة المشروع الحضاري؛ أحمد محمد جاد (٢/ ٩٣٤).

(٣) ينظر: هموم الفكر والوطن (١/ ٤٠٠)، والعدل الإسلامي وهل يمكن أن يتحقق؛ د/ محمد خلف الله، عن كتاب غزو من الداخل؛ جمال سلطان ص ٥١.

ولا مُرسَل[1]، فليس ثمة وحي، ولا مصدر إلهي للنبوءة، فهي لا نهائية مطلقة، لا خاتمة لها[2]، فلم تختم النبوءة بالنبي محمدﷺ، بل ختمت النبوءة كما يزعمون بالنبوءة الإنسانية[3]، وهذا النوع من الختم في زعمهم دليل على اكتمال العقل الإنساني، والعقل الآن قادر على القيام بمهام النبوءة[4]، وهي دعوى تفتح الباب على مصراعيه لمدعي النبوءة قديماً وحديثاً[5]، فالنبوءة لا تزال مستمرة في المفهوم الشيعي الإمامي المتمثل في الأئمة[6]، وفي المفهوم الصوفي المتمثل في الأولياء[7]، وفق منهج عرفاني كشفي يرتفع فيه مقام الإمامة والولاية على النبوءة.

---

(١) ينظر: لعبة المعنى ؛ علي حرب ص ١٠٣، وفلسفة المشروع الحضاري؛ أحمد عبد الرزاق (٢/ ٨٩٩)، وتجديد الفكر الديني ؛ محمد إقبال، ص ٢٠٦، والعلمانيون والقرآن الكريم؛ أحمد الطعان ص ٦٣٠ـ ٦٣١.

(٢) ينظر: الثابت والمتحول؛ لأدونيس (١/ ٢٧٤).

(٣) ينظر: نقد الحقيقة ؛ علي حرب ص ٤٥، وص ٦٨.

(٤) ينظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ ؛ عبد المجيد الشرفي ص ٨٦ــ ٩٦، ومن فيصل التفرقة إلى فيصل المقال ؛ محمد أركون ص ٦٣، ومن العقيدة إلى الثورة ؛ حسن حنفي (١/ ٩١)، و(٤/ ١١٠).

(٥) كالأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وسجاح، والمختار بن عبيد الثقفي، ودعوى البابية، والبهائية والقاديانية، ينظر: عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ؛ د/ أحمد سعد الحمدان، ص ١٦٩، والزنادقة عقائدهم وفرقهم وموقف أئمة المسلمين منهم ؛ د/ سعد العريفي، (١/ ٢٦٣، و٣٢٠، و٣٦٨، ٣٧٦، ٣٩٠).

(٦) ينظر: أصول الكافي ؛ للكليني، (١/ ١٩٩)، وعقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ١٤٠ وما بعدها. ولعل القاضي عبد الجبار أدرك ارتباط مفهوم النبوءة بالإمامة عند الشيعة لذا رد عليهم في كتابه تثبيت دلائل النبوة، فقد نقض الإمامة لكل مَن يطلع على كتابه.

(٧) كابن عربي، ينظر: الفتوحات، (٤/ ٥٨)، وعقيدة ختم النبوة، ص ١٥٥ وما بعدها، والزنادقة وعقائدهم وفرقهم وموقف أئمة المسلمين منهم ؛ د/ سعد العريفي، (١/ ٣٥٤).

وحقيقة هذا القول يفضي إلى إنكار حقيقة أن النبي محمداًﷺ هو خاتم الأنبياء، وتأويل الآيات التي برهنت على ختم النبوءة بمحمدﷺ بعدم الالتفات لمَن يدعي النبوءة ويظهرها بعد محمد ﷺ[1]، ومزيد من بسط ختم النبوءة يكون في السمة التالية للنبوءة.

▫ من سمات النبوءة أنها خُتمت بنبوءة النبي الخاتم محمد ﷺ، وبدء النبوءة وختمها لم يكن من ذات النبي، بل كان من أمر الله تعالى الذي أرسلهم، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ويمكننا أن نبرهن على نبوءة النبي الخاتم محمدﷺ من وجوه عدة، منها:

○ **الوجه الأول:** كل الأنبياء الذين بعثوا لم يجرؤ واحد منهم على القول بأنه خاتم النبيين، بل جميعهم يُبشِّر بالنبي محمدﷺ الخاتم الذي يأتي من بعدهم، وهذا دليل صدق على نبوءتهم كما سيأتي بيانه بإذن الله[2]، إلا محمداًﷺ لم يخبر بمقدم نبي بعده، بل يخبر بأن الأنبياء كانوا من قبله، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وهو أيضاً يخبر بأنه خاتم الأنبياء قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولك أن تسأل: مَن الذي أخبر محمداًﷺ بأنه هو خاتم الأنبياء؟! وكيف علم محمدﷺ بأنه خاتم الأنبياء؟! وتأمل استمراره في خبره دون تراجع أو خوف، وتحقق من صدق ما أخبر به بأنه لم يأتِ نبي

---

(١) ينظر: بسط التجربة الدينية؛ د/ عبد الكريم سروش، ص ١٤٩.

(٢) سيأتي ذكر ذلك مفصلاً في الفصل الخامس: دلالة الإخبار بالمغيبات، المبحث الأول: الإخبار بأمور مستقبلية.

صادق بعده، وكل مَن ادعى النبوءة من الكذبة بعده فإنه سرعان ما يتبين كذبهم، وهذا ما يبينه الوجه التالي.

○ **الوجه الثاني**: إخبار النبي الخاتم ﷺ بخروج الكذَّابين ممَن يدعون النبوءة، وقد خرج بعضهم في زمن النبيﷺ وفي عهد الصحابة، ولا يزالون يظهرون، يقول النبي ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ الله»[1]، وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذَّابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي»[2]، والمراد بالتحديد في الأحاديث مَن ادعى النبوءة وقامت له شوكة، وله أتباع، واشتهر بين الناس[3]، ولا يعني هذا استمرار نبوءتهم، كما يبينه الوجه التالي.

○ **الوجه الثالث**: ومما يؤكد ختم النبوءة بنبوءة محمدﷺ أنه ما من مُدعٍ للنبوءة من المكذبين بعد محمدﷺ إلا ويظهر كذبه وتتلاشى دعوته، بينما نبوءة النبي محمد ﷺ لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، وإن كان هناك مَن يحاول أن يشكك فيها إلا أنها لا تزال مستمرة، ومما ينبه إليه أن مدعي النبوءة أظهروا دعوى النبوءة بعد نبوءة النبيﷺ لا قبله.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (١٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن، لا تقوم الساعة حتى يخرج كذّابون، وقال: هذا حديث صحيح، وقال الألباني: صحيح، ينظر: صحيح الجامع الصغير، (٦/ ١٧٤)، (٧٢٩٥).

(٣) ينظر: فتح الباري: لابن حجر (٦/ ٦١٧).

○ **الوجه الرابع**: مما يؤكد أن النبي محمداًﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين عموم رسالته، وهذا يتبين في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾[سبأ: ٢٨]، وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الفرقان: ١]، وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ص: ٨٧]، والقلم:٥٢، والحاقة:٢٤، وغيرها من الآيات التي برهنت على عموم بعثتهﷺ.

○ **الوجه الخامس**: ومما يؤكد ختم النبوءة بنبوءة محمدﷺ كمال الدين الذي جاء به لما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم وحالهم ومآلهم، فلا تحتاج الأمة إلى أحد بعده، وإنما هي بحاجة إلى مَن يُبلغها عنه ما جاء به ليذكرها به[1]، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة: ٣] فالناس لا يزالون يعتنقون الدين الذي جاء به النبي محمد ﷺ.

□ ومن سمات النبوءة أيضاً أنها ذات طابع ديني إلهي، فهي تحمل تفاصيل الدين بأحكامه وأوامره ونواهيه، فهي من لدن عليم حكيم، لتعيش البشرية للغاية التي من أجلها خُلقوا، مرتبطة بخالقها الذي خلقها وأوجدها، فلا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه على جهة التفصيل إلا من جهة الأنبياء، حيث يحصل العلم القطعي

---

(١) ينظر: الرسالة ؛ للشافعي، ص ٢٠، وإعلام الموقعين ؛ لابن القيم، (٤/ ٣٧٥).

واليقين الضروري بكل ما جاء به الأنبياء، فيؤخذ بالتسليم المبني على البراهين القطعية، وبهذا يبطل قول مَن قال: بأن النبوءة ليست ذات طابع ديني[1]، لا لشيء إلا لينزعوا عنها المصدر الإلهي، ويجعلوها ذات منزع إنساني بحت، وسبق وأن بينت العلاقة بين الدين والنبوءة من جهة المصدر والمرتكز.

ثانياً: سمات أدلة النبوءة

من خلال استقرائي وجدت أن سمات أدلة النبوءة كالتالي:

- أدلة النبوءة فطرية عقلية نقلية، فإنَّ مما يلاحظ في مسألة النبوءة أن النبي يقول أنا نبي مُرسل من عند الله، فمَن صدقه صدقه لقرينة حاله وخطابه فحصل له بذلك علم ضروري بصدقه لا يمكن أن يدفعه عن نفسه، وهذه الضرورة مُركبة من العقل والفطرة، فالعقل ربط بين حال وخطاب النبي الصادق والقرائن التي حفت به، فعلم صدقه، ولضرورة النبوءة للناس وشدة حاجتهم إليها، فقد اقتضت حكمة الله تعالى ألا يُترك الخلق سُدى، دون أن يكون هناك مَن يُبين لهم دين الله وشرعه والغاية التي من أجلها خُلقوا، فأرسل الله الرسل، وأيدهم بالآيات والبراهين التي تدل على صدقهم، ووجوب اتباعهم، فالنبوءة تثبت بالعقل والفطرة أولاً، ثم يأتي الدليل النقلي أو العقلي الذي يُبرهن على صدق النبي، ودلالة الدليل على المدلول لا تدرك إلا بالعقل أولاً، ثم يأتي النقل شارحاً ومفصلاً ومبيناً ومؤكداً صدق الأنبياء ووجوب الإيمان بهم جملة

---

(١) ينظر: نقد النص ؛ علي حرب ص ٢٠٨.

وتفصيلاً، وعلى هذا فأدلة النبوءة مقدماتها معلومة بنفسها، كالمقدمة الحسية والبدهية، وبها يستدل على الخفي بالجلي[1].

□ تنوع دلائل النبوءة إذ هي من جنس دلائل الربوبية فيها الظاهر والبين لكل أحد، وفيها ما يختص به من عرفه، وطرق العلم بها متفاوتة[2]،فما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا فإن الله يجود به على العباد جوداً عامّاً ميسراً، وكلما كان الناس إلى معرفة شيء أحوج فإنه جل وعلا يجعله سهلاً ميسراً غير ذي عوج[3]، ولقد وضح الله تعالى هذه الأدلة في كتابه توضيحاً كافياً شافياً[4].

□ آيات الأنبياء متنوعة، فمنها القولي والفعلي[5]، فهي إما أن تكون في باب العلم أو في باب القدرة، وهي متعددة ولا يمكن حصرها في دليل واحد[6]، ومن أدلتها المعجزة، لا أن المعجزة هي الدليل الأوحد على إثبات النبوة[7]، وعليه فلا يمكن حصر أدلة النبوءة فيها فقط، لأن الهدف

---

(١) ينظر: الفصل في الملل والنحل؛ لابن حزم (٥/ ١٢)، والنبوات (٢/ ٦٤٠).
(٢) ينظر: شرح الأصفهانية ص ٥٧٠، ٦٧٦.
(٣) ينظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ٤٣٥).
(٤) ينظر: شرح العقيدة الأصفهانية(٢/ ٦٠٦).
(٥) ينظر: النبوات: لابن تيمية، (٢/ ٦٦١، ٦٦٥).
(٦) ينظر: النبوات (١/ ٥٢٢)، (٢/ ٦٥٨).
(٧) وهذا ما ذهب إليه كثير من الأشاعرة، ينظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به. للباقلاني ؛ ص٥٤، والبيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات، ص٣٨، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الدين؛ للجويني، ص٣٣١، وشرح المقاصد؛ للتفتازاني(٥/ ١٩)، وشرح العقيدة الأصفهانية ص٨٨.
وذهب إلى هذا يوسف درة الحداد في نظم القرآن والكتاب، ص ٣٤، وص ٣٩، وص ٤٥، وص ١٢١، وص ١٥٤، وص ١٦٩، وص ٥٤٩، وص ٥٨٠، ومحمد عابد الجابري في مدخل للقرآن، ص ١٨٧-١٨٨.

من الأدلة هو إثبات صدق النبي وتأييده، سواءً قصد بها تعجيزهم وتحديهم كما هو الشأن في دلالة النظم والأسلوب في القرآن، أو لم يقصد ذلك كما هو الأصل في آيات الأنبياء.

□ بما أن دلائل النبوءة متنوعة ومتعددة وكثيرة، فطرق الناس في معرفتها كثيرة أيضاً، ذلك أن الناس ليسوا على درجة واحدة في الاقتناع بالأدلة، فطباع الناس متفاوتة في التصديق، لأجل ذلك تنوعت الدلالات في القرآن الكريم[1]، (وكثير من الطرق لا يحتاج إليه أكثر الناس، وإنما يحتاج إليه مَن لم يعرف غيره، أو مَن أعرض عن غيره، وبعض الناس كلما كان الطريق أدق وأخفى وأكثر مقدمات وأطول كان أنفع له لأن نفسه اعتادت النظر الطويل في الأمور الدقيقة)[2].

□ دلائل النبوءة متفاوتة بعضها أقوى من بعض من جهة الاستدلال، وبعضها أنفع من بعض من جهة التأثير[3].

□ دلائل النبوءة قطعية تفيد العلم واليقين[4]، لا يمكن القدح فيها بظن، فإن الظن لا يدفع اليقين[5]، وما أوجب الشك والريب والحيرة ليس

وهناك من الأشاعرة مَن قال بأن هناك أدلة أخرى غير المعجزة هي متممة لها وزيادة في التقرير و هذا يضعف دلالتها مع أنها يقينية، ينظر: شرح العقيدة الأصفهانية ص ٥٣٧ـــ٥٣٨، والمواقف في علم الكلام. للإيجي؛ ص٣٥٦-٣٥٧، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ؛ للرازي: ص٣١٠.

وهناك من ضعف طريق ثبوت النبوءة بالمعجزة. ينظر: المنقذ من الضلال: للغزالي ص ١٥١ ـ ١٥٧، وشرح العقيدة الأصفهانية، ص ٥٩٦.

(١) ينظر: فصل المقال: لابن رشد، ص٨، وص٣٠.

(٢) الرد على المنطقيين (١/ ٢٥٥).

(٣) ينظر: درء التعارض (٣/ ١٣٥).

(٤) ينظر: الفصل في الملل والنحل (٥/ ١٢)، ودرء التعارض (٥/ ٢٥٧).

(٥) ينظر: الجواب الصحيح (٥/ ١٥٥).

بدليل صحيح، كما أن الظن لا يرتقي بحال إلى اليقين، فلا بد أن تنتهي دلائل النبوءة إلى مقدمات يقينية[1]، لأنه ينبني عليها خبر الدين كله، خبر الغيب والشهادة، خبر الدنيا والآخرة، (فلا مجال لغلبة الظنون، وترجيحات الأقوال، ومما هو مقرر أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال)[2]، ولا يمكن أن تقوم دلائل النبوءة على الشك[3]، فالروح البشرية لا تقدر على الحياة بلا يقين[4].

❑ دلائل النبوءة لابد أن تكون في نفسها وجنسها دليلاً[5]، فجنس آيات الأنبياء خارق للسنن الكونية حسّاً ومعنى، فهي خارجة عن مقدور الخلق كلهم لأنها من فعل الله تعالى تأييداً لنبيه وتصديقاً له[6]، ولا يمكن معارضتها، وهذا أعظم دليل على اختصاصها بالأنبياء[7]، لأنه لو أمكن أن يؤتى بمثلها لدخل عليها الاحتمال، ودخول الاحتمال عليها يبطل دلالتها على صدق النبي[8]، ومنها علم السحرة أن آية موسى من قلب العصا إلى حية تسعى، ليست من جنس فعلهم، وإنما هو أمر خارج عن مقدور الخلق أجمعين، فخوارق السحرة والكهنة من جنس أفعال

---

(١) ينظر: النبوات (٢/ ٦٥١).

(٢) منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية؛ د/ سعود العريفي ص ٢٨٩.

(٣) هناك من يربط النبوءة بالشك، ينظر: الأعمال الشعرية؛ لجبران خليل(١/ ٢٧٨).

(٤) روح الحقائق: غوستاف لوبون ص ١١.

(٥) ينظر: النبوات (١/ ٤٨٥).

(٦) ينظر: النبوات (١/ ١٤٤، ١٧٠، ١٩٣، ١٩٥، ٥٠٢، ٥٢٣، ٦٠٦)، (٢/ ٧٩٤، ٨٠٠ــ٨٠١، ١٠٢٩، ١٠٧٣).

(٧) ينظر: النبوات (١/ ٤٦).

(٨) ينظر: النبوات (٢/ ١٠٢٩).

الحيوان من الإنس وغيرهم[1]، والمجيء بكلام خارج عن مقدور الخلق كلهم أمر خارق للسنن الكونية، لذا اعترف صناديد قريش بأن القرآن الذي جاء به محمدﷺ خارج عن مقدورهم وجنس كلامهم وكلام غيرهم من المخلوقين، فليس من سمات أدلة النبوءة أنها أمر خارق للعادة، بل هي أمر خارق للسنن الكونية لا يقدر الخلق على الإتيان بمثلها، وهذا يبرهن على ضرورة التصديق بها، وأن النبوءة ودليلها لم تكن من عند النبي مطلقاً.

وبهذا يبطل قول الذين ينقضون دلائل النبوءة، ويقولون بأنها ليست شيئاً خارجاً عن المادة المتعارف عليها، وحتى تلك الأدلة التي تسمى معجزات ما هي إلا قوانين الطبيعة التي خفي على مشاهديها تفسيرها، وقد يكشف العلم تفسيراً طبيعيّاً لها، فالمعجزة إنكار لمبادئ العقل الثابتة، ولقوانين الطبيعة المطردة، فكيف تكون دليلاً على وحي يستند إلى مبادئ العقل وقوانين الطبيعة، ولأجل الحفاظ على معقولية المعجزة ماديّاً لا بد من تفسيرها ماديّاً فهي ليست خرقاً لقوانين الطبيعة كما يخيله العقل الأسطوري[2]، وهناك من ذهب إلى تفسير المعجزات تفسيراً سياسيّاً[3].

---

(١) ينظر: النبوات (١/ ١٤٤).

(٢) ينظر: رسالة في اللاهوت والسياسة ؛ لاسبينوزا، ترجمة ؛ حسن حنفي، ص ٢٣١، ومن العقيدة إلى الثورة؛ حسن حنفي (١٤٨/٤)، والوحي والقرآن والنبوة ؛ هاشم جعيط ص ٢٩، ٧٩، ٨٠، والإسلام في الأسر؛ الصادق النيهوم ص ١٦٦، ٢٣ عاماً في دراسة السيرة النبوية المحمدية؛ علي الدشتي ص ٦٩.

(٣) كما صنع جورج طرابيشي في كتابه المعجزة وسبات العقل.

وهذه السمة لا يمكن أن تتحقق في الوحي الإلهي المتجسد في المسيح كما هو مفهوم النبوءة في النصرانية[1]؟!.

☐ أدلة النبوءة ليست هي من فعل النبي، ولا هي داخلة في قدرته، ولا هي تلبية لطلبه، بل هي من عند الله، يؤيد الله بها مَن يشاء من أنبيائه[2]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[الأنعام: ١٠٩]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد: ٣٨]، وطالبو الآيات ومقترحوها هم من المكذبين بالنبوءة، فالنبي محمد ﷺ لم يكن صانعـًا للمعجزات وإنما كان دائم القول إن القرآن هو من عند الله، وهو دليل صدقي، فهذا كافٍ في حد ذاته[3].

☐ أدلة النبوءة صحيحة في ذاتها لا تتغير باختلاف المُخاطَبين، فما لا تقوم به الحُجة على المكذبين، فإنه لا يصح لتقوية يقين المؤمنين[4].

☐ آيات الأنبياء يصدق بعضها بعضـًا، ولا يمكن أن ينقض بعضها الآخر[5]، فالحق لا يعارض الحق ولا يكذبه، بل يسنده ويؤيده ويقويه.

☐ آيات الأنبياء تكون مختصة بهم معتادة لهم، ولا تكون لغيرهم[6].

☐ آيات الأنبياء منها ما يكون مشتركـًا بينهم كالإخبار بالغيب،

---

(١) ينظر: الجواب الصحيح (٢/ ٣١٢ـ٣٣١).

(٢) ينظر: مداخل إعجاز القرآن ؛ محمود شاكر ص ١٧ـ١٨.

(٣) ينظر: محمد نبي الزمان: كارين ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٤) منهج الاستدلال بالمكتشفات الحديثة ص ٢٩٤.

(٥) ينظر: النبوات (١/ ٤٩٢،١٩٣، ٥١٨)، (٢/ ٧٧٦، ٨٢١ـ٨٢٣).

(٦) ينظر: النبوات (١/ ١٦٤، ٤٩١، ٥٠٨)، (٢/ ، ٩٨٣،٨٥٢،٨٤٩).

وإحياء الموتى، ولا يلزم ذلك في سائر الآيات، ومنها ما يكون لا نظير له[1]، كالقرآن، والناقة، وقلب العصا إلى حية تسعى، فالأنبياء متفاوتون في دلائل النبوة، فهي تأييد من الله لرسله، فلا يعقل العقل أن تكون هذه الآيات المتفاوتة هي من تأييد الثالوث الإلهي، فمَن يقول بأن الناسوت حل أو اتحد باللاهوت كان لابد وأن تكون آياته أعظم من غيره، أما أن تكون مشتركة مع غيره كالإخبار بالغيب وإحياء الموتى، فهذا يدل على بشريته وإبطال ألوهيته، وإلا كانت آياته أعظم، والثابت خلاف ذلك فثمة آيات للأنبياء أعظم من آياته[2].

- أدلة النبوءة قد تدل بمجردها، وقد تدل بقصد الدال على دلالته، وهذا أحق بالدلالة ودلالته أكمل[3].فكل دليل دل على مدلول فهو دليل على صدق كل مَن أخبر بذلك المدلول[4].

- الآيات الكونية كانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وغيرها هي وسيلة للدلالة على صدق النبي، ولها غاية هداية الناس إلى الإيمان بالنبي لسعادتهم في الدنيا والآخرة، والقرآن الكريم هو الوسيلة والغاية، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت: ٥٠ - ٥١][5].

- ليس من شرط آيات الأنبياء تحدي الإتيان بمثلها، ولم ينقل

---

(١) ينظر: النبوات (١/ ١٧٠ـ١٧١، و٤٩٣)، والجواب الصحيح (٥/ ٤٣٤).
(٢) ينظر: الجواب الصحيح (٢/ ٣١٢ـ٣٣١).
(٣) ينظر: النبوات (١/ ٥٣٩ـ٥٤٠)، و(٢/ ٩٧٩).
(٤) ينظر: النبوات (٢/ ٨١١).
(٥) ينظر: موقف العقل والعلم من رب العالمين وسيد المرسلين: مصطفى صبري، (٤/ ١٨٧ـ١٨٨).

التحدي إلا في نظم القرآن وأسلوبه لما قال المشركون افتراه[1]، كما أنَّه ليس من شرط آيات الأنبياء إيمان كل مَن شاهدها أو سمع بها.

□ دلائل النبوءة السابقة للأنبياء السابقين لمحمد ﷺ لم ترَ لمَن جاء بعدهم لأنها كانت مادية، وهي لم تبقَ، وإنما تواتر الخبر عنها واشتهر، وهذا بخلاف القرآن دليل نبوءة النبي محمدﷺ فهو دليل باقٍ[2]، ويؤكد هذا قول النبي ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فـ (إن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه أضعاف أضعاف آيات مَن قبله من الرسل، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به إلا ولمحمد ﷺ مثلها، أو ما هو في الدلالة مثلها، وإن لم يكن من جنسها، فآيات نبوته أعظم وأكبر وأبهر وأدل، والعلم بنقلها قطعي، لقرب العهد، وكثرة النقلة، واختلاف أمصارهم وأعصارهم، واستحالة تواطئهم على الكذب.

فالعلم بآيات نبوته كالعلم بنفس وجوده وظهوره وبلده، بحيث لا يمكن المكابرة في ذلك، والمكابر فيه في غاية الوقاحة والبهت كالمكابرة في وجود ما يشاهده الناس ولم يشاهده هو من البلاد والأقاليم والجبال والأنهار، فإن جاز القدح في ذلك كله، فالقدح في وجود عيسى وموسى

---

(١) ينظر: النبوات (١/ ٤٩٨، ٥٤١، ٦٠٣ــ٦٠٥)، والمحلى؛ لابن حزم (١/ ٣٦)، والفصل في الملل له أيضاً (٥/ ٢ــ٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ٥٧) وسيأتي مزيد إيضاح وبيان إن شاء الله في الفصل السادس: دلالة النظم والأسلوب.

(٢) ينظر: بذل المجهود في إفحام اليهود؛ السموءل بن يحيى ص ٥٩-٦٠.

وآيات نبوتهما أجوز وأجوز، وإن امتنع القدح فيهما وفي آيات نبوتهما فامتناعه في محمد ﷺ وآيات نبوته أشد)[1].

من أدلة نبوءة النبي محمد ﷺ القرآن الكريم، ومن سماته أنه واضح الدلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه، حيث اشتمل على دعوى النبوءة ودليل صدقها، والدين الذي يدعو إليه والحُجة عليه[2]، وهذا خاص بالقرآن فقط، لأنه وحي من الله وهذا يتبين في قول النبي ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فمعنى الحصر في قوله: « وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ» أي أن القرآن أعظم الآيات، وأدومها، لاشتماله على الدعوى والحُجة، ودوام الانتفاع به لآخر الدهر[3]، فـ (أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبيّنا محمدﷺ، فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبيّ، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المدّعي، وهو الخارق المُعجز فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة، لاتّحاد الدليل والمدلول فيه)[4].

وبهذا يبطل قول القائل بأنه ليس للقرآن الكريم أي دلالة لا على النبوءة ولا على غيرها، فدلالة الكتاب على حد زعمهم يجب أن تلغى

(١) هداية الحيارى؛ لابن القيم ص ١٨٥ .
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، (١١/ ٣٣٣).
(٣) ينظر: فتح الباري: لابن حجر، (١٣/ ٢٤٨).
(٤) مقدمة ابن خلدون، ص ٩٥ .

إلغاء تامًا وكأنها غير موجودة، وأن الذي يعلمنا ليس القرآن، وإنما نفس الحوادث الكونية والتاريخية هي مَن تعلمنا[1]، ويبطل قول القائل بأن القرآن دلالته ليست ذاتية[2].

ومن سمات القرآن أيضًا أنه اشتمل على دلائل متنوعة ومتفاوتة على إثبات نبوءة النبي محمدﷺ، ومَن قبله من الأنبياء، وهذا خاص بالقرآن فقط، فهو دليل يشتمل على دلائل عدة ـ وهذا هو موضوع البحث ـ.

لا يمكن حصر دلالات القرآن في وجه دون آخر[3]، بل لابد من الأخذ بها جميعًا، وهذه هي حقيقة الإيمان بالكتاب، قال تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾[آل عمران: ١١٩]، وهذا هو المنهج الحق المتكامل الشامل لتصور المسائل والدلائل من خلال القرآن الكريم، أمَّا مَن يحاول تبعيض القرآن وتجزئته من جهة مسائله ودلائله فهذا لا شك أنه سيقع في خلل منهجي من جهة إقصائه لبعض الحقائق، وهذا منهج أهل الكتاب، وهو بلا شك منهج مذموم قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[الحجر: ٩١] أي جزَّؤوه فجعلوه أعضاء، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[4].

---

(١) ينظر: رسالة انظروا؛ جودت سعيد ص ٨، ويذهب إلى هذا أيضًا خالص جلبي، ينظر: جريدة الرياض (ع: ١١٠٣٥)، بتاريخ: ١٠/ ٩/ ١٩٨٨م.

(٢) ينظر: نظم القرآن والكتاب؛ يوسف درة الحداد ص ١٨٧.

(٣) ينظر: شرح العقيدة الأصفهانية: ص ٧١٥.

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٤٣٥.

كما لا يمكن الاقتصار على وجه من أوجُه دلائل نبوءة النبي ﷺ وجعله هو الدليل الوحيد على صدق نبوءة النبيﷺ لاشتمال القرآن على دلائل عدة، كما ستبينها فصول هذا البحث، وبهذا التنوع والكثرة والظهور لأدلة النبوءة في القرآن يحصل اليقين بها، فتكون قطعية الدلالة، وهذا التنوع في دلائل القرآن على النبوءة يفيد في إقامة الحُجة على مَن يُنكر جنس النبوءة أو نوعها، فبعض الأدلة يكون مستقل الدلالة كدلالة النظم والأسلوب، ومنها ما لا تقوم الحُجة به حتى يحتف بالقرائن كالإخبار بالمُغيبات، ومنها ما يعضد الدلائل الأخرى كأميته، ومن الدلالات ما يتعلق بأحواله ﷺ كدلالة أخلاقه، وأميته، وآيات عتابه، ومنها ما يتعلق بمضمون رسالته.

ومن سمات دلالة القرآن على صدق نبوءة النبي محمد ﷺ أنَّه دليل صدقه من أول ما نبأه الله تعالى، فأول ما نزل عليه الوحي قال الله تعالى له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[العلق: ١]، بينما نلحظ أن نزول التوراة على موسى عليه السلام كان بعد أن أهلك الله تعالى فرعون[١]،وهذا يتبين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾[القصص: ٤٣].

ومن سمات دلالة القرآن أن الله أنزله مُبرأً عن الاختلاف والتضاد، يحصل به كمال التدبر والاعتبار[٢]، وليكون حَكماً بين جميع المختلفين لأنه إنما يقرر معنى هو الحق، والحق لا يختلف في نفسه[٣].

(١) ينظر: المحرر الوجيز؛ لابن عطية (٥/ ١٩٥).
(٢) ينظر: الاعتصام: للشاطبي (٣/ ٢٦٨).
(٣) ينظر: الاعتصام: للشاطبي (٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

ومن سمات دلالة القرآن أنه آية واضحة بينة على صدق النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾[البقرة: ٩٩] (أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك)[١].

❐ البراهين العقلية لا تتغير بتغير الزمان والمكان، بل هي مطردة مستقيمة في دلالتها في كل زمان ومكان، والقرآن دليل صدق النبي ﷺ وهو باقٍ، لأن الله تكفل بحفظه، وبقاؤه يستلزم بقاء نبوءة النبي محمد ﷺ ويقويها، فالقرآن حُجة لما فيه من التنبيه إلى دلائل العقول[٢].

❐ الدليل على النبوءة هو العلم بأن ما جاء به حق من غير جهته[٣]، فحينما يخبر بالمُغيبات المستقبلية يُعلم صدقه حين يتحقق ما أخبر به، وحينما يخبر عن أمور غيبية ماضية يُعلم صدقه حين يتفق ما أخبر به مع ما سبق من أخبار كما أقر بصدقه هرقل والنجاشي وورقة، والبشارة بنبوءته أخبر بها الأنبياء الذين قبله.

* * * * *

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٢٤).

(٢) ينظر: تثبيت دلائل النبوة: للقاضي عبد الجبار ص ٨٦، والمغني (١٥/ ١٩٠).

(٣) ينظر: النبوات (٢/ ٩٤٠).

المطلب السادس

مصطلح المعجزة والإعجاز (إشكالية المصطلح)

الآيات والبراهين والحُجة والسلطان والبينة والبصيرة وردت في القرآن الكريم وهي تدل على صدق نبوءة النبي محمدﷺ، فهي ذات دلالة مقصودة، وهي تُسمى بدلائل النبوءة، وأعلام النبوءة، وهناك مَن يسميها بـ (المعجزات)، و(المعجزة) إلا أن هذا المصطلح لم يرد في الكتاب والسنة[1]، لذا لم يستخدمه السلف كما استخدمه المتكلمون، لأن دلالته محدودة، وهذا بخلاف المصطلحات الشرعية التي تحمل مضامين متعددة، ذات دلالات متنوعة[2]، كما أنَّ السلف يُثبتون النبوءة بالدلائل المتنوعة، ولا يحصرون دلالة النبوءة في (المعجزة) فقط كما فعل المتكلمون، ولأن لفظ (المعجزة) لا يدل على كون ذلك آية ودليلاً إلا إذا فُسِّر المراد به، وذُكِر شرائطه، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمي معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط، وما كان للأولياء إن ثبت لهم خرق عادة سماها كرامة.

والسلف كأحمد وغيره كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً، ويقولون لخوارق الأولياء إنها معجزات، إذاً لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك، بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي؛ فإن هذا يجب اختصاصه.

وقد يسمون الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة مَن اتبعه الولي، فإن الدليل مستلزم للمدلول، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول، فكذلك ما كان آية وبرهاناً، وهو الدليل والعَلَم على نبوة النبي يمتنع أن يكون لغير النبي)[3].

فمصطلح (المعجزة) من المصطلحات التي ترادف الدليل، ظهر هذا إبَّان اختلاط العرب بالأمم الأخرى حيث ضَعُف اللسان العربي، إضافة إلى البعد عن

---

(١) ينظر: الجواب الصحيح (٥/ ٤١٢ ـ ٤١٩)، والنبوات، (١/ ٢١٥)؛ و(٢/ ٧٨٢ـ٧٨٥).

(٢) ينظر: الجواب الصحيح (٥/ ٤١٩).

(٣) الجواب الصحيح (٥/ ٤١٩)، وينظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٣١١).

العهد النبوي، ومع دخول علوم اليونان في الإلهيات إبَّان حركة الترجمة، وظهور الملاحدة، الذين ينكرون وجود الله، وينكرون النبوءات، بدأ التفكير والتدوين بطريقة علمية جدلية عقلية مجردة عن التذوق الجمالي، وإدراك المعاني بالسليقة الصافية، للرد على مَن ينكر وجود الله من جهة، ومَن ينكر النبوءات من جهة أخرى، وللجدال الكلامي الذي حدث بين الفرق حيال اختلاف أقوالها في المسائل والدلائل، فالبيئة العلمية أصبحت جدلية كلامية منطقية استعرت فيها الخصومة، وكثر فيها الخلط بين كثير من المسائل والدلائل، وظهرت بعض المصطلحات الكلامية في الساحة الفكرية[1]،منها ما يتعلق بباب الأسماء والصفات، وقد نُقِدَت بفضل الله تعالى، وكُتبت فيها رسائل عديدة، ومنها ما يتعلق بباب النبوءات كـ (المعجزة والإعجاز)، ولم تُنْقَد بعد نقداً كافيـًا، والأبحاث فيها قليلة، لذا ما زال اللَّبس فيها حاصلاً.

فـ(المعجزة) مصطلح اصطُلِح عليه في القرن الثالث، ولا يُعلم على وجه القطع أول قائل بها[2]، على خلاف في حدها، ومن ثم لقيت رواجـًا كبيراً، فباتت عَلَمـًا على قضية النبوءة، وتبوأت في طيات صفحات الكتب، بل إنها حينـًا تكون عنوانـًا لمُصنفات!

ومن الضرورة بمكان دراسة مصطلح (المعجزة) وفهمه فهمـًا جيداً ليتبين الفرقان بينها وبين غيرها[3].

---

(١) ينظر: بيان تلبيس الجهمية؛ لابن تيمية، (٢/ ٣٣٨)، والصواعق المرسلة؛ لابن القيم، (٢/ ٧١٦)، وصون المنطق؛ للسيوطي، ص ١٩، وفكرة إعجاز القرآن؛ لنعيم الحمصي، ص ٣٩ ـ ٤٠، والنبوة؛ د/ علي مبروك، ص ١٤٩.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء؛ محمد موسى، ص٦٩، وممن استعمل لفظ المعجزة: إبراهيم النظام، ينظر: مقالات الإسلاميين؛ لأبي الحسن الأشعري، ٢٢٥، وهشام الفوطي، وعباد بن سليمان، ينظر: مقالات الإسلاميين، ص٢٢٥، والجاحظ، ينظر: مجموع رسائل الجاحظ، (٣/ ٢٨٣). ومما ينبه له أن ابن رين؟؟ الطبري (ت: ٢٤٠هـ) صنف كتاب الدين والدولة لإثبات نبوة النبيﷺ لم يستخدم لفظ المعجزة والإعجاز وإنما استخدم الآية والبرهان والدلائل.

(٣) ينظر: النبوات (٢/ ٨٥١).

فالمعجزة أصلها من عَجَز، والعَجْزُ الضعف، وهو نقيض الحَزْم، وأما الإعجاز فهو السَّبق والفَوْت، ومنه قول الأعشى:

فذاك ولم يُعجِزْ من الموت ربَّه   ولكن أتاه الموتُ لا يتأبّقُ[1]

وقيل العجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر أي مُؤَخَّرِه، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾[المائدة: ٣١][2].

لقد حصر كثيرٌ من المتكلمين[3] أدلة صدق النبوءة في (المعجزة) فقط[4]، وحتى تكون (المعجزة) دليلاً على صدق النبوءة لا بد لها من شروط، وهي في مجملها تعود إلى: خرق العادة، والاقتران بالتحدي، ودعوى النبوءة، والسلامة من المعارضة[5].

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة (١/ ١٠١)؛ ومقاييس اللغة (٤/ ٢٣٢)؛ ولسان العرب (٦/ ١٣٠). مادة (عجز).

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٢٢.

(٣) من المتكلمين مَن يثبت صدق النبوءة بأدلة أخرى كدلالة البشارة بالنبي ﷺ، ينظر: المواقف في علم الكلام؛ للإيجي ص٣٥٦-٣٥٧، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين؛ للرازي: ص٣١٠، وشرح العقيدة الأصفهانية؛ لابن تيمية، ص ٥٣٧-٥٣٨، وسيأتي بيان هذا خلال فصول هذا البحث، ومما ينبغي التنبيه إليه أنهم يجعلون هذه الدلالة لمجرد التكملة وزيادة التقرير، وفي هذا توهين للدلالة مع أن فيها دلالة ضرورية. ينظر: حقيقة المعجزة وشروطها عند الأشاعرة دراسة نقدية؛ د/ عبد الله القرني ص ٦.

(٤) ينظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به؛ للباقلاني: ص٥٤، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الدين؛ للجويني: ص٣٣١، وشرح المقاصد؛ للتفتازاني (٥/ ١٩)؛ ونظم القرآن: يوسف الحداد، ص ٣٤.

(٥) ينظر: الحدود في الأصول؛ لابن فورك ص١٣٠، والإنصاف؛ للباقلاني ص٥٤، ولمع الأدلة؛ للجويني ص١١٠، والإرشاد له أيضاً ص٣١٢، وأصول الدين؛ للبغدادي، ص١٧٠، والمواقف؛ للإيجي (٨/ ٢٢٢)، وشرح جوهرة التوحيد؛ للبيجوري، ص٨٣، وأعلام النبوة؛ للماوردي، ص٢٨، والاقتصاد؛ للغزالي، ص ١١٢، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين؛ للرازي، ص٢٠٧، والأربعين له ص ٢٩٦، وشرح المقاصد؛ للتفتازاني (٥/ ١١)، ومناهل العرفان؛ للزرقاني، (١/ ٧٣)، وغيرها كثير من مراجع الأشاعرة. وهي الشروط ذاتها عند المعتزلة، ينظر: شرح الأصول الخمسة: للقاضي عبد الجبار ص٥٦٨-٥٧١، والمغني له أيضاً (١٥/ ١٩٩). وهذا مما اتفق عليه بين المعتزلة والأشاعرة على تباين أصولهم، ومآلات شروطهم والتي سأذكرها.

وهذه الشروط التي جعلوها لـ (معجزة) متفق عليها فيما بينهم، إلا أنها أحدثت إشكالات فلسفية للتفريق بين النبي وغيره، فتباينت الأقوال في حقيقة الفارق بينهما:

فذهب أكثر المعتزلة إلى أن خرق العادة لا يكون إلا للنبي فقط، فيكون له آية على صدقه دون غيره، لذا أنكروا خوارق السحرة والكهنة، وكرامات الأولياء[1].

وذهب حُذاق الفلاسفة إلى أنه لا فرق بين حقيقة الخوارق التي يأتي بها النبي والولي وغيره من المتنبئين السحرة، إلا أن نفس النبي والولي طاهرة تقصد الخير، ونفس الساحر خبيثة تقصد الشر[2].

وذهب الأشاعرة إلى أن الفرق في خرق العادة بين النبي والولي والساحر والكاهن يكون بدعوى النبوءة والتحدي، لأن خرق العادة ممكن غير ممتنع للأنبياء وغيرهم، فاشترطوا عدم المعارضة والتحدي ليكون فيصلاً بين خوارق الأنبياء وغيرهم، وعليه أثبتوا السحر والكهانة والكرامة[3]، فلم يثبتوا فرقًا يعود إلى جنس الخوارق المفعولة، ولا إلى قصد حكمة الخالق، فسووا بين النبي الصادق والساحر الكاذب، بناءً على أصولهم[4].

ثمة أسئلة تطرح نفسها ألا وهي:

ما المراد بالعادة؟

وما المراد بالسلامة من المعارضة؟

وهل كل المعجزات يلزم منها التحدي؟

ولابد أن تكون في زمن النبوءة؟

---

(١) هذا ما ذهبت إليه المعتزلة، ينظر لأقوالهم في: المغني (١٥/ ١٨٩، ٢١٧ـــ ٢١٨)، وفي النبوات (١/ ١٢٩ـ١٣٣).

(٢) ينظر: الإشارات والتنبيهات؛ لابن سينا (٣م٨٩٨ـ ٨٩٩).

(٣) ينظر: الجواب الصحيح: لابن تيمية، (٦/ ٤٠٠ـ ٤٠١)، والنبوات، (١/ ٤٨٥ـ٤٨٦).

(٤) ينظر: النبوات (٢/ ٨٧٢).

ستكون الإجابة من خلال الوقفات التالية مع شروط (المعجزة) لأن هذا هو المشهور والمتداول لدى الكثير من الدارسين والمختصين، مما أدى إلى إحداث خلط في كثير من المسائل، لذا كان من الضرورة بمكان الوقوف معها وتحريرها[1].

وقفات مع شروط (المعجزة):

أولاً: خارق للعادة، ما المراد بالعادة؟

العادة في اللغة: هي الدَّيْدَنُ اسم لما يعود ويتكرر، وهي الدُّرْبة. والتَّمادِي في شيء حتَّى يصير له سجيّةً، وهي كل ما اعتيد حتى صار يُفعل من غير جهد، وتعودته أي: صيرته له عادة، وسمي العيد عيداً لأنه يعود، واسْتَعَدْتُ الرجل: سألته أن يعود، وسُميت العادة بذلك؛ لأن صاحبها يُعاودها، أي يرجع إليها مرة بعد أخرى، والحالة تتكرر على نهج واحد كعادة الحيض في المرأة[2].

أنشد ابن الأعرابي:

لم تَزَلْ تِلْكَ عادَةَ اللهِ عِنْدِي... والفَتَى آلِفٌ لما يَسْتَعِيدُ[3]

اصطلاحـًا: عُرِّفت العادة بعدة تعريفات منها:

١ـ ما استمر الناس عليه على حكم العقول وعادوا إليه مرة بعد أخرى[4].

٢ـ ما استقر في النفوس من الأمور المتكررة المعقولة عند الطباع السليمة.

---

(١) هناك دراستان عنيتا بهذا الجانب، استخلصت جل الوقفات منهما، وهما: حقيقة المعجزة عند الأشاعرة وشروطها دراسة نقدية ؛ د/ عبدالله القرني، وعقيدة العادة عند الأشاعرة؛ جابر السميري. وينظر كذلك: السببية عند الأشاعرة دراسة نقدية ؛ جمعان الشهري، ص ٢٨٦ـ٣٠٢.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ١٨١)، وتاج العروس؛ للزبيدي، (١/ ٢١٤٤)، ولسان العرب (٣/ ٣١٥)، والمعجم الوسيط (٢/ ٦٣٥).

(٣) المحكم والمحيط الأعظم (٢/ ٣٢١).

(٤) التعريفات ص ١٨٨.

٣ـ الأمر المتكرر من غير علاقة عقلية أو شرعية[١].

ويمكن الاعتراض على التعريف الأخير بأنَّ اشتراط التكرُّر من غير علاقة عقلية أو شرعية يُخرج ما كان متكرراً بعلاقة عقلية فلا يسمى عادةً، وإنما يُسمَّى تلازمـًا، كما يخرج ما تكرر لعلاقة شرعية، كتكرر وجوب الصلاة عند الزوال، ووجوب الصوم عند هلال رمضان، فهذا ليس من العوائد وإن كان متكررًا[٢].

ومما يلاحظ على التعاريف السابقة للعادة أنَّها تنفي العلاقة أو السببية، فالعادة ما هي إلا أمر معتاد يتكرر فتألفه العقول والنفوس دون أن يكون هناك علاقة سببية تربط أمراً بآخر، أو أن هذا يترتب على هذا. فهي تعني أنه لا شيء يؤثر في شيء ولا علة تؤثر في معلولها، وما اعتاده الناس اليوم قد لا يعتاده الناس في غد، فالعادة نسبية لا مطلقة، فلماذا القول بالعادة؟

حينما قال الطبائعيون: بأن الطبيعة هي الخالقة، ولها التأثير والاستقلال بالفعل وحدها، وهناك تلازم حتمي بين السبب والمسبب، أحدث هذا ردة فعل لدى بعض الأشاعرة فذهبوا إلى إنكار خواص الطبيعة، وأن طبائع الأشياء لا أثر لها البتة وأنه لا توجد في الأشياء قُوى وطاقات كامنة بمعنى أن النار ليس فيها قوة إحراق وأن ما يشاهده الإنسان من احتراق إنما هو عادة وإلف وليس ناتجًا عن قوة في النار، أدى هذا إلى إنكار العلاقة بين الأسباب ومسبباتها وأن التلاقي بينهما ما هو إلا عادة فليس هناك أي علاقة ترابطية إلا ما يشاهده الإنسان بعينه والمشاهدة ليست حُجة.

بمعنى: أن اطراد الموجودات وتسلسلها ليس قائمًا على الترابط العِليِّ بل إن العادة وجريانها هما السبيل في إحساسنا بالتعاقب بين ما يُقال إنه سبب وما يُقال إنه

(١) ينظر: تاج العروس؛ للزبيدي، (١/ ٢١٤٤)، وتيسير التحرير ؛ محمد أمين الشهير بأمير بادشاه (٢/ ٢٠).

(٢) ينظر: العرف وأثره في الأحكام ؛ لمحمد جمال علي ص٢٢.

مُسبب، وإن وجود أحدهما في الذهن يلزمه ـ بالتداعي ـ وجود الآخر دون أن يكون هناك في الواقع رابطة عِلِّية حقيقة.

و إذا أضيف إلى ردة الفعل هذه موقف بعض الأشاعرة من الحكمة والتعليل فإنهم ينكرونها ولا يثبتونها لله تعالى، فالله تعالى لا يفعل لحكمة ولا لعلة، والمعجزة لم تكن لغرض تصديق النبي، بل إنها دلت على تصديق من الله قائم بذاته بالضرورة[1]، ولو أضفنا مذهب بعضهم في تجويزهم على الله فعل كل شيء، ولا فعل للعبد، وكذا موقف بعضهم من نفي التحسين والتقبيح العقليين وقصره على الشرع فقط، فلو أثبتوا التحسين والتقبيح العقليين لقالوا بأن الله تعالى يؤيد بآياته الصادق فقط، فهذا فعل حسن لذاته، وهو ما يحسنه العقل، ويستقبح أن يؤيد الله بآياته الصادق والكاذب، فلما نفوهما جوزوا ظهور المعجزة على الكاذب وجواز كذب النبي، وهذا ليس بقبيح على أصلهم من جهة العقل إنما من جهة الشرع، وهذه مكابرة للعقل والفطرة، فالقبيح قبيح بنفسه، قبل ورود الشرع بالنهي عنه[2].

ويعود موقف بعض الأشاعرة من السببية والسنن الكونية لأنهم جعلوا إثباتها منافياً لتوحيد الله وعموم قدرته، ومنافياً للاستدلال بالمعجزات على النبوءة، فوقعوا في إشكالية التعارض بين إثبات السببية وإثبات المعجزات.

---

(١) ينظر: المقاصد؛ للتفتازاني، (٥ / ٢٠٣)، و غاية المرام؛ للرملي، (١/ ١٥)، والتفسير الكبير؛ للرازي، (٦/ ١٣٩)، ومنهاج السنة (٢/ ٤١٤، ٤١٩)، (٥/ ٤٣٩)، والنبوات، (٢/ ٩٨٧)، والصواعق المرسلة (٣/ ٩٨٧).

(٢) ينظر: الإرشاد؛ للجويني ص٢٥٨، ونهاية الإقدام؛ للشهرستاني ص٣٧٠، والمحصل ؛ للرازي، ص٤٧٨ـــ٤٨١، وأبكار الأفكار ؛ للآمدي، (٢/ ١١٧)، والجواب الصحيح (٢/ ٣٠٨ـــ٣٠٩)، ومجموع الفتاوى (٨/ ٤٣٢)، ودرء التعارض (٧/ ٤٩٣)، والرد على المنطقيين ص٤٢٢، والصواعق المرسلة (٢/ ٢٣٩)، ومدارج السالكين (١/ ٢٣٠ـ٢٣٩).

حيث لم يفهموا من مبدأ الاطراد إلا مبدأ الحتم الضروري بين السبب والمُسبب الذي لا يمكن أن ينخرم، ولو أنهم قيدوا ذلك التلازم المُطرد بين الأسباب والمسببات بقدرة الله ومشيئته لكانوا على صواب.

والأشاعرة في إبطالهم للعلل والأسباب لم يردوا على الطبائعيين القائلين باستقلال الطبيعة بالخلق، بل اعتُرِضَ عليهم بأن الذي قالوه معلوم الفساد بالضرورة، وتجويز هذا يقتضي حدوث الحوادث بلا سبب، والترجيح بلا مُرجح، وذلك يسد باب إثبات الصانع، والصحيح أنَّ (حقيقة الإعجاز متوقفة على إثبات مبدأ الاطراد للسنن الكونية، والذي هو الحد الفاصل المُميز للمعجزة من غيرها، فإذا كان الخرق وفق السنن الكونية الجارية لم يكن معجزاً، وأما إذا كان خرقاً لتلك السنن الكونية المُطردة فهو معجز.

وعليه فلن يستقيم لهم الأمر في إثبات المعجزة إلا بفهم العلاقة السببية الفهم الصحيح المعتبر في الشرع والعقل)[1].

وخروجاً من الاعتراضات والإلزامات المنطقية، نتج عن هذه التراكمات العقدية مماحكات جدلية، فقالوا بخرق العادة، واشترطوا التحدي وعدم المعارضة للمعجزة، ومع هذا فالعادة لديهم ذات صلة وثيقة بقضية النبوءة، فـ(لو لا أن اطراد العادات معلوم لَما عُرف الدين من أصله، فضلاً عن معرفة فروعه، لأن الدين لا يُعرف إلا عند الاعتراف بالنبوة، ولا سبيل إلى الاعتراف بها إلا بواسطة المعجزة، ولا معنى للمعجزة إلا أنها فعل خارق للعادة)[2].

وحينما أرادوا الاستدلال على صدق النبوءة ونزاهة مُدعيها، قالوا بأنها تكون عن طريق خرق العادة، فما يأتي به الأنبياء من الآيات التي تدل على صدقهم ما هو

---

(١) السببية عند الأشاعرة دراسة نقدية ص ٣٠٢.

(٢) الموافقات (٢/ ٤٨٤).

إلا دلالة عادية، لأن العادة جرت بأن المعجزة لا تظهر على يد الكاذب، وإن كان العقل يُجوِّز ظهورها على يد الكاذب بناءً على شمول القدرة لله تعالى، لكنها ممتنعة عادة، معلومة الانتفاء قطعـاً، كما هو الحكم في سائر العادات.

ومعنى العادة أنه ليس هناك تلازم ضروري بين الأسباب والمُسبَّبات أو العلَّة والمعلول، بل ليس هناك علاقة بين السبب والنتيجة؛ وفي هذا يقول الغزالي: (الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببًا، وبين ما يعتقد مُسببًا، ليس ضروريًا عندنا.. بل كل شيئين ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمنًا لإثبات الآخر ولا نفيه متضمنًا لنفي الآخر) [1].

فكل ما يُشاهد من المقترنات في الطبيعية إنما حصل اقترانهما بقدرة الله سبحانه لا لكونه ضروريّـاً في نفسه غير قابل للفرق، لأن الله يستطيع أن يخلق الشبع في إنسان دون أكل، كما يمكن أن يخلق فيه الموت دون قطع الرقبة وهكذا [2].

ويعتمد الأشاعرة في قولهم هذا على نفي السببية الذاتية؛ فما دامت السببية غير موجودة في ظواهر الكون بحيث لا يمكن للأشياء أن تخلق نفسها بنفسها، أو تخلق بعضها بعضـاً، ولا يكون بعضها سببـاً لبعض فإن الله وحده هو الخالق، والسبب الأوحـد في هذا الكون، فالزناد مثلاً لا يتضمن ناراً ولكنه يشعلها لا باعتباره سببـاً ولكن لعادة شاءها الله وأبدعها فيه.

يقول أبو الحجاج يوسف الضرير [3]:

---

(١) تهافت الفلاسفة، ص ٢٣٩.

(٢) ينظر: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي: للأستاذ يوسف احنانة.ص٨٥-١٨٦،٨٦.

(٣) يوسف بن موسى الكلبي السرقسطي الضرير أبو الحجاج، النحوي، أشعري المعتقد، له تصانيف وأراجيز مشهورة منها التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد؛ مات سنة عشرين وخمسمائة، ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة؛ للسيوطي (٢/ ٣٦٢)، والأعلام؛ للزركلي، (٨/ ٢٥٤).

وحدث النار عيانـاً يشهد إذ ليس في الزناد نار توقد

وإنــما يبـدعها الإلـــــه عند اقتداح الزند أو سواه

أراد أن يكون هذا عـادهْ مَن فعله يفعل مــــا أراده[1]

وعليه فدلالة المعجزة على صدق النبي دلالة عادية ليست عقلية محضة كدلالة الفعل على وجود الفاعل، فالله تعالى يخلق العلم بصدق النبي عقب ظهور المعجزة، إذ العادة جرت بأن المعجزة لا تظهر على يد الكاذب وإن كان العقل يُجَوِّز ظهورها بناءً على شمول القدرة الإلهية لكنها مُمتنعة عادة[2].

وهذا ينفي اليقينية عن دلالة المعجزة التي اشترطوها[3]، ويشكك في دلالة العقل عليها، وهو لا يستقيم مع تعذيب الكفار الذين كذَّبوا بالأنبياء؛ لأنهم لم تقم لديهم حجة قاطعة على صدق الأنبياء[4] إذ لا بد للمعجزة من أن تكون دلالتها يقينية عقلية.

وحيال النظر في مصطلح العادة نجد أنه: (لفظ مُموه إذا حُقِّق لم يكن تحته معنى إلا أنه فعل وضعي مثل ما نقول: جرت عادة فلان أن يفعل كذا وكذا يريد أنه يفعله في الأكثر، وإن كان هذا هكذا كانت الموجودات كلها وضعية ولم يكن هناك حكمة أصلاً من قبلها تنسب إلى الفاعل أنه حكيم)[5].

كما أن كَوْن الشيء معتاداً أو غير معتاد أمر نسبي إضافي ليس بوصف منضبط[6]، وبالتالي تصبح خوارق العادات نسبية إضافية، فهي لا تصلح لكل زمان ومكان، وهذا

---

(١) العقيدة البرهانية؛ لأبي عمرو عثمان السلالجي، دراسة وتحقيق د/ جمال علال البختي، ص٤٧٨.

(٢) ينظر: المواقف (٨/ ٢٢٨-٢٢٩).

(٣) ينظر: نهاية الإقدام ؛ الشهرستاني، ص ٤٣٤.

(٤) ينظر: المعجزة؛ زمزم رجال، ص٣٩.

(٥) تهافت التهافت؛ لابن رشد، (٢/ ٧٨٦)، وينظر: الموافقات في أصول الشريعة، (١/ ١٤٨).

(٦) ينظر: الجواب الصحيح (٦/ ٤٠٠-٤٠١).

يتنافى مع دلالة القرآن على صدق نبوءة النبي محمدﷺ وغيره من الأنبياء.

وللعلم أن الأشاعرة لا ينفون السببية العامة، وهي أن الله خالق الأسباب والمسببات، لكنهم ينفون العلاقة بينهما(١).

ثانيـًا: مقرون بدعوى النبوءة والتحدي.

لما لم يكن لديهم ضابط لخرق العادة، فما يجري من العادات يجوز أن يكون للنبي والولي والساحر والكاهن، لذا اشترطوا دعوى النبوءة والتحدي وعدم المعارضة للتفريق بين العادات، والمراد أن المعجز ليس بمعجز لجنسه ونفسه، ولا لحدوثه، وإنما يصير معجزاً باقترانه بدعوى النبوءة والتحدي والاحتجاج وعدم المعارضة(٢).

وهذا الشرط هو فرع التسوية بين الخوارق ولازم لها، فإن المعجزة إذا كانت من جملة الخوارق، والخوارق عندهم جنس واحد، لا تختلف آحاده بالنظر إلى حقيقة كل منها، فلابد إذاً من أن تتميز المعجزة لذاتها، بل لابد أن تكون دلالتها مشروطة باعتبارات خارجة عن حقيقتها، ولأجل ذلك ذكروا التحدي بالمعجزة ودعوى النبوءة، لكونها لازمة للمعجزة لأن المعجزة لا تكون إلا لنبي(٣).

واشتراط التحدي يتنافى مع سمات أدلة النبوءة التي تقتضي التلازم بين الدليل والمدلول دون الاستدلال به، فالتحدي يقوم على أن الدليل لا يدل بنفسه على المدلول وإنما لا بد من استدلال المُستدل به.

إضافة إلى أن اشتراط التحدي مخالف لواقع آيات الأنبياء، حيث لا يتناسب مع

---

(١) ينظر: تهافت الفلاسفة ؛ الغزالي ص٢٣٩، وكبرى اليقينيات الكونية؛ د/ محمد سعيد رمضان البوطي ص ٢٩٠، والتفكير الفلسفي الإسلامي؛ سليمان دنياص١٩٣.

(٢) ينظر: البيان؛ للباقلاني: ص٤٧ــ ٤٨، والإرشاد؛ للجويني، ص٣١٩، وأصول الدين؛ للبغدادي، ص١٣٨، والملل والنحل ؛ للشهرستاني، (١/ ٩٧).

(٣) ينظر: النبوات (٢/ ٨٥٣- ٨٥٤).

كثير من آيات الأنبياء، فإن آيات الأنبياء في الأعم الأغلب لم تكن مقرونة بالتحدي[1]، وما هو معلوم بالضرورة من سيرة النبي ﷺ، فإنه لم يكن يتحدى بالمعجزات ابتداء، فهذا الشرط إنما التزموا به لأن منهجهم يقتضيه، لا لأن الأمر كذلك بل لأنهم التزموا به وليس لهم في إثباته وحصوله من النبي ﷺ على الوجه الذي اشترطوه دليل.

وفي تقرير هذا المعنى يقول ابن حزم[2]: (إن اشتراط التحدي في كون آية النبي آية دعوى كاذبة، سخيفة، لا دليل على صحتها، لا من قرآن ولا سنة صحيحة ولا سقيمة ولا من إجماع ولا من قول صاحب ولا من حجة عقل ولا قال بهذا أحد قط قبل هذه الفرقة الضعيفة)[3].

كما (إن عامة معجزات الرسول لم يكن يتحدى بها ويقول ائتوا بمثلها والقرآن إنما تحداهم لما قالوا إنه افتراه ولم يتحدهم به ابتداء، وسائر المعجزات لم يتحد بها وليس فيما نقل تحد إلا بالقرآن، لكن قد علم أنهم لا يأتون بمثل آيات الأنبياء فهذا لازم لها لكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره)[4].

وإذا علم أن النبيﷺ لم يكن يتحدى بالمعجزات ابتداء، بل أكثر المعجزات لا يشهدها إلا الصحابة ولا يمكن في حقهم التحدي بتلك المعجزات بل هم مؤمنون به وإن لم يشهدوها، فعلم أن ما شرطوه من اقتران التحدي ودعوى النبوءة لا أصل له، بل يلزم القدح في تلك المعجزات، لعدم تحقق ما شرطوه

---

(١) ينظر: الإعجاز العلمي إلى أين؟! ؛ د/ مساعد الطيار، ص ١٠.

(٢) ابن حزم هو: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، أديب، شاعر، فقيه أصولي، له مصنفات شتى، منها الفصل في الملل والنحل، والمحلى، والإحكام لأصول الأحكام، توفي سنة ست وخمسين وأربع مئة. ينظر: سير أعلام النبلاء؛ للذهبي، (١٨/ ١٨٤).

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل؛ لابن حزم: (٥/ ٧)، وينظر: المواهب اللدنية؛ للقسطلاني (٢/ ٤٩٧).

(٤) النبوات (٢/ ٧٩٤)، وينظر: المواهب اللدنية (٢/ ٤٩٨).

فيها[1].

فـ(ليس من شرط دلائل النبوة اقترانه بدعوى النبوة ولا احتجاج به ولا التحدي بالمثل ولا تقريع مَن يخالفه، بل كل هذه الأمور قد تقع في بعض الآيات، لكن لا يجب أن ما لا يقع معه لا يكون آية، بل هذا إبطال لأكثر آيات الأنبياء لخلوها عن هذا الشرط)[2].

كما أن التحدي الذي اشترطوه ليس مُختصّاً بالمعجزة وحدها، فقد يقع بالكرامة كما فعل خالد بن الوليد رضي الله عنه حين شرب السم، وكالغلام الذي لم يتمكنوا من قتله إلا بسهمه، وذكر اسم ربه[3].

ثالثاً: سالم من المعارضة.

سلامة المعجزة من المعارضة هي دليل على صحة نبوءته، وأما سلامة شرعه عن التخليط والنقص فيه فلا يدل على صحة نبوءته[4]، لأن هذا مبني على الإدراك العقلي للحسن والقبح، والأشاعرة ينفونه، فالمعارضة بالمثل عندهم هي مجموع دعوى النبوءة والإتيان بالخارق[5]، فيلزم على هذا ادعاء النبوءة ممَن يُعارض النبي، ويؤيد ذلك بالأمر الخارق للعادة.

وعلى هذا فلا يفهم من المعارضة للرسول ﷺ الإتيان بمثل القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة، بل لا بد من أن يدعي أحدهم النبوءة ويأتي بمثل القرآن أو جزء منه، وهذا مخالف للمعقول والمنقول، فلم يدعِ أحد من كفار قريش الذين

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٥/ ٧).

(٢) النبوات (١/ ٦٠٤)، وينظر: الفصل في الملل والنحل (٢/ ٧٩٤).

(٣) ينظر: النبوات (١/ ١٤٠-١٤١).

(٤) ينظر: أصول الدين ص ١٧٦.

(٥) ينظر: الإرشاد؛ للجويني ص٢٦٥، واليواقيت والجواهر؛ للشعراني ص١٥٧، وتحفة المريد؛ للبيجوري ص٩١، وإعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء؛ محمد موسى ص٣٨.

كذبوا بما جاء في القرآن النبوءة، لأن طلب الإتيان بالمثل كان في آيته ولم يكن في دعوى النبوءة.

رابعـًا: مقرون بزمن دعوى النبوءة.

إنَّ اشتراط اقتران الآية بدعوى النبوءة اشتراط غير مُسلَّم به، لأن الآية شهادة من الله، لصدق نبوءة أنبيائه لأهل كل عصر ومصر، فلا يجب أن تكون في محل النبوءة ولا زمانها، ولا مكانها، ولأن هذا الاشتراط يقتضي إخراج كثير من أعظم أدلة النبوءة عن مسمى آيات الأنبياء كالبشارات والإخبار بالمُغيبات، فالآيات التي تدل على صدق الأنبياء توجد في غير زمن النبي الذي أخبر بها، كإخبار الأنبياء السابقين ببعثة محمدﷺ، وحيال مبعث النبيﷺ دل هذا دلالة صريحة على صدق الأنبياء الذين أخبروا بها.

فآيات النبوءة وبراهينها تكون في حياة الرسول، وقبل مولده، وبعد مماته، لا تختص بحياته، فضلاً عن أن تختص بدعوى النبوءة، كإخبار مَن تقدم من الأنبياء ببعثة النبيﷺ، وكتحذير جميع الأنبياء من فتنة المسيح الدجال، والعاقبة والنصرة التي تكون لأتباع الأنبياء، كل هذه الأخبار الغيبية دليل على صدق نبوءة مَن أخبر بها، وهي لم تقع في زمانهم، وإنما تحقق وقوعها بعد زمنهم هو دليل صدق على نبوءتهم لأهل ذاك الزمن حينما تقع[1].

كما أن ما ذكروه من الاستدلال على النبوءة بدعوى النبوءة مناقض لمنهج الاستدلال، وغايته أن يكون الدليل هو المدلول، إذ كيف يكون الدليل الذي هو هنا دعوى النبوءة المقارن للمعجزة دليلاً على النبوءة[2].

ومما يجدر التنبيه إليه أن كل مَن ناقش تعريف المعجزة ناقشه من جهة اقترانها

---

(١) ينظر: الجواب الصحيح (٢/ ٣٣-٣٤)، و(٦/ ٣٨٧)؛ والنبوات (١/ ٤٩٥).

(٢) ينظر: المرجع السابق (١/ ٥٤٢ و٦٠٥).

بدعوى النبوءة والتحدي وعدم المعارضة، ولم يناقشه من جهة خرق العادة، ولعل بالتحرير السابق لحد المعجزة وشروطها تبين المقصود.

ويمكن أن تعرف المعجزة بدون شروط المتكلمين الذين قيدوا (المعجزة) بها بأنها: أمر خارق للسنن الكونية الحسية والمعنوية يجريه الله تعالى على يد نبيه تصديقاً له، أو هي آية الله الخارقة الدالة على النبوءة الصادقة.

وهذا الحد جامع مانع لها، و (لكن ينبغي لك أن تعرف أن المعجزة لا تكون دليلاً إلا في حق مَن علم وجود الباري تعالى، وأنه قادر عالم مريد موصوف بصفات الكمال، حتى يتأتى منه الإرسال والتصديق والتكليف، وإذا لم يعرف الناظر هذه الأمور بأدلة عقلية لم يعرف المعجزة ولم يفده العلم بالتصديق للنبي)[1]، وهذا يعني عموم دلالة المعجزة فهي دليل على وجود الله تعالى وصفاته وأفعاله، وصدق أنبيائه ورسله، فدليل المعجزة ـ بدون شروط المتكلمين ـ من (أقوى الطرق وأصحها، وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله سبحانه آيات بينات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعباناً عظيماً يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت من أدل الدليل على وجود الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليات والجزئيات، وعلى رسالة الرسول، وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا، وكذلك اليد وفلق البحر طرقاً والماء قائم بينها كالحيطان ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رؤوسهم وضرب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتا عشرة عيناً تكفي أمة عظيمة وكذلك سائر آيات الأنبياء، فإخراج ناقة عظيمة من صخرة تمخضت بها ثم

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام وإظهار محاسن الإسلام؛ القرطبي، ص ٢٤٠، وينظر: الإرشاد ص ٣٢٩، ولباب العقول ؛ للمكلاتي، ص ٣٥٤.

انصدعت عنها والناس حولها ينظرون وكذلك تصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائراً ذا لحم ودم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس وكذلك إيماء الرسول إلى القمر فينشق نصفين بحيث يراه الحاضر والغائب فيخبر به كما رآه الحاضرون وأمثال ذلك مما هو من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله وصدق رسله واليوم الآخر وهذه من طرق القرآن التي أرشد إليها عباده ودلهم بها كما دلهم بما يشاهدونه من أحوال الحيوان والنبات والمطر والسحاب والحوادث التي في الجو وفي الأرض وأحوال المعلومات من السماء والشمس والقمر والنجوم وأحوال النطفة وتقلبها طبقاً بعد طبق حتى صارت إنساناً سميعاً بصيراً حيّاً متكلماً عالماً قادراً يفعل الأفعال العجيبة ويعلم العلوم العظيمة فكل طريق من هذه الطرق أصح وأقرب وأسهل وأوصل من طرق المتكلمين التي لو صحت لكان فيها من التطويل والتعقيد والتعسير ما يمنع الحكمة الإلهية والرحمة الربانية أن يدل بها عباده عليه وعلى صدق رسله وعلى اليوم الآخر)[1].

فالاستدلال بالمعجزة يمكن أن يكون مع مَن ينكر وجود الرب، ومع الملاحدة الربوبيين، ومع منكري جنس النبوءات ومنكري عين نبوءة النبيﷺ.

ولو أن المتكلمين اقتصروا على الآية والبرهان والدلائل لكان خيراً لهم، لأنها مسميات قرآنية شرعية مطابقة لمسماها مطردة لا تنتقض، وهي مستلزمة لصدق النبي فلا يتصور أن توجد مع انتفاء صدق مَن أخبر أن الله أرسله، بخلاف مُدعي المعجزة كذباً فإن ما يأتي به شاهد على كذبه، فالآية والبرهان خاصة بالنبي بخلاف المعجزة فهي قد تطلق على غير آيات النبي[2].

والآيات هي شهادة بالنبوءة وتصديق للمُخبِر، فهي تستلزم ثبوت النبوءة في

---

(١) الصواعق المرسلة: لابن القيم (٣/ ١١٩٨).

(٢) ينظر: الجواب الصحيح (٥/ ٤١٩)، والمواهب اللدنية ؛ للقسطلاني (٥/ ٨١).

نفسها، بخلاف المعجزة فهي لا تستلزم ثبوت النبوءة إلا بشروطها.

وخرق السنن وعجز الناس عن الإتيان بمثلها إنما هو من بعض صفات الآيات والبراهين، وشرط فيها، وهو من لوازمها، وشرط الشيء ولازمه قد يكون أعم منه، وهؤلاء وكلُّ مَن نحَا نحوهم وجاء من بعدهم قديماً وحديثاً جعلوا مُسمى المعجزة وخرق العادة والتحدي هو الحد المطابق لها طرداً وعكساً[1].

وطريق إثبات صدق نبوءة النبي بدليل المعجزة فقط لدى المتكلمين طريق شاق وطويل ومُركب، كما هو الشأن في دليل الحدوث الذي أثبتوا من خلاله وجود الله تعالى، فابتدعوا دليلاً لم يسلم من الخلل المنهجي من جهة الحصر والاستدلال والتعقيد والتطويل واللوازم التي لزمت عليه[2]. كما أن حصر أدلة صدق النبوءة في المعجزة تضييق لباب عظيم هو من أعظم أبواب الإيمان، فأدلة النبوءة كثيرة متنوعة لا يمكن حصرها في دلالة المعجزة فقط، فدلائل النبوءة من جنس دلائل الربوبية من جهة التنوع والكثرة، فـ(تعداد أعيان دلائل النبوة مما لا يُمكِّن بشراً الإحاطة به)[3].

(وأصل الإشكال هو أنه يحصل العلم عند شخص ما بطرق معينة فيظن أنه لا طريق للعلم إلا طريقه فقط)[4]، وهو خلل منهجي معرفي، فطرق العلم بالشيء متعددة متنوعة لا يمكن حصرها في دليل بعينه، وعلى هذا لم تكن أدلة النبوءة هي المعجزة فقط، كما أن المعجزة لا تدل بمجردها إلا إذا اقترنت بدعوى النبوءة[5].

وتقرير وجه دلالة المعجزة على صدق نبوءة النبي يناقض أصول نفاة التعليل في أفعال الله، وهو إشكال معرفي، فـ(السؤال المشهور الذي يورد في هذا الموضع

---

(١) ينظر: النبوات (١/ ٢٨٩، ٢٩٩، ٣١٠).

(٢) ينظر لنقد دليل الحدوث في: الخلل المنهجي في دليل الحدوث؛ سلطان العميري، ص ٩٠-١٢٦.

(٣) الجواب الصحيح (٢/ ٦٩٧).

(٤) الحد الأرسطي: سلطان العميري، ص ٧٠.

(٥) ينظر: مناهج الأدلة: لابن رشد، ص ٢١٦.

على قول مَن ينفي التعليل في أفعال الله ويجوز على الله كل فعل حيث قيل لهم: على أصلكم لا يفعل الله شيئًا لأجل شيء، وحينئذ فلم يأتِ بالآيات الخارقة للعادة لأجل تصديق الرسول؛ إذا كان لا يفعل شيئًا لشيء عندكم، وقالوا لهم أيضًا: إذا جوزتم على الرب كل فعل جاز أن يظهر الخوارق على يد الكاذبين، فقولهم يقدح في العلوم الضرورية، ويسد باب العلم بصدق الرسل)[1].

إنّ لفظ المعجزة والإعجاز المشروط بالتحدي أحدث بلبلة وخلطًا في التفريق بين ما تُحُدِّيَ به العرب من نظم وأسلوب القرآن، وبين دلائل الصدق الأخرى كالإخبار بالمغيبات، وأخلاق النبيﷺ، ومضمون رسالته،...إلخ التي لم يُتَحَدَّ بها، فظن بعض الناس أنها داخلة في التحدي، والصحيح أنها من دلائل الصدق، وليست مما تحدى الله به الإنس والجنَّ، إذ التحدي كان في النظم والأسلوب فقط، وهو وجه من أوجه دلائل (الإعجاز) الصدق على نبوءة النبي ﷺ، فالتحدي خاص بالنظم والأسلوب، ودلائل النبوءة (الإعجاز) تشتمل على وجوه كثيرة منها التحدي، ولو أنا عدلنا عن مصطلح (إعجاز) القرآن إلى دلائل صدق القرآن لاستقام القول، ولم يحدث اللبس الذي حدث، ليتبين أن دلائل القرآن على صدق النبيﷺ متعددة، ولا يمكن حصرها[2].

(لذا كان التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها؛ فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد، والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع)[3].

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٧٠٦ـ٧٠٧).

(٢) ينظر: مداخل لإعجاز القرآن ؛ محمود شاكر، ص ١٥ ــ ١٤٠، والإعجاز العلمي إلى أين؟ د/ مساعد الطيار، ص ١٢ـ١٦، وص ٤٦.

(٣) النبوات (٢/ ٨٧٦).

فالاقتصار على ما ورد في الكتاب والسنة من مصطلحات ومسميات شرعية يضبط كثيراً من مسائل ودلائل الدين، والتي منها مسألة النبوءة ودلائلها.

*****

المبحث الثاني

الأدلة العقلية على إمكان النبوءة

الحديث عن إمكان النبوءة لا يكون إلا مع مَن يثبت وجود الله، واتصافه جلّ وعلا بصفات الكمال، وكلما كان تصور الكمال الإلهي منضبطاً كان الاستدلال على النبوءة متسقاً[1].

ولقد قامت أدلة وبراهين إمكان النبوءة وتحقيق وجودها على ذلك، وأدلة إمكانها العقلية عدّة، منها:

○ **دليل الخلق والقدرة وقياس الأولى:**

لقد دلَّ الدليل العقلي والبرهان القطعي على أن الله تعالى خالق الخلق، ومالكهم، وأنَّ له الخلق والأمر والمُلك، فهو وحده يتصرف في الخلق بالأمر والنهي، وهو وحده يختار مَن يشاء ليبلغهم أمره ونهيه[2]، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وأيضاً ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وهو وحده أعلم بمَن يجعله نبيّاً ممَن لم يجعله نبيّاً يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فالله تعالى وحده يصطفي مَن يشاء من عباده ليكون رسولاً للناس، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، فالله تعالى اصطفى جبريل من الملائكة فأرسله إلى أنبيائه ورسله، واصطفى الأنبياء والرسل من البشر فأرسلهم إلى عباده[3].

---

(١) الخلل في باب الصفات الإلهية لدى بعض الطوائف لن تستقيم معه أدلة إمكان النبوءة، فهم وقعوا في تناقض منهجي وإن لم يصرحوا بذلك، وتميز أهل السنة عن غيرهم باتساق الدلائل والمسائل.

(٢) ينظر: النبوات (٢/ ٩٤٤ ـ ٩٤٥)، وشرح العقيدة الأصفهانية، ص١٧٠.

(٣) ينظر: جامع البيان (١٨ / ٦٨٧).

ولما قامت الأدلة على أن الله تعالى خالق الخلق ومالكهم، كان له أن يتصرف في عباده بالأمر والنهي، وله أن يختار منهم واحداً لتعريفهم بأمور دينهم، فـ(إرسال رسول من البشر يبلغهم رسالات ربهم، ويهديهم إلى صراط مستقيم أبلغ في قدرة الرب ورحمته بعباده، وإحسانه إليهم، وأعظم إثباتاً للكمال من كون ذلك غير ممكن له، ومن امتناعه عن فعله)[1]، فالنبوءة ليست بأعظم من خلق الكون وإبداعه، فمَن خلق الكون وأوجده ابتداءً أقدر على بعث نبي من البشر ليبلغ الناس دينه، بل وهو أهون على قدرة الله جل وعلا من خلق الكون وإبداعه.

وقد قرر القرآن إمكان النبوءة في أول سورة نزلت على النبيﷺ، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ١ - ٥] فذكر التعليم هنا بعد الخلق دلالة على إمكان النبوءة، لأن النبوءة نوع من أنواع التعليم[2]، و(جعل الإنسان نبيّاً ليس بأعظم من جعل العلقة إنساناً حيّاً عالماً ناطقاً سميعاً بصيراً متكلماً قد علم أنواع المعارف)[3]، فالقادر على تعليم الإنسان هو من باب أولى قادر على تعليم الأنبياء.

فكل دليل يدل على قدرة الله تعالى فهو يدل من باب أولى على قدرة الله تعالى على بعثة الأنبياء.

○ دليل العناية والحكمة:

إنّ مَن يعترف بأن للعالم خالقاً حكيماً فلابد من أن يعترف بأنه آمر ناهٍ، حاكم على خلقه، وله في جميع ما يأتي ويذر حِكَم وأمر.

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يرفع بعض الناس فوق بعض درجات ليتخذ

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ٢٤)، وينظر: نهاية الإقدام: ص ٤٢١، والملل والنحل (٣/ ٧٠٩).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى: لابن تيمية، (١٦/ ٢٦٤).

(٣) المرجع السابق، (١٦/ ٢٦٣).

بعضهم بعضاً سخريّاً، ورحمة ربك خير مما يجمعون[1].

كما اقتضت حكمة الله تعالى أنه لما خلق الخلق لم يتركهم سُدى، بل خلقهم لعبادته وحده، وأنَّى للعباد معرفة خالقهم على وجه التفصيل، وأنه وحده المستحق للعبادة وكيفية عبادته، وبيان جزاء من آمن به وعبده ووحَّده، وجزاء مَن كفر به وأشرك معه، في الدنيا والآخرة؟!

كل هذا لا يمكن للعباد وحدهم معرفته إلَّا من جهة الأنبياء، الذين هم واسطة بين الله تعالى وخلقه، فالله تعالى جعل الأنبياء وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، فبعث الله جميع الرسل إلى الدعوة إلى عبادته وحده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ولبيان الطريق الموصل إليه، ولبيان الحال والمآل بعد الوصول إليه[2].

فالأدلة التي برهنت على حكمة الله تعالى، قد دلت على (أن مَن خُلِق للعبادة لا يصح ولا يحسن أن يُهمل، ويترك دون أمر ونهي، ودون حساب أو جزاء، فإن ذلك يتنافى مع الحكمة الإلهية، ومع تنزه الخالق عن العبث واللهو، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] أي: هملاً لا يُؤمر ولا يُنهى، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والأمر والنهي والشرائع لا بد لها من رسول مبلغ.

فالمسألة إذاً لها اتصال مباشر بتنزيه الله تعالى عما ينافي حكمته، وهذا من أقوى الأدلة العقلية على إمكانها بل ضرورتها، ولذلك جاء التأكيد التام بأن الناس لا مناص لهم عن أن يُبعث إليهم رسول يبتلون بدعوته، وتقام عليهم الحجة به، مهما

---

(١) ينظر: الملل والنحل: للشهرستاني (٣/ ٧٠٩).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤٣).

كان حالهم من الشرك والإسراف، كما في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١])[١].

ولو أن الخلق لم يبعث فيهم أنبياء لتخبطوا وعاشوا في تيه، ولما انتظم الحال ولا المآل، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[الروم: ٤١]، لذا اقتضت حكمة الله تعالى أنهما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النُّذر، وأزاح عنهم العلل[٢]،قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد: ٧] أي: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى[٣].

ومن حكمته جل وعلا أن يؤيد النبي الصادق بالدليل والبرهان ليفرق الناس بينه وبين المتنبئ الكاذب، إذ (الكلام في النبوة فرع على إثبات الحكمة يجب فعل ما تقتضيه الحكمة، ويمتنع فعل ما تنفيه، فنقول: هو سبحانه وتعالى حكيم يضع كل شيء موضعه المناسب له فلا يجوز عليه أن يسوي بين جنس الصادق والكاذب، والعادل والظالم، والعالم والجاهل، والمصلح والمفسد، بل يفرق بين هذه الأنواع بما يناسب الصادق العادل العالم المصلح من الكرامة، وما يناسب الكاذب الظالم الجاهل المفسد من الهوان، كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨])[٤]، فلا يمكن إثبات دلائل النبوءة مع نفي التعليل، بل هو تناقض عند كل العقلاء، ويلزم منه الطعن في النبوة[٥]

---

(١) الأدلة العقلية النقلية ص٤٥٤-٤٥٥.
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٩٣-٩٦).
(٣) ينظر: تفسير ابن سعديص٤١٤.
(٤) النبوات، (١/ ٣٥٣- ٣٥٤)، وينظر: (٣٦٨-٣٦٩).
(٥) ينظر: العلم الشامخ ؛ للمقبلي ص١٩٨.

- دليل الضرورة والحاجة والافتقار:

(من القضايا العقلية أنّ نوع الإنسان يحتاج إلى اجتماع على نظام وصلاح، وإن ذلك الاجتماع لن يتحقق إلا بتعاون وتمانع، وإن ذلك التعاون والتمانع لن يتصور إلا بحدود وأحكام، وإن تلك الحدود والأحكام يجب أن تكون موافقة لحدود الله وأحكامه، فلزم العقل ضرورة أن يكون بين الناس شرع يفرضه شارع يتلقى من الله وحياً، وينزله تنزيلاً على عباده) [1]، فـ (حال الناس في فترات انقطاع الأنبياء عنهم، واندراس تعاليمهم، حيث يكونون في حالة مزرية من الفساد العام المطبق، في التصورات والسلوك، في جميع النواحي الدينية، والدنيوية، قال تعالى يصف حال الناس قبل بعثة النبي محمدﷺ: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة: ٢] واطراد هذا في كل أمة تندثر فيها النبوءة دليل قاطع دون شك على افتقار العالم الشديد إلى النبوءات، وامتناع استغنائهم عنها بعقولهم)[2]، وهذا حال كل مَن ابتعد عن مشكاة النبوءة في كل عصر ومصر.

ولما كانت النبوءة ضرورة ملحة اقتضت رحمة الله تعالى بخلقه وسعة كرمه أن يبعث لهم نبيّاً من أنفسهم، وييسر طرق الوصول إلى أدلة صدقه، (فإن الناس كلما قويت حاجتهم إلى معرفة الشيء يسر الله أسبابه، كما يتيسر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشد، فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهواء أعظم منها إلى الماء كان مبذولاً لكل أحد في كل وقت، ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت كان وجود الماء أكثر.

وكذلك لما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيئته وحكمته أعظم من غيرها، ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل بعد ذلك أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك أقام الله سبحانه من دلائل

---

(١) ينظر: نهاية الإقدام للشهرستاني ص ٤٢٦.

(٢) الأدلة العقلية النقلية ص ٤٥٥-٤٥٦.

صدقهم وشواهد نبوتهم وحسن حال من اتبعهم وسعادته ونجاته وبيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح، وقبح حال من خالفهم وشقاوته وجهله وظلمه ما يظهر لمن تدبر ذلك، ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) [1].

○ دليل العدل الإلهي:

إنَّ من تمام عدل الباري جل وعلا أنه لا يعذب حتى يبعث نبيًّا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الشعراء: [٢٠٨ ـ ٢٠٩]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وبهذا تقوم الحجة على العباد قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٦٥].

ولو أن الله تعالى لم يبعث الأنبياء وعذب الكفار لكانت حجتهم هي عدم بعثة الأنبياء إليهم يقول الله تعالى عن كفار قريش: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[طه: ١٣٤] ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾[القصص: ٤٧] (والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذراً لهم، فأما الآن وقد أرسلناك وبينا على لسانك لهم ما عليهم وما لهم فلا حجة لهم البتة بل الحجة عليهم)[2].

والله تعالى بعث نبيه محمداًﷺ على فترة من الرسل ليقيم الحُجة على أهل الكتاب الذين احتجوا بعدم بعثة الأنبياء في هذه الفترة، يقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ١٤١).
(٢) التفسير الكبير (١٠/ ٤٨٨).

﴿بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]

فـ(الفائدة في بعثة محمد عليه الصلاة والسلام عند فترة من الرسل هي أن التغيير والتحريف قد تطرق إلى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها، وبسبب ذلك اختلط الحق بالباطل والصدق بالكذب، وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات. لأن لهم أن يقولوا: يا إلهنا عرفنا أنه لا بدّ من عبادتك ولكنا ما عرفنا كيف نعبدك، فبعث الله تعالى في هذا الوقت محمداً عليه الصلاة والسلام إزالة لهذا العذر، وهو ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ يعني إنما بعثنا إليكم الرسول في وقت الفترة كراهة أن تقولوا: ما جاءنا في هذا الوقت من بشير ولا نذير.

ثم قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ فزالت هذه العلة وارتفع هذا العذر، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمعنى أن حصول الفترة يوجب[١] احتياج الخلق إلى بعثة الرسل، والله تعالى قادر على كل شيء، فكان قادراً على البعثة، ولما كان الخلق محتاجين إلى البعثة، والرحيم الكريم قادراً على البعثة وجب[٢] في كرمه ورحمته أن يبعث الرسل إليهم)[٣].

وبهذا يُعْلَم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة النبي، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر[٤].

○ **دليل الاستقراء التاريخي:**

من خلال الاستقراء التأريخي نستطيع أن نثبت إمكان النبوءة، فحينما أنكر الكفار نبوءة النبي محمدﷺ بدعوى أنهم لم يسمعوا بها من قبل، قال الله عنهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ٧]، فالرد عليهم كان من

---

(١) تنبيه: لا يوجب شيء على الله تعالى، بل النبوءة محض تفضل من الله تعالى وسعة كرم على خلقه.

(٢) تنبيه: لا يوجب شيء على الله تعالى، بل النبوءة محض تفضل من الله تعالى وسعة كرم على خلقه.

(٣) التفسير الكبير (١٠/ ٤٨٨).

(٤) ينظر: النبوات ٤٤٧، وزاد المعاد؛ لابن القيم (١/ ١٥).

خلال استقراء التأريخ، وتقليب صفحاته، والنظر في أحوال الأمم السابقة، والاستدلال على إمكان نبوءة محمدﷺ بإمكان النبوءات السابقة، فنبوءة محمدﷺ ليست أول نبوءة طرقت العالم، فما من أمة إلا وكان فيها نبي، يقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر: ٢٤]، ونبوءة محمدﷺ هي من ضمن هذه النبوءات، فليست نبوءته هي أول نبوءة، ولا أنه تفرد بها، بل هناك أنبياء قبله، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٩] أي: (لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي فقد تقدم من الرسل والأنبياء مَن وافقت دعوتي دعوتهم فلأي شيء تنكرون رسالتي)[1]، والله الذي بعث الأنبياء السابقين قادر على أن يبعث محمداًﷺ، والله الذي أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، هو الذي أنزل القرآن على محمدﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[الأنعام: ٩١ — ٩٢] (قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾)[2]، (قل لهم ملزماً بفساد قولهم، وقرِّرْهم، بما به يقرون)[3]، فتنتفي استحالة النبوءة بتحقيق وجودها[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن؛ لابن سعدي ص ٧٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٠٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٦٤.

(٤) نهاية الإقدام ص ٤٩٥.

وبمجموع هذه الأدلة يثبت لكل عاقل أن النبوءة ممكنة، وأن بعثة الأنبياء ليست مستحيلة[1]، وإذا ثبتت النبوءة بأدلتها كان لا بد من تصديق النبي في كل ما يخبر به عن الله، والتسليم له، فهذه هي الغاية من نصب أدلة إمكان النبوءة وإقامة براهين صدق النبي.

*****

---

(١) هذا بخلاف ما ذهبت إليه البراهمة من أن بعثة الأنبياء مستحيلة عقلاً. ينظر: الملل والنحل؛ للشهرستاني (٢/ ٦٠١ـ٦٠٢)، وتلبيس إبليس؛ لابن الجوزي ص ٨٢ـ٨٥.

المبحث الثالث

العلاقة بين مسألة النبوءة ومسائل العقيدة

إنَّ دراسة المسائل والدلائل الشرعية لا بد من أن تدرس بشكل مجتمع لا مجتزأ، ينظر إلى علاقة المسائل بعضها مع بعضها الآخر، لأنه من المحال دراسة أي مسألة ودلائلها في معزل عن بقية المسائل والدلائل، لأن هناك أصولاً تجمعها ولا تفرقها.

ولعل من الخلل المنهجي الذي وقع فيه بعض المتكلمين وغيرهم أنهم درسوا كل مسألة ودلائلها على حدة وفق أصول مستقلة لكل مسألة، لهذا تناقضت أقوالهم وبدا تحرير قولهم في غاية من الضعف وهذا كما حدث في تحرير مسألة النبوءة وأدلتها حيث تعارضت مع كثير من أصولهم في التحسين والتقبيح والوجوب والحكمة والتعليل، مع الاعتراف بجهودهم في الرد على منكري النبوءات، وقد نثرت في طيات البحث شيئاً من هذا.

لذا كان من مميزات المنهج الحق لدراسة المسائل والدلائل الشرعية أنه يبين العلاقة بين أصول المسائل ودلائلها، لذا اتسم بالوضوح والبيان، ولم يقع فيه اللبس ولا التناقض، فهو منهج بنائي متكامل، وهو منهج يحتاج إلى أن يبرز ويفرد بالدراسة لأنه يبين قوة ومتانة المنهج الإسلامي وتميزه عن غيره.

وفي هذا المبحث سأجلي علاقة مسألة النبوءة بمسائل العقيدة على النحو الآتي:

- **النبوءة تدل على وجود الله تعالى**، لأن القول بإثبات النبوءات فرع عن القول بإثبات الخالق[1]، وقد بينت في أدلة إمكان النبوءة أنها تنبني على تصور الكمال الإلهي في الصفات من جهة الخلق والقدرة والحكمة والرحمة والعدل.

---

(١) ينظر: المطالب العالية: للرازي (٨/ ٥٤).

كما تدل النبوءة على وجود الله من جهة أدلتها؛ فخرق السنن الكونية تأييداً لصدق الأنبياء، يدل ذلك بالضرورة على وجود رب قادر على كل شيء، أرسل رسوله وأيده بالآيات الخارقة للسنن الكونية، فقلب العصا إلى حية تسعى، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ونبع الماء من بين أصابع النبي محمدﷺ والوحي إليهم وإخبارهم بالأمور الغيبية وغيرها من الدلائل التي تدل على وجود الله تعالى[1]، وإنكار آيات الأنبياء يعود لعدم الإيمان بالله تعالى، لآيات الأنبياء، فمَن لا يؤمن بموجود فوق الطبيعة ولا بتدخله في شؤون العالم لا يقبل بآيات الأنبياء[2].

□ **النبوءة هي أحد أركان الإيمان الستة** وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وجميع هذه الأركان ترجع إلى الإيمان بالله ورسله، فهما الأصل لبقية الأركان، ولولا الأنبياء لما عُرفت، فجميعها مبنية على ما جاء به الأنبياء، فهي عماد الدين[3].

فكل مَن آمن بالأنبياء فهو مؤمن بمَن أرسلهم وهو الله تعالى، لأن (إرسال الرسل أمر مستقر في العقول يستحيل تعطيل العالم عنه كما يستحيل تعطيل الصانع، فمَن أنكر الرسول فقد أنكر المُرسِل ولم يؤمن به، ولهذا جعل سبحانه الكفر برسوله كفراً به)[4].

فكل ما هو دال على النبوءة فهو دال على الربوبية بطريق الأولى، ولا عكس، فلا يلزم من إثبات الربوبية إثبات النبوءة لأنها أخص[5].

---

(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٤٣-٤٤)، والصواعق المرسلة (٣/ ١١٩٧).

(٢) بهذا انتقد استوارت ميل هيوم في إنكاره لآيات الأنبياء، ينظر: موقف العقل والدين من رب العالمين وعباده المرسلين: مصطفى صبري، (١/ ٤٨ــ ٤٩)، و(٤/ ٢٦)، وينظر لكلام هيوم في: مبحث في الفاهمة البشرية، ص ١٥١ وما بعدها.

(٣) ينظر: شرح العقيدة الأصفهانية ص ٥٧٠، وفتح الباري ؛ لابن حجر (١/ ١٥٩).

(٤) مدارج السالكين؛ لابن القيم (١/ ١٥).

(٥) ينظر: منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوءة والربوبية: د/ سعود العريفي، ص ٢٩٣.

□ **النبوءة هي المستند العقلي لسائر مسائل الاعتقاد، فإذا ثبتت النبوءة** وجب عقلاً قبول كل ما يخبر به النبي عن الله تعالى من الأمور الغيبية[1]، من أسماء الله وصفاته تعالى، ومن الإخبار عن اليوم الآخر، والملائكة، والجن، وكل أمر غيبي يخبر به النبي يجب تصديقه فيه، وكذا الأمر والنهي والشرع يجب قبوله لتصديق النبيﷺ فيما يخبر.

وقد قرن الله تعالى بين مسألة الإيمان به وبين مسألة الإيمان بالنبوءة في القرآن الكريم في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[آل عمران: ١٧٩]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[الحديد: ١٩] ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ١٣٦]، وقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٢]، وقال:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[النساء: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[المائدة: ٩٢]، وقال: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وقال:﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[الأنفال: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[الأنفال:

---

(١) ينظر: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد: د/ سعود العريفي، ص٤٥٠.

٢٠]، وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣٣]، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [التغابن: ١٢].

فلا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إلا على أيدي الأنبياء، ولا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث على جهة التفصيل إلا من خلالهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، ولقد رتب الله عظيم الأجر على طاعة نبيه، واتباعه، قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ ﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢]، وقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ [الفتح: ١٧]، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤].

□ الإيمان بالنبوءة هو الطريق الموصل لمعرفة الله ومحبته ورضوانه وهو السبيل المؤدي إلى النجاة من عذابه والفوز بمغفرته، فمَن لم يُحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب[1].

□ التصديق بالنبوءة فرع عن التصديق بالكتب[2]، مسألة النبوة ذات صلة

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٩-١٠١)، والنبوات، (١/ ١٩، ٥٠٧)، وزاد المعاد (١/ ٦٩).

(٢) ينظر: إفحام اليهود؛ السموءل بن يحيى ص ٥٩.

بمسألة الكتب، فالكتب نزلت على الرسل، لذا كان لا بد من الإيمان بهما، والقرآن الكريم دليل على نبوءة النبي ﷺ.

☐ مسألة النبوءة نفسها كل لا يتجزأ، فإذا ثبتت نبوءة نبي من الأنبياء كان ثبوتها لغيره من باب أولى، فلا يمكن التفريق في الإيمان بنبوءة الأنبياء، بل لا بد من الإيمان بهم جميعاً جملة وتفصيلاً، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٦]، وقال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥]، وقال: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: ٨٤]، ومَن يؤمن بنبي ويكفر بآخر، فهو كافر بكل الأنبياء، فمَن أقر بجنس النبوءات كان لزاماً عليه الإقرار بنوع النبوءات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[النساء: ١٥٠ – ١٥٢].

* * * * *

المبحث الرابع

منهج القرآن الكريم في عرض النبوءة وأدلتها[1]

من خلال استقرائي لآيات القرآن الكريم وجدت أن آيات النبوءة إما أنها تقرر مسائل النبوءة، متضمنة الرد على شبهات منكري النبوءة، أو أنها تفند الرد مفصلاً بالأدلة على شبهات منكري النبوءة، أو تكتفي بالنفي المجمل نظراً لضعف الشبهة وتهافتها[2].

وهذه الشبه تارة تكون موجهة للأنبياء، وأخرى تكون موجهة لما جاء به الأنبياء، وثالثة توجه لأتباع الأنبياء.

ومما يلاحظ على شبهات منكري النبوءات أنها تتشابه وتتكرر، ـ وسيتبين هذا خلال التحرير لهذا المبحث وغيره ـ فالشبه التي وجهت للنبي محمد ﷺ هي الشبه ذاتها التي وجهت لمَن قبله من الأنبياء، يقول الله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[فصلت: ٤٣].

ولا تزال شبه منكري النبوءات تثار بين فينة وأخرى في واقعنا المعاصر، مع اختلاف في المنطلقات الفكرية.

والاستدلال على النبوءة تارة يكون مباشرة على مسائلها، وأخرى يتضمن الدلالة العقلية عليها، وصفحات هذا البحث ستحرر شيئًا من دلائل القرآن على نبوءة النبي محمدﷺ، التي هي دلالة على باقي نبوءات الأنبياء السابقين، فبثبوت

---

(١) هناك بحث بعنوان مفهوم النبوة في القرآن الكريم: أسماء هريدي، لنيل درجة الماجستير من جامعة عين شمس، كلية الأداب، بقسم اللغة العربية وآدابها، لعام ١٤٢٢ هـ، لم يتناول البحث منهج القرآن لعرض مسألة النبوة وأدلتها بقدر ما تعرض لمنهج المتكلمين.

(٢) في هذا المبحث سأحرر شبهة أن يكون الأنبياء بشراً، وباقي الشبه ستحرر في فصول أخرى لمناسبة عرضها في المكان المناسب لها، كشبهة الجنون والكهانة والسحر ستحرر في الفصل الثاني: دلالة أخلاق النبي محمدﷺ، وشبهة الشعر ستحرر في الفصل السادس: دلالة النظم والأسلوب.

نبوءة النبي محمدﷺ تثبت نبوءة الأنبياء السابقين من جهة البشارة به، ومن جهة تصديق النبي في كل ما يخبر عن الأنبياء السابقين، وهذا ما أخبر الله عنه في قوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات: ٣٧][1].

وفي هذا المبحث سأحرر منهج القرآن الكريم في عرض مسألة النبوءة وأدلتها، على النحو التالي:

□ أولاً: أصناف المكذبين بالنبوءة:

(لا تخلو أمة من وجود ذاهلين قد غمرتهم تكاليف الحياة وأعباؤها، إلى حد أنهم لا يجدون من هدوء البال وفراغ الوقت ما يمكنهم من رفع رؤوسهم للنظر في تلك الحقائق العليا، كما لا تخلو أمة من منكرين ساخرين يحسبون الحياة لهواً ولعباً، ويتخذون الدين وهماً وخرافة)[2]، ولا تخلو من أناس يتعبدون الله، لذا تعددت مسالك المكذبين بالنبوءة، وهم على أصناف منها:

* مَن ينكر الخالق فهو من باب أولى ينكر النبوءة ومسائل الدين جميعاً، فالنقاش مع هؤلاء ومع الملاحدة اللاربوبيين يكون في إثبات الرب الخالق أولاً.

* مَن ينكر الإله، وهذا كحال فرعون الذي كان ينكر وجود الإله قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[القصص: ٣٨]، وهذا النقاش يكون معه في إثبات الإله لعبادته.

* مَن يثبت وجود الله تعالى الخالق لكنه لا يوحده، وهو يدين لمعبودات كثيرة يعبدها مع الخالق، وهذا كحال كفار قريش، يقول الله عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]،

---

(١) سيأتي مزيد إيضاح لهذه الدلالة في الفصل الرابع: دلالة الإخبار بالمغيبات.

(٢) الدين: د/ محمد دراز ص٨٢.

وغيرها من الآيات[1]، لكنهم يعبدون آلهتهم ظنّاً منهم أنها تقربهم إلى الخالق، يقول الله تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر: ٣]، فهم لا يوحدون الله تعالى، ولا يعرفون أي إله هو المستحق للعبادة من بين تلك المعبودات التي يعبدونها، ويجهلون كثيراً من أمور حالهم ومآلهم، فهؤلاء ينكرون جنس النبوءة، ويكذبون بكل ما جاء به النبي، فالمشركون والملاحدة الربوبيون يكون النقاش معهم في إمكان النبوءة.

* مَن يثبت جنس النبوءة كأهل الكتاب، وينكر نبوءة نبي بعينه، فهؤلاء نناقشهم في ثبوت نبوءة النبي الذي أنكروه بما ثبتت به نبوءة النبي الذي آمنوا به، كاستدلال ورقة، وهرقل عظيم الروم، والنجاشي ملك الحبشة على صدق نبوءة النبي ﷺ بما ثبتت به نبوءة عيسى عليه السلام[2].

ومَن يتأمل القرآن الكريم، ويبحث فيه سيجد أنّ الله يذكر أسباب إنكار الناس للنبوءة، وتكذيبهم للأنبياء، وهي أسباب نفسية، اجتماعية، حتى يتلافاها السالك لربه، وسأجليها في الفصل الثاني بإذن الله تعالى.

▫ **ثانياً: النبوءة اصطفاء إلهي لحكمة إلهية،** إنَّ مَن له الخلق والإبداع له الاختيار والاصطفاء، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨][3]،ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أنْ يصطفي الأنبياء، فهم من خيرة خلق الله تعالى وقد بلغوا الكمال الخَلْقِي والخُلُقِي[4]، لأن الله تعالى خصهم بالوحي دون غيرهم، فهم سيبلغون عنه، وهم الواسطة بين الله وخلقه، واصطفاء الله تعالى متعلق بمشيئته وعلمه، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

---

(١) ينظر: [العنكبوت: ٦٣] و[لقمان:٢٥]، و[الزمر:٣٨]، و[الزخرف: ٩، ٨٧].
(٢) سيأتي تفصيل هذا في الفصول القادمة.
(٣) ينظر: نهاية الإقدام: للشهرستاني ص ٤٢١.
(٤) سيأتي تفصيل الكمال الخُلقي في الفصل الثاني: دلالة اتصافه بكمال الأخلاق.

[الحج: ٧٥]، (أي: يختار ويَجتبي من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً يكونون أزكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئًا دون شيء، وإنما المُصطفى لهم، السميع، البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاختياره إياهم، عن علم منه، أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم)[1].

لقد أكد الله تعالى قضية أن النبوءة اصطفاء من عنده وحده في آيات عديدة بصيغ مختلفة، فتارة يذكر اصطفاءه لأحد الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وأخرى يذكر اصطفاءه لجملة من الأنبياء قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾[البقرة: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[النمل: ٥٩]، ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[ص:٤٧]، ومرة يذكر الاختيار، ومن ذلك اختياره لموسى عليه السلام، يقول تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]، كما يذكر الاجتباء بعد ذكره جل وعلا لجملة من الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾[الأنعام: ٨٧]، وقال: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾[مريم: ٥٨]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾[الشورى: ١٣]، وأخرى يذكر اجتباءه لأحد من رسله، كاجتبائه ليوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾[يوسف: ٦]، ولإبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن؛ لابن سعدي ص٥٤٦.

كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾[النحل: ١٢٠ - ١٢١].

وبما أن النبوءة هي اصطفاء من الله تعالى لمَن شاء من البشر، فهي في حق النبي مِنَّة وفضل ونعمة من الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[مريم: ٥٨].

ومن خلال دلالة آيات الاصطفاء الإلهي للأنبياء يتبين أنه لا يمكن أن تكون النبوءة واجبة على الله تعالى، فالله لا يجب عليه شيء، والقائلون بوجوب النبوءة هم المعتزلة والشيعة[١]، بناء على أصولهم العقلية، في التحسين والتقبيح العقليين، واللطف الإلهي، وإثبات الحكمة والتعليل المتعلق بالمخلوق، فبعثة الأنبياء متى حسنت وجبت، فلا بد من بعثة الأنبياء لأنها فعل ضروري يرتبط بصلاح البشر ولأنها من مقتضيات عدل الله تعالى، فالله تعالى علم أن صلاح عباده يتعلق ببعثة الأنبياء، فلابد أن يعرف الناس بها لأنه إذا لم يعرفهم بها كان مخلًّا بما هو واجب عليه، ومن العدل واللطف ألا يخل بما هو واجب عليه[٢]، فالنبوءة عندهم جزاء على عمل قام به النبي فاستحق أن يكافئه الله عليه ببعثته، ولا علاقة لها بالاصطفاء الإلهي[٣].

كما دلت آيات الاصطفاء الإلهي على أنه لا يمكن أن تكون النبوءة جائزة، كما يقول الأشاعرة بناءً على أصولهم العقلية في أن أفعال الله تكون على الجواز والإمكان لا الوجوب أو الامتناع، (فالفعل الصادر من الله مختص بضروب من

---

(١) ينظر: شرح الأصول الخمسة؛ للقاضي عبد الجبار، ص ٥٦٤، والمغني في أبواب التوحيد له أيضاً (١٥/ ٦٣ - ٩٧)، وكشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد؛ لابن طاهر، ص ٣٣١، وعقائد الإمامية؛ للمظفر، ص ٢٧٩، وعقائد الإمامية ؛ للزنجاني، ص ١٥٣، وهي ذاتها أدلة الشيعة لوجوب الإمامة للإمام.

(٢) ينظر: شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٣.

(٣) ينظر: المغني (١٥/ ١٦)، ومنهاج السنة (٢/ ٤١٥).

الجواز، لا يتميز بعضها من البعض)[1]، وأفعال الله لديهم لا تتعلق بحكمة ولا علة ولا غرض، إذ الله يفعل ويبدع (لا لغاية يستند الإبداع إليها، ولا لحكمة يتوقف الخلق عليها، بل كل ما أبدعه من خير وشر ونفع وضر لم يكن لغرض قاده إليه، ولا لمقصود أوجب الفعل عليه، بل الخلق وأن لا خلق له جائزان، وهي بالنسبة إليه سيان)[2]، وبناءً على هذه الأصول الأشعرية تكون بعثة الأنبياء لا علاقة لها بالاصطفاء الإلهي، ولا علاقة لها بصلاح البشر، وليست هناك صفات في ذات النبي اصطفاه الله لأجلها[3] لذا جوزوا أن يكون النبي فاعلاً للكبائر[4].

وكذلك دلت آيات الاصطفاء الإلهي على أنه لا يمكن أن تنال النبوءة بالكسب، وتتحصل بالرياضة والتصفية عن طريق مخيلة النبي أي أنها من ذات النبي[5]، لأنها على هذا النحو تلغي الاصطفاء الرباني.

وقد برهنت آيات الاصطفاء الإلهي للأنبياء على أن النبوءة محض اصطفاء من الله تعالى للنبي، وهي منة وفضل من الله تعالى للأنبياء، وبدلالة هذه الآيات يُرد على كل مَن أنكر نبوءة الأنبياء:

* بدعوى أنَّ اختصاص النبي من بين قومه بالوحي لا مزية فيه، ولا دليل عليه، لاستبعاد أن النبي يختص بالوحي من بينهم، فهو واحد منهم فلا مزية له عليهم، وقد ذكر الله تعالى شبهة هؤلاء القوم في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد؛ للغزالي ص ٥٢، وينظر: الإنصاف؛ للباقلاني ص ٩٢، وأصول الدين؛ للبغدادي ص ١٠٧، والإرشاد؛ للجويني ص ٣٠٢، ونهاية الإقدام: للشهرستاني ص ٤٩٥.

(٢) غاية المرام ؛ للآمدي ص ٢٢٤.

(٣) ينظر: نهاية الإقدام؛ للشهرستاني ص ٤٦٢.

(٤) ينظر: أصول الدين؛ للبغدادي ص ١٦٧، والإرشاد؛ للجويني ص ٣٥٦، والمواقف؛ للإيجي ص ٣٥٨. وسيأتي مزيد إيضاح في الفصل الثاني: دلالة الأخلاق، والفصل السابع: دلالة آيات عتاب النبي ﷺ.

(٥) القائلون بهذا هم الفلاسفة، ينظر: آراء أهل المدينة الفاضلة؛ الفارابي ص ١٧٧ ـــ ١٧٨، والشفاء؛ لابن سينا (٢/ ٣٥٥).

رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾[يونس: ٢]، وقوله: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾[ص: ٤]، وقوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾[ص: ٨]، وقوله: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[ق: ٢]،وقوله: ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: ٢٥].

* ودعوى أنَّ هذا التفضيل والاصطفاء يفضي إلى التفرق والتحزب والشقاق، وهذا مما يأباه العقل ولا يرضاه[١].

* ودعوى أنَّ النبوءة مَنصب، فلا تكون إلا لعظيم القوم، قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ[٢] عَظِيمٍ ﴾[الزخرف: ٣١]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فالاستفهام في هذه الآية (للإنكار الدال على التجهيل والتعجب من إعراضهم وتحكمهم أن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة)[٣].

والرد على شبهتهم من وجوه:

(**أحدها**: أنا أوقعنا التفاوت في مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره، فالتفاوت الذي أوقعناه في مناصب الدين والنبوّة بأن لا يقدروا على التصريف فيه كان أولى.

وثانيها: أن يكون المراد أن اختصاص ذلك الغني بذلك المال الكثير إنما كان لأجل حكمنا وفضلنا وإحساننا إليه، فكيف يليق بالعقل أن نجعل إحساننا إليه بكثرة المال حجة علينا في أن نحسن إليه أيضاً بالنبوّة؟

---

(١) ينظر: رسائل فلسفية ؛ أبو بكر الرازي ص ٢٩٥.

(٢) يقصدون الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف، ينظر: جامع البيان (٢١/ ٥٩٢).

(٣) التفسير الكبير (٢٧/ ٦٣٥).

وثالثها: أنا لما أوقعنا التفاوت في الإحسان بمناصب الدنيا لا لسبب سابق، فلمَ لا يجوز أيضـًا أن نوقع التفاوت في الإحسان بمناصب الدين والنبوّة لا لسبب سابق؟)[1]، فالرد عليهم كان من جهة ما هو واقع لهم من التفاضل والتمايز المعيشي، والمعرفي، إذ العقول تتفاوت وتتفاضل في معرفتها، وهذا لا ينكرونه البتة، فإن هم جوزوا التفاضل المعيشي والمعرفي الدنيوي كان من الضرورة العقلية إثبات التفاضل الديني المتعلق بمسألة النبوءة، ثم إن تفاضل الأنبياء بالاصطفاء لا يفضي إلى التفرق والشقاق الذي يأباه العقل، لأن الأنبياء جاؤوا بما يتوافق مع العقول، والشقاق الذي نجم في القوم كان نتاج حسدهم للنبي على منة الله تعالى عليه بالنبوءة، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤]، أو نتاج تكذيب لما جاء به الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وللرد على شبهتهم، إضافة للآيات التي قررت أن النبوءة محض اصطفاء من الله، تأكيد الأنبياء لأقوامهم بأن النبوءة منة من الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[إبراهيم: ١١].

وكما أن الله تعالى فضل الأنبياء على الناس بوحيه، فقد فضل بعض النبيين على بعض[2]، فتفاضلهم من جهته تعالى، لا من جهة الأنبياء ولا من جهة أتباعهم، قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا

---

(١) التفسير الكبير؛ للرازي، (٢٧/ ٦٣٥).

(٢) ينظر: التفسير الكبير (٦/ ١٩٥)، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ لابن تيمية، ص ٧، ومباحث المفاضلة في العقيدة؛ محمد الشظيفي، ص ١٠١ وما بعدها.

بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[الإسراء: ٥٥]، وهذه الآيات ترد كذلك على أهل الكتاب الذين حصروا النبوءة في بني إسرائيل، فأنكروا نبوءة النبي محمدﷺ.

ولا يمكن أن نلغي التفاضل بين الأنبياء بدعوى تطور النبوءة عبر التاريخ[١]، فالتفاضل بينهم يعود إلى مُرسِلهم (الله) تعالى، فـ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، إضافة إلى أن النبوءة لا تتطور[٢].

□ **ثالثاً: بشرية الأنبياء**، إذ من رحمة الله تعالى بخلقه ومن تمام حكمته وعدله كان الأنبياء من جنس البشر فهذا ييسر الأخذ عنهم، وهو ادعى للتأسي بهم، بخلاف ما لو كانوا من جنس آخر فإنه سيصعب على البشرية الأخذ عنهم، فالأنبياء بشر من جنس المُرْسَل لهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، و[فصلت: ٦]، وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٣].

فقد بين الله تعالى أن سبب الطعن في نبوءة الأنبياء لإنكارها هو أنهم من جنس البشر، فلا مزية لهؤلاء الأنبياء والرسل على أقوامهم، إذ التفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين، لذا كان لابد أن يكون النبي من جنس غير جنس البشر، هذه هي دعوى القوم في عدم إيمانهم بالأنبياء والرسل.

وتتبين شبهتهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٤]، وقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن

---

(١) ينظر لهذه الدعوى في: من العقيدة إلى الثورة؛ حسن حنفي (٤/ ١٠٥، ١٠٨ ـ ١٠٩).

(٢) سيأتي مزيد إيضاح وبيان في الفصل الرابع: دلالة مضمون الرسالة.

قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[هود: ٢٧]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾[الأنعام: ٨] وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٩١]، وقوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[الأنبياء:٣]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤]، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[المؤمنون: ٤٧]، وقوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الشعراء: ١٥٤]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[الشعراء: ١٨٦]، وقوله: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[يس: ١٥]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[التغابن: ٦].

بل إن الكفار والمكذبين بالنبوءة ألحقوا الخسران والضلال لكل مَن اتبع النبي لا لشيء إلا لأنهم من البشر، ودعواهم هذه أوضحها الله تعالى قائلاً عنهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[المؤمنون: ٣٤]، وقال: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[القمر: ٢٤]، فلم تلتفت نفوس المكذبين إلى حقيقة معبودهم الحجر، فرضوا به لأنه مشاهد محسوس أمامهم، وردوا نبوءة النبي ﷺ لأنه بشر، ولم يلتفتوا إلى حقيقة ما جاء به، ذلك لأن نفوسهم منشغلة في صدِّه، والطعن في نبوءته على أي وجه كان، فانصرفت عن طلب الحق، واشتغلت بإبعاد الخلق عن الحق.

وبما أن منكري النبوءات طعنوا في نبوءة الأنبياء لأنهم من جنسهم البشري فلا مزية لهم عليهم، فقد طلبوا أن يكون الأنبياء من جنس الملائكة، فإن في ذلك مزية عليهم، إذ علومهم أكثر، وقدرتهم أشد، ومهابتهم أعظم، وامتيازهم عن الخلق أكمل،

والشبهات والشكوك في نبوءتهم ورسالتهم أقل[1]،قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤]، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[فصلت: ١٤].

كما طلبوا أن يُرسَل مع النبي البشري نبيٌّ من الملائكة يشاهدونه ويخبرهم بصدقه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[الفرقان: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[الزخرف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الحجر: ٧].

فمما يلاحظ على شبهة منكري النبوءات أنهم اعتمدوا على الصورة الظاهرة فقط، ولو أنه فرض جدلاً أن ملكـاً أرسل إليهم، فما هو دليل صدق نبوءته؟ هل هي صورته فقط؟ أم أنه لا بد له من دليل يعلم به صدق نبوءته؟ (لأن النبوة تقف صحتها على المعجزات والدلائل لا على الصور، إذ لو بعث الملك إليهم لما علم كونه نبيّـاً لصورته، وإنما كان يعلم بالعلم، فإذا ظهر ذلك[2] على مَن هو بشر فيجب أن يكون نبيّـاً، بل الأولى أن يكون المبعوث إلى البشر بشراً، لأن المرء إلى القبول من أشكاله أقرب وهو به آنس)[3].

ولتفنيد هذه الشبهة والرد عليها في القرآن الكريم أكثر من طريق، منها:

* إنَّ من رحمة الله تعالى بخلقه أن أرسل إليهم الأنبياء من جنسهم، فلو كان

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (٦/ ٢٢٦).

(٢) أي دليل صدق نبوءة النبي.

(٣) التفسير الكبير (٣/ ٣٢٢)، وينظر: التحرير والتنوير (١٢/ ٤٧).

سكان الأرض ملائكة لبعث إليهم أنبياء من جنسهم، ولو كانوا بشراً لبعث إليهم أنبياء من جنسهم لأن الجنس إلى الجنس أميل، وهذا من تمام حكمته، ومقتضى عدله، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

* لو كان الأنبياء من الملائكة لم يتمكن البشر من الأخذ عنهم، لأن رؤية الملائكة في صورتهم الحقيقية أمر صعب، كما أن طبيعة الملائكة من عدم الأكل والشرب أمر يبعث على الوجل، فهذا الخليل إبراهيم عليه السلام يخاف من الملائكة حينما جاؤوه على هيئة أضياف فقرب إليهم الطعام فلم يأكلوا، فتوجس منهم، يقول الله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥١ – ٥٢]، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٠]، فكيف يتسنى للمُرسَل إليهم من الناس اتباع هؤلاء الأنبياء لو كانوا من الملائكة وثمة خوف ووجل منهم؟

* لو كان الملائكة أنبياء، وبعثهم الله للبشر لالتبس عليهم الأمر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩] فهذا جواب على مقترح الكفار، وذلك أن مقترحهم يستلزم الاستغناء عن بعثة نبي من البشر لأنه إذا كانت دعوة النبي البشري غير مقبولة عندهم إلا إذا قارنه مَلك يكون معه نذيراً، فقد صار مجيء نبي بشري إليهم غير مجد للاستغناء عنه بالملك الذي يصاحبه.

فلو أُكتفي عن إرسال نبي من نوع البشر وجعلنا النبي إليهم مَلكًا لتعين أن نصور ذلك الملك بصورة رجل، لأنه لا محيد عن تشكله بشكل لتمكين إحاطة أبصارهم به.

فإذا تشكل، فإنما يتشكل في صورة رجل ليطيقوا رؤيته وخطابه، وحينئذ يلتبس عليهم أمره كما التبس عليهم أمر محمدﷺ.

وللبسنا عليهم في شأن المَلك فيلبسون على أنفسهم في شأنه.

والمعنى: وللبسنا على عقولهم، فشكوا في كونه ملكاً فكذبوه، إذ كان دأب عقولهم تطلب الخوارق الكونية استدلالاً بها على الصدق، وترك إعمال النظر الذي يعرف به صدق الصادق[1].

ولو جعل الله المَلك في صورة البشر فهم سيظنون كون ذلك المَلك بشراً فيعود سؤالهم أنا لا نرضى بنبوءة هذا الشخص[2]، وهو دور ممتنع.

(وهذا الكلام كله منظور فيه إلى حمل اقتراحهم على ظاهر حاله من إرادتهم الاستدلال، فلذلك أجيبوا عن كلامهم إرخاء للعنان، وإلا فإنهم ما أرادوا بكلامهم إلا التعجيز والاستهزاء، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[الأنعام: ١٠] فكانوا في قولهم ذلك قاصدين التعجيز والاستهزاء معاً، لأنهم ما قالوه إلا عن يقين منهم أن ذلك لا يكون، فابتدأ الرد عليهم بإبطال ظاهر كلامهم بقوله: ولو أنزلنا مَلكاً لقضي الأمر، ثم ثنى بتهديدهم على ما أرادوه من الاستهزاء، والمقصود مع ذلك تهديدهم بأنهم سيحيق بهم العذاب وأن ذلك سنة الله في كل أمة استهزأت برسول له)[3].

* لو قدر أن المشركين رأوا الملائكة لكان هذا يوم هلاكهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[الفرقان: ٢٢] فهذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[الفرقان: ٢١] فبين تعالى أن الذي سألوه سيوجد، ولكنهم يلقون منه ما يكرهون.

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٤٦).

(٢) ينظر: التفسير الكبير، (٦/ ٢٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٤٧).

* لو أن الله تعالى أنزل المَلك فلن يؤمنوا، كما قال الله عنهم: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[الأنعام: ١١١]، ولقضي عليهم بالعذاب الذي هددهم الله تعالى به، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾[الأنعام: ٨] إذ الملائكة لا تنزل بين القوم المغضوب عليهم إلا لإنزال العذاب بهم، كما نزلت في قوم لوط، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[الحجر: ٦١ - ٦٤].

ومشركو مكة لما سألوا النبي ﷺ أن يريهم ملكـاً معه ظنوا مقترحهم تعجيزاً، فأنبأهم الله تعالى بأنهم اقترحوا أمراً لو أجيبوا إليه لكان سبباً في مناجزة هلاكهم الذي أمهلهم إليه فيه رحمة منه، فلو وقع لكان سيئ المغبة عليهم من حيث لا يشعرون، وليس المراد أن سبب عدم إنزال الملك رحمة بهم بل لأن الله ما كان ليظهر آياته عن اقتراح الضالين[1].

* لقد بين (الله عز وجل نبوة محمد ﷺ باعتبار نبوة من قبله من الأنبياء بأنه لم يرسل ملائكة، بل رجالاً من أهل القرى، ليبين أن هذا أمر معتاد مألوف معروف، ليس هو أمراً لم تجرِ به عادة الرب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩])[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[الرعد: ٣٨]،في هذه الآيات دلالة قطعية على أن النبوءة قاصرة في جنس

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٤٤) بتصرف يسير.
(٢) النبوات (١/ ١٧٤ - ١٧٥).

الرجال فقط، فالله تعالى لم يوحِ إلى امرأة من بنات بني آدم، وحي تشريع، ذلك أن وحي التشريع خاص بالأنبياء من الرجال، أمَّا مطلق الوحي أي: مجرد التكليم فالله تعالى قد أوحى إلى مريم وأم موسى[(1)].

وهذا نوح عليه السلام يستنكر على قومه في شبهتهم بأنه بشر مثلهم وهم بهذا يحيلون نبوءة نوح عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف: ٦٣]، وكذا هود عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾[الأعراف: ٦٩] (أي هذا الحديث الذي عظمتموه وضججتم له ما هو إلا ذكر من ربكم على رجل منكم.

ووصف رجل بأنه منهم، أي من جنسهم البشري فضح لشبهتهم، ومع ما في هذا الكلام من فضح شبهتهم فيه أيضاً رد لها بأنهم أحقاء بأن يكون ما جعلوه موجب استبعاد واستحالة هو موجب القبول والإيمان، إذ الشأن أن ينظروا في الذكر الذي جاءهم من ربهم وأن لا يسرعوا إلى تكذيب الجائي به، وأن يعلموا أن كون المذكر رجلا منهم أقرب إلى التعقل من كون مذكرهم من جنس آخر من ملك أو جني، فكان هذا الكلام من جوامع الكلم في إبطال دعوى الخصم والاستدلال لصدق دعوى المجادل، وهو يتنزل منزلة سند المنع في علم الجدل)[(2)].

* بين الله تعالى أن الأنبياء ما هم إلا من جنس البشر قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[الأعراف: ٣٥]، (وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أي من بني آدم، وهذا تنبيه لبني آدم بأنهم لا يترقبون أن تجيئهم رسل الله من الملائكة، لأن المُرسَل يكون من جنس من أرسل إليهم، وفي هذا تعريض بالجهلة من الأمم الذين أنكروا رسالة

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٤٤)؛ وطريق الهجرتين: لابن القيم ص ٤١٦، والنبي والرسول: د/ ناصر الحمد ص ١٠٥-١٢٤.

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٦٨).

الرسل لأنهم من جنسهم، مثل قوم نوح، إذ قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[هود: ٢٧]، ومثل المشركين من أهل مكة إذ كذبوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بأنه بشر قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٤])[1].

* من أساليب تفنيد شبهة منكري النبوءات ببشرية الرسل أسلوب النفي المباشر، فالنبي محمد ﷺ ينفي أن يكون مَلكاً في رده على الكفار، قال الله تعالى عنه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾[الأنعام: ٥٠].

* مما يلاحظ في هذه الشبهة لمنكري النبوءات أنهم لم يلتفتوا إلى ما جاء به الأنبياء، وإنما التفتوا إلى ذات النبي، ومن هنا يتبين لنا أن شبهات منكري النبوءات تارة تكون لذات النبي، وأخرى تكون لِما جاء به النبي.

وإذا كانت البشرية لا تنافي النبوءة، فقد ثبت إمكانها[2].

□ **رابعاً: لقد بين الله تعالى في القرآن الكريم أن المكذبين بجنس النبوءات كانوا يطلبون الآيات الحسية المادية لا ليؤمنوا بل تعنتاً وعناداً منهم**، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: ٣٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[الإسراء: ٩٠ – ٩٣]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨/١٠٨).

(٢) ينظر: نهاية الإقدام ص ٤٢٩.

ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨]، وطلب المكذبين لهذه الآيات هو مثل طلب فرعون من موسى، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، ومما طلبوه أيضـاً، قوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، (إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال مَن قبلهم من الأمم الخالية)[١]، واليهود سألوا النبيﷺ أن يُنزل عليهم كتاباً مكتوباً كالتوراة التي أنزلت على موسى تعنتاً وعناداً، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣]، وقد طلبوا قبل ذلك من موسى أن يَروا الله جهرة، فلم يُجبهم الله تعالى، بل أهلكهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، (ولمّا طُلب من المسيح المائدة، كانت من الآيات الموجبة لمَن كفر بها عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين)[٢]، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٠٠).

(٢) الجواب الصحيح (٣/ ٥١٩).

﴿صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥].

(ومما ينبغي أن يُعلم أن الله إذا أرسل نبيّاً وأتى بآية دالة على صدقه قامت بها الحجة، وظهرت بها المَحجة، فمَن طالبه بآية ثانية، لم تجب إجابته إلى ذلك، بل وقد لا ينبغي ذلك، لأنه إذا جاء بآية ثانية طولب بثالثة، وإذا جاء بثالثة طولب برابعة، وطلب المُتعنتين لا أمد له)[1].

ومع تعنت الكفار المكذبين بالنبوءات في طلب الآيات إلا أن الله تعالى لم يحقق ما طلبوه من الآيات، ذلك لأن الآيات التي يؤيد الله بها أنبياءه تكون من عند الله تعالى وحده، فهي لا تكون بناء على طلب النبي، ولا من النبي، وهذا ما أجاب به النبي ﷺ حين طلب المكذبون الآيات، قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] فهو بشر لا يستطيع أن يأتي بالآيات الخارقة للسنن الكونية، إذ هذا من خصائص الربوبية، وما هو إلا بشر مُبلغ عن ربه، والله هو الذي يؤيده بالآيات الدالة على صدقه.

ومن رحمة الله تعالى أنه لم ينزل الآيات التي يقترحها الكفار، لأنهم سيكذبون بها إن نزلت، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وإذا كذبوا بها عاجلهم العذاب الذي يستأصلهم كما فعل بالذين من قبلهم، وقد بين الباري جل وعلا تكذيبهم إن نزلت الآيات في أكثر من آية، كقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

(١) المصدر نفسه (٣/ ٥١٣).

[الأنعام: ٤]، وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ ـ ١٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

□ **خامساً: لقد بين الله تعالى في كتابه العزيز تعنت المكذبين بالنبوءة، فلم يعد** طلبهم مقتصراً على الآيات المادية التي يقترحونها فحسب، بل إنهم تجرؤوا على طلب استعجال العذاب كي يتبين لهم الحق إن كان الأنبياء صادقين، قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: ٨]، وقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣ ـ ٥٤]، وقال تعالى عن المكذبين بالنبوءة قبلهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، وقال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]، فهذه الآيات وأمثالها في القرآن ذكر الله فيها شيئاً من سُنة الأولين: أنهم يطلبون تعجيل العذاب عناداً وتعنتاً، وبين تعالى أنه أهلك جميعهم بعذاب مُستأصل.

ولو فرضنا جدلاً أن العذاب الذي استعجلوه نزل بهم، فهلكوا، فكيف سيتبين لهم بعد هلاكهم صدق النبي؟! لنعلم بأن طلبهم لم يكن الهدف منه طلب حق، وإنما هو التكذيب المبني على الجهل المركب، الجهل بالطلب إذ العاقل يطلب النفع ودفع الضر، والجهل بالأنبياء وبآياتهم.

*****

الفصل الثاني

دلالة اتصاف النبي ﷺ بالكمال الأخلاقي

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: دلالة اتصاف النبي ﷺ بكمال الصدق

المبحث الثاني: دلالة استحالة كذب النبي ﷺ

المبحث الأول

دلالة اتصاف النبي ﷺ بكمال الصدق

بما أنَّ مفهوم النبوءة يرتكز على الإخبار بالغيب الذي يبلغه الله للنبي، ويبلغ النبي للناس كل ما أوحاه الله إليه، فالنبوءة تعتمد على الخبر، وكل ما جاء به النبي ﷺ من مسائل ودلائل هو محض خبر.

و الخبر إمّا أنْ يكون صدقـًا، وإمّا أن يكون كذبـًا، والنبي الذي يبلغ الناس ما أخبره الله به إما أن يكون من أصدق الصادقين، وإما أن يكون من أكذب الكاذبين، ويظهر هذا جليـًّا لكل عاقل، فلا يمكن أن يلتبس عليه، وناقل الخبر لا بد أن يكون أمينـًا، بحيث ينقل الخبر كما سمعه دون زيادة أو نقصان، وهذا لا يكون إلا لمَن كَمُلت أخلاقه، بحيث يصبح الصدق ملازمـًا له طوال حياته، فلا يتصور العقل وقوع الكذب منه مطلقـًا لأنه يتنافى مع كمال أخلاقه[1]، وهذا من مقتضى الضرورة العقلية، ومَن يتصف بالصدق فاتصافه بباقي الصفات والأخلاق الحسنة الكاملة من باب أولى[2]، ولقد وصف الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤]، فالنبي ﷺ قد بلغ الغاية القصوى من الكمال الأخلاقي طيلة حياته حتى مماته، بل إن صدقه تبين للناس بعد وفاته، وهذا الكمال يحيل عليه عقلاً الاتصاف بضده[3].

وسأحرر الدلالات التي برهنت على اتصاف النبي ﷺ بالصدق ونفي ضده، وهو دليل على الكمال الأخلاقي من وجوه منها:

---

(١) ينظر: أعلام النبوة ؛ للماوردي ص ١٨١.

(٢) تنبيه: الهدف من دلالة أخلاق النبي ﷺ الاستدلال بها على صدق نبوءته، وهذا ما أحببت بيانه، لذا اقتصرت على إثبات الصدق والأمانة، ونفي الكذب والخيانة عنه، ولو أني استعرضت جميع أخلاق النبي ﷺ لطال بي المقام، ولمَن أراد الاستزادة، ينظر: أخلاق النبي ﷺ في الكتاب والسنة؛ د/ أحمد الحداد فهي برمتها قد اعتنت بأخلاق النبي ﷺ.

(٣) ينظر: الأربعين ؛ للرازي (٢/ ٨٩)، وتبصير الأدلة: للنسفي (١/ ٤٩٠).

الوجه الأول: شهادة الناس بصدق النبي محمدﷺ، وانتفاء الكذب عنه، ومن ذلك:

○ **شهادة قومه الذين نشأ بين ظهرانيهم، وهم مَن نصبوا له العداء بعد نبوءته.**

وهذا من أبلغ الدلالة على كمال اتصافه بالصدق، أنْ تصف قريشٌ النبي ﷺ بالصدق وتنفي الكذب عنه مع عدائها له، ولا تتجرأ على أن تسمه بالكذب مطلقاً طيلة حياته.

فقد مكث النبيﷺ أربعين سنة، قبل بعثته بين قومه، كلهم كانوا يلقبونه بالصادق الأمين، حتى أصبح هذا الوصف ملازماً له، لا ينفك عنه أبداً، ولا أدل على ذلك من حادثة صعود النبي ﷺ على جبل الصفا، «...فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1].

ففي قولهم: « ما جربنا عليك إلا صدقا »، انتزع النبي محمد ﷺ منهم هذه الشهادة الجماعية بصدقه وانتفاء الكذب عنه، لعلمه بما قد يقع من تكذيبهم له عند إخبارهم بأمر نبوءته.

وفي رواية: **«مَاجَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا»**[2] يعني ولا حتى مرة واحدة، قيلت هذه الكلمة أمام هذه الجموع، ولم ينكرها أحد.

ففي قولهم: **« مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا»** دليل واضح على اتصاف محمد بالصدق التام قبل النبوءة بشهادة أعدائه الذين وقفوا في وجه نبوءته.

فهم مقرون بأنه صادق ولم يجربوا عليه كذباً قط، لكنهم لم يستفيدوا من إقرارهم هذا شيئاً حيث كذبوا بنبوءته، وكان من المنطق والعقل أن يصدقوه فيما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب «وَأَنذِرْعَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ»، (٤٧٧٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله: «وَأَنذِرْعَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ»، (٢٠٨).

أخبرهم به من أمر نبوءته لأنه الصادق عندهم، لكنهم تناقضوا فكذبوا الصادق في خبر نبوءته، للكبر والهوى الذي سكن نفوسهم، وللتقليد والتبعية لآبائهم التي كانت تحدوهم لعدم قبول ما جاء به.

لهذا رد عليه أبو لهب[1] فقال له: تَبًّا لَكَ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟، فَأَنْزَلَ الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]، وهذا أيضـًا كان موقف أبي جهل[2] حيث يقول للنبي ﷺ: (ما نتهمك، ولكن نتَّهم الذي جئت به، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣])[3].

ومن الشهادات أيضـًا شهادة عتبة بن ربيعة[4] حينما ذهب للنبي ﷺ وقرأ عليه قول الله تعالى: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١ ـ ٢] حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] يقول عتبة لقومه: **فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب**[5].

ومن الشهادات أيضـًا قول أمية بن خلف[6] لما قال سعد بن معاذ[7] رضي الله عنه له: «**دَعْنَا عَنْكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ مُحَمَّدًا ﷺ يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلُكَ، قَالَ: إِيَّايَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَالله مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ إِذَا حَدَّثَ، فَرَجَعَ إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ: أَمَا تَعْلَمِينَ مَا قَالَ لِي**

---

(١) أبو لهب عبدالعزى بن عبدالمطلب بن هاشم، من قريش، عم النبي محمد ﷺ، من كبار قريش، توفي في السنة الثانية بعد الهجرة، ينظر: الأعلام ؛ للزركلي (٤/ ١٢).

(٢) أبو جهل: عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، من سادات قريش، يكنى بأبي الحكم، توفي في بدر الكبرى، ينظر: الأعلام (٥/ ٨٧).

(٣) جامع البيان ؛ لابن جرير الطبري (١١/ ٣٣٤).

(٤) عتبة بن ربيعة من زعماء قريش في الجاهلية، ومن ساداتهم، قتل في السنة الثانية من الهجرة. الأعلام (٤/ ٢٠٠).

(٥) ينظر: صحيح السيرة النبوية ؛ لمحمد ناصر الدين الألباني ص ١٦٢.

(٦) أمية بن خلف بن وهب، من كبار قريش، ينظر: الأعلام (٢/ ٢٢).

(٧) سعد بن معاذ، صحابي جليل، سيد الأوس، شهد أحداً والخندق، فرمي بسهم فمات، ينظر: الإصابة لمعرفة الصحابة ؛ لابن حجر (٢/ ٣٧).

أَخِي الْيَثْرِبِيُّ ؟ قَالَتْ: وَمَا قَالَ ؟ قَالَ: زَعَمَ أَنّه سَمِعَ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلِي، قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى بَدْرٍ وَجَاءَ الصَّرِيخُ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: أَمَا ذَكَرْتَ مَا قَالَ لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِبِيُّ؟ قَالَ: فَأَرَادَ أَنْ لا يَخْرُجَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: إِنَّكَ مِنْ أَشْرَافِ الْوَادِي فَسِرْ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، فَسَارَ مَعَهُمْ فَقَتَلَهُ اللهُ»[1]، فهذا أمية بن خلف وزوجه يُقران بصدق محمدﷺ وانتفاء الكذب عنه مع أنهما يكذبان بنبوءته، والنبي يخبر بهلاك أمية كما في الرواية السابقة، وبهلاك أبي لهب وزوجته قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾[المسد: ١ ـ ٥]، ويخبر بهلاك أبي جهل، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[العلق: ٩ ـ ١٩]، ويخبر بهلاك الوليد بن المغيرة، قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٩]، وأخبر عن هلاك غيرهم، وهم أحياء بعد، ولم يتجرأ واحد منهم على تكذيبه، مع حرصهم على الفتك به بأي طريقة كانت، وقد وقع ما أخبر به النبيﷺ من أمر هلاكهم، فماتوا على الشرك، أفلا يكون تحقق وقوع ما أخبر به دليلاً على صدقه[2].

وقد تمتلئ النفس تعجباً من صنيع القوم يعلمون أنه الصادق الأمين الذي لا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٣٦٣٢).

(٢) سيأتي مزيد إيضاح في الفصل الخامس: دلالة الإخبار بالمغيبات.

يكذب أبداً، فيصدقونه في خبر هلاكهم، ولا يصدقون أنه نبي الله!! ولا يصدقون بالدين الذي جاء به.

لتدرك بأن الأمر عند قريش ومَن نحا نحوهم في تكذيب النبيﷺ لا يتعلق بأخلاق النبيﷺ لا من قريب ولا من بعيد، بل ثمة أمر آخر هو الداعي لتكذيبه ألا وهو (الدين) الذي جاء به وقد خالف أهواءهم وعاداتهم وتقاليدهم البالية.

ومن الشهادات أيضـاً قول أحد أكابر ثقيف للنبي ﷺ لما دعاهم إلى الإسلام: (والله لا أقول لك كلمة واحدة إن كنت صادقا فأنت أجلّ في عيني من أن أرد عليكم، وإن كنت كاذبـاً فأنت أحقر من أن أرد عليك) (١)، فكيف يشتبه أفضل الخلق وأكملهم، بأنقص الخلق وأرذلهم ؟.

ومن ذلك أيضـاً قول أبي طالب في لاميته المشهورة التي قالها إبان المقاطعة التي ضربوها على النبيﷺ وعلى قومه بني هاشم، لعدم كفهم رسول الله ﷺ عن دعوته أو تخليهم عنه، قال لهم مذكراً بحاله وأخلاقه:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لا مُكَذَّب ... لَدَيْنَا وَلا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ (٢)

وحينما (خَلَا الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ (٣) بِأَبِي جَهْلٍ حِينَ تَرَاءَى الْجَمْعَانِ فَقَالَ: أَتَرَى أَنَّ مُحَمَّدًا يَكْذِبُ؟ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: كَيْفَ يَكْذِبُ عَلَى اللهِ؟ وَقَدْ كُنَّا نُسَمِّيهِ الْأَمِينَ، لِأَنَّهُ مَا كَذَبَ قَطّ،...)(٤).

فهذا اعتراف من أبي جهل بأنه لم يكذب قط، لأنه الأمين الصادق، فمَن لم يكذب على بشر مثله، هل يُعقل أن يكذب على الله تعالى ويقول بأني نبي ؟!

(١) السيرة النبوية ؛ لابن هشام، (٢/ ٦٠-٦١).
(٢) ينظر: سيرة ابن هشام٢/ ١٦.
(٣) الأخنس بن شريق أُبي بن عمرو الثقفي، سمي بالأخنس لأنه خنس بالقوم يوم بدر، ينظر: البداية والنهاية ؛ لابن كثير (٧/ ١٩٦).
(٤) الروض الأنف ؛ للسهيلي (١/ ١٢٤).

وبعد سياق بعض الشواهد من أقوال القوم الذين نشأ النبيﷺ بين ظهرانيهم، وهم من ألد أعدائه بعد نبوءته، لنا أن نتساءل: **لماذا يشهدون بصدقه وأمانته وكمال أخلاقه، ولا يصدقونه في خبر نبوءته؟! أليس هذا سؤالاً منطقيّاً؟!**

هناك أسبابٌ عديدة[١]، منها: التأثر بالعقل الجَمعي الذي يرفض نبوءة محمد ﷺ، فنحن لو دققنا النظر في الشواهد المذكورة سابقـاً لوجدنا أن اعتراف القوم بأنه صادق كان من خلال تفكير كل واحد منهم على حدة، أو مع صاحب له، وهذا يتبين جليّاً في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[سبأ: ٤٦] فها هنا توجيه للتفكير على انفراد، بحيث يخلو كل واحد مع نفسه للتفكر في حال النبيﷺ، أو التفكير مع رفيق واحد للتفكر في حال النبيﷺ، للانعتاق من ربقة التفكير بالعقل الجمعي، الذي يجعل الكل أسرى لتفكيره، فلا يتيح مجالاً للتفكر والتأمل والحكم[٢].

○ **شهادة أهل الكتاب باتصاف النبيﷺ بالصدق ونفي الكذب عنه.**

لم تقتصر الشهادة على صدق النبي ﷺ على قومه فحسب، بل تعدى الأمر إلى شهادة أهل الكتاب من النصارى، ويتبين هذا في سؤال هرقل ملك الروم لأبي سفيان[٣] رضي الله عنه قبيل إسلامه، حيث كان ينصب العداء لدعوة محمدﷺ،عن أحوال الرسول ﷺ، ومن بينها قول هرقل: «قَالَ فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ: لَا،» ثم قال هرقل: في آخر القصة لأبي سفيان: «وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ

(١) سترد في ثنايا البحث بإذن الله متفرقة لمناسبتها في كل موضع.

(٢) ينظر: الدين: د/ محمد دراز ص١٧١.

(٣) أبو سفيان صخر بن أمية القرشي، صحابي جليل، والد معاوية بن أبي سفيان، أسلم عام الفتح، ينظر: الإصابة لمعرفة الصحابة (٢/ ١٧٢).

لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ»[1]، فهرقل سألهم عن أسباب الكذب وعلاماته فرآها منتفية عنه، وسألهم عن علامات الصدق فوجدها ثابتة له.

وهرقل استدل بقياس الأولى فإن مَن لم يكن من خُلقه الكذب قط، بل لا يُعرف إلا بالصدق، ولم يؤثر عنه كذبة واحدة، فمحال أن يكذب على الله من باب أولى، والإنسان قد يخرج عن عادته في نفسه إلى عادة بني جنسه فإذا انتفى هذا وهذا: كان ذلك أبعد عن الكذب وأقرب إلى الصدق[2].

ومن شهادة أهل الكتاب شهادة اليهود، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ[3] قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، انْجَفَلَ[4] النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: « أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ »[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، (٧)، وفي كتاب الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، (٢٩٤٠)، وفي تفسير القرآن، «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء»، (٤٥٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه للإسلام، (١٧٧٣).

(٢) ينظر: شرح العقيدة الأصفهانية؛ لابن تيمية ص ٥٥١ وما بعدها.

(٣) عبد الله بن سلام، كان من يهود بني قنيقاع، ثم أسلم حين قدم النبي ﷺ المدينة، صحابي جليل، توفي سنة ثلاث وأربعين، ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢/ ١٢٠).

(٤) أنجَفَل الناس إليه: أي ذهبوا مسرعين نحوه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ؛ لابن الأثير (١/ ٧٨٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٢٣٢٧٢)، والترمذي في جامعه، صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم (٢٤٨٥)، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في قيام الليل، رقم (١٣٣٤)، والدارمي في سننه، كتاب الصلاة، باب فضل صلاة الليل، رقم (١٤٦٠)، وإسناده صحيح، صححه الترمذي والألباني، صحيح الترمذي: للألباني، (٢/ ٣٠٣) وعبدالقادر الأرنؤوط في جامع الأصول (٩/ ٥٥١).

○ **شهادة أتباع النبيﷺ باتصافه بالصدق ونفي الكذب عنه.**

من الشهادات أيضاً شهادة أقرب الناس إليه زوجته خديجة رضي الله عنها، فهي تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق الأمين، فلما جاءه الوحي أول مرة قال لها: «إني قد خشيت على عقلي» فقالت: كلا والله، لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق[1].

فالنبي ﷺ (لم يخف من تعمد الكذب، فإنه يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، لكن خاف في أول الأمر أن يكون قد عرض له عارض سوء، فذكرت له خديجة ما ينفي هذا، وهو ما كان مجبولاً عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم والأعمال وهو الصدق المستلزم للعدل، والإحسان إلى الخلق، ومَن جُمع فيه الصدق والعدل والإحسان لم يكن ممَن يخزيه الله.

وصلة الرحم، وقرى الضيف، وحمل الكلّ، وإعطاء المعدوم، والإعانة على نوائب الحق، هي من أعظم أنواع البر والإحسان.

وقد عُلِم من سنة الله أن مَن جَبَلَه الله على الأخلاق المحمودة، ونزَّهه عن الأخلاق المذمومة، فإنه لا يخزيه)[2].

فهي قد استدلت بكمال أخلاقه على صدق ما أخبرها به من أمر الوحي، أي على نبوءته، ولم تطلب منه دليلاً أو آية أو علامة، وهذا يدلنا على تنوع وتعدد دلائل النبوءة ولا يمكن حصرها في نوع واحد، فهذه شهادة من خبر أخلاقه وسبر أحواله

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (٤٩٥٣).
(٢) شرح العقيدة الأصفهانية ؛ لابن تيمية ص٥٤٧-٥٤٨.

ﷺ، وهي شهادة من أقرب الناس إليه، وهي تعد من أبلغ الدلائل على صدق دعوته، ولو أنها شكت في صدقه لما آمنت به[١].

و من ذلك شهادة صديقه أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث يصدقه في كل ما يخبر، فلما (أسري برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى[٢] أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناسٌ ممَن كانوا آمنوا به، وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس فقال: أوَقالَ ذلك؟ قالوا: نعم قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبح ؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة)[٣].

ومن ذلك قول حسان[٤] رضي الله عنه:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَات مُبَيِّنَة ... كَانَتْ بَدِيهَته تَأْتِيك بِالْخَبَرِ[٥]

وغيرها كثير من الشواهد لو سقتها لطال بي المقام، لكن ذكر شيء منها عله يفي بالغرض، إذ أن جميع هذه الأقوال من القريب والبعيد، من المؤمن والكافر والكتابي تبرهن على كمال أخلاق النبي ﷺ في الصدق والأمانة، فهو مشهود له بالصدق والأمانة عند جميع مَن يعرفه، قبل النبوءة وبعدها، لا يعرف له شيء ينافي

---

(١) استدل بهذا المستشرقون، ينظر: الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ؛ لأحمد بن حجر آل بو طامي ص ١٣٢، وص ١٦٣، وأخلاق النبيﷺ في الكتاب والسنة ؛ د/ أحمد الحداد، (٤٠٦/١).

(٢) لإسراء النبيﷺ دلالة على صدق نبوءته بينتها في الفصل الخامس: دلالة الإخبار بالمغيبات.

(٣) المستدرك على الصحيحين ؛ للحاكم (٣/ ٨١).

(٤) حسان بن ثابت صحابي جليل، شاعر النبيﷺ، ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة (١/ ٢٥٦).

(٥) ينظر: ديوان حسان بن ثابت ص ٤٨٢.

كمال أخلاقه طيلة حياته، (ولو حفظوا عليه كذبة نادرة من غير الرسالة لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة، ومَن لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزم)[1].

فلم يكن صدقهﷺ موضع شك مطلقاً لدى القريب والبعيد؛ فقومه كانوا على علم تام بحياته الكاملة، ولذلك لم يرمه أحد منهم بتهمة الكذب أو الاحتيال، بل تعددت أقوالهم فيه فذهبوا يدّعون أنه فقد وعيه، أو أنه شاعر، أو أنه ساحر، أو أن الجن تسلطت عليه أو تمكنت منه، وما إلى ذلك من الدعاوى والشبهات التي نفاها الله عنه، وأخبر بها النبيﷺ، ولك أن تتأمل كمال صدقه في إخباره ببهتان قومه عليه، وتحفل كتب التأريخ بذكرها؛ ولكن هذه الكتب لا تشير إلى أية محاولة جرؤ صاحبها على النيل من أمانته وصدقه، بل يسجل التأريخ أنه: ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عند محمدﷺ، لِما يعلم من صدقه وأمانته[2].

ولم يجرؤ أحدٌ منهم على وصفه بالكذب، فقد مكث قبل نبوءته أربعين سنة بين ظهراني قومه لم يدعِ فيها أنه نبي، أو أنَّ الله أوحى إليه، لا في طفولته، ولا في ريعان شبابه، فيحيل العقل أنه حينما يبلغ الأربعين يكذب فيما يخبر به ! يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[يونس: ١٥ ـ١٧]، ويقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[المؤمنون: ٦٩]، فهو يحتج عليهم بما ذكره الله تعالى في الآيات السابقة بأنه مكث فيهم من أول عمره إلى وقت إعلان نبوءته، وهم عالمون بحاله، يعرفونه تمام المعرفة، ثم جاءهم بهذا الكتاب العظيم

---

(١) أعلام النبوة؛ للماوردي ص ١٤٩، وينظر: إيثار الحق على الخلق: لابن الوزير ص ٧٩.
(٢) ينظر: الإسلام يتحدى ؛ وحيد الدين خان ص ٦٩.

المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وقصص الأولين، والإخبار عن الغيوب، عجز عن معارضته البلغاء والفصحاء، بهر عقولهم، ولم يتأتَ لأحدهم أن يقول: إنك أفنيت عمرك في تحصيل هذه الكلمات التي تظهرها، مع شدة عداوتهم له ﷺ، علم أنه لم يأتِ بشيء من عنده، فكل مَن له عقل سليم يدرك الفرق بين حال محمد ﷺ قبل إعلان النبوءة وبعدها، فهو من قبل لم يأتِ بشيء من هذا الذي يتلوه، فدل ذلك على أنَّ ما جاء به وحي من الله تعالى وليس هو من عند محمدﷺ، لا سيما وأنَّ مَن يخبر به أمي لم يقرأ ولم يتتلمذ ولم يطالع كتباً، ولم يلتقِ عالماً، وقومه يعرفون هذا تمام المعرفة[1].

الوجه الثاني: اتصاف الأنبياء من قبله بالصدق، فكل الأنبياء يتصفون بالصدق وينتفي عنهم الكذب بالضرورة العقلية التي تحيل الجمع بين النقيضين، وتحيل تواطؤ جميع الأنبياء على الكذب وقد عرف عنهم جميعاً الصدق، فـ (الأنبياء عددهم كثير، وهم بإجماع العقلاء وأهل العلم والعدل في غاية صفات الكمال من العقل والعلم والعدل والصدق والأخلاق الحسنة، وكل منهم لم يرَ الآخر ولم يسمع منه)[2]، وهذا يتبين بجلاء لكل مَن عاش معهم، وعرفهم، وانتقل خبر صدقهم فبلغ القاصي والداني، ولم يعترض أحد على إجماع العقلاء على كمال أخلاقهم بإجماع على وصفهم بسيئ الأخلاق.

فالأنبياء يتصفون بالكمال الأخلاقي حتى يكونوا قدوة لأقوامهم، والكمال الأخلاقي يدعو إلى الإيمان بنبوءتهم، والتصديق بهم، والتسليم لما جاؤوا به من

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٥/ ٤٢)، الكشاف ؛ للزمخشري (٣/ ٢)، معالم التنزيل ؛ للبغوي (٤/ ١٢٥)، التفسير الكبير ؛ للرازي (٨/ ٢٤٧)، الأربعين له (٢/ ٩٠)، التحرير والتنوير ؛ لابن عاشور (١١/ ١٢٠).

(٢) الرد على المنطقيين ؛ لابن تيمية (١/ ٤٩٩).

حق[1]، ولو لم يتصف الأنبياء بالكمال الأخلاقي الذي حباهم الله به لما انقاد الناس لهم، ذلك أن الناس لا ينقادون عن رضا وطواعية لمَن كثرت نقائصه، وقلت فضائله[2].

واتصاف الأنبياء بالكمال الأخلاقي أحد الأدلة على صدق نبوءتهم، فقد وصف الله تعالى الأنبياء بالصدق في القرآن، فوصف الله إبراهيم الخليل بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾[مريم: ٤١]، وبقوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾[مريم: ٥٠]، وقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[الشعراء: ٨٤]، ووصف إسماعيل بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[مريم: ٥٤]، ووصف إدريس بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾[مريم: ٥٦] ووصف موسى بقوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، ووصف يوسف بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾[يوسف: ٤٦]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[يوسف: ٥١]، ووصف النبي ﷺ بقوله: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]، وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[الزمر: ٣٣]، وفي قوله: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[الأحزاب: ٢٢]، ووصف الله أنبياءه بالأمانة، فوصف نوحـًا بالأمانة في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ [الشعراء: ١٠٦ ـ ١٠٧]، ووصف هوداً بقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾[الشعراء: ١٢٤ ـ ١٢٥]، وبقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾[الأعراف: ٦٥ ـ ٦٨]،

---

(١) ينظر: أعلام النبوة ؛ للماوردي ص ٢٥، الشفا بحقوق المصطفى ؛ للقاضي عياض (١/ ١٢٧).

(٢) ينظر: الرسل والرسالات ؛ عمر الأشقر ص ٨١.

ووصف صالحاً بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٤٢ - ١٤٣]، ووصف لوطاً بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٦١ - ١٦٢]، ووصف شعيباً بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٧٧ - ١٧٨]، ووصف يوسف بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، ووصف موسى بقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وبقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٨].

ولم يمس القرآن جناب الأنبياء ووصفهم بسيئ الأخلاق، بل هو الثناء على كمال أخلاقهم، وإذا ثبت وصفهم بكمال الصدق لزم انتفاء الكذب عنهم.

الوجه الثالث: في كمال أخلاق الأنبياء دلالة على كمال مَن أرسلهم، وتصديقهم تصديق للذي أرسلهم، وتكذيبهم تكذيب للذي أرسلهم.

وإذا علم بأن الله بعث النبيﷺ، وأن الله مُصَدِّقه في قوله إني نبي الله، عُلِم بذلك أنه صادق في كل ما يخبر به عن الله تعالى، وتكذيبه في بعض ما يخبر به كتكذيبه في إخباره بأصل نبوءته[1].

الوجه الرابع: ليس في كتب الأنبياء السابقين ما يوجب تكذيب النبيﷺ، ولا التحذير منه، فكل الأنبياء حذروا من فتنة المسيح الدجال الكذاب الذي يلبث مدة قليلة، ولم يُحذروا من دعوة محمدﷺ، بل بشروا به، ولو كان محمدﷺ كاذباً في دعوى النبوءة لكانت فتنته أعظم لأن الذين اتبعوه أضعاف أضعاف مَن يتبع المسيح الدجال، كما أن دعوته قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) ينظر: شرح العقيدة الأصفهانية ص ٧٢٥ وما بعدها.

فإذا لم يُخبر الأنبياء السابقون أنه كاذب ولم يُحذروا منه، وعُلِم أنهم أخبروا أنه نبيٌ صادقٌ كما شاع ذلك وظهر واستفاض من وجوه كثيرة عُلم صدقه في كل ما يخبر به[١].

الوجه الخامس: دلالة اتصاف النبي ﷺ بكمال الصدق من جهة أتباعه، فإن أردنا أن ندرك الفرق بين النبي الصادق والنبي الكاذب فلننظر إلى أتباعه[٢]، فـ(لما بعث الله محمداً بالهدى ودين الحق تلقى ذلك عنه المسلمون، فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد أخذوه عن نبيهم، مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية، ومعلوم أن كل كمال في الفرع المُتعلِّم هو من الأصل المُعلِّم، وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علماً وديناً، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقاً في قوله إني رسول الله إليكم جميعاً، لم يكن كاذباً مفترياً فإن هذا القول لا يقوله إلا مَن هو من خيار الناس وأكملهم إن كان صادقاً، أو هو من شر الناس وأخبثهم إن كان كاذباً، وما ذُكر من كمال علمه ودينه يناقض الشر والخبث والجهل، فتعين أنه مُتصفٌ بغاية الكمال في العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقاً في قوله إني رسول الله لأن الذي لم يكن صادقاً إما أن يكون متعمداً للكذب أو مُخطئاً، والأول يوجب أنه كان ظالماً غاوياً، والثاني يقتضي أنه كان جاهلاً ضالًا.

وكمال علمه ينافي جهله، وكمال دينه ينافي تعمد الكذب، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمداً للكذب، ولم يكن جاهلاً يكذب بلا علم، وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقاً عالماً بأنه صادق ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله

---

(١) ينظر: الجواب الصحيح ؛ لابن تيمية (٥ / ١٩٥)، وسيأتي مزيد إيضاح في التبشير به.
(٢) ينظر: شبهات وهمية حول الكتاب المقدس: القس د/ منيس عبد النور، ص ٣٥.

تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ١ – ٤](١).

وأتباع الأنبياء من المؤمنين الصادقين يُصدقونهم ولا يُكذبونهم، ولم يقع في نفوس الأنبياء أن أتباعهم سيكذبونهم، وهذا ما تدل عليه حادثة عمرو بن العاص حين (وفد إلى مسيلمة في أيام جاهليته فقال له مسيلمة: ماذا أُنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أُنزل عليه سورة وجيزة بليغة.

فقال: وما هي؟ قال: أنزل عليه ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ١ -٣].

قال: ففكر مسيلمة ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: ولقد أُنزل عليّ مثلها. فقال له عمرو: وما هي؟ فقال مسيلمة: يا وبر يا وبر، إنما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب)(٢)، والشاهد من الحادثة قول عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب، فمسيلمة يعلم بأنه كاذب، ويعلم بأن عمراً يعلم بأنه كاذب، فلم يقل عمرو لمسيلمة أنت كاذب، وإنما اكتفى بعلم مسيلمة بكذبه، وهذا لم يكن من الأنبياء مطلقاً، فلا يزالون يتسمون بالصدق، ولا يزال أتباعهم من المؤمنين الصادقين يصدقونهم، فلم يُخالج الأنبياء ولا أتباعهم أنهم كذبة، ولمّا كُذِّبَ الأنبياء لم يؤثر هذا على من اتبعهم.

ومن صدق أتباع النبي ﷺ أنهم لم يرتدوا عن الدين الذي جاء به سخطاً لدينه، بل يزيدون، وهذا ما استدل به هرقل على صدق نبوءة النبيﷺ حينما سأل أبا سفيان، «وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟! فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٤٥).

(٢) البداية والنهاية: لابن كثير، (٦/ ٣٥٩).

حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟! فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ».

بل لم تتنصر أمة بعد دخولها للإسلام[1].

والقرآن يُثني على الصادقين ويُبين حالهم ومآلهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، ويذم الكاذبين ويبين حالهم ومآلهم، ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، ويقول النبي ﷺ «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[2]، فخبره يُبرهن لكل عاقل أنه إذا بين هذا فلا يُعقل أن يكون كاذبًا وهو يذم الكذب والكاذبين، بل يكون صادقًا لثنائه على الصدق والصادقين، إذ النفس البشرية جُبِلت على حب كل ما هو حسن، وذم كل ما هو قبيح، والصدق حسن، والكذب قبيح.

الوجه السادس: الدلالة على صدقه من جهة حاله ﷺ، وتتبين هذه الدلالة من عدة أمور، منها:

○ من المعلوم بالضرورة أنه لا يمكن لرجل كاذب، مداوم على الكذب، ويدعي النبوءة، وأنه في كل يوم يأتيه وحيٌ جديد من الله تعالى، ومع هذا لم يستطع أحد أن يلاحظ ذلك عليه ويعرف حقيقته، فإنه مَن كان في قلبه خلاف ما يُبطن فلا

---

(١) ينظر: حضارة العرب ص ١٣٢.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧).

بد أن يزل، وأن تعرف حقيقته بفلتات لسانه ولحن قوله، ويشهد عليه قومه، لا سيما المكذبين بدعوته الذين يتربصون به، ويسمونه بشتى السمات والصفات من السحر والجنون.

○ إنَّ مَن كان صادقًا مع البشر مُحال أن يكذب على ربه فيما يُبلغ عنه، فهل تراه يذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله ؟!

○ إنَّ الكاذب لو استطاع أن يكذب على كل الناس؛ فإنه لن يكذب على نفسه ويُصدِّق كذبه، ومن هذه الأمثلة على هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[المائدة:٦٧]. فهل هذا فعل كاذب ؟ كيف لكاذب أن يطرد الذين يحرسونه بزعم أن الله سيعصمه ؟ وهو يعلم في قرارة ذاته كذب نفسه، والعرب قد رمته عن قوس واحدة تتربص له في كل طريق، ألا يخاف أن يُقتل غيلة ؟! إن هذا الأمر لا يفعله إلا رجل صادق، يأوي إلى ركن شديد، واثق من أن الذي أرسله سيحميه من كل المخاطر(١).

○ إنه ليمتنع أن يكون حال مُدعي النبوءة نبيًا صادقًا، ومتنبئًا كاذبًا، في الوقت ذاته، لأنهما ضدان، والضدان لا يجتمعان(٢).

○ بقاء النبيﷺ على كمال أخلاقه الحميدة من أول عمره إلى آخره، قبل نبوءته وبعدها، إذ الكذّاب المزور لا يمكنه ذلك، يقول أحد المستشرقين: (..ومما يُبطل دعوى القائلين إن محمدًاﷺ لم يكن صادقًا في رسالته.. أنه قضى عنفوان شبابه وحرارته، مع خديجة رضي الله عنها، لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوي، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة.. ولم يكن إلا بعد أن ذهب

---

(١) ينظر: حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة ؛ د/ محمد الخليفة (١/ ١٤٨).
(٢) ينظر: الجواب الصحيح (٣/ ٥٥٦).

الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعًا وثار يريد أمرًا جليلاً وشأنًا عظيمًا)[1]، ويقول: (فلسنا نَعُدُّ محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته، ويطمح إلى درجة مَلِك أو سلطان، أو إلى غير ذلك من الحقائر. وما الرسالة التي أدَّاها إلا حقٌّ صُراح، وما كلمته إلا قول صادق، كلا، ما محمد بالكاذب، ولا المُلفِّق، وهذه حقيقة تدفع كل باطل)[2].

○ في صبره ﷺ على أنواع المشاق والمتاعب لأجل ما دعا إليه واستمراره على الدعوة إلى الحق، حتى دان له الأعداء فقهرهم، ولا يكون هذا إلا بإعانة الله تعالى له، وتأييد منه، فالنبي كامل في خَلْقه وخُلِقه، مُكمل لغيره بدعوته[3]، وحينما بُسطت الدنيا لم تتبدل حالته، بل كانت سواء لم تتغير من الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، وكل عاقل يعلم أن المكذب قد يبتغي من وراء كذبه على الخلق ليجد الدنيا، فإذا وجدها ولم ينتفع بها، كان ساعياً في تضييع الدنيا والآخرة على نفسه، وذلك ما لا يفعله أحد من العقلاء، والكاذب لا يتحمل كل هذه المشاق[4].

○ ويتبين كمال صدقه من حاله ﷺ أن الله ما أمره بأمر إلا وكان أول الفاعلين له، المُمتثلين به، ولم يُنهَ عن أمر إلا كان أول المُنتهين عنه، ولو ثبت أنه أمر بشيء ولم يفعله، ولم يمتثل به، وفعل خلافه، أو أنه نُهي عن شيء ومن ثم فعله، لتبين كذبه للجميع، ولم يسكت قومه عنه، ولطاروا بها فرحاً، إلا أن هذا لم يثبت في حقه ﷺ، فـ (التمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما هو دون دعوى النبوة فكيف بدعوى النبوة؟ ومعلوم أن مُدعي الرسالة إمّا أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم... وما من أحد ادعى النبوة من

---

(١) الأبطال ؛ توماس كارلايل ص ٥١.
(٢) الأبطال ص ٥١.
(٣) ينظر: المطالب العالية (٨/ ٦٧ـ٦٨).
(٤) ينظر: الأربعين ؛ للرازي (٢/ ٩١).

الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمَن له أدنى تمييز، وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمَن له أدنى تمييز، فإن الرسول لابد أن يُخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور ولابد أن يفعل أموراً، والكذاب يَظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يُبين به كذبه من وجوه كثيرة والصادق يَظهر في نفس ما يأمر به وما يخبر عنه ويفعله ما يظهر به صدقه من وجوه كثيرة بل كل شخصين ادعيا أمراً من الأمور أحدهما صادق في دعواه والآخر كاذب فلابد أن يُبين صدق هذا وكذب هذا من وجوه كثيرة، إذ الصدق مُستلزم للبر والكذب مُستلزم للفجور كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّيَ هْدِي إِلَى الْجَنَّة، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلِ يُصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُور يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا»، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٦]، بين سبحانه أنه ليس بكاهن تنزل عليه الشياطين ولا شاعر حيث كانوا يقولون ساحر وشاعر فبين أن الشياطين تنزل على الكاذب الفاجر يلقون إليهم السمع وأكثرهم كاذبون، فهؤلاء الكهان ونحوهم وإن كانوا يخبرون أحياناً بشيء من المغيبات ويكون صدقاً فمعهم من الكذب والفجور ما يُبين أن الذي يُخبرون به ليس عن ملك وليسوا بأنبياء، وبين الله تعالى أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوي الذي يتبع هواه وشهوته وإن كان ذلك مُضراً له في العاقبة قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥ ـ ٢٢٦]

فهذه صفة الشعراء كما أن تلك صفة من تنزل عليه الشياطين، فمَن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب، وإذا كان صِدق المُخبر أو كذبه يُعلم بما يقترن به من القرائن، بل في لحن قوله وصفحات وجهة، ويحصل بذلك علم ضروري لا يمكن للمرء أن يدفعه عن نفسه، فكيف بدعوى المُدعي أنه رسول الله ؟ كيف يخفى صدقه وكذبه ؟ أم كيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة لا تعد ولا تحصى ؟) [١].

○ إنَّ النبي الصادق تستمر نبوءته، بخلاف المتنبئ الكاذب لا يدوم إلا مدة يسيرة، (وهذه من بعض حُجج ملوك النصارى الذين يُقال إنهم من ولد قيصر هذا أو غيرهم، حيث رأى رجلاً يسب النبي من رؤوس النصارى ويرميه بالكذب، فجمع علماء النصارى، وسألهم عن المتنبئ الكذاب، كم تبقى نبوته ؟ فأخبروه بما عندهم من النقل عن الأنبياء أن الكذاب المُفتري لا يبقى إلا كذا وكذا سنة، لمدة قريبة إما ثلاثين سنة أو نحوها، فقال لهم: هذا دين محمد له أكثر من خمسمائة سنة أو ستمائة سنة وهو ظاهر مقبول متبوع، فكيف يكون هذا كذاباً ؟ ثم ضرب عنق ذلك الرجل) [٢].

○ إنَّ اتفاق هذه الأخلاق الحسنة في شخص ما، مع ادعائه النبوءة لا يمكن أن يحدث اتفاقاً دون سابق تقدير بإرادة وحكمة وعناية إلهية، فإذا انتظمت هذه المقامات في مدعي النبوءة في وقت إمكانها قضت بصدقه فيما ادعاه[٣]، فيحصل بذلك العلم الضروري بصدقه، بحيث لا يستطيع المرء دفعه عن نفسه.

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ص ٥٤٠ وما بعدها بتصرف يسير.
(٢) شرح العقيدة الأصفهانية ص ٥٥٣ـ ٥٥٤.
(٣) ينظر: منهاج السنة النبوية ؛ لابن تيمية (٢/ ٤١٩ـ٤٢٠).

وبهذا يُعلم بطلان القائلين بأن النبوءة تعود لمحض مشيئة الله تعالى، ولا علاقة لها بصفات النبي، فهي ليست لمعنى (يعود إلى ذات النبي، ولا إلى عرض من أعراضه)[١]، وهي (ليست صفة راجعة إلى نفس النبي)[٢]، بناءً على أصولهم في نفي الحكمة والتعليل عن أفعال الله تعالى، وعلى قولهم في التحسين والتقبيح النقليين، فالحسن لا يكون حسناً إلا بعد ورود الشرع به، والقبح لا يكون قبحاً إلا بعد ورود الشرع به، لذا جوزوا أن يكون الأنبياء فاعلين للكبائر، ويجوز عليهم الكذب، وأن تكون أخلاقهم قبل البعثة خلاف أخلاقهم بعد البعثة[٣].

كما يُعلم بطلان قول القائلين بأن النبوءة واجبة على الله تعالى لأنها جزاء للنبي على أعماله الصالحة وأخلاقه الحسنة فكافأه الله بها، أي أنها عوض عن عمل قدمه النبي، بناء على أصولهم في التحسين والتقبيح العقليين[٤].

وإذا ثبت أنَّ الأنبياء متفق على وصفهم بالكمال الأخلاقي على الصدق بتضافر الأدلة السابقة، لزم استحالة الكذب والخيانة عنهم، إذ استحالة الكذب عنهم ضرورة لا بد منها مع إثبات صدقهم، ولاستحالة الكذب عنهم دلالات يبينها المبحث التالي بإذن الله.

*****

---

(١) غاية المرام ؛ للآمدي ص ٣١٧.

(٢) نهاية الإقدام ؛ للشهرستاني ص ٤٦٢، وينظر: الإنصاف ؛ للباقلاني، ص ٩٢ـــ ٩٣، أصول الدين ؛ للبغدادي ص ١٥٤، الإرشاد ؛ للجويني ص ٣٠٢.

(٣) ينظر: أصول الدين ؛ للبغدادي ص ١٦٧، الإرشاد ؛ للجويني ص ٣٥٦، المواقف؛ للإيجي ص ٣٥٨، النبوات (١/ ٤٧٥-٤٧٦)، مفتاح دار السعادة ؛ لابن القيم (٢/ ٣٩٥).

(٤) ينظر: المغني ؛ للقاضي عبد الجبار (١٥/ ١٦).

المبحث الثاني

دلالة استحالة كذب النبي ﷺ

لقد تقرر في المبحث السابق أن الأنبياء يتصفون بالكمال الأخلاقي كالصدق والأمانة والذي يلزم منه استحالة وصف النبي بكل ما هو ضده.

وتتبين دلالة استحالة الكذب عن الأنبياء بوجوه، منها:

الوجه الأول: لم يُتهم الأنبياء بالكذب، ولو حُفِظَ على الأنبياء كذبة نادرة في غير النبوءة لجُعِلَت دليلاً على تكذيبهم، إلا أنه لم يُحْفَظ عليهم شيء أبداً(1)، يقول تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾[الأنعام:٣٣] وفيها قراءتان:

بالتشديد (لا يُكذِّبونك)، وبالتخفيف (لا يُكْذِبونك)، وحُجة مَن شدد أراد لا يجدونك كاذبا، لأنهم ما كانوا يشكون في صدقه، ولذلك كان يُدعى فيهم بالأمين، ولكنهم يكذبون بما جئت به، وقيل معناه فإنهم لا يأتون بدليل على كذبك.

والحُجة لمَن خفف أنه أراد فإنهم لا يُكذبونك في نفسك ولكنهم يُكذبونك فيما تحكيه عن الله عز وجل (2).

والفرق بين التكذيب والإكذاب: أن التكذيب: هو أن يقول له: كذبت، والإكذاب: هو أن يجده كاذباً(3).

وقد وقع التكذّيب لِما جاء به الأنبياء، فثمة فارق يُدركه العاقل بين أن يتصف الإنسان بالكذب، وبين أن يكذَّب، والله تعالى يُخبر عن تكذّيب الأنبياء قائلاً: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[المؤمنون: ٤٤]، ويقول: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ

---

(1) ينظر: أعلام النبوة ص ١٩٠.

(2) ينظر: الحُجة في القراءات السبع ؛ لابن خالويه (١/ ١٣٧)، وينظر: المفردات في غريب القرآن؛ للأصفهاني ص ٤٢٧.

(3) ينظر: تفسير القرآن؛ لأبي المظفر السمعاني (٢/ ٩٩).

رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[غافر: ٧٠]، ويقول: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١]، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الحجر: ٨٠]، ويقول: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء: ١٠٥]، ويقول: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء: ١٢٣]، ويقول: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١]، ويقول: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء: ١٦٠]، ويقول: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء: ١٧٦]، فتكذيب الأنبياء سمة من سمات الأمم الكافرة بالنبوءة قديماً وحديثاً.

فما هي أسباب تكذيب الأنبياء ؟!

□ مخالفة ما جاء به الأنبياء لما عليه القوم، فحين دعا الأنبياء أقوامهم لعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وبينوا مآلهم في الآخرة دار الجزاء والحساب، ظنّ القوم أن الأنبياء كاذبون في خبرهم لأنه مخالف لما ألفوه من عادات، وهذا يتبين لنا جليّا في قصة نوح مع قومه، قال تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٦ ـ ٢٧]، والآيات التي في سورة [الأعراف:٥٩ـ٦٤]، وفي قصة هود مع قومه، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[الأعراف: ٦٥ - ٦٦]. وفرعون ينكر وجود الإله فلما أخبره موسى بوجوده كذّبه، يقول الله عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨]، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا

﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]، ويقول: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

□ و من أسباب تكذيب الأنبياء، مخالفة ما جاء به الأنبياء من الحق لعادات وتقاليد الآباء، يقول تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ [سبأ: ٤٣]، ويقول تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣]، ويقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فهم يعتقدون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاء به النبي ﷺ عندهم باطل[١].

□ ومن أسباب تكذيب الأنبياء، أنهم من البشر[٢]، قال الله عن قوم صالح: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥]، وعن قوم شعيب: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، وعن قريش: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

□ ومن الأسباب أيضاً الحسد الذي حمل اليهود والنصارى على تكذيب النبي محمد ﷺ[٣]، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٥).

(٢) فندت شبهة منكري النبوءات ببشرية الأنبياء في الفصل الأول النبوءة وأدلتها.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٨٣).

□ ومن الأسباب الكبر والمكابرة التي سكنت في نفوس القوم، يقول تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، ويقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ويقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

□ ومن الأسباب الخوف على النفس والمصالح والمناصب الاجتماعية، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ﴾ [القصص: ٥٧]، ويتبين هذا جليًّا في قول أبي جهل: (إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة[١]، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوة[٢]، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب[٣]، قالوا: مِنا نبي، والله لا أفعل)، وقوله: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه)[٤]، وحين خلا الأخنس بن شريق بأبي جهل يوم بدر فقال له: (أترى أن محمداً يكذب؟ فقال أبو جهل: كيف يكذب على الله وقد كنا نسميه الأمين لأنه ما كذب قط، ولكن إذا اجتمعت في بني عبد مناف السقاية

(١) الحِجابةُ أي: حِجابةَ الكَعْبةِ، وهي سِــدانَتُها وتَولِّي حِفْظِها، وهم الذين بأَيديهم مَفاتِيحُها، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر؛ لابن الأثير (١/ ٨٩٤).

(٢) الندوة المقصود بها دار النَّدْوةِ بمكَّة، لأَنَّهم كانوا يَنْدُون فيها، أي كانوا يجتمعونَ فيها ويتشاورون، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر؛ لابن الأثير (٥/ ٩٠).

(٣) تحاكت الركبِ أي تَماسَّت واصْطَكت: يريد تَساوِيهم في الشَّرف والمنزلة. وقيل: أراد به تَجاثِيهُم على الرُّكَب للتَّفاخر، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر؛ لابن الأثير (١/ ١٠٢٢).

(٤) دلائل النبوة؛ للبيهقي (٢/ ٢٠٧).

والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوءة فأي شيء بقي لنا)[1].

□ ومن الأسباب اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٥٠]، وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[الروم: ٢٩]، وقال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾[القمر: ٣]، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان: ٤٣].

فهذه بعض أسباب تكذّيب الأنبياء وهي تتكرر قديماً وحديثاً.

الوجه الثاني: إنَّ من يتصف بالصدق لا بد أن ينتفي عنه الكذب، وكذا العكس، إذ (الشيء يُعرف تارة بما يدل على ثبوته، وتارة بما يدل على انتفاء نقيضه، وهو الذي يُسمى قياس الخلف، فإن الشيء إذا انحصر في شيئين لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر، ومن انتفاء أحدهما ثبوت الآخر.

ومدعي النبوة إما صادق وإما كاذب، وكل منهما له لوازم يدل انتفاؤها على انتفائه، وله ملزومات يدل ثبوتها على ثبوته.

فدليل الشيء مُستلزم له كأعلام النبوة ودلائلها، وآيات الربوبية، وأدلة الأحكام، وغير ذلك، وانتفاء الشيء يعلم بما يستلزم نفيه، كانتفاء لوازمه مثل صدق الكاذب، يقال: لو كان صادقا لكان متصفاً بما يتصف به الصادقون.

وكذلك كذب الصادق يقال: لو كان كذاباً لكان متصفاً بما يتصف به الكذاب، فإنه قد عُرف حال الأنبياء الصادقين، والمتنبئين الكذابين، فانتفاء لوازم الكذب دليل

(١) الروض الأنف السهيلي (٥/ ١٦١).

صدقه، كما أن ثبوت ما يستلزم الصدق دليل صدقه، وكذلك الكذاب يستدل على كذبه بما يستلزم كذبه، وبانتفاء لوازم صدقه، وهكذا سائر الأمور)[١].

الوجه الثالث: لو كان محمدﷺ كاذبًا للزم من كذبه (لوازم كثيرة جداً تفوق الحصر، متقدمة ومقارنة ومتأخرة، فإن مَن هو أدنى دعوة منه إذا كان كاذبًا لزم كذبه من اللوازم ما يبين كذبه، فكيف مثل هذا ؟ فإذا انتفت لوازم المكذوب انتفى الملزوم.

وصدقه لازم لأمور كثيرة، كلها تدل على هذا الصدق، وثبوت الملزوم يقتضي ثبوت اللازم ماضية ومقارنة ومتأخرة.

ومُدعي النبوة لا يخلو من الصدق أو الكذب، وكل من الصدق والكذب له لوازم وملزومات، فأدلة الصدق مُستلزمة له، وأدلة الكذب مُستلزمة له، والصدق له لوازم، والكذب له لوازم.

فصدقه يُعرف بنوعين: بثبوت دلائل الصدق المُستلزمة لصدقه، وبانتفاء لوازم الكذب الموجب انتفاؤها انتفاء كذبه، كما أن كذب الكذاب يُعرف بأدلة كذبه المُستلزمة لكذبه، وبانتفاء لوازم الصدق المُستلزم انتفاؤها لانتفاء صدقه)[٢].

فلو كان كاذبًا لذاع أمره واشتهر خبره، إلا أن هذا لم يحدث، ولم يُعرف عنه إلا الصدق، فمحال أن يكون محمدٌﷺ كاذبًا، ويُخفي كذبه على كل البشر ولم يتفطن أحد منهم لكذبه كما تفطن الجميع لصدقه وأظهروا شهادتهم له بذلك، وأعداؤه يتربصون به فحري بهم أن يتتبعوا كذبه ليظهروه على الملأ، حتى ينصرف الناس عنه.

وهل يُعقل أن يبقى محمدٌ ﷺ يكذب طوال ثلاث وعشرين سنة، ولا أحد يقول عنه بأنه كاذب ! ولم تظهر على لسانه فلتات كذبه طوال هذه السنوات!

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ١٩٧).

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ١٩٦).

فلا يُعقل أن يترك الرب محمداًﷺ يكذب عليه طيلة هذه السنين دون أن يباغته بعذاب، يستأصل شأفته كما هي سنة الله تعالى الماضية والباقية في إهلاك الكذبة، ومعاجلتهم بالعقوبة البائسة.

ومَن يتأمل القرآن الكريم يجد أنَّ التنكيل والعذاب العاجل لمَن يكذب على الله تعالى، يقول عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[الزمر: ٣٢]، ويقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[العنكبوت: ٦٨]، ويقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] أي: لا أظلم ممَن كذب بآيات الله وحُججه وبراهينه ودلالاته ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب [١]، وغيرها من الآيات التي تبين جزاء مَن يكذب على الله تعالى في الدنيا والآخرة.

فلو فرض مثلا أن محمداً نسب إلى الله قولاً لم يقله لمَنعه عن ذلك، إما بواسطة إقامة الحُجة فإنه يقيض له مَن يعارضه فيه، وحينئذ يظهر للناس كذبه فيه، فيكون ذلك إبطالاً لدعواه وهدماً لكلامه.

وإما بأن يسلب عنه القدرة على التكلم بذلك القول[٢]، وهذا واضح جلي في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[الحاقة: ٤٤ - ٤٦] فأوقعت أشد العقوبات العاجلة عليه، ولأخذت منه بالقوة والقدرة، ثم لقطعنا منه نياط القلب، وإنما يعني بذلك أنه كان يُعاجله بالعقوبة، ولا يؤخره بها فيما لو تقوله على ربه[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٥).
(٢) ينظر: التفسير الكبير (١٦/ ١١)، وأبكار الأفكار: للآمدي ص ١٢١.
(٣) ينظر: جامع البيان (٢٣/ ٥٩٢).

فدلل الله تعالى على صدق نبيه محمدﷺ بدليل التمانع، فقد امتنع أخذه سبحانه لنبيه محمدﷺ لامتناع تقوله عليه، وامتناع التقول عليه يعني صدقه فيما يقول فعدم هلاك النبي ﷺ دليل على انتفاء الكذب عنه لأنه لم يتقول على الله تعالى[1].

وإما أن يوقع العذاب عليه مضاعفاً لو افترى القرآن أو تقوله بناء على اقتراح أعدائه، فقد كانوا حريصين أشد الحرص على فتنته بأي طريق كان، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[الإسراء: ٧٣-٧٥] فلا يمكن أن يتجرأ النبي ﷺ على تبديل القرآن أو تقوله أو افترائه وهو يعلم عاقبة هذا الأمر، بأن العذاب سيكون عليه مضاعفاً إن فعل هذا، ومما ينبغي التنبيه إليه أن (هذه الآية الكريمة أوضحت غاية الإيضاح براءة نبيناﷺ من مقاربة الركون إلى الكفار، فضلاً عن نفس الركون ؛ لأن (لولا) حرف امتناع لوجود؛ فمقاربة الركون منعتها لولا الامتناعية لوجود التثبيت من الله جل وعلا لأكرم خلقهﷺ، فصح يقيناً انتفاء مقاربة الركون فضلاً عن الركون نفسه.

وهذه الآية تبين ما قبلها، وأنه لم يقارب الركون إليهم البتة؛ لأن قوله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا﴾ أي قاربت تركن إليهم، هو عين الممنوع بـ (لولا) الامتناعية كما ترى، ومعنى تركن إليهم: تميل إليهم)[2].

بل لا يستطيع أحد أن يرد عن النبي ﷺ عذاب الله تعالى إن كذب عليه، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الأحقاف: ٨] فالمعنى (عاجلني الله

---

(١) ينظر: أخلاق النبيﷺ في الكتاب والسنة (٢/ ٩٩٠).

(٢) أضواء البيان (٣/ ١٧٨).

بعقوبته الشديدة، وأنتم لا تملكون لي منه شيئـاً، أي لا تقدرون أن تدفعوا عني عذابه إن أراد أن يعذبني على الافتراء، فكيف أفتريه لكم ؟، وأنتم لا تقدرون على دفع عذاب الله عني)[١].

و (وجه الملازمة بين الشرط وجوابه في قوله: ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أن الله لا يقر أحداً على أن يُبلغ إلى الناس شيئـاً عن إله لم يأمره بتبليغه، ولعل حكمة ذلك أن التقول على الله يُفضي إلى فساد عظيم يختل به نظام الخلق، ويوقع الناس في حيرة بماذا يتلقونه، فلذلك لا يُقره الله ويزيله)[٢].

ولو كان القرآن من عند محمدﷺ لكان محالاً أن يُندد بهلاك كذبه، ولكان من مصلحته حتى يمرر كذبه ألا يُظهر عقوبة كذبه، ولما تقرر هلاك مَن يكذب على الله تعالى بأنه أوحي إليه ولم يوحَ إليه شيء وادعى لنفسه النبوءة علم يقيناً بأن القرآن ليس من صنعة محمد ﷺ.

ولو أنه تعلمه من أحد من الخلق لأنفذ هذا المخلوق وعيده في محمدﷺ لأنه يكذب فيما يبلغه للناس.

ومَن يتأمل سيرته ﷺ يلحظ أنَّ شيئـاً من الوعيد المُعد للكذبة على ربهم والعذاب العاجل والشديد لم ينله ﷺ فدل ذلك على صدقهﷺ.

ولو أنا فرضنا جدلاً أن محمداًﷺ كان كاذبـاً فهل يمكن أن يُصدق كذبه هذا الجمع الغفير منذ بعثته إلى يومنا هذا ؟ دون نكير لأحد منهم على كذبه!

والنبي محمد ﷺ ينفي عن نفسه القدرة على تبديل القرآن أو الإتيان بغيره، فهذا يدل دلالة صريحة على أن محمداًﷺ لم يكن كاذبـاً، وإلا لتجرأ على التبديل، كما يدل أيضـاً على أن القرآن لم يكن من إنشائه، ويبين لنا القرآن الكريم أنهم إذا قرَأ

---

(١) المصدر نفسه (٧/ ٢١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٥).

عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحُجَجه الواضحة قالوا له: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾[يونس: ١٥] أي: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بَدِّله إلى وضع آخر.

وغرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح ؟ الكيد والمكر.

أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر.

وأما اقتراح التبديل والتغيير، فللطمع ولاختبار الحال. وأنه إن وجد منه تبديل، فإما أن يُهلكه الله فينجو منه، أو لا يُهلكه فيسخروا منه، ويجعلوا التبديل حُجة عليه وتصحيحاً لافترائه على الله [(١)].

والنبي ﷺ يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ [يونس: ١٥] أي: ليس هذا إلي، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مُبلغ عن الله، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[يونس: ١٥].

ولئن كان ينفي التبديل عن نفسه مع أنه في مقدوره من جهة أنه أيسر من الإنشاء بدءاً فإنه مُحال أن ينشئه بدءاً من عنده.

فمَن نفى التبديل عن نفسه وأثبت اتباعه لما يُوحى إليه فمن باب أولى آلا يقدر على إنشائه.

ثم قال مُحتجّاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦] أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تنتقدون علي شيئاً تَغمصونني به؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ

---

(١) ينظر: الكشاف (٣/ ١)، التفسير الكبير (٨/ ٢٤٥).

﴿عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؟

ولا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرامـًا ممَن افترى على الله كذبًا، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧] إذ الافتراء والاختلاق وإيجاد خبر لا مُخبر له عن عمد، فمُحال أن يكون محمدﷺ يفتري على ربه، ويتَقَوّل على الله، ويزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرمـًا ولا أعظم ظلمـًا من هذا، ومثل هذا لا يخفي أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء ! فإن مَن قال هذه المقالة صادقـًا أو كاذبـًا، فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب[١] لمَن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حندس الظلماء فمن سيما كل واحد منهما وكلامه وفعاله يستدل مَن له بصيرة على صدق محمدﷺ وكذب مسيلمة الكذاب[٢]، بل إن دعوى مسيلمة الكذَّاب للنبوءة لا يلتفت إليها؛ لأنه كتب إلى النبي ﷺ أما بعد فإن الأرض بيني وبينك نصفين، فهو لم يكن مُعارضـًا له في دعوى النبوءة، بل مُسَلِّمـًا له من وجه النبوءة، ومتحكمـًا من وجه المُلك، كما أنَّ مسيلمة ادعى أنه رحمان اليمامة فلم يكن ثابت القدم في دعوى نبوءته، ولو كان مُنازعـًا في النبوءة لقال: إني عبد الله ونبيه، لا شريك الله في الرحمانية، وشريك النبي في مُلك الأرض[٣].

ولئن كان محمدٌ ﷺ صادقـًا لا يكذب فمُحال أن يأتيَ ليختلق كلمات يزعم أنها

---

(١) مسـيلمة بن ثمامة الحنفي، الوائلي، متنبئ كذاب، ولد ونشـأ باليمامة بنجد، ادعى النبوءة في حياة النبيﷺ، قتل في السنة الثانية عشرة من الهجرة. ينظر: البداية والنهاية (٦/ ٣٢٣).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٥).

(٣) ينظر: نهاية الإقدام: للشهرستاني ص ٤٢٤.

توحى إليه، أو أن يفتريها، فأنّى له أن يترك الكذب على الناس ليكذب على رب الناس ؟

وهذا ما ينفيه الله تعالى عن القرآن الذي جاء به محمدﷺ قائلاً عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[يونس: ٣٧] وما ينبغي لهذا القرآن أن يُفترى، أي ليس وصفه وصف شيء يمكن أن يُفترى به على الله، لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر، والقرآن لا يقدر عليه البشر، والافتراء افتعال من فريت الأديم إذا قدرته للقطع، ثم استعمل في الكذب، فصار حاصل هذا الكلام أن هذا القرآن لا يقدر عليه أحد إلا الله عز وجل [١].

ثم إنه تعالى احتج على هذه الدعوى قائلاً: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[يونس: ٣٧] ولما نفى القرآن الافتراء أخبر عنه بأنه تصديق وتفصيل.

ومعنى تصديق الذي بين يديه: (كونه مُصدِقاً للكتب السالفة، أي مُبيناً للصادق منها ومُميزاً له عما زيد فيها وأسيء من تأويلها، وأيضا هو مُصدَق بفتح الدال بشهادة الكتب السالفة فيما أخذت من العهد على أصحابها أن يؤمنوا بالرسول الذي يجيء مصدقاً وخاتماً، فالوصف بالمصدر صالح للأمرين لأن المصدر يقتضي فاعلاً ومفعولاً.

والتفصيل: التبيين بأنواعه. والظاهر أن تعريف الكتاب تعريف الجنس فيستغرق الكتب كلها، ومعنى كون القرآن تفصيلاً لها أنه مُبين لما جاء مُجملاً في الكتب السالفة، وناسخ لما لا مصلحة للناس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضل بها أهل الكتاب، فكل ذلك داخل في معنى التفصيل)[٢].

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (٨/ ٢٨١).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١١/ ١٦٩).

فالقرآن يبُين أنه ليس لمخلوق أن يغيّر فيه أو يبدله، ولو أنَّ محمداً فعل هذا لكانت العواقب وخيمة، لأنَّ الله لا يؤيد الكاذب مطلقاً.

وفي هذا دلالة عقلية على أن القرآن لم يكن من لدن محمد ﷺ[1].

*** الوجه الرابع: استحالة الكذب على النبيﷺ من جهة حاله، فلو كان محمد ﷺ كاذباً فلماذا يحزن على مَن لم يؤمن به؟! وحُزنه عليهم ليس حزناً عادياً بل** يُهلك نفسه بالحزن عليهم[2]، وهذا ما تفيده كلمة (باخع) في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[الكهف: ٦]، وفي قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[الشعراء: ٣]، ويقول تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾[فاطر: ٨]، ويقول: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾[النحل: ١٢٧]، ومن شدة حرصه على هداهم أنه يحصل له ألمٌ عظيمٌ إذا لم يؤمنوا، فيُسليه الله تعالى بقوله: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[القصص: ٥٦][3].

ولنا أن نتأمل القرآن يصف حزن النبيﷺ أكثر من مرة، ولنا أن نتساءل يحزن النبيﷺ على مَن ؟! إنه ﷺ يحزن على مَن لم يؤمن به، ولا يذكر من قريب ولا من بعيد، لا تصريحاً ولا تلميحاً، أعظم حدث يهزّ وجدان النبيﷺ حزناً، في عام واحد، حتى سُمي بعام الحزن، لفراق زوجه خديجة رضي الله عنها، ولفراق عمه

---

(١) ينظر: محمد نبي الزمان: كارين ص ١٧٧.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٣٧).

(٣) ينظر: درء التعارض (٥/ ٣٧٣).

أبي طالب، وهما مَن وقفا بجانبه في الدعوة إلى الله، كما لا يذكر حدث وفاة أولاد النبي ﷺ.

على ماذا يدلك هذا ؟ ألا يدلك على أن الكذب مُنتفٍ عن النبيﷺ، وأن القرآن لم يكن من عنده، فما هو إلا مُبلغ عن ربه.

***الوجه الخامس: من دلالة استحالة الكذب على النبي ﷺ لغة دعوته، وخلوها من التناقض.**

فالنبي ﷺ كان يدعو قومه بلغة جازمة إلى أمور عظيمة كقوله: إني نبي الله، وكإخباره عن صفات الكمال لله تعالى، وتفاصيل العبادات، والأحكام المترتبة عليها في الدنيا والآخرة، وإخباره عن تفاصيل الجنة والنار، وقصص الأمم السابقة، دون تردد أو تلكؤ لما يدعو إليه.

وخلو التناقض فيما يدعو إليه يحيل عليه الكذب فيما يُخبر به، فلم يتراجع عمّا دعا إليه أو يتنصل مما يدعو له، مع ردة فعل الناس الذين كذبوه بل استمر ماضياً في دعوته، وهذا لم يكن من تلقاء النبي ﷺ وحده بل ثمة تأييد من الله عز وجل لتثبيت النبي ﷺ، ومَن هذا حاله مُحال عليه الكذب، فإن أمارات دعوة الكاذب تتسم بالتناقض والتراجع.

***الوجه السادس: من دلالات استحالة الكذب على النبي محمد ﷺ نفي علاقته بالشياطين**، فإن مَن يتصف بالكمال الأخلاقي من الصدق وغيره مُحال أن يكون له علاقة بالشياطين، فمُحال أن يكون النبي ساحراً أو كاهناً يتلقى عن الشياطين، لأنها لا تنزل إلا على كل أفاك أي كثير الإفك، وهو الكذَّاب، الكثير القول للزور، والإفك بالباطل، والأثِيم في فعله، الكثير المعاصي، فهذا الذي تنزل عليه الشياطين، لتناسب حاله مع حالهم، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣]، فهم يُلْقُونَ عليه السَّمْعَ الذي يسترقونه من السماء، وأكثرهم كاذبون أي أكثر هؤلاء الأفاكين كاذبون فيما يزعمون أنهم تلقوه من الشياطين وهم لم يتلقوا منها شيئا، أو أن بعضهم يتلقى شيئا قليلا من الشياطين فيكذب عليه أضعافه، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه، فهذه صفة الأشخاص من الكهنة والسحرة الذين تتنزل عليهم الشياطين وهذه صفة وحيهم[1]، يقول النبيﷺ عن وحي هؤلاء الشيطاني: «... فيسمعها مُسترق السمع، فيلقيها إلى مَن تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَن تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يُدركه فيكذب معها مائة كذبة»[2]، يكذبون أضعاف ما سمعوا، ليخلطوا الحق بالباطل، ويلبسوا الحق بالباطل، لأنهم لو جاؤوا بالباطل الخالص المحض ما صدقهم أحد، لكن إذا خلطوه بشيء من الحق صدقهم الناس، فيكون هذا فيه فتنة لضعفاء الإيمان وضعفاء العقول، يأخذون الباطل الكثير بسبب حق يسير خالطه، وهذا ما يبينه حديث النبيﷺ حينما سأله أناس عن الكهان «فَقَالَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله: إِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَا أَحْيَانًا بِشَيْءٍ فَيَكُونُ حَقًّا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا مِنْ الْجِنِّيِّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ»[3]، لذا نفى الله تعالى أن يكون القرآن تنزلت به الشياطين في قولــــه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[الشعراء: ٢١٠- ٢١١]، وينفي أن يكون القرآن قول شيطان في قوله

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٧)، تيسير الكريم الرحمن ص ٥٩٩.
(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب «حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»، (٤٤٢٦).
(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الكهانة، (٥٣٢٠).

تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٥ ـ ٢٧] لأن القرآن حق كله نزل من إله حق.

فالنبي الصادق لا يمكن أن يكون كاهناً، وقد اعترف صناديد قريش بأن النبي ﷺ لم يكن كاهناً ولا ساحراً وليس به جنة[١]، لكنهم رموه بالسحر والكهانة والجنون لتفريق الناس عن دعوته، ولأنه يفرق بدعوته بين الأب وابنه، والمرء وزوجه، ولأنه آتاهم بما يخالف عقائدهم، ولأنه كان يخبر بالأمور الغيبية، فقالوا: له تابع من الجنّ يعلمه[٢]، قال الله تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، وقال: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، وقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧ ـ ٨]، والسحر والجنون هي التهم ذاتها التي رمي بها الأنبياء من ذي قبل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال الله عن قوم نوح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، وقال عنهم أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩]، وقال عن فرعون: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨ – ٣٩]،

---

(١) أوردت أقوالهم في الفصل السادس: دلالة النظم والأسلوب.

(٢) ينظر: أعلام النبوة: لأبي حاتم الرازي، ص ٦٩.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[الشعراء: ٢٧].

ولقد رد الله تعالى هذه الشبهة عن نبيه محمدﷺ بالنفي قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[الطور: ٢٩]، وفي قوله: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الحاقة: ٤٢]، وفي قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[القلم: ٢]، وفي قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[التكوير: ٢٢] نفي الله عن النبي ﷺ أن يكون مجنوناً أو به جِنَّة، والجِنَّة بكسر الجيم اسم للجنون، والمقصود من نفي الجنون عنه إثبات ما قصد المشركون نفيه وهو أن يكون نبياً من الله، لأنهم لما نفوا عنه صفة النبوءة وضعوا صفة الجنون، فإذا نفي ما زعموه فقد ثبت ما ادعاه[1].

ولم تقصد قريشًا بالجنون العته، ولكنهم ادعوا أن له تابعـاً من الجن يُعلمه، وأن له رائياً من الجن يخبره بأمور غيبية، لأنهم كانوا يعرفون النبيﷺ بكمال عقله، وهذا ما لفت الله إليه لنفي الجنون عن النبي ﷺ بالنظر إلى حاله، وقومه أدرى الناس به، فقد عاش بين ظهرانيهم قبل نبوءته، ولم يعرفوه إلا برجاحة عقله، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[الأعراف: ١٨٤]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[المؤمنون: ٦٨ ـ ٧٠]،وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[سبأ: ٤٦]، ثم كيف لمجنون أن يأتي بالدلائل القاطعة والشرائع الكاملة؟! فالله تعالى (دعاهم إلى تدبر القول وتأمل حال القائل، فإن كون القول للشيء كذباً وزوراً يُعلم من نفس القول تارة، وتناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، ويُعرف من حال القائل تارة،

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٢).

فإن المعروف بالكذب والفجور لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يتأتى منه القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق المُبرأ من كل فاحشة وغدر وكذب وفجور، بل قلب هذا وقصده يشبه بعضهما بعضاً، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ تتبين لهم حقيقة الأمر، وأن ما جاء به في أعلى مراتب الصدق)[١].

ولا تزال شبهات مكذبي النبوءات تتكرر في الواقع المعاصر لدى الخطاب الاستشراقي[٢]، والحداثي[٣]، بوسم النبوءة وما كان يعتري النبي محمداً ﷺ بنوبات الصرع والجنون والهستريا[٤]، فـ (ارتباط ظاهرة الشعر والكهانة بالجن في العقل العربي، وما ارتبط بهما من اعتقاد العربي بإمكانية الاتصال بين البشر والجن هو الأساس الثقافي لظاهرة الوحي الديني ذاتها)[٥]، فالقرآن تشكل من الواقع ولم ينزل من السماء، والذي أثر فيه الشياطين[٦]، فإلغاء الكهانة يستلزم منه إلغاء النبوءة[٧]، كل هذا لأنهم ينفون علاقة النبوءة بأي جهة غيبية.

ومما هو معلوم أن الشياطين تتنزل على كل أفاك أثيم، ومَن هذه حالته من الكذب والإفك والإثم لا يمكن أن يكون نبيّاً، فحال الأنبياء الصدق، والوحي

---

(١) الصواعق المرسلة: لابن القيم (٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠).
(٢) ينظر: حضارة العرب ؛ غوستاف لوبون ص ١٤١، ومحمد حياته ومذهبه ؛ تور أندريا ص ٥٠، والإسلام هنري ماسيه ص ١٠١، وميزان الحق؛ سنكلير، ص ٤٥.
(٣) ينظر: الحزب الهاشمي ومقدمات أولية؛ سعيد قمني ص ٥٢٢، ومقدمات أولية؛ طيب تيزيني ص ٥٢٣ وص ٥٩٥، الوحي والقرآن والنبوة ؛ هاشم جعيط ص ٨٦، وص ٨١، وص ٨٥، وص ٩٢.
(٤) ينظر: تاريخ القرآن ؛ تيور نولدكه ص ٢٣ وما بعدها، ودفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره ؛ د/ عبد الرحمن بدوي ص ٧٥ وما بعدها، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية ؛ ساسي الحاج ص ٢٩٩.
(٥) مفهوم النص؛ نصر أبو زيد ص ٣٤.
(٦) ينظر: النص والسلطة الحقيقية ؛ نصر أبو زيد ص ١٠٠.
(٧) ينظر: مفهوم النص؛ نصر أبو زيد ص ٣٩.

الصادق يتنزل عليهم من الله تعالى، ومحمدﷺ حاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة، لأنه الصادق الأمين، الراجح العقل، الصادق اللهجة.

والوحي الذي ينزل عليه من عند الله، ينزل محروساً محفوظاً، مشتملاً على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب، فهل يستوي - يا أهل العقول - هذا وأولئك ؟ وهل يشتبهان إلا على مجنون، لا يميز، ولا يفرق بين الأشياء(١)؟

وكبار قريش أنفسهم كانت تنكر أن يكون القول الذي أتى به محمد قول ساحر أو كاهن، أو مجنون(٢)، لأنهم يعلمون جيداً حقيقة وسِمة قول هؤلاء، وهو مخالف لما جاء به محمدﷺ، لكنهم اتهموه بهذا ليموهوا حقيقة ما جاء به، ليصرفوا الناس عنه.

ووصف النبيﷺ بالكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[الحاقة: ٤٠] كاف في نفي أن يكون مجنوناً أو كاذباً إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم (٣).

فالأنبياء يتصفون بالكمال الأخلاقي من الصدق وغيره المستلزم لنفي ما يضاده من سيئ الأخلاق كالكذب وغيره، لأن النبوءة خبر عن الله، وعلى وضوح هذه الحقيقة إلا أن هناك من يُصر على وصفهم بالكذب، وهذا ما يجده مَن يطلع على نسخ الكتاب المقدس المحرفة من أنَّ الأنبياء جُرِّدُوا تماماً من الكمال الأخلاقي، ويلحظ مدى التجني على صفوة الخلق، وهذا له آثار وخيمة منها التشكيك فيما جاء به الأنبياء إن وسموا بسيئ الأخلاق.

فمما جاء في الكتاب المقدس أن أحد الأنبياء افترى على الله الكذب، (وكذب في التبليغ، وخدع بكذبه نبياً آخر مسكيناً لا ذنب، وألقاه في غضب الله)(٤)،

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٧)، وتيسير الكريم الرحمن ص ٥٩٩.
(٢) ذكرت أقوالهم في دلالة النظم والأسلوب لمناسبته هناك.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤٢).
(٤) الملوك الأول، ١٣ / ١ـ ٣٠.

و(جاءت أيام العقاب. جاءت أيام الجزاء، وستعرفون ذلك يا بني إسرائيل. تقولون: النبي أحمق، ورجل الروح مجنون)[١]، (وأنا خصم الأنبياء الذين يختلقون الكلام ويقولون قال الرب، وأنا خصم الذين يتنبؤون بأحلام كاذبة، ويقصونها ويضللون شعبي بأكاذيبهم وعنجهيتهم)[٢]، (لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبؤون لكم ويخدعونكم. هم يتكلمون بما يتراءى لهم، لا بما أقول أنا الرب)[٣]، (أنا لم أرسل أولئك الأنبياء يقول الرب بل هم أرسلوا أنفسهم، وأنا لم أكلمهم بل هم تنبؤوا)[٤]، (النبي والكاهن كافران)[٥]، (سمعت ما تنبأ به الأنبياء باسمي زوراً قائلين رأينا ذلك في الحلم، فإلى متى يدوم الكذب في قلوب الأنبياء المُتنبئين بالكذب، المُتنبئين بما يتوهمون في قلوبهم)[٦]، (لأنهم جميعاً من صغيرهم إلى كبيرهم يطمعون بالمكسب الخسيس، ومن النبي إلى الكاهن يمارسون أعمال الزور)[٧]، وغير هذا كثير يطفح به الكتاب المقدس من وسم الأنبياء بما هو أفظع من هذا بكثير، لكني اقتصرت على جانب وصفه للأنبياء بالكذب وهم من ذلك براء عليهم الصلاة والسلام.

فإذا كان الأنبياء كما يصفهم الكتاب المقدس كيف تأخذ عنهم البشرية ؟!

ثم هل أنبياء أهل الكتاب يتصفون بهذه الصفات؟!

فإن كان جوابهم بنعم فدينهم باطل إن كانت هذه صفات أنبيائهم.

---

(١) يوشع ٩/ ٧.

(٢) إرميا ٢٣ / ٣١ـ ٣٢.

(٣) إرميا ٢٣ / ١٦.

(٤) إرميا ٢٣/ ٢١.

(٥) إرميا ٢٣ / ١١.

(٦) إرميا ٢٣ / ٢٥ـ٢٦.

(٧) إرميا ٦ / ١٣.

وإن كان جوابهم بلا، فما هي صفاتهم ؟! وهل تختلف عن هذه الصفات التي ذكروها في حق غيرهم من الأنبياء؟! وكيف للإنسان أن يميز بين الوحي المكتوب والوحي المتجسد.

ولا يمكن أن تختلف صفات الأنبياء لأن الذي نبأهم واحد وهو الله تعالى، فوصفهم بالكمال الأخلاقي دليل على كمال وصف مَن نبأهم من باب أولى، ووصفهم بسيئ الأخلاق يلزم منه نقص مَن أرسلهم وهذا ما يلاحظه مَن يطالع الكتاب المقدس من أن الله تعالى وصف بصفات لا تليق به.

ولئن كانت سمات الأنبياء كما يذكرها الكتاب المقدس فمُحال أن يتسم بها نبي يُبلغ عن ربه، لأنه يلزم من وصفه بهذه الصفات الناقصة أن يكذب في وحي الله تعالى، وأنى للناس أن يميزوا بين صدق قوله من كذبه فيما يُبلغ عن ربه وهو مُتسم بالكذب؟!

ولو كانت صفات الأنبياء على نحو ما ذكر الكتاب المقدس فلم يبلغ دين الله تعالى لأحد من البشر، ولعاشت البشرية في تيه للبحث عن القول الصادق والحق الذي تتعبد الله به.

والله تعالى العليم الحكيم مُحال أن يبعث إلى الخلق مَن هذه صفاتهم لأن هذا يقدح في علمه وحكمته جلَّ وعلا، والله تعالى لا يكلف الخلق فوق طاقاتهم وهذا من كمال رحمته، فمَن باب أولى ألا يكلفهم العنت في تصديق النبي الكاذب، فإن هذا تأباه العقول السليمة والفطر السوية، والنقل الصحيح على خلاف ذلك، بل إن اعترافات الأعداء أثبتت صدق النبيﷺ ونفي الكذب عنه مطلقاً.

علَّ هذا فارقٌ بينٌ بين القرآن الكريم وهو يصف الأنبياء بالكمال الأخلاقي من الصدق ليدلل على صدق نبوءتهم الذي يلزم منه نفي الكذب عنهم، وبين الكتاب المقدس وهو يَسم الأنبياء بالكذب ليدل على تكذيبهم بالنبوءة.

والأنبياء الصادقون مصونٌ جنابُهم عن الكذب والخيانة، لأن مَن اتصف بالصدق لزم انتفاء الكذب عنه، فهم يُبلغون ما أمرهم الله به، وما بلغوه واضح بين يفهمه الناس قاطبة، إذ الدين والشريعة جاءا لهم جميعـًا ليسا لقوم دون آخرين، وما يدعيه أهل التخييل من أن الأنبياء أظهروا خلاف ما أبطنوا، لمصلحة العامة، فما ذكروه من الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لنتفع بها الجمهور، لا أنهم بينوا الحق، ولا هدوا به الخلق.

فالنبي على زعمهم علمها لكن لم يبينها لمصلحة الخلق، وإنما تكلم بما يناقضها وأراد من الخلق فهم ما يناقضها، لأنه لو أخبر بها لدعا الناس إلى اعتقاد التجسيم مع أنه باطل، وإلى اعتقاد معاد الأبدان مع أنه باطل، ويخبرهم بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل، فلا يُمكن دعوة الخلق إلا بالكذب لمصلحة العباد، فوسموا النبي بالكذب لأن عقولهم عارضت ما ورد في القرآن الكريم من آيات في أسماء وصفات الله واليوم الآخر[1].

وهؤلاء لم يستطيعوا أن يثبتوا المعاد وأسماء الله والغيب لأنهم حكموا عقولهم، فقالوا بالتخييل.

ومذهب أهل التخييل أنهم يجعلون الخطابات الشرعية مجرد خيالات، فلا يثبتون لا ظواهر النصوص ولا ما دلت عليه، ولا ما نقل عن السلف في شرحها، وهذا هو الذي كان عليه فلاسفة اليونان، والأوربيون من قديم، فإنهم قالوا: إن شرائعهم وأديانهم، ما هي إلا خيالات وتخيلات وإيهامات باطلة لمصلحة الناس، وإلا فلا حقيقة لما يوهمونه به[2].

---

(١) ينظر: الرسالة الأضحوية ؛ لابن سينا ص ٩٧، فصل المقال ؛ لابن رشد ص ١٣٢، والصفدية ؛ لابن تيمية (١/ ٢٣٨)، مجموع الفتاوى ؛ له(٥/ ٣١)؛ ودرء تعارض العقل والنقل ؛ له (١/ ٩)، الصواعق المرسلة ؛ لابن القيم (٢/ ٤٢٠).

(٢) http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&Contentid=٥٥١٣

فمُحال أن يُخبر الأنبياء بخلاف الحقائق، لأن هذا كذب صريح، والأنبياء مُحال عليهم الكذب لكمال أخلاقهم الذي هو دليل على صدق نبوءتهم الذي يستلزم نفي الكذب عنهم، كما أن الكذب يتنافى مع طبيعة نبوءتهم ودعوتهم.

فالدلالة هنا مُركبة من دعوى النبوءة مع الكمال الأخلاقي الذي يحيل الاتصاف بالصفات الذميمة، مع مضمون الخبر الذي كان يُخبر به النبي ﷺ، فليس كل مَن كمُلت أخلاقه كان نبيّاً.

*****

الفصل الثالث

دلالة الأمية على نبوءة النبي ﷺ

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول: تعريف الأمية

المبحث الثاني: الأدلة على أمية النبي ﷺ

المبحث الأول

تعريف الأمية

لقد عاش محمد ﷺ بين قومه أربعين سنة، وهو الصادق الأمين، يعرفونه حق المعرفة، لم يخفَ عليهم شيء من أمره، ثم قال لهم: إني نبي، وجاءهم بأمور لم يكن له علم بها لا هو ولا قومه، قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[هود: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[النساء: ١١٣]، فقبل بعثته وإظهار نبوءته لم يُنبئ قومه عن أي شيء مما جاء به بعد نبوءته، فهم لم يسمعوا منه شيئًا قبل ذلك.

فمن أين أتى محمدﷺ بهذه العلوم؟! ما وسائل علمه بكل هذا؟! أهي القراءة والكتابة؟! فهل قرأ من كتب؟! فما هي هذه الكتب؟! هل تلقى هذا من معلم؟! فمن هو معلمه؟! هل أفصح محمدﷺ عن كتبه التي قرأ منها؟! وعن معلمه الذي أخذ عنه؟! وهل كانت القراءة والكتابة منتشرة في قومه الذين عاش بين ظهرانيهم؟! من خلال هذه الأسئلة يكون لدينا احتمالان لا ثالث لهما:

إما أن يكون محمد ﷺ أميًا .

وإما ألا يكون أميًا.

وفي كلا الاحتمالين لابد من تحديد مصدر ما أتى به محمد ﷺ، وهل له علاقة بصدق نبوءته؟!

فإنَّ أي قارئ للكتاب الذي جاء به محمدﷺ يلحظ أنه ورد وصفه بالأمي، ووصف قومه وأهل الكتاب بالأميين.

فما معنى الأمي، والأميين؟!

وصف الأمي والأميين، ينسب في لغة العرب إلى:

* الأُمِّ التي ولدته فهو أمي، لأنه باقٍ على جبلته وخلقته التي ولدته أمه عليها، فهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، والكتابة والقراءة مكتسبة مُتعلمة[1]، ولعل هذا المعنى يتفق مع وصف النبيﷺ بالأمي ووصف قومه بالأميين، أي أنهم باقون على ما ولدتهم عليه أمهاتهم، لم يكتبوا ولم يقرؤوا، لأنهم لم يتعلموا ذلك ويكتسبوه[2].

* ويُنسب إلى الأمَّة، و سقطت التاء في النسبة كمكي ومدني[3]، ثم اختلفوا في المراد بالأمة المنسوب إليها، فقيل:

١. كل أمي منسوب إلى أمته أي جماعته، كما تقول للرجل عامي، تنسبه إلى عامة الناس، وهو الاستعمال الغالب، كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[القصص: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾[يونس: ٤٧]، وقوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[البقرة: ٢١٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

٢. منسوب إلى أمة العرب، أي أن أكثر العرب كانوا أميين، لأنه لم يكتب ولم يقرأ منهم إلا القليل، فنسب مَن لا يكتب ولا يقرأ إلى ما كان عليه غالب الأمة، فقيل أمي، فلزم هذا الاسم كل مَن لا يكتب ولا يقرأ، وهم يعتمدون على الحفظ دون الكتابة والقراءة، فيقرؤون من حفظهم، فالعرب كان أكثرهم أميّا لا يكتب ولا يقرأ والنبي ﷺ واحد منهم، قال

---

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ؛ للزجاج (١/ ١٩٥)، والغريبين؛ لابن قتيبة (١/ ٨٩ـ ٩٠)، ومقاييس اللغة ؛ لابن فارس (١/ ٢٨)، والزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ص ١٠٨ ،والقاموس المحيط ؛ للفيروز آبادي ص ١٣٩٢ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٦٨)، لسان العرب (١٢/ ٣٤).
(٢) ينظر: جامع البيان (٢/ ٥٩)، ومشارق الأنوار؛ للقاضي عياض (١/ ١١٠)، وزاد المسير؛ لابن الجوزي (١/ ٩٠)، والدر المصون؛ للسمين الحلبي (٥/ ٤٧٨ـ٤٧٩).
(٣) ينظر: لسان العرب (١٢/ ٣٤) مادة (أمم).

تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[الجمعة: ٢]، و قال : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥][١].

لكن هل يُطلق على العرب فقط أميون؟ أم أن العرب وغيرهم يُطلق عليهم أميون؟

إنَّ وصف الأميين يُطلق على غالب العرب لأنهم لا يكتبون ولا يقرؤون من كتاب إلا نادراً، فغلب هذا التشبيه في الإطلاق على العرب، حتى صارت الكلمة تطلق على مَن لا يكتب ولا يقرأ ولو من غيرهم[٢]، قال تعالى في حق بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة: ٧٨].

٣. قيل: نسبة إلى العرب لأنه لا كتاب لهم قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾[آل عمران: ٢٠]، والمراد بالأميين هم مشركو العرب ودخل في ذلك مَن لا كتاب له[٣]، ولعل هذا مناسب لمعنى الأميين في هذه الآية.

---

(١) ينظر: غريب الحديث؛ لابن قتيبة (١/ ٣٤٨٤)، وتهذيب اللغة (١٥/ ٦٣٦ ـــ ٦٣٧)، والزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (١٠٨ ـــ ١٠٩)، والمفردات في ألفاظ القرآن ص ٨٧، الفائق في غريب الحديث والأثر؛ للزمخشري (١/ ٥٦)، والكشاف له أيضاً (٤/ ٩٦)، وجامع الأصول (٢/ ٤٨٣)، والمغرب؛ للمطرزي (١/ ٤٥)، لسان العرب (١٢/ ٣٤)، لباب التأويل؛ للخازن (٧/ ٨٦)، مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٣٥)، وأحكام القرآن؛ للجصاص (٣/ ٤٣٣)، والبحر المحيط؛ لأبي حيان (٤/ ٤٠٣)، وتأريخ العرب؛ المسيو سيديو، نقلاً عن معجم افتراءات الغرب على الإسلام؛ أنور محمود زناتي ص ١٣٥ـ١٣٦.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (مج ١٣، ج٢٨، ص٢٠٨، ٢٠٩).

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه؛ للزجاج (١/ ٣٩٠)، ومعاني القرآن الكريم؛ للنحاس (١/ ٣٧٤)، وجامع القرآن (٣/ ٢١٥)، والبحر المحيط (٢/ ٤١٣)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٩١)، والتفسير القرآني للقرآن؛ إسماعيل حقي (٢٨/ ٩٤٢)، وتفسير المنار؛ لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢١٦).

٤. قيل: منسوب إلى الخلقة والجبلة أي أنه باق على خلقته وجبلته لا يكتب ولا يقرأ، ومنه:

فَإِنَّ مُعَاوِيَةَ الأَكْرَمِينَ عِظَامُ القِبَابِ طِوَالُ الوجوه الأُمَم[(١)]

* وينسب إلى أم القرى، أي مكة[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[الأنعام: ٩٢] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾[الشورى: ٧]، وهذه النسبة لا تطرد في الأميين بصيغة الجمع، إذ لا يصح حمل ذلك على النسبة لأم القرى من جهة الاشتقاق، ولا يُطرد في وصف أهل الكتاب بالأميين فهم ليسوا من مكة أم القرى.

* وينسب إلى الأمي الجاهل العَيِيّ الجلف الجافي القليل الكلام، قيل له أمي لأنه على ما ولدته أمه من قلة الكلام وعجمة اللسان[(٣)]، ولا وجه في بيان معنى الأمي بهذه الصفات، لأنه لا تلازم بينها وبين الأمي، فالأمي لا يقابل الجاهل، فليس كل أمي جاهلاً، ولا كل جاهل أمي، إذ الأمي هو الذي لا يقرأ من كتاب ولا يكتب، والجاهل مَن لا يعلم ما ينبغي أن يُعلم، أي لا علم له[(٤)]، وليس العلم كله منوطًا بقراءة وكتابة، فالجَهالة مقابل العلم، وليست مرتبطة بالقراءة والكتابة، والعيّ مقابل الفصاحة، وهي ضد البيان، ولا ارتباط لها بالأمية، والجافي الجلف ضد الرقة والليونة، وهي أخلاق سيئة، ولا ارتباط لها بالأمية، يُضاف إلى هذا أن هذه الأوصاف عيب في الإنسان فلا مزية فيها، وهي من نتائج الأمية، وليست هي

---

(١) ينظر: تفسير القرآن؛ للطبرسي (١/ ١٤٤).

(٢) ينظر: معاني القرآن (١/ ٣٧٤)، والمجموع المغيث؛ للمديني (١/ ٩٠-٩١)، والمفردات؛ للراغب الأصفهاني ص ٨٧، وبصائر ذوي التميز؛ للفيروز آبادي (٢/ ١٥٩)، والدر المصون؛ للسمين الحلبي (٥/ ٤٧٨-٤٧٩)، وتفسير الطبرسي (٤/ ٤٨٧)، والمجالس المستنصرية ص ٨٣.

(٣) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم؛ لابن سيده (١٠/ ٥٧٥)، والقاموس المحيط ص ١٣٩٢، ومفردات ألفاظ القرآن ص ٨٧، ولسان العرب (١٢/ ٣٤).

(٤) ينظر: الدين والدولة؛ لعلي بن رين الطبري ٩٨-١٠٧.

الأمية، ولو كان الأمي بمعنى الجاهل فلماذا يذم محمدﷺ الجاهلين في الكتاب الذي جاء به أكثر من مرة؟! قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأنعام: ٣٥]، و قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[القصص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾[الزمر:٦٤]، فهل يمكن أن يكون الأمي بمعنى الجاهل بعد هذا الذم؟! وللعلم بأنه لا تنافي بين عدم المعرفة بالقراءة من كتاب والكتابة باليد وبين العلم، إذ الكتابة والقراءة ليستا إلا وسيلة من وسائل العلم، وليستا هما العلم.

مما سبق بيانه نجد أن لفظة الأمي والأميين تطلق على الذي لا يقرأ من كتاب ولا يكتب، وعلى الذي لا كتاب له، من العرب كانوا أو من غيرهم.

فأهل الكتاب يصفون العرب بالأميين أي الذين لم تكن القراءة والكتابة معروفة فيهم إلا نادراً[(١)]، والذين لا كتاب لهم على سبيل الذم لا المدح[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فاليهود يذمون العرب بوصف الأمية، فيسلبون حقوقهم كما هو بين في الآية، ولا يعني هذا أن أهل الكتاب هم مَن أطلق على العرب وصف الأميين، إذ العرب معروف عن أغلبهم بأنهم أميون لا يقرؤون من كتاب ولا يكتبون، وليس لهم كتاب كما لأهل الكتاب، و هذا لا تنكره الحقيقة التاريخية، والله تعالى يمتن على العرب الأميين بأن بعث فيهم نبيّاً أميّاً، فأتاهم بكتاب بعد أن كانوا لا كتاب لهم، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٣٣).

(٢) ينظر: الكشاف (١/ ٣٢٥).

ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] فكيف يثني الله على نبيه ويمتن على أمته بوصف أطلقه اليهود على العرب على سبيل الذم[١] ؟!

وهكذا يظهر جليّاً أن مادة (أمي) بكل معانيها عربية الأصل، فليست هي دخيلة معربه في كل استعمالاتها[٢].

* ومما هو مُلاحظ في اشتقاق ومعاني الأمي والأميين أنها لم تشتق من الوثنية والوثني[٣]، ولا هي من معانيها، لتباين المعنى بين لفظ الأمي وبين لفظ الوثني، كما أن الوثنية وصف طارئ على الناس وليست هي أصلاً فيهم كالأمية حيث يولد الناس أميين لا يقرؤون ولا يكتبون، ثم يرتفع هذا الوصف عنهم إن هم تعلموا، فالله تعالى قد فطر الناس على التوحيد لا الشرك، فلا يمكن أن يفسر الأمي بالوثني مطلقاً، لأنه لو فسر الأمي بالوثني للزم وصف بني إسرائيل بالوثنيين، فيصبح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾[البقرة: ٧٨]

---

(١) ينظر: تحقيق المذهب ؛ لأبي الوليد الباجي ص ٢٦ وما بعدها، والتعريف بالقرآن والحديث؛ محمد الزفزاف ص ١٤٤، وما بعدها.

(٢) هناك من يقول بأن العرب عربت اللفظ من:
* العبرية (أما) أو (جوييم) ينظر: مدخل إلى القرآن الكريم؛ الجابري ص٨٢، ٨٣، ٩٤، ٩٥، وينظر في الرد عليه: دحض أباطيل عابد الجابري وخرافات هشام جعيط حول القرآن ونبي الإسلام؛ خالد كبير علال ص ٣-٣٩.
* أو من الآرمية (أميتا) ينظر: دائرة المعارف (٢/ ٦٣٠ ـــ ٦٣١)، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة؛ هشام جعيط، ص ١٦٢، ١٦٣، ١٧٥، ١٧٦، والكتاب والقرآن قراءة معاصرة؛ د/ محمد شحرور ص ١٣٩. والقول بأن العرب عربت لفظ الأمي والأميين يفتقد إلى الدليل.
وحيال الرجوع إلى قاموس الكتاب المقدس لم أجد إلا كلمة (أمم) وهي كلمة تطلق على الشعوب غير العبرانية، وهم الذين لا كتاب لهم، ينظر: ص ١١٧، والمهم هو معنى الأمي والأميين، فإذا لم يكن هناك خلاف في أن من معانيها في العربية من لا كتاب له وهو المعنى ذاته الذي استخدمه أهل الكتاب، فلا مشاحة في الاشتقاق أهو عربي أم مُعرب.

(٣) ينظر: دائرة المعارف، الجزء الثاني مادة (أمم) فقد فسروا الأمي بالوثني، وينظر لأقوال المستشرقين في المراجع التالية: مفهوم الأمية في القرآن؛ أحمد شحلان، دراسة مقارنة تحليلية في اللغات السامية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ع : ١/ ١٩٧٧، ص١٠٥-١١٤، الدفاع عن القرآن ضد منتقديه ؛ عبد الرحمن بدوي، ١٦-٢٠.

ومن بني إسـرائيل الذين هم وثنيون وثنيون فهذا لا يسـتقيم[1]، وهذا يتنافى مع معنى الأميين الذي بينته الآية من أنهم لا يعلمون الكتاب، كما يلزم من تفسـير الأمي بالوثني و صف النبي ﷺ بالوثني وهذا الو صف لم يُعرف عنه قط، وو صف العرب بالوثنيين وهذا وصـف لم يُعرف به العرب جميعاً، وكيف يمتن الله تعالى على العرب ببعثة نبي وثني وهم وثنيون، المعنى لا يستقيم أبداً.

* يختلف معنى الأمي في الآيات البينات، ويتبين المعنى من خلال دلالة السـياق، فتارة يُطلق على عدم المعرفة وعدم الفهم، كاليهود الذين علموا ولم يعملوا كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة: ٧٨]، ومرة يكون المراد بالأميين الذين لا كتاب لهم كما في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾[آل عمران: ٢٠]، وأخرى يكون بمعنى الذين لا يكتبون ولا يقرؤون من العرب والنبيﷺ منهم كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[الجمعة: ٢]، وهناك آيات وصـفت النبيﷺ بالأمي، فقرنت بين نبوءته وأميته كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾[الأعراف: ١٥٨]، فهل كان النبيﷺ أميّاً لا يقرأ ولا يكتب؟! هذا ما سيبينه المبحث الثاني بإذن الله تعالى.

* يتبين مما سـبق أنَّ حدَّ الأمي هو الذي لا يقرأ من كتاب، لا أنه لا يقرأ من حفظه، لأن العرب عمدتهم الحفظ، فكانوا يقرؤون من حفظهم، والنبي الأمي محمد ﷺ واحد من العرب كان يقرأ من حفظه[2]، لأن القراءة نوعان: نطق بكلام معيَّن مكتوبٍ، أو محفوظٍ عن ظهر قلب، فالنوع الأول ينتفي في حق الأمي، بينما النوع الثاني لا ينتفي في حقه.

والأمي هو الذي لا يكتب بيديه.

---

(١) ينظر: التعريف بالقرآن والحديث؛ محمد الزفزاف، ص ١٥٠.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٣٤-٤٣٦).

وهـذا المعنى للأمي يتبين في قول الله تعـالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾[العنكبوت: ٤٨]، فهنـا ورد نفي التلاوة وقيـدهـا بالكتاب، لأن هناك تلاوة مما يحفظه الإنسان عن سماع، ونفى الكتابة التي باليد، لأن هناك مَن يكتب له الكُتَّاب، فالذي يتلو مما يسـمع ومن حفظه لا ينتفي عنه و صف الأمي، أما الذي يقرأ ويتلو من كتاب فهذا ينتفي عنه و صف الأمي، والذي لا يكتب بيده هو أمي.

وعلى و ضوح معنى القراءة والكتابة إلا أن هناك مَن خرج عن حدها، وفسرها بنوعها بدلاً من جنسها، حيث يقول: (أما إسقاط هذا المعنى على أن النبيﷺ كان أميّاً أي لا يقرأ ولا يكتب فهذا خطأ، فكما قلت: إن الكتابة هي تجميع الأشـياء بعضـها إلى بعض لإخراج معنى مفيد (موضـوع) فهل كان النبيﷺ عاجزاً عن تأليف جملة مفيدة أو كتابة كتاب تأليف؟ إن الكتاب الذي أرسله النبي إلى كسرى هو كتاب النبيﷺ لأنه هو الذي أملاه وصـاغه. والقراءة تعني العملية التعليمية تتبع المعلومات ثم القدرة على اسـتقراء نتائج منها ومقارنتها بعضـها ببعض، فالاسـتقراء والمقارنة جاءا من القراءة فهل كان النبيﷺ لا يقرأ؟)[1].مما يُلاحظ على هذا القول أنه تفسير لآلية الكتابة والقراءة، وبيان أنواعها وآحادها، فإنَّ مما لا شـك فيه أن النبيﷺ خطب على المنابر، وأملى الرسـائل، وقال الأحاديث، وقرأ القرآن من حفظه، فهل كتب كل هذا بيديه ؟! هل قرأ من كتاب ؟! هذا مناط التحرير، ويبدو أن النص ابتعد عن مناط التحرير.

فجنس الكتابة أي الذي يكتب ويخط بيديه فهذا المُنتفي عن الأمي، وجنس القراءة لمَن يقرأ من كتاب فهذا أيضاً منتفٍ عن الأمي.

*****

---

(١) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة؛ د/ محمد شحرور، ص ١٤١.

المبحث الثاني

الأدلة على أمية النبي ﷺ

لقد ورد في القرآن وصف النبي محمد ﷺ بالأمي، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾[الأعراف: ١٥٨]، فهذه الآيات قرنت بين نبوءة محمد ﷺ ووصفه بالأمي، فهل هناك علاقة بين أميته ونبوءته؟!

في المبحث السابق بينت معنى الأمي بأنه الذي لا يقرأ من كتاب ولا يكتب بيديه، ولقد تضافرت الأدلة التي تبرهن على أمية النبي ﷺ بهذا المعنى، فمنها:

أولاً: الأدلة العقلية:

* بالنظر إلى المكان الذي عاش فيه محمد ﷺ ونشأ، وبعث، لم تكن القراءة والكتابة بالأمر الشائع فيه، بحيث يسعى الناس لتحصيله، فلم يعنَ العرب آنذاك بالقراءة والكتابة، لذا اعتمدوا على حفظ الصدور، لأن غالبيتهم أميون لا يقرؤون ولا يكتبون[١]، حتى تجارهم لم يكونوا يوثقون معاملاتهم بالقراءة والكتابة كما هو الشأن في العصر الحديث، لأنها كانت محدودة، كما أن المصادر لا تذكر لنا رواية عن معاملة تجارية تم تدوينها، ولقد تم رصد بعض أسماء مَن قرأ وكتب من العرب بمكة لقلتهم، فلم يُذكر اسم محمد ﷺ من بينهم[٢]، ولو كان محمد قارئاً وكاتباً لعُلِم ذلك بسهولة ولذاع وانتشر[٣]، وحصر أسماء مَن كتب دليل على قلتهم.

---

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون، ص ٢٣٧، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود الألوسي(٣/ ٣٦٧)؛ والرد الشافي الوافر على من نفى أمية سيد الأوائل والأواخر: أحمد آل بو طامي ص ٦٩.

(٢) ينظر: الأربعين في أصول الدين؛ للرازي، (٢/ ٩٠)، قصة الحضارة، ول ديورانت، (١١/ ٢١).

(٣) ينظر: محمد رسول الله ﷺ؛ محمد رضا، ص٦٤، ٦٥ بتصرف، وممن اعترف بأميته ﷺ أماري، وكازيمير سكي، ومونتيه، ول ديورانت، ينظر: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر؛ د. لخضر شايب، ص٣٨٩.

* ما من أحد يطلب فنّاً من الفنون إلا وله في ذلك مراحل وطبقات، فأول ذلك يكون طالباً وسائلاً عمَن عنده هذا الفن، ثم يختلف لأهله ويصحبهم، فيكون تارة مبتدئاً، ثم متوسطاً، ثم ماهراً متقدماً، وحال محمد ﷺ معروفة معلومة لأهل زمانه، والأقربين من أهله، خاصة عدوه المتتبع لأمره، والمفتش عن حاله من كفار قريش، ومن اليهود والنصارى، وغيرهم كثير، فقد علموا منشأه ومتقلبه ومثواه، فبينهم تربى ونشأ، فلو أنه تعلم القراءة والكتابة، واختلف إلى أهل اللغات، فصحبهم وأخذ عنهم، لعُرِف أمره واشتهر، ولم يخفَ ولم يستتر على أهله ونسائه، وعدوه ووليه، فهذا لا يعتقده كل مَن فكر وتدبر حاله وحال قومه، بل لو كان له ذلك يوماً واحداً أو ساعة واحدة لعلم به الأولون والآخرون[1]، كما أن النبيﷺ لم يرَ في يوم من الأيام يحمل الدواة والقلم التي هي أدوات الكتابة، فلا يمكن أن يُهمل أمره الناقلون، فمُحال أن يكون أخفى على قومه تعلمه للكتابة والقراءة طوال حياته ولم ينتشر خبره نظراً لقرب المعيشة بينهم.

* لو أن النبي محمد ﷺ أخفى مقدرته على الكتابة بيديه، والقراءة من الكتب طيلة حياته لكانت تلك خدعة كبرى، وهي مما لا يتفق مع كمال أخلاقه ﷺ من الصدق الذي اتصف به طيلة حياته، كما أنه من الصعب جدّاً أن يبقَى على تلكم الخدعة دون أن يعرف بها أحد، لحميمية الصلة بينه وبين قومه[2].

* لم يتعلم محمد ﷺ من أستاذ ولم يطالع كتاباً، ولم يدرس، ولم يتفق له مجالسة أحد من العلماء[3]، لأن مكة ما كانت بلدة العلماء، وما غاب رسول الله ﷺعن مكة غيبة طويلة، وقد يُقال بأنه سافر مرتين فغاب عن مكة، إلا أن هذه

---

(١) ينظر: تثبيت دلائل النبوة ؛ القاضي عبد الجبار (١/ ٨٧ ـ ٩٠).

(٢) ينظر: محمد نبي الزمان : كارين ص ١٣٦.

(٣) كتاب الأبطال للفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل، نقلاً عن معجم افتراءات الغرب على الإسلام؛ أنور محمود زناتي، ص ١٣٥ـ١٣٦.

المدة كانت يسيرة، لا يسعه أن يتعلم فيها العلوم الكثيرة[1]، ثم إنه لو تعلم ودرس لأخبر بذلك، فليس هناك ما يستدعي كتمان هذا الأمر، ثم لا بد من أن يصرح باسم معلمه، أو أن معلمه يصرح بأن محمداًﷺ أخذ عنه، لكن شيئًا من هذا لم يحدث! لماذا؟!

وحتى مَن لقيهم محمدﷺ كبحيرا الراهب[2]، وورقة بن نوفل[3]، لم يلبث معهما وقتًا طويلاً، **على أن قصة بحيرا لا تثبت أمام النقد الحديثي**[4]، ولو افترضنا جدلًا أنها وقعت فإن اللقاء بينهما لا يعدو الساعة أو الساعتين، ولو حدثت قصة التعليم والأخذ لأثارت جدلًا في قريش؛ وهم يتربصون بالنبيﷺ فغايتهم الحصول على دليل واحد للتشكيك في نبوءته، لكن لا نجد في التأريخ لها صدى يذكر؛ ولو ذكرت لاشتهرت، فهذا مما يؤكد بطلانها، ولقاء النبيﷺ ببحيرا كان عرضًا لم يكن محمدﷺ قاصداً بحيرا للتعلم منه، ولم يلتقِ بحيرا بمحمدﷺ ليعلمه، كما أن اللقاء لم يكن على انفراد بينهما، ثم إن محمداً لم يخبر وقتها بأي شيء عن نبوءته! فلماذا لم يظهر نبوءته مباشرة؟! لماذا يصمت؟! لماذا يتأخر في تبليغ ما تعلمه من بحيرا؟! ليس هناك إجابة تشفي للإجابة على هذه الأسئلة الملحة؛ لأنه لم يتلقَّ شيئًا من بحيرا ! ولا يوجد دليل صحيح ثابت يمكن الاستناد عليه في هذه الحادثة، والرواية التي ذُكر فيها اللقاء، لا تذكر قضية الأخذ والتعليم، وإنما تذكر قضية

---

(١) هناك مَن يحاول أن يثبت أن محمداً ﷺ تعلم من اليهود والنصارى، ينظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ؛ كارل بروكلمان ص ٣٤، وقصة الحضارة (٢٣/ ١١٢)، وحياة محمد : بودلي، وماذا أخذ محمد من اليهودية؟ ؛ جاجير، نقلاً عن معجم افتراءات الغرب على الإسلام ص ١٣٥-١٣٦، ونبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر؛ د/ لخضر شايب، ص ٤٤٤.

(٢) بحيرا الراهب، قيل كان على النصرانية، وقيل على اليهودية، ينظر: البداية والنهاية ؛ لابن كثير، (٢/ ٢٨٩).

(٣) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي ابن عم خديجة زوج النبي ﷺ، كان ممَن تنصر بالجاهلية، توفي قبل بعثة النبيﷺ، ينظر: الإصابة ؛ لابن حجر، (٦/ ٦٠٧).

(٤) ينظر: تاريخ الإسلام : للذهبي (١/ ٥٧)؛ ومرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين ؛ د/ أكرم ضياء العمري، ص ٥١.

البشارة بنبوءة محمدﷺ على أنها لا تثبت، لكن تنزلاً على فرضية صحة الحادثة فهي تثبت خلاف ما يستدل بها عليه، تأمل معي الرواية: «خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ؛ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ. قَالَ: فَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلاَ حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا؛ وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيٍّ، وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفِ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ»[1]، وغيرها من روايات مما ورد في كتب السيرة النبوية[2] إلا أنها لا تثبت أمام قواعد النقد الحديثي.

ولنا أن نتأمل المنهج الانتقائي والتلفيقي في حادثة لقاء بحيرا بالنبيﷺ، حيث بدأ تلفيق قضية أخذ النبيﷺ من بحيرا بمجرد مقابلته، مع أن الرواية لم تذكر هذا لا تصريحاً ولا تلميحاً، ولا أدري من أين أُخِذ؟! ولم يُلتفت إلى البشارة بنبوءة النبيﷺ التي بشر بها بحيرا حين رأى خاتم النبوءة بين كتفي النبيﷺ، وهذا ما صرحت به الرواية !!

فهل هذا منهج علمي مُنصف للاستدلال ؟! وهل هذا هو المنهج الاستنباطي من الرواية إن صحت ؟!

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، المناقب، باب بدء نبوة النبيﷺ (٣٦٢٠) قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، قال عنه الذهبي: وهو حديث منكر جداً. ينظر: تاريخ الإسلام (١/ ٥٧).

(٢) ينظر: السيرة النبوية: لابن إسحاق ص١٦.

نحتاج للتريث وللتأمل حيال البحث بموضـوعية تامة دون التحيز إلى جانب ما، والتصـور السـابق للقضـية يجعلنا نطوع الأدلة له، وإن كانت دلالتها خلاف ذلك!

أمّا عن اللقاء الذي كان بين محمدﷺ وورقة، فكانت خديجة زوج النبيﷺ هي مَن ذهبت بمحمدﷺ، ولم يكن اللقاء ناجماً عن محمدﷺ ولا عن طلبه، حيث: (انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَـدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّـرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَـاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَـيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْـمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُـولُ الله ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ الله عَلَى مُوسَـى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُـولُ الله ﷺ: « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُـرْكَ نَصْـرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَـبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ)(١)، تفيد هذه الرواية أن لقاءً واحداً كان بين ورقة ومحمدﷺ، ثم مات ورقة، فكيف يتسـنى لمحمدﷺ الأخذ عنه؟! ثم إن ورقة أخبر محمداًﷺ بأن الناموس الذي جاءه هو الذي نزل على موسـى من قبله، وأنه هو النبي المُنتظر الذي بشـرت به الكتب السـابقة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وورقة يُخبر النبيﷺ بأنه سيتبعه وينصره، إلا أن ورقة مات، فلماذا لم يُخبر ورقة بأنه علّم محمداًﷺ وأن محمداًﷺ تلقى عنه؟!

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، (٣).

كان الأجدى بنا أن ننظر في كلام ورقة عن النبيﷺ، وموقف ورقة من النبيﷺ، لأن هذا ما يؤكده الخبر، بدلاً من تحوير القضـــية لقضـــية تعلّم النبيﷺ من ورقة وهذا لا دليل عليه.

* لو أن محمداًﷺ تعلم، فمَن الذي علمه؟ ثم لماذا لم يُصرح المعلم باسمه؟ ولماذا لم يُسفر محمدﷺ الصادق عن اسم معلمه؟ وكيف يحتمل المعلم أن ينسب محمدﷺ هذا الكتاب لنفسه ولم يُنبه أو يُخبر عن معلمه؟ ويسكت طوال نبوءة محمدﷺ، ثم أليس من باب أولى أن يدعو المُعَلِّم بنفسه ويتولى أمر دعوى النبوءة بدلاً من التلميذ المُعَلم؟ ويبقى البحث عن معلم محمدﷺ الذي تلقى عنه كل ما أخبر به ملحّاً لا بد له من إجابة.

ولك أن تتأمل القرآن الكريم وتكرار عبارة (قل) مئتين وإحدى وتسعين مرة، لتدرك أن هناك مصدراً ينبئ محمداًﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٨]، هُنا يتبين المصدر الإلهي الغيبي وصفاته الذي كان يتلقى منه النبي محمدﷺ الأمي.

* لو كان لمحمد معلمٌ فهو إما أن يكون من الأحناف الذين كانوا على ملة إبراهيم، وهم قلة[١]، ولم تثبت الروايات التاريخية أن النبيﷺ أخذ عن واحد منهم، كما أنهم لا يعرفون كافة تفاصيل المسائل والدلائل التي جاء بها محمدﷺ، فهذا زيد بن عمرو أحد حنفاء العرب في الجاهلية، يقول بعدما أسند ظهره للكعبة: يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري،

---

(١) تاريخ الإسلام: للذهبي (١/ ٩٠-٩١).

ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته(١).

وإما أن يكون من اليهود أو النصارى أو المشركين، لكن لم يثبت أن النبي ﷺ تعلم منهم شيئًا البتة، كما أن الكتاب الذي جاء به محمدﷺ يدعو إلى التوحيد ويذم الشرك ويتوعد أهله، فمُحال أن يكون مُعلمه مشركًا، أو نصرانيًا أو يهوديًا، فالقرآن يذم عقائد المشركين واليهود والنصارى، لذا كفروا به وكذبوه، فمن غير المعقول أن يأخذ عن واحد من هؤلاء، لأنه يلزم تناقض بين المعلم اليهودي أو النصراني أو المشرك وبين ما جاء في القرآن، وبلغه محمدﷺ، كما أنه من المحال أن يكذب محمد الصادق الأمين ﷺ على معلمه اليهودي أو النصراني أو المشرك، ومعلمه ساكت لا يخبر بأنه أخبر بخلاف ما علمه.

* لنا أن نطالب بمثال تأريخي واحد اجتمعت فيه أمة من الناس فتواضعوا فيما بينهم على الإتيان بمنظومة دينية كاملة مُفصلة تستوعب الناس جميعًا في كل زمان ومكان، من غير أن يكون لهم مصدرٌ يستقون منه.

هذا ضربٌ من المحال! فحتى العادات والتقاليد التي يتوارثها الناس جيلاً بعد جيل ما هي إلا آثار عن أسلافهم، أي أن لها مصدراً.

والقرآن الذي جاء به النبي الأميﷺ لا بد له من مصدر.

فما مصدره؟! هذا ما تتناوله طيات صفحات البحث.

ثانيًا: الأدلة النقلية:

لقد ورد في القرآن الذي أنزل على محمدﷺ وصفه بالأمي، وهذا الوصف كان معروفًا لدى أهل الكتاب في البشارة بنبوءة محمدﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وفي قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ

---

(١) السيرة: لابن هشام (١/ ١٤٤).

وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨]، وقومه أميون لا يقرؤون ولا يكتبون، ولا كتاب لهم، ومحمد ﷺ يخبرهم بذلك فلم ينكروا عليه وصفهم ونفسه بالأميين، فلو كانوا يقرؤون ويكتبون لكذبوا خبره الذي يصفهم فيه بالأميين، لكن شيئًا من هذا لم يحدث وهم من أشد الناس لهم عداءً، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[الجمعة: ٢]، فقريش لم تكن لهم كتب يدرسون منها، يقول تعالى عنهم: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾[سبأ: ٤٤]، وهذا بخلاف أهل الكتاب كان لديهم كتاب يدرسون منه، قال تعالى عنهم: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران: ٧٩]، ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾[الأعراف: ١٦٩].

* ومما يُبرهن على أمية محمدﷺ نفي تعلمه من بشر، وهذا تأكيد لأميته ﷺ، فقومه قالوا درس، قال الله عنهم: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ[(١)]﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وقال الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ﴾[الدخان: ١٤]، فهم يقولون: بأن محمداًﷺ يتعلم من بشر[(٢)]، فما جاء به مصدره بشري، لا إلهي كما يزعم، وهم لم يقولوا بأن محمداً قرأ وكتب، وهم من أحرص الناس على اتهام النبي ﷺ بأي شيء لتكذيبه فيما جاء به، فنفى الله تعالى عن نبيه محمدﷺ التعلم من البشر بحُجة اختلاف اللسان بين المعلم والمتعلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ

---

(١) في درست أكثر من قراءة، (دارست) بالألف، أي ذاكرت أهل الكتاب وتعلمت، و(درَسْتْ) بفتح السين وتسكين التاء، أي درست هذه الأخبار التي تتلوها علينا أي مضت وانمحت، و(درسْتَ) بسكون السين وفتح التاء، أي قرأت أنت وتعلمت أي درست أنت يا محمد كتب الأولين وتعلمت من اليهود والنصارى. ينظر: حجة القراءات ؛ لابن زنجلة ص ٢٦٥.

(٢) لقد اختلف العلماء في تعيين هذا البشر الذي زعموا أنه يعلم النبي ﷺ، وقد صرح القرآن بأنه أعجمي اللسان، ينظر: أضواء البيان (٢/ ٤٥٤)

﴿ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل: ١٠٣]، (فكيف يتعلم مَن جاء بهذا القرآن، في فَصَاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا مَن له أدنى مُسْكة من العقل)[1]، إذ أن لغة الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ هي العربية، فكيف يتعلم من أعجمي؟[2].

ولقد بين الله تعالى شدة تعنت الكافرين المكذبين بنبوءة محمدﷺ (بأنه لو جعل القرآن أعجميًا لكذبوه أيضًا، وقالوا: كيف يكون هذا القرآن أعجميًا مع أن الرسول الذي أنزل عليه عربي؟ وذلك في قوله: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[فصلت: ٤٤]، أي: أقرآن أعجمي، ورسول عربي؟ فكيف ينكرون أن القرآن أعجمي والرسول عربي؟ ولا ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمي، مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربي.

كما بين تعنتهم أيضًا بأنه لو نزل هذا القرآن العربي المبين، على أعجمي فقرأه عليهم عربيًا لكذبوه أيضًا، لشدة عنادهم وتعنتهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾[الشعراء: ١٩٨-١٩٩])[3].

إنَّ البحث عن مُعَلِّم محمد النبي الأمي ﷺ يبقى مُلحًا عالقًا في الذهن حاضراً في النفس، من أين أتى محمدﷺ بالقرآن الذي حوى أخباراً كلية وجزئية، وتفاصيل دقيقة؟!

لم يُهمل هذا السؤال !!

إذ إننا نجد الإجابة ماثلة أمام ناظرينا في التصريح عن معلم النبي الأميﷺ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠٣).
(٢) ينظر: التفسير الكبير (٩/ ٤٦٨).
(٣) أضواء البيان (٢/ ٤٥٤)، وينظر: التفسير الكبير (٢٤/ ٥٣٥).

إنَّ الإشكالية مع مكذبي النبوءة قديماً وحديثاً ليست في كون النبي محمدﷺ أميّاً، ولا في كونه عربيّاً أو أعجميّاً، ولا في كون القرآن عربيّاً أو غير عربي، الإشكالية معهم في مصدر القرآن الإلهي الذي لم يعترفوا بأنه من عند الله تعالى، فحاولوا طرح الشبهات المتناقضة التي تند عن تكذيبهم لنبوءة النبيﷺ وإلهية القرآن الذي هو دليل على صدق نبوءته، فالأشقياء يقولون: تعلمه من البشر، وأهل العلم والسعداء يعلمون إنه الحق الذي لا شك فيه، وإنه وحي من عند الله تعالى [1].

* ومما يؤكد أيضاً أمية النبي محمدﷺ اعتراف قومه بأنه استكتب قصص الأولين، وهذا يدل على أنه لم يكتب بل كُتِبَ له، ولم يقرأ بل أمليت عليه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥] فـ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ نعت أو حال لـ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ والاكتتاب: افتعال من الكتابة وصيغة الافتعال تدل على التكلف لحصول الفعل أي حصوله من فاعل الفعل؛ فيفيد قوله ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ تكلف أن يكتتبها، ومعنى هذا التكلف أن النبي ﷺ لما كان أميّاً سأل مَن يكتبها له أي ينقلها وفي قوله : ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ قرينة أخرى تؤكد أنه لو كتبها بنفسه لكان قرأها بنفسه، لكنها كانت تملى عليه والإملاء: هو الإملال، وهو إلقاء الكلام لمَن يكتب ألفاظه أو يرويها أو يحفظها، وتفريع الإملاء على الاكتتاب كان بالنظر إلى أن إملاء ها عليه كان ليقرأ ها أو ليحفظها، هذه شبهة أثارها النضر [2] حين كان النبيﷺ يقص عليهم قصص الأمم

---

(١) ينظر: أضواء البيان (١/ ٤٩٠).

(٢) النضر بن الحارث، كان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى، من أشد قريش تكذيباً للنبي ﷺ، أسره المقداد يوم بدر وأمر رسول اللهﷺ، بضرب عنقه، فقتله علي ابن أبي طالب صبراً بالأثيل. وهو القائل بأن ما يأتي به محمدﷺ أساطير الأولين. ينظر: الكامل ؛ لابن الأثير، (١/ ٢٦٣).

السـابقة، وهو يريد ترويج بهتانه؛ لأنه علم أن هذا الزور مكشـوف قد لا يُقبل عند الناس لعلمهم بأن النبي أمي، فكيف يســتمد قرآنه من كتب الأولين؟ فهيأ لقبول ذلك أنها كُتبت للنبي فاتخذها عنده، فهو يناولها لمَن يُحســن القراءة فيُملي عليه ما يقصه القرآن)[1].

* مما يدل على أمية النبي محمدﷺ ويؤكدها أن القرآن الكريم لم ينزل على النبيﷺ مكتوباً، بل نزل على النبي ﷺ قولاً بواسـطة جبريل، لا مكتوباً، أي أنه سـمعه لأن القول يُسـمع فيقرأه ﷺمن حفظه، ويرتله، ويتلوه على قومه، فالقرآن قول تلقاه النبيﷺ، قـال الله تعـالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل: ٥]، وقـال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[الحاقـة: ٤٠]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون: ٦٨]، وغيرها من الآيات، وهذا بخلاف التوراة التي أنزلها الله تعالى مكتوبة على موسـى عليه السـلام، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[الأعـراف: ١٤٥] وفي قـول النبي ﷺ :«فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَـى اصْـطَفَاكَ الله بِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ». وقال الآخر: « كَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ»[2]، وفي هذا دلالة على أن موسى عليه السلام كان يقرأ من الألواح.

ولقد كان النبي ﷺ يقرأ ما يوحى إليه من حفظه فيتلوه تلاوة، إذ القرآن مشـتق من القراءة، والقراءة ضـم الحروف والكلمات بعضـها إلى بعض في الترتيل[3]، وهي التلاوة، إشـارة إلى أنه من جنس الكلام الذي يُحفظ ويُتلى لا أنه يقرأ من كتـاب[4]، فمعنى قرأ في القرآن حيال خطاب الله تعالى للنبي ﷺ يكون بمعنى

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٥)، بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، (٢٦٥٢).

(٣) ينظر: مفردات غريب القرآن ص ٤٠٢.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٢٣٠).

التلاوة، بالقراءة من حفظه ومما سمعه، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[الإسراء: ١٠٦]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[النحل: ٩٨]، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[الإسراء: ٤٥]، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[العلق: ١]، ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾[العلق: ٣].

والتلاوة تختص باتباع كتب الله المُنزلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام، لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب، وهي أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة وليست كل قراءة تلاوة، لا يقال تلوت رقعتك وإنما يقال في القرآن في شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه[1]، فالتلاوة بمعنى القراءة، وبمعنى الاتباع، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[العنكبوت: ٤٥]، وقال: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾[الكهف: ٢٧]، فالتلاوة قرنت بما أوحي للنبيﷺ.

والترتيل أخص من التلاوة، وهو إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة[2]، و (ترتيل القرآن: قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات، حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً بالثغر المرتل: وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وألا يهذّه هذّاً، ولا يسرده سرداً)[3]، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[المزمل: ٤]، (وفائدة هذا أن يرسخ حفظه ويتلقاه السامعون فيعلق بحوافظهم، ويتدبر قارئه وسامعه معانيه كي لا يسبق لفظ اللسان عمل الفهم)[4]، فالنبي محمدﷺ كان يقرأ من حفظه كتاب الله تعالى مرة بعد أخرى، من غير مطالعة لكتاب، ولا مدارسة لأستاذ، في مجالس متعددة، وعلى أناس كثر، يقرأه من غير زيادة ولا نقصان ولا

---

(١) ينظر: المفردات ص ٧٥.

(٢) ينظر: المرجع السابق ص ١٨٧.

(٣) الكشاف (٤/ ٦٣٧)، وينظر: جامع البيان (٢٣/ ٦٨٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٠).

تغيير، على طول آيات القرآن، من غير تبديل لألفاظه ولا تغيير لكلماته، مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ، يتلو عليهم كتاب الله، فكان ذلك من آياته الدالة على صدق نبوءته، وأن ما جاء به وحي من عند الله[1]، وقد تلاحظ في الأحاديث التي كانت من إنشاء محمدﷺ أنها تختلف بعض عباراتها بحسب المقام الذي يكون فيه النبيﷺ، وبحسب الرواة عنه، لذا تعددت الروايات في ألفاظ الحديث الواحد، وهذه هي طبيعة الكلام البشري، فالقرآن يجب ألا تشوبه أو تتدخل فيه أي إضافة إنسانية[2].

ولقد «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ يُعْرَفُ مِنْهُ فَأَنْزَلَ الله الآيَةَ الَّتِي فِي ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٧]، قَالَ: عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٩]عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ، قَالَ: فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللهُ»[3]، وهذا النهي كما في قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾[طه: ١١٤]، والنهي عن العجلة في قراءة ما يسمعه لا القراءة من كتاب، فعادة مَن يقرأ من كتاب لا يعجل إذ الكتاب بين يديه يُمكنه النظر إليه مرة بعد أخرى، فلا يفوت عليه شيء، وما فاته أدركه، وهذا بخلاف مَن يستمع قد يفوت عليه شيء لذا حرص النبيﷺ على العجلة بقراءته، فنهاه الله تعالى، ووعده بأنه مُتكفل بتعليمه للقرآن وبيانه، ولقد تكفل الله بحفظ القرآن الكريم، قال تعالى:

---

(١) ينظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي؛ للأزهري ص ١٠٨، والتفسير الكبير (١٥/ ٢٣).

(٢) ينظر: محمد نبي هذا الزمان ص ١٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب ٤، (٥).

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩] وقال تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾[فصلت: ٤٢]، فلم يتبدل ولم يتغير على مر كل هذه العصور[1]، وهذا بخلاف التوراة فقد أوكل الله حفظها للأحبار والرهبان قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤]، لذا ضاع منها ما ضاع، بتحريف من اليهود، قال تعالى عنهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء: ٤٦]، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾[المائدة: ١٣].

كما ورد وصف النبيﷺ بالأمي في الأخبار الصحيحة، والتي تشير أيضاً إلى علم أهل الكتاب بوصف النبيﷺ بالأمي، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ[2] رَضِيَ الله عَنْهُمَا : «أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[الفتح: ٨] قَالَ: فِي التَّوْرَاةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَحِرْزًا[3] لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ[4] بِالْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا

---

(١) هناك مَن يحاول التشكيك في حفظ القرآن صراحة أو ضمناً، ينظر: المدخل للقرآن ؛ للجابري، ص ٢٢٢، وما بعدها، ومواقف ع ٥٩، ص٧، وتاريخ القرآن ؛ ثيور نولدكه، ص ٢٣، ونظم القرآن والكتاب ؛ يوسف الحداد ص ٤٣٥، وقد قال بهذا بعض الشيعة، ينظر: فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب؛ للطبرسي ص ٣٦٠.

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص صحابي جليل، كان اسمه قبل أن يسلم العاص فغيره النبيﷺ إلى عبد الله. ينظر: الإصابة في معرفة الصحابة ؛ لابن حجر، (٤/ ١٩٢).

(٣) حِرزاً: أي حافظاً، وحصناً. ينظر: تفسير غريب ما في الصحيحين؛ للحميدي، (١/ ٢٠٩).

(٤) سخّاب: بالصاد والسين، والصخب الصياح والضوضاء والجلبة، ينظر: تفسير غريب ما في الصحيحين (١/ ٢١٠).

وَقُلُوبًا غُلْفًا»[١]، وقول ابن صياد وهو من يهود المدينة [٢] للنبي ﷺ لما قال له: «تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ »[٣]، وقول الدجال لتميم الداري[٤] ـ وكان من النصارى ـ ومَن معه: «قَالَ أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ»[٥]، وقوله ﷺ : «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ،...»[٦]، وقوله ﷺ : «أنا محمد النبي الأمي، أنا محمد النبي الأمي ـــ ثلاثًا ـــ ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم، وجوامعه، وخواتمه، ...»[٧]، وقول عَلِيٍّ رضي الله عنه: «وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ، أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ»[٨]، وعندما بعث النبي ﷺ كتابه مع عمرو بن أمية الضمري[٩] إلى النجاشي، ثم قرأه عليه، قال

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق، (٢١٢٥)، وفي كتاب التفسير، سورة الفتح، باب ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الفتح: ٨] (٤٨٣٨).

(٢) ابن صياد: عبد الله وقيل صافي بن صياد أو صائد، من يهود المدينة، ينظر لخبر ابن صياد في: أشراط الساعة؛ د/ يوسف الوابل، ص ٢٨٤.

(٣) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب قصة الجساسة، (١١٩).

(٤) تميم بن أوس بن خارجة الداري، أبو رقية، كان نصرانيًا ثم أسلم، سنة تسع من الهجرة، صحابي، سكن المدينة ثم انتقل إلى الشام، توفي سنة أربعين من الهجرة. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب؛ لابن عبر البر، (١/ ٥٨).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، (١٣٥٤)، ومسلم في كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد، (٩٥).

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبيﷺ : « لا نكتب ولا نحسب» (١٩١٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال،(١٥).

(٧) رواه الإمام أحمد في مسنده، (٢/ ١٧٢، ٢١٢)، صححه أحمد شاكر بإسنادين، وحسنه في الثالث، (٦٦٠٦، ٦٦٠٧، ٦٩٨١).

(٨) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان، (١٣١).

(٩) عمرو بن أمية الضمري صحابي جليل، بعثه النبيﷺ إلى النجاشي في زواج أم حبيبة، ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر، (٤/ ٦٠٢).

النجاشي: (أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب)(١)، وقول الجُلندي ملك عمان: لقد دلني على هذا النبي الأمي، إنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يَغلب فلا يبطر، ويُغلب فلا يهجر، وأنه يفي بالعهد، وينجز الوعد، وأشهد أنه نبي(٢).

وقد جاء في سفر إشعياء: (يدفع الكتاب لمَن لا يعرف الكتابة، ويقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة)(٣)، ولو طالعنا الكتاب المقدس من أوله إلى آخره فلن نجد من الأنبياء من يقول إني أمي لا أقرأ ولا أكتب، وهذا بخلاف النبي محمدﷺ، فإنه يُخبر عن نفسه بأنه أمي، ومَن كتب عن سيرته من المسلمين وغير المسلمين يذكرون أنه أمي (٤).

فهذه الأدلة دلت على أنَّ محمداًﷺ أمي لا يقرأ من كتاب ولا يكتب بيديه، فهل هذا الوصف بقي ملازمًا له طيلة حياته؟!

* حين يُخبر محمد ﷺ الصادق الأمين عن نفسه بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، فهو يُخبر عن أمر مغيب، فمَن الذي أخبر محمداً بأنه سيبقى أميّاً طول حياته؟! ألا يمكن أن يقرأ ويكتب محمدﷺ فيرتفع عنه وصف الأمية؟! إنَّ هذا لم يحدث، لأن صفة الأمية بقيت ملازمة له طيلة حياته، فالصفة لا تطلق على الإنسان بما كان يتصف به في أول أمره، بل لا بد أن يتصف بها في حياته كلها، أو أغلبها، وذلك أن جميع الخلق يولدون أميين، فإذا قرأ وكتب أحدهم زال عنه وصف الأمي، فلا

---

(١) الروض الأنف؛ للسهيلي، (٣/ ٤٨٤)، وزاد المعاد (٣/ ٣٦٠)، ومحمد رسول الله ﷺ في الكتب المقدسة؛ سامي عامري، ص٣١٢ بتصرف.

(٢) ينظر لترجمة الجُلندي وقوله في: الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر (١/ ٥٨٣).

(٣) إشعياء ٢٩: ١٢. الصحيح أن يقال: لا أعرف القراءة، لأنه قال له: اقرأ! ولم يقل له: اكتب حتى يقول: لا أعرف الكتابة.

(٤) http://www.youtube.com/watch?v=٤vXWTzq٨٢٤Y

يطلق عليه أميٌّ إلا إذا استمر على أميته طيلة حياته[1]، لقد بقي وصف النبي ﷺ بالأمي خالداً باقياً في القرآن يقرأه الملايين عبر السنين، وهو تحقق لما أخبر عنه محمدﷺ بشأن أميته.

وبهذا يُعلم بأن النبي ﷺ لم يقرأ ولم يكتب البتة طوال حياته، ولا يمكن القول بأن أداة الكتابة كانت له وافرة مُجتمعة كاملة، وأن الله صرف تلك القوى عنه إلى ما هو أزكى بالنبوءة[2]، ولا القول: بأن محمداًﷺ كتب وقرأ بعد البعثة[3]، ولا عبرة بهذا القول لأن الثابت هو عدم كتابة النبيﷺ طيلة حياته، سواء قبل البعثة وبعدها، بل وبعدها آكد في إثبات دلالة صدق نبوءته ﷺ، والأدلة يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً، أو أن تتناقض، والذي يؤيد أمية النبيﷺ طيلة حياته حتى مماته قول الله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾[الأعلى: ٦] فـ (السين علامة على استقبال مدخولها، وهي تفيد تأكيد حصول الفعل وخاصة إذا اقترنت بفعل حاصل في وقت التكلم فإنها تقتضي أنه يستمر ويتجدد وذلك تأكيد لحصوله وإذ قد كان قوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ إقراء، فالسين دالة على أن الإقراء يستمر ويتجدد)[4] فالله تعالى يُبين أنه سَيُقْرِئ نبيه محمداًﷺ، (فقد بشره الله بإعطاء آية بينة، وهي: أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه)[5].

---

(١) ينظر: أمية النبي المصطفى ﷺ؛ د/ خليل خاطر، ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) ينظر: البيان والتبيين؛ للجاحظ (٤/ ٣٢ ـ ٣٤).

(٣) كالسمناني وأبي ذر الهروي، وأبي الفتح النيسابوري، وأبي الوليد الباجي، ينظر: تفسير القرطبي (١٣/ ٣٥٢)، وكتاب تحقيق المذهب؛ لأبي الوليد الباجي ص ١٢٢.

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٠).

(٥) الكشاف (٧/ ٢٧٦)، وينظر: محمد نبي هذا الزمان: كارين ص ١٣٦.

* ومما يؤكد أنَّ النبي ﷺ لم يكتب طيلة حياته اتخاذه كُتاباً يكتبون له الرسائل إلى الملوك، وكتاباً للوحي يكتبون له[1]، ولو كان يكتب لاكتفى هو بالكتابة، ولم يتخذ كُتاباً له، ويدل على هذا حادثة صلح الحديبية، حين «جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَالله مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَالله لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ﷺ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَالله لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَالله إِنِّي لَرَسُولُ الله، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله»[2]، وفي رواية أخرى حددت الكاتب بأنه علي بن أبي طالب، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَعْتَمِرَ، أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَسْتَأْذِنُهُمْ لِيَدْخُلَ مَكَّةَ، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُقِيمَ بِهَا إِلَّا ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ[3]، وَلَا يَدْعُوَ مِنْهُمْ أَحَدًا، قَالَ: فَأَخَذَ يَكْتُبُ الشَّرْطَ بَيْنَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَكَتَبَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، فَقَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ الله لَمْ نَمْنَعْكَ وَلَبَايَعْنَاكَ، وَلكِنِ اكْتُبْ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، فَقَالَ: أَنَا وَالله مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، وَأَنَا وَالله رَسُولُ الله، قَالَ: وَكَانَ لَا يَكْتُبُ، قَالَ: فَقَالَ لِعَلِيٍّ : امْحَ رَسُولَ الله، فَقَالَ عَلِيٌّ : وَالله لَا أَمْحَاهُ أَبَدًا، قَالَ:

---

(١) ينظر: كتّاب النبي ﷺ؛ د/ محمد مصطفى الأعظمي، ومجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة: محمد حميد الله ص أ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، (٢٧٣١).

(٣) جُلُبّان السلاح أي جراب يضع فيه الرَّاكب سيفه مَغْموداً وسَوْطَه وأداته وينُوطه وَرَاء رَحْله، واشترطوا ذلك ليكون علماً للسلم، ينظر: الفائق في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٢٩).

فَأَرِنِيهِ، قَالَ: فَأَرَاهُ إِيَّاهُ، فَمَحَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى ﷺ بِيَدِهِ»[1]، فلو أن النبي ﷺ يكتب بيده لتولى كتابة العقد بنفسه، ولكنه اتخذ كاتباً، وحينما امتنع علي رضي الله عنه عن محو رسول الله، طلب النبي ﷺ أن يريه مكانها فمحاها، ولو أنه يقرأ من كتاب لعلم مكانها.

* ولو لم يكن محمد ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب لتسرب الريب إلى ما يُخبر به من غيب، أو ما يذكره من تشريع، أو يتحدى به، بأنه استقاه مما قرأه من كتب، أو ما كتبه ممَن تعلمه، ولصار مُتهماً بأنه طالع كتب الأولين فحصل هذه العلوم، فلما أتى بكل هذا من غير تعلم ولا مطالعة طوال حياته، كان دليلاً على صدق نبوءته، وهو يُخبر قومه بأنه لم يقرأ ولم يكتب وهم يعرفون هذا تمام المعرفة لكنه تأكيد لهذه الحقيقة حتى لا يقع فيها أدنى شك، ولو كان يقرأ ويكتب لازداد المُبطلون لنبوءته شكّاً، لكنه لم يقرأ من كتاب ولم يكتب، ولم يتلقَّ شيئاً من أهل الكتاب قبل النبوءة وبعدها، لقطع أي شبهة تحاول التشكيك في مصدر القرآن الإلهي، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت: ٤٨].

ووصف النبي ﷺ بالأمي ليس هو في حد ذاته دليلاً على صدق نبوءته، وليس هو ذمّاً، ولا نقصاً فهو حُجة وبرهان، لم يتطلع إليها قبله ذوو شأن، بل هي محض الامتنان من الكريم الرحمن، عليه وعلى قومه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة: ٢] فجمع في هذه الآية بين أميته وما جاءهم به من كتاب ووحي يتلوه عليهم آناء الليل وأطراف النهار، مما لم يعلمه من قبل، فيه أحكام وأخبار لا يتأتى لبشر أن يحيط بها، فضلاً عن رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب المصالحة على ثلاثة أيام أو وقت معلوم، (٣١٨٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، (١٧٨٣).

كمحمد ﷺ، فدل ذلك دلالة صريحة على أنَّ وصف الأمية مع ما جاء به هو دليل على صدق نبوءته.

وبهذا تبين أن ليس في وصف النبي بالأمي فحسب دليل على صدق نبوءته، لأنه قد يدعي رجل أنه نبي، ودليل نبوءته أنه أمي، فليس في هذا دليل على صدق نبوءته لأنه قد يقول آخرون من الناس نحن كذلك أميون، ولسنا أنبياء فهي دليل على كذبك، وهو أمي قد بعث في أمة أمية فلو اعتمدنا على أميته فحسب، لما دلت على صدقه، إذ لا مزية بينهم، لكن لما أضيف إلى أميته ما جاء به من حق دل على صدقه، لأن الذين بعث إليهم غالبهم أميون، وعظماؤهم كانوا كذلك، فكونه أميًّا لا يقرأ ولا يكتب مع ما جاء به من وحي لا يؤدي إلى انتقاصه، بل فيه مزية عليهم بأن أتاهم بكل هذه الأخبار والعلوم ولم يتأتَّ لأحد منهم أن يأتِيَ بمثلها[1]، ولو قدر أن جاء رجل متعلم بهذا الكتاب لكان ذلك آية من الآيات، فكيف إذا جاء به رجل أمي[2]؟!

وها هو النبي الأمي محمدﷺ يأتي بكتاب فيه من الأخبار ما يُحير العقول للأميين الذين لا كتاب لهم، فبدلاً من أن يصدقوا به، كذبوا به، وقد كانوا يتذرعون بأن لا كتاب لهم كما لأهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ۝ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥٥ -١٥٧].

(١) ينظر: رسالة تحقيق المذهب ص ١٨٧ ـ ١٨٨، ونهاية الإقدام ص ٤٥٠.
(٢) ينظر: الدين والدولة؛ لعلي بن رين الطبري ٩٨ـ ١٠٧.

لقد فتح الله لمحمد ﷺ باب العلم والتحقيق وأظهر عليه هذا القرآن المشتمل على علوم الأولين والآخرين، وأحكام الدين، فكان ظهور هذه العلوم العظيمة عليه مع أنه كان رجلاً أميّاً لم يلقَ أستاذاً ولم يطالع كتاباً من أعظم الآيات[1].

لقد تبين مما سبق أن الأدلة التي برهنت على أمية النبي ﷺ بأنه لا يقرأ من كتاب ولا يكتب بيديه، هي أدلة قطعية الدلالة، فهي يقينية، كما تبين وجه دلالة أمية النبي ﷺ على صدق نبوءته.

وهناك مَن ينفِي الأمية عن النبي ﷺ بناء على تحرير معنى الأمي فهناك مَن يرى أن معنى الأمي الجاهل، فالجاهل لا يقرأ ولا يكتب، فنفوا عنه الأمية، فمعاذ الله أن يوصف نبي الله بالجهل، وكيف لا يقرأ ولا يكتب وهو الذي علم أمته، فليس هناك مزية في وصف النبي ﷺ بالأمي، واستند بعض أصحاب هذا القول إلى الروايات الواردة في كتب الحديث والسير والتي استنبطوا منها أن النبي ﷺ قرأ وكتب فلم يكن أميّاً، وبعضهم استند إلى رواية أهل البيت في لعن مَن قال بأن النبي ﷺ أمي، وبعضهم استند إلى أن شيوع التجارة بمكة أدى إلى انتشار القراءة والكتابة فيها.

وتأولوا وصف الأمي بأنه ليس من أهل الكتاب، أو أنه نسبة إلى أم القرى[2].

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (١٥/ ٢٣)، وينظر كذلك: إعجاز القرآن؛ للباقلاني ص ٣٤-٣٥.

(٢) ينظر: علل الشرائع؛ للصدوق، ص ٢٢٦، وبصائر الدرجات؛ الصفار،، باب ٤ في أن رسول الله كان يقرأ ويكتب بكل لسان، والطبرسي في تفسيره (٨/ ٢٨٧-٢٨٨)، من الشيعة من تبنى القول بنفي الأمية عن النبي ﷺ والقول بأن النبي ﷺ كان يقرأ ويكتب بسبعين لغة، وكان يخفي السبعين لغة عن قومه http://www.youtube.com/watch?v=tMCOYAMcz٢g&noredirect=١، ومدخل للقرآن؛ محمد عابد الجابري، ٨٢، ٨٤، ٩٣، ٢١٤، ومقال بعنوان النبي الأميّ ...هل يقرأ ويكتب؟، جريدة الاتحاد الإماراتية، بتاريخ ٢/ ٤/ ٢٠٠٦م، والنبي الأمي والأمة الأمية، جريدة الاتحاد الإماراتية، بتاريخ ٩/ ٤/ ٢٠٠٦م، والكتاب والقرآن قراءة معاصرة؛ د/ محمد شحرور، ص ١٤١، والإسلام منهج حياة؛ فيليب حتي، ص ٢١، و صاموئيل زويمر في مجلّته الشهيرة العالم الإسلامي، مقال بعنوان النبي الأمي، هل كان محمد قادرًا على القراءة والكتابة؟ The 'Illiterate' Prophet, Could Mohammed Read and

وهذا القول مردود بما تم تقريره سابقًا بالأدلة القطعية واليقينية، فلا يمكن أن نترك الأدلة اليقينية القطعية التي برهنت على أمية النبيﷺ لكي نقول بعدم أميته بناءً على أدلة ظنية محتملة.

وليست دلالة الأمية على صدق نبوءة النبيﷺ هي الدلالة الوحيدة بل ثمة دلالات أخر دلت على صدق نبوءة النبيﷺ، كما أنّ دلالتها مركبة من كونه أميًا ويأتي بشرع كامل.

* * * * *

= Write? عام ١٩٢١م، ومقال بعنوان؛ هل النبيﷺ كان يقرأ ويكتب؟ : د/ أحمد صبحي منصور، مجلة روز اليوسف، ٢١/ ١٠/ ١٩٩٦م، ع (٣٥٦٧)، http://www.arabchurch.com/forums/showthread.php?t=١٣٧٤٨ ، وخرافية أمية سيد ولد عدنان ؛ محمد وجدي، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?t=٠&aid=٧٣٩٣٩، والنبي الأمي آراء ومناقشات ؛ عبد الكريم الحائري، http://www.tebyan.net/index.aspx?pid=١٠٢٨٣٩، وهل كان النبي ﷺ أميًا بالفعل؟ http://www.alriyadh.com/٢٠٠٧/٠٧/٢٣/article٢٦٧٤٦٥.html، ونبوة محمد في الفكر الاستشراقي؛ د/ لخضر شايب، ص ٣٩٠ وما بعدها، ونظم القرآن والكتاب ؛ يوسف الحداد، ص ٥٤٤، وهذا القول ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين كما تذكر كارين في محمد نبي هذا الزمان ص ١٣٥ـ١٣٦.

الفصل الرابع

دلالة الكمال التشريعي لرسالة النبي ﷺ على نبوءته

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مضمون الرسالة والعقل والفطرة

المبحث الثاني: بين مضمون رسالة النبي ﷺ والأنبياء السابقين

المبحث الثالث: مضمون الرسالة والحقائق الكونية والعلمية

المبحث الأول

مضمون الرسالة والعقل والفطرة

هل مضمون الرسالة والشريعة والأحكام التي جاء بها النبيﷺ يخالف العقل والفطرة؟!

لنا أنْ نتأمل الشريعة التي بلغها النبيﷺ فلقد جاءت كاملة لتخاطب الإنسان لصلاح حاله وفلاح مآله، فإذا كان كل ما في الكون مسخراً للإنسان، فما الظن بالمنظومة الشرعية؟!

ويمكن أن أجلي هذا في الأمرين التاليين:

الأمر الأول: فطرية التدين.

لقد خلق الله الخلق وأكرمهم ونعمهم، وأودع في فطرهم حب التدين للإله الذي خلقهم، فالتدين فطرة إنسانية[1]، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠]، ففي هذه الآية تصريح بأن الله تعالى خلق الناس سالمة عقولهم مما ينافي الفطرة[2]، ومن مقتضيات هذه الفطرة توحيد الله تعالى، ويتبين هذا جليّاً من حديث النبيﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»[3].

وتتبين فطرية التدين من الحاجة المُلحة والضرورية التي يجدها الإنسان في نفسه لإله يكون معه في الشدة والرخاء، فيلجأ مباشرة له كي يُنجيه، وينسى ما كان يعبد من دونه، لأنه يريد النجاة ولا منجي إلا الله وحده، وفي لجوء العبد لله والاستغاثة به دليل على فطرية عبادة الله وحده، يتبين هذا جليّاً في الآيات

---

(١) ينظر: الدين: د/ محمد دراز، ص ٧٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢١/ ٩٠)، والمعرفة في الإسلام ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، (١٣٨٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب مَعْنَى كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَحُكْمِ مَوْتِ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وَأَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ، (٢٦٥٨).

البينات التي يصف الله فيها حال الكفار، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] حيث (بيّن جل وعلا في هذه الآيات الكريمة: أن الكفار إذا مسهم الضر في البحر: أي اشتدت عليهم الريح فغشيتهم أمواج البحر كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله جل وعلا، فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله جل وعلا وحده، لعلمهم أنه لا يُنقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده جل وعلا)[1].

الأمر الثاني: فطرية التحسين والتقبيح.

لقد ميَّز الله الإنسان بالعقل الذي يجعله يُميز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، إذ جنس هذه الأمور يُعرف بالعقل، وهي من مقتضيات الفطرة، فالإنسان مفطور على محبة الكمال وكراهية النقص، وهذا مما اتفق عليه بنو آدم، فسُمِّيَ جنْس الخير والحق والصدق معروفًا لأنه حسنٌ لذاته، ولملاءمته للفطرة، وسُمِّيَ جِنْسُ الشر والباطل والكذب منكرًا لأنه قبيحٌ لذاته، ولمنافرته للفطرة[2].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٧٢).

(٢) ينظر: شرح العقيدة الأصفهانية ص ٥٧٢.

وتتميز هذه المعرفة بأنها كليةٌ قبليةٌ، حيث يمكن إدراك ما جاء به النبي من حُسنٍ وقبحٍ قبل إخباره به، بحيث يكون ما جاء به النبي ﷺ مطابقًا لمقتضى الفطرة، والضرورة العقلية، ومُحال أن يأتي النبي ﷺ بما يناقضها، وبهذا لا يكون بين ما جاء به النبي ﷺ وما تقتضيه الفطرة والعقل تعارض[1]، لأن الله هو الذي خلق الخلق وجبلهم على محبة الكمال، وكراهية النقص، وهو الذي شرع الشرع، وهو الذي بعث الأنبياء، وهو الذي أنزل الكتب، إذ طبيعة الحقائق الدينية التي دعا إليها الأنبياء مفهومة معلومة.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن فطرية المعرفة كلية مجملة، فلا تستطيع أنْ تأتي بالتفاصيل الدقيقة لأن هذه المعرفة غير يقينية، لمحدوديتها البشرية من جهة، ولجهلها بتفاصيل كثير من الأمور ككيفية العبادة، وكمّها وزمنها، والجزاء المُترتب عليها، وإدراك مقاصدها، والحكمة من مشروعيتها،... إلخ، فلا يمكن أن تستقل بمعرفة الطريقة الصحيحة[2]، كما لا يمكن الاكتفاء بها والاستغناء عما جاء به النبي ﷺ فهذا من أفسد ما يمكن تصوره من الباطل [3]، فالقدح في نبوءة الأنبياء هو قدح في العقل ودلالته، لأن الأدلة العقلية توجب الإقرار بالنبوءة وبما جاء به الأنبياء [4]، فـ (لولا الرسالة لم يهتدِ العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده، وأشرف منة عليهم أن أرسل

---

(١) ينظر: المعرفة في الإسلام ؛ د/ عبد الله القرني ص ٢٧٩، وموقف العقل والعلم من رب العالمين: مصطفى صبري، (٤/ ١٦٧)، وهذا يرد قول ديكارت: بأن الحقائق الدينية بطبيعتها غير مفهومة، لذا يجب أن تكون بعيدة عن متناول العقل.

(٢) ينظر: المغني: للقاضي عبد الجبار، (١٥/ ٢٧ ـــ ٢٨)، وشرح الأصول الخمسة له أيضًا، ص ٥٦٥، والمواقف: للإيجي ص ٣٤٥، وتبصرة الأدلة للنسفي (١/ ٤٥٧، ٤٦٠).

(٣) ابن الراوندي وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي ممَن ذهب إلى الاكتفاء والاستغناء بالعقل عن بعثة النبي، ينظر: رسائل فلسفية ؛ لأبي بكر الرازي ص ١٨، وغاية المرام في علم الكلام ؛ للآمدي ص ٣٢٠.

(٤) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (١ / ١٠٢).

إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشر حالاً منهم)[1]،و (لا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم) [2].

ذلك أن مطابقة الفطرة لما جاء به النبي ﷺ داعية إلى تصديق النبيﷺ لا الاستغناء عنه، فمعرفة الفطر والعقول كلية، تحتاج من يبين لها هذه التفاصيل، ليسلك بها الصراط المستقيم، وهذه هي مهمة الأنبياء أن يبينوا الطريق إلى عبادة الله تعالى حتى تهتدي به البشرية، وقد تبينت هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الأعراف: ٤٣] فدلت الآية على مهمة الأنبياء، فهم الذين مكّنوهم من معرفة الله ومعرفة أحكامه ومرضاته فأوصلوهم إلى نعيم الجنة[3].

فالعاقل يدرك أن ما أمر به الأنبياء فهو حسنٌ لذاته، وما نهوا عنه فهو قبيحٌ لذاته، وهذا يتلاءم مع فطرته السوية، ليعلم أنَّ ما جاء به الأنبياء حقٌّ، لذا اهتدى الذين آمنوا بما جاء به الأنبياء فانتفعوا في دنياهم وآخرتهم، ولم يهتدِ الذين كذبوا بما جاء به الأنبياء، ذلك أنهم لا يعقلون، فهم لم يميزوا بين قبيحٍ تنفر منه فطرهم، وحسنٍ تتلاءم معه فطرهم، ولم يستمعوا إلى نداء الفطرة المُلح بداخلهم، واستجابوا للتقليد الأعمى ومُحاكاة الأسلاف التي لا تنبني على دليل، وهذا لا يفعله عاقل، وقد بين الله تعالى في كتابه أنَّ الكفَّار لا يعقلون قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ۝١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٠٠)؛ وينظر: الصواعق المرسلة (١/ ١٥٠ـ١٥١).
(٢) ينظر: زاد المعاد: لابن القيم (١/ ٦٨).
(٣) ينظر: النبوة والأنبياء في القرآن: لأبي الحسن الندوي، ص ٢٠.

﴿دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[البقرة: ١٧٠ – ١٧١]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[المائدة: ١٠٣]، وفي آيات أخرى وصفهم الله تعالى بالأنعام، والأنعام لا تعقل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٌ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٌ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٌ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، بل إنَّ الكفار يعترفون بأنهم لا يعقلون، كما في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الملك:٨ ـــ ١١] (فهؤلاء الكفار نفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الأنبياء، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل)[1].

و مما هو مُلاحظٌ أنَّ المكذبين بنبوءة محمد ﷺ لم يكذبوا بما جاء به النبي ﷺ لمخالفته للعقل، أو عدم موافقته للفطر، فإنَّ شيئاً من هذا لم يُذكر عنهم البتة، وهم حريصون أشد الحرص على إبطال نبوءة محمد ﷺ بأي طريقة كانت، بل إنَّ سبب تكذيبهم كان ناشئاً عن معارضة ما جاء به محمد ﷺ لعادات وتقاليد ما عليه الآباء والأسلاف، قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٢١]، وفي قوله تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[الزخرف: ٢٢ ـــ ٢٤]، وفي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧٥.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠] فغيبوا عقولهم عن النظر فيما جاء به النبي ﷺ لإرث التبعية المقيتة، وكان الأحرى بهم أنْ يتدَّبروا بعقولهم ما جاء به النبي ﷺ، ويتفكروا في حال النبي ﷺ ليعلموا صدق نبوءته، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨ ــــ ٦٩]، لذا جاء القرآن الكريم منبهـاً على إيقاظ العقول من سبات الغفلة والتبعية، فدعا إلى التفكر والتعقل والتدبر لما جاء به النبي ﷺ لأنه لا يخالف العقل، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩]، فمما يُعرف بالعقل ولا يتناقض معه البتة، توحيد الله تعالى بالعبادة، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[إبراهيم: ٥٢]، ففي هذه الآية يبيِّن الله تعالى أنَّ من حِكَم إنزال القرآن العظيم العلم بأنه تعالى إله واحد يستحق العبادة وحده، وهذا يدركه أصحاب العقول، الذين لا يحتكمون لإرث التقاليد.

ومما لا يتعارض مع العقل أيضـاً عدم التسوية بين المُختلفين، ومن ذلك عدم التسوية في الجزاء بين المؤمن والكافر، وهذا ما يخبر به النبي محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾[القلم: ٣٥]، وهذا (من عدله وحكمته، لا يساوي بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] أي: لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يُثاب فيها هذا المطيع ويُعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المُطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا.

وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة)[1].

ومما يُعرف بالعقل أيضاً أن القرآن الكريم لم يكن إلا من عند الله تعالى، لأنه لو كان من عند غير الله تعالى لكان فيه اختلافٌ كبيرٌ، وهذا يُدركه كل عاقل متدبر للقرآن الكريم حيث شمولية القرآن وكماله، ومخاطبته للعقل، وإثارته للفطر، وتذكيره للنفوس، حيث يتبين فيه المنهج الذي يرسم معالم حياة الإنسان من المبدأ إلى المنتهى، ويُبين الجزاء والمصير، ويبين حال السلم والحرب، بل إنه يُبين خلجات النفوس البشرية، ويُبين الأمور الشرعية، يذكر قصص مَن سبق، يوازي بين المطالب الروحية والمادية بحيث لا يطغى جانب على آخر، كل هذا وغيره نجده في القرآن الكريم، ومَن يتصفح كتب العالم برمته لا يجد فيها شيئاً من هذا التكامل، والخلو من التناقض، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢].

ففي هذه الآية وغيرها تنبيه للعقول وإثارة لها للتدبر والتفكر لتدرك أنَّ ما جاء به النبيﷺ لا يخالف العقل الصحيح ولا الفطرة السوية، فلا يمكن أن يتعارض النقل مع العقل، لأنَّ النقل مُوجه إلى العقل، ولأن الله الذي أنزل النقل وأرسل النبي ليبلغه هو الذي خلق العقل وجبل الفطر، فليس هناك ثمة تناقض فيما جاء به النبي ﷺ[2].

ولو أمعنا النظر في مضمون الرسالة التي دعا إليها النبيﷺ لوجدنا أنه يدعو إلى عبادة الله وحده، وينهى عن الشرك، ويأمر بمكارم الأخلاق، وهذا أحد الأدلة التي استدل بها هرقل على صدق نبوءة النبي ﷺ، حين كان يسأل، وأبو سفيان

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٦٣).

(٢) هناك من حصر دلالة صدق نبوءة النبي ﷺ في سلامة رسالته من التناقض، كثمامة بن الأشرس، ينظر: أصول الدين: للبغدادي، ص ١٧٦.

رضـي الله عنه كان يجيبه ـوقبل أن يُسـلمـ، ثم بيّن هرقل سـبب سـؤاله، فكان مما سـأل: «... مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا الله وَحْدَهُ، وَلَا تُشْـرِكُوا بِهِ شَـيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ...، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا الله، وَلَا تُشْـرِكُوا بِهِ شَـيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ،... ».

ومَن يتأمل محور دعوة الأنبياء والأصول التي دعوا إليها صلوات الله و سلامه عليهم يجد أنها من مقتضيات العقل والفطرة[1]، فلا يمكن أن تتطور هذه الأصول بتطور العقل البشري[2]، فالعقل البشـري مهما تطور لا يستطيع الوصول بمفرده إلى إدراك كل مطلوب لأن له حدّاً ينتهي إليه، ولا يمكن أن يتعداه[3]، إضـافة إلى الحاجة الإنسـانية للدين فهي ذات جذور عميقة لا يمكن التغاضـي عنها أو إقصاؤها إلى الهوامش والحواشـي، مهما تكن العقلانية، ومهما يكن مسـتوى التقدم الذي وصلت إليه المجتمعات[4].

فالسُّـنن الفطرية لا يمكن أن تتغير ولا أن تتبدل قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠]، وقد تتغير السـنن الكونية إن أذن الله تعالى لها، كقلب عصـا موسـى عليه السـلام حية تسـعى، وجعل النار على إبراهيم عليه السلام برداً وسلاماً.

---

(١) سيأتي مزيد بيان في المبحث الثاني: مضمون رسالة النبي ﷺ والأنبياء السابقين.

(٢) هناك مَن يزعم تطور الدين بتطور العقل البشـري، ينظر: بين الأصـالة والتغريب في الاتجاهات العلمانية: حسين سعد، ص ٦٢.

(٣) ينظر: الاعتصام: للشاطبي (٣/ ٢٨٢)؛ (٢/ ٧٢).

(٤) ينظر: سيرة محمد ص ١٥.

فإنَّ ما دعا إليه النبي ﷺ لا يخالف الفطر السليمة، ولا العقول السوية، لأن العقل ليس لديه وسائل لإنكار وجود ما جاء به النبيﷺ، وليس فيه ما يضر الإنسان[1]، وهذه هي حقيقة دعوة الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم جميعًا، يأتون بتذكير الفطرة بما هو معلوم لها، وتقويته وإمداده ونفي المُغير لها، فالأنبياء بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغيير ها وتحويلها، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة[2].

ويتبين وجه هذه الدلالة من مقامين:

المقام الأول: مقام سلبي، وهو أنه لا يمكن للبشر مهما اجتمعوا أن يأتوا من عند أنفسهم بدين كامل لا يقع فيه أي تناقض، أو مخالفة لعقل وفطرة، مُحال أن يأتوا بمثل هذا الدين ولا بقريب منه، ولم يحصل ولن يحصل هذا أبداً؛ لأسباب عديدة، منها:

- عقول الناس متفاوتة في التحصيل والإدراك إذ هم ليسوا سواء لا من جهة الكمّ ولا من جهة الكيف، و هذا معلوم بالضرورة العقلية، فالناس لا يفصل بينهم إلا كتاب مُنزل، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٣].
- عجز النماذج البشرية عن تقديم تفسير للظاهرة الإنسانية، ولا يمكن تفسيرها إلا باللجوء لنموذج غير بشري، بل إنَّ جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان مازال غير كافٍ، فمعرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب[3].

---

(١) ينظر: الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها: للمودودي، ص ٣٥.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٤٨).

(٣) ينظر: الإنسان ذاك المجهول: أليس كاريل ص ١٩.

- تغليب جانب الهوى على العقل البشري في مناحي الحياة، وهذا معلوم بضرورة الواقع المعيش، فالقوانين البشرية أخفقت في الوصول إلى معيار ما متفق عليه بين البشرية جمعاء، بل إنَّ منظومة الحداثة الغربية لم تعد قادرة على إدارة المجتمعات الإنسانية، وكل ما فعلته هو تحويل العالم إلى حلبة صراع بين الحضارات والمجتمعات، وستودي بالبشرية جمعاء[1]، وأوضح مثال لهذا القوانين المالية في الشيوعية والرأسمالية في صراع لا ينتهي، والعلاقة بين المرأة والرجل في الفلسفة النسوية علاقة انتهت إلى صراع دائم قائمة رحاه بين الذكر والأنثى[2]، وهي نتيجة نظرة دونية ناجمة عن دوافع نفسية تنحي الدين وتتملص من الحقائق العلمية[3]، والعلاقة بهذا الشكل لن تصل لحل أبداً، بل إن الهوة مازالت تتسع، لا لشيء إلا للجهل الذي يحوط القوانين البشرية بإدراك غايات ومقاصد الشريعة للأحكام المُطلقة، إضافة إلى إهمال حاجات النفس والروح والعقل الفطرية لهذا وقع التناقض الصارخ في الأدبيات الغربية. في حين تنظر الشريعة الربانية للعلاقة بين الرجل والمرأة على أنها علاقة تكامل، لكل دوره المنوط به، بحيث لا يمكن أن يحل أحدهما مكان الآخر، فهي تراعي حاجات النفس ومتطلباتها الفطرية.

والاستجابة للهوى هي مخالفة لمقصود الشريعة الإسلامية التي جاءت لإخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً[4].

---

(١) ينظر: الثقافة والمنهج: المسيري (١/ ٥١).
(٢) ينظر للمراجع التي اهتمت بهذه المسألة: قضية المرأة والتمركز حول الأنثى: د/ عبد الوهاب المسيري، والأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي د/ خديجة العزيزي، والفلسفة والنسوية: إشراف وتحرير: د/ علي عبود المحمداوي.
(٣) ينظر: المخ ذكر أم أنثى ؟! ص ٢٥٦.
(٤) ينظر: الاعتصام (٣/ ٣٠٨).

- عدم تحقيق العدل، فتغليب جانب الهوى في أحكام الناس وتشريعاتهم وسن قوانينهم، ذلك أن القوانين البشرية تحكم فيما يصُب في مصالحها وحدها دون أن تحقق العدل وتتحرى الحق للجميع، فهي لا تتسع للكل بل للبعض، فيتفشى فيها الحيف والجور والظلم بشكل أو بآخر، لذا كان لا بد من مرجع يؤولون إليه، يكون خارجاً عنهم، يحيط بهم.
- عقول الناس قاصرة عن تصور غايات التشريع وحكمه وعواقبه، وعدم الإحاطة بالتكليف الشرعي وما يُحبه الله ويرضاه، وترك ما يكرهه ويأباه، وما يترتب على العبادة من الثواب والعقاب في الحال والمآل[1]، وهذا لا يمكن أن يكون في القوانين البشرية مطلقاً، وإن أمكن العقل الاستدلال على الحسن والقبيح إلا أن التكليف الشرعي وما يترتب عليه لا يقع إلا من جهة الوحي، وهو موجود في الأحكام الإلهية التي وردت في القرآن وأخبر بها النبي محمد ﷺ[2].
- العقول البشرية لا تستطيع تفسير كل شيء لأبعاده وأعماقه، لهذا ترد الأمر غالباً إلى الله لتدرك حجمها وحاجتها.

أما المقام الثاني: فهو مقام الإيجاب، وهو أن الدين الذي جاء به الأنبياء صلوات ربي و سلامه عليهم، خاصة الشريعة التي جاء بها النبي الخاتم محمدﷺ هي التي كفت وشفت، ونفعت الناس في أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، لأنهم في

---

(١) ينظر: المغني (١٥/ ٢٧)؛ والنبوات (١/ ٢٣).

(٢) قد اعترف بهذا عالم القانون جورج هوايت كروس باتون من أن (السبيل الوحيد للوصول إلى معايير متفق عليها للقانون هو الاعتراف بالوحي السماوي قانونـاً) وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية؛ وحيد الدين خان ص ٣٠٥؛ ولقد أدرك كانت ضرورة الناس لدستور عادل، لكنه أخطأ في أن يكون هذا الدستور من وضع البشر مع اعترافه بأنهم لن يضعوا دستوراً عادلاً. ينظر: التاريخ العام ؛ كانط. ص ٢٨٧ ضمن كتاب النقد التاريخي.

أمسّ الحاجة إليها، وهي موافقة للفطرة والعقل، وبين مسائلها توافق لا تناقض فيه أبداً، يدركه كل عاقل ليقر بأنها من لدن عليم حكيم، وأن النبيﷺ أخبر بها.

كما أنَّ خلو مضـــمون الرســالة التي جاء بها الأنبياء عمومـًا، والنبي محمدﷺ خصــوصـــًا من التناقض في ذاتها، وعدم مخالفتها للعقل والفطرة هو دليل على صدق نبوءة النبي ﷺ، فالعاقل له أن ينظر في شخص النبيﷺ الذي أتى بأخبار هذه الشريعة، فإن كان صادقـًا عاقلاً كاملاً في أخلاقه، معروفـًا عند أهل زمانه بالصدق، مُنتفيـًا عنه الكذب، فمُحال أنْ يأتي بالأخبار التي فيها تناقض، أو تخالف العقل والفطرة، وإنْ كان معروفـًا بالكذب تارة وعدم العقل أخرى، جاز القول بأن ما يُخبر به متناقض مُخالف للعقل والفطرة، إذ العقل يحيل أن يأتي بمثل هذا الدين الكامل كاذب، لأنه يحمل من الهوى والظلم ما لا يمكن أن يتوافق هواه مع هذا الدين[1]، وقد سـبق وأن بسـطت الحديث عن هذا في دلالة كمال أخلاق النبي ﷺ على صــدق نبوءته [2]، كما أنَّ النبي ﷺ هو أول مَن يمتثل للشــريعة التي جاء بها وهذا دلالة على صدق نبوءته[3].

فالله تعالى هو خالق الخلق، وهو عالم بما يصلح لمعاشهم ومعادهم لذا شرع فأمر ونهى فأحكم وأتم، وأرســل هذا النبي وأوحى إليه هذا الدين ليبلغه للناس كافة، فمُحال أن يأتي النبي بشيء من عنده ويأمر به الناس كافة لأنه محدود القدرة، إذ من أين يتـأتى لـه معرفـة مـا يصــلح لجميع البشــر؟! فلا يخـالف كـل الفطر والعقول؟! فهذا ليس بمقدور البشــر البتة فضــلاً عن هذا النبي الأمي، وبذا يُعلم قطعـًا أن محمداًﷺ ما هو إلا نبي مبلغ عن ربه لهذا الدين، فما جاء به لا يخالف

---

(١) ينظر: أعلام النبوة: لأبي حاتم الرازي، ص ٦٧.

(٢) يراجع: الفصل الثاني من هذا البحث: دلالة الأخلاق على نبوءة النبي ﷺ.

(٣) ينظر: كتاب الأبطال: توماس كارليل، ص ٧٩، وشـبهات وهمية حول الكتاب المقدس: القس منيس عبد النور، ص ٣٥.

العقول الصحيحة والفطر السليمة، ولا تنفر منه الطباع السوية، وهذا يدل دلالة قاطعة على صدق نبوءة النبيﷺ، فالدين الذي جاء به قد (أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر، فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم، و نهاهم عما هو مُنكر في الطباع والعقول بحيث إذا عُرض على العقول السليمة أنكرته أشد الإنكار كما أن ما أمر به إذا عُرض على العقل السليم قبله أعظم قبول وشهد بحُسنه، كما قال بعض الأعراب، وقد سُئل بمَ عرفت أنه رسول الله ؟ فقال: ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال: ليته أمر به.

فهذا الأعرابي أعرف بالله ودينه ورسوله... وقد أقر عقله وفطرته بحُسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته، ولو كانت جهة كونه معروفاً ومُنكراً هي الأمر المجرد لم يكن فيه دليل بل كان يُطلب له الدليل من غيره، ومَن سلك ذلك المَسلك الباطل لم يُمكنه أن يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه[1].

ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به، والملة التي دعا إليها، من أعظم براهين صدقه، وشواهد نبوته، ومَن لم يُثبت لذلك صفات وجودية أوجبت حُسنه وقبول العقول له، ولضده صفات أوجبت قبحه ونفور العقل عنه، فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة وجعلها مُستدلًا عليه فقط) [2]، فـ (ليس المُراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس؛ فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم؛ فإن

---

(١) تنبيه: ابن القيم رحمه الله تعالى يرد على نفاة التحسين والتقبيح العقليين من الأشاعرة.

(٢) مفتاح دار السعادة ؛ لابن القيم (٢/ ٦)، وينظر: درء تعارض العقل والنقل (٤/ ٢٨)، مناهج الأدلة: لابن رشد، ص ٢٠٨ وما بعدها، وابن رشد يعتمد على دلالة مضمون الرسالة لإثبات صدق نبوءة النبي ﷺ وأن القرآن وحي من الله تعالى، ويجعلها وحدها قطعية الدلالة. ينظر: مناهج الأدلة ص ٢١٩.

الحمار والجمل يُميز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده كنفع الإيمان والتوحيد؛ والعدل والبر والتصدق والإحسان؛ والأمانة والعفة؛ والشجاعة والحلم؛ والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى المماليك والجار؛ وأداء الحقوق؛ وإخلاص العمل لله والتوكل عليه؛ والاستعانة به والرضا بمواقع القدر به؛ والتسليم لحكمه والانقياد لأمره؛ وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه؛ وخشيته في الغيب والشهادة؛ والتقوى إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه؛ واحتساب الثواب عنده؛ وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به؛ وطاعته في كل ما أمروا به؛ مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته؛ وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته. ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منة عليهم: أن أرسل إليهم رسله؛ وأنزل عليهم كتبه؛ وبين لهم الصراط المستقيم. ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشر حالاً منها فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية ومَن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم)[1].

ومَن ينفي التحسين والتقبيح العقليين، والتعليل[2]، لا يمكنهم الاستدلال بمضمون الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ على صدق نبوءته لأن ذلك لا يستقيم مع منهجهم في أصول مسائلهم التي أصلوها، لأنهم جعلوا الأعيان والأفعال والتروك لا تتصف بصفات في نفسها تجعلها حسنة أو قبيحة قبل ورود الشرع، وعليه فلا فرق بين التوحيد والشرك، ولا بين الصدق والكذب، ولا بين النكاح والزنى،

---

(١) مجموع الفتاوى: لابن تيمية (١٩/ ١٠٠).

(٢) ينظر: الإرشاد: للجويني، ص ٢٢٨؛ ونهاية الإقدام: للشهرستاني ص ٣٧٠؛ والأربعين في أصول الدين ؛ للرازي (١/ ٣٤٦)؛ والمواقف ؛ للإيجي ص ٥٥٣.

ونحوها حتى يرد الشرع بها، أما قبل ذلك فلا، فالله لما أمر بالتوحيد صار حسناً، ولما نهى عن الشرك صار قبيحاً، ولو أمر الله بالشرك ونهى عن التوحيد لانقلب الأمر ولصار التوحيد قبيحاً والشرك حسناً.

فهم إما أن يُثبتوا التحسين والتقبيح العقليين والتعليل لإثبات دلالة مضمون الرسالة على صدق نبوءة النبيﷺ، أمّا نفي التحسين والتقبيح العقليين والتعليل مع إثبات دلالة مضمون الرسالة على صدق نبوءة النبيﷺ فهو تناقض منهجي لا يستقيم.

و قد أورد ابن القيم رحمه الله أمثلة عدة من الآيات البينات التي تدل على صحة الرسالة ومضمونها ودلالتها على صدق النبي بتحسين العقل لها، وموافقتها للفطرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء: ١٢٥] يقول رحمه الله: (وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر، وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحُسن والكمال، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد، بل هو دليل على أن ما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت: ٣٣] فهذا احتجاج بما ركب في العقول والفطر لأنه لا قول للعبد أحسن من هذا القول)[1].

فالأنبياء دعوا إلى كل ما هو حسن، ونهوا عن كل ما هو قبيح، وهذا يدل على آيات صدقهم، وبراهين نبوءتهم[2]، فهم صلوات ربي وسلامه عليهم يأتون بمحارات العقول لا بمحالات العقول، لذا يجب التفريق بين ما يعلم العقل باستحالته، فهو من محالات العقول، وهذا محال أن يأتي به الأنبياء، ولا يقوله إلا

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠).

(٢) ينظر: المرجع السابق (٢/ ٣٩٦).

كاذب، وبين ما يعجز العقل عن إدراكه، فهذا من محارات العقول، والأنبياء يُخبرون به[1]، ليتبين عجز العقل البشري عن الإحاطة بكافة تفاصيل الأمور، وأنه بحاجة إلى مَن يوجهه ويرشده ويُبين له الطريق الحق، وفي إخبار الأنبياء بمحارات العقول ما يُبرهن على أن ما جاؤوا به لم يكن من عند أنفسهم، ولا هو من عند بني جنسهم، فهو أمرٌ خارجٌ عن مقدور الخلق أجمعين، إذ كيف يُخبرون بمحارات العقول وهم لا يحيطون بمقدار ما تحار فيه العقول، كما أنهم لا يستطيعون حصر ما تحار فيه، ولا معرفة ما تحار منه، فهو أمرٌ خارج عن قدرتهم، وهذا يشير إلى أن الأمر خارجٌ عن مقدور جنس البشر والمخلوقات، وأنه من عند خالقهم العليم الخبير.

ومما هو ملاحظٌ أنَّ القرآن الكريم اهتم بمخاطبة العقل وإثارته لمعرفة صدق ما جاء به النبيﷺ، فتصديق النبيﷺ والتسليم لما جاء به يقوم على الضرورة العقلية، وليس هو تسليماً مجرداً كما هو الشأن في النصرانية التي تُغيب العقل، وهذه مفارقةٌ بين ما جاء به النبيﷺ من حق وبين الكتاب المقدس الذي لم يرد فيه لفظ العقل، ولا فيه إشارة إلى الدلالة العقلية على أصول المسائل، فإنَّ بعض ما يحويه الكتاب المقدس مُناقضٌ للعقل، كالقول بالتثليث مثلاً[2].

*****

---

(١) ينظر: بيان تلبيس الجهمية ؛ لابن تيمية (٢/ ٣٦٠)، والجواب الصحيح (٤/ ٤٠١)، والصواعق المرسلة ؛ لابن القيم (٣/ ٣٨٠).

(٢) ينظر: قاموس الكتاب المقدس ٦٣٣ وتفسير المنار ؛ رشيد رضا ١١/ ٢٤٦، وموقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين: مصطفى صبري، ص ٦٨.

المبحث الثاني

بين مضمون رسالة النبي والأنبياء السابقين

ما من نبي من الأنبياء إلا و قد بعثه الله تعالى وهو يدعو إلى الدين الحق من الإخبار عن كمال صـفات الله تعالى، والدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، والنهي عن الشرك، والإيمان باليوم الآخر وبيان حال ومآل من صدق بالأنبياء ومن كذب بهم، وبيان أنهم أنبياء أوحى الله إليهم، وأيدهم بالآيات الدالة على صدق نبوءتهم، والدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن الفواحش، وهذه أصـول ثابتة لا تتناقض مع الفطر السـوية والعقول السـليمة، ولا ينكرها مَن يُثبت جنس النبوءات كأهل الكتاب، فمحمد ﷺ لم يأتِ بما يُخالف مَن قبله من الأنبياء، فهناك أصـول لم يختلف فيها أنبياء الله تعالى، بل كلهم دعوا إليها، وفي كتبهم التي نزلت عليهم (من الأمر والنهي والوعد والوعيد ما لا يأتي به إلا نبي أو تابع نبي، وما أتى أتباع الأنبياء من جهة كونهم أتباعـًا لهم مثل أمرهم بما أمروا به ونهيهم عما نهوا عنه، ووعدهم بما وعدوا به، ووعيدهم بما يوعدون به، فإنه من خصائص الأنبياء.

والكذاب المُدعي للنبوة لا يأمر بجميع ما أمرت به الأنبياء وينهى عن كل ما نهوا عنه، فإن ذلك يُفسـد مقصـوده، وهو كاذب فاجر شـيطان من أعظم شـياطين الإنس، والذي يُعينه على ذلك من أعظم شـياطين الجن، وهؤلاء لا يُتصـور أن يأمروا بما أمرت به الأنبياء وينهوا عما نهوا عنه لأن ذلك يُناقض مقصودهم)[1].

والنبيﷺ يُخبر بالأصول التي أخبر بها الأنبياء قبله، وهو لم يأخذ عنهم شيئـًا، ولا عن أهل الكتاب، وهذا تبين في دلالة أمية النبيﷺ سابقـًا، (فإذا أخبر هذا بمثل ما أخبر به هذا عن مُرسـل واحد من غير تواطؤ ولا تشـاعر فيما يمتنع في العادة

---

(١) النبوات (١/ ١٦٦)، وينظر: أعلام النبوة؛ للماوردي ص ٥٨، والجواب الصحيح (٥/ ٢٣٩)، ومفتاح دار السعادة (٢/ ٣٤١)، والعواصم والقواصم ؛ لابن الوزير(١/ ٢٠٣-٢٠٤).

التوافق فيه من غير تواطؤ، كان هذا مما يدل على صدق كل من الرسولين في أصل الرسالة، وعلى صدق خبر كل من الرسولين فيما أخبر به، إذ كل منهما أخبر بمثل ما أخبر به الآخر)[1].

فهذا يدل دلالة صريحة على تواطئهم جميعًا على الصدق، إذ أن العقل يحيل تواطؤهم جميعًا على الكذب، ويدل أيضًا على أنهم جميعًا أنبياء الله، فتواطؤهم على الصدق يدل على أن مُرسِلهم واحد وهو الله، فما جاؤوا به ما هو إلا من عند الله العليم الحكيم.

ويمكننا النظر في أصول الوصايا العشر التي وردت في سفر الخروج، والتي جاء فيها: (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة سواي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا، ولا صورة مما في السماء من فوق، ولا مما في الأرض من تحت، ولا مما في المياه من تحت الأرض، لا تسجد لها، ولا تعبُدْها، لأني أنا الرب إلهك.... لا تحلف باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يَبرر مَن يحلف باسمه باطلاً،....أكرم أباك وأمك؛ ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لا تقتلْ، لا تزْن، لا تسرق، لا تشهد على غيرك شهادة زور، لا تشتهِ بيت غيرك، لا تشتهِ امرأة غيرك، ولا عبده ولا جاريته، ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما له)[2].

والنظر إلى أصول الوصايا العشر التي وردت في سورة الأنعام، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ

(١) درء تعارض العقل (٥/ ٧٨).
(٢) الخروج: ٢٠/ ٢-١٧.

بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ – ١٥٣].

إنَّ الوصايا الواردة في سفر الخروج لبني إسرائيل قد أخبر الله عنها في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[البقرة: ٨٣]، وهي لا تختلف عما ورد في سورة الأنعام على وجه الجملة، فمن ذلك الإيمان بالله والنهي عن الإشراك به، الإحسان إلى الوالدين، العدل، تجنب الفواحش ما ظهر منها وما بطن من الإثم والبغي والزنى والقتل وشهادة الزور، فهذه الأصول مما اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعًا، لأنها تتوافق مع العقول الصحيحة، والفطر السوية، وأخبر بها الأنبياء الصادقون، فمُحال أن يُشرع الشرك ويُنهى عن التوحيد، ومُحال أن يؤمر بعقوق الوالدين، أو بالزنى... فهذه جميعها من الأمور التي تنفر منها النفوس السوية، وتستقبحها العقول، وتستنكرها الفطر، فما جاء به الأنبياء من أصول الشرائع لا تتعارض مع العقل، ولا تتناقض البتة، وهذا يبرهن على أنها ربانية المصدر، وأن مصدرها واحد.

ولا يعني هذا أن الدين قاصر على الوصايا العشر فحسب، ولا أن ما جاء في الكتاب المقدس برمته يتوافق مع ما جاء في القرآن، للبون الشاسع بينهما في كثير من المسائل، فمَن ينظر لنسخة الكتاب المقدس الموجودة بين أيدينا يجد فيها انتقاص الرب عز وجل ووصفه بصفات النقائص التي لا تتضمن كمالاً بأي وجه

من الوجوه، ويجد كذلك التنقص بالأنبياء، وهذا ما لم يأتِ به القرآن ولا الكتب التي نزلت على الأنبياء من قبل.

وقد يقول قائل: بأن الأنبياء أخذ بعضهم عن الآخر، فمحمد ﷺ أخذ عمّن قبله فتأثر به، لكن الأخذ عمّن سبق لا بد أن يكون بواسطة، فما هي هذه الواسطة؟!

ولو قلنا بهذا القول تنزلاً: فلماذا لم يؤمن اليهود والنصارى بما جاء به النبي محمد ﷺ وهو قد أخذ عنهم ؟! لماذا يعلن محمد ﷺ صراحة أن القرآن الذي هو دليل على صدق نبوءته بأنه مصدق لما قبله من الكتب السابقة، ومهيمنٌ عليها ؟! قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٤٨]، بينما لا نجد نصّاً واحداً في الكتاب المقدس يشير إلى أخذ محمد ﷺ عن أهل الكتاب؟!

كما أنَّ النبي محمداًﷺ لم يُصرح بأنه أخذ عن اليهود والنصارى أو نقل عنهم شيئاً، كما لم يثبت عنه ﷺ أنه اطلع على كتبهم لأميته.

لماذا يتلو محمد ﷺ على الملأ قوله تعالى له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] ؟!

ثم إنْ أخذ النبي محمد ﷺ عمّن سبقه، فمَن سبقه أخذ عن مَن؟! لابد أن نصل إلى المصدر الذي أخذ عنه جميع الأنبياء، ولو لم نصل إلى ذلك المصدر لأفضى القول بنا إلى سلسلة لا نهاية لها، وهذا التسلسل مُمتنع، وهو مُحال، إذ لا بد أن ينتهيَ الأمر بمصدر من أخذ الأنبياء منه وهو الله تعالى.

كما أن القول بأن النبي أخذ عمّن قبله[1] يلغي الاتجاه الأفقي للنبوءة من الله إلى النبي، ويلغي مرتكز النبوءة الوحي (الغيب)، ويجعل النبوءة رأسـية من نبي إلى نبي، وهذه لا مزية فيها.

فسبيل الأنبياء واحدة، ومصدرهم واحد، فالقضية ليست قضية تأثير دين على آخر، لأنها نظرية مرفوضة منطقيّاً، وهناك من يروج لقضية التأثير لزحزحة المصدر الإلهي للنبوءة.

والقرآن الكريم يشير إلى حالتين له بالنسبة إلى ما قبله من الكتب:

الحالة الأولى: أنه مؤيد لبعض ما في الشـرائع، مُقرر له في كل حكم كانت مصـلحته كلية لم تختلف مصـلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصـف مُصدق ومُقرر.

الحالة الثانية: أنه مُبطل لبعض ما في الشرائع السابقة، وناسخ لأحكام كثيرة من كل ما كانت مصالحه جزئية مؤقتة، مُراعى فيها أحوال أمم خاصة[2].

فلا ينبغي عزو كل اتفاق بين مضـمون ما جاء به الأنبياء إلى تأثير السـابق في اللاحق، وتأثر المتأخر بالمتقدم، لأن التأثر قدر زائد على مجرد الموافقة، كما أن النبي ﷺ لم يُصـرح بأنه قد تأثر بالأنبياء السـابقين، ذلك أن وصـف التأثر لا يُطلق إلا إذا اجتمع شـرطان (الأول: أن يكون القول من خصـائص المتقدم، والثاني: أن نعلم أنه إنما قال به لأنه أطلع عليه في كلام المتقدم، ولم يُنشئه من نفسه، فإذا انتفى أحد هذين الشـرطين فإنه لا يصـح إطلاق التأثر حينئذ)[3]، فالشـرط الأول مُنتفٍ

---

(١) ترى كارين أن الوحي يتم تسـليمه من نبي إلى النبي الذي يليه، وهو خلل في مفهوم النبوءة، ينظر: محمد نبي الزمان ص ٨٩.

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢١).

(٣) الحد الأرسطي؛ سلطان العميري ص ٤١٢، وينظر: ص ٢١٤.

لأن ما جاء به الأنبياء السابقون لم يكن من خصائص قولهم، بل هو وحي من الله تعالى، لذا لم يُخالفهم النبي محمد ﷺ في الأصول، والشرط الثاني مُنتفٍ أيضاً في حق النبيﷺ لأن النبي ﷺ أميٌّ لا يقرأ من كتاب، كما أنه مكث أربعين سنة لا يدعو إلى شيء مما جاء به بعد نبوءته.

فعدم مخالفة مضمون ما جاء به النبيﷺ لمَن قبله من الأنبياء لا يعني الاقتباس والأخذ والتعليم والتأثر، بل إنه يعني وحدة المصدر الإلهي، وهذا الذي استدل به النجاشي حين سمع آيات من صدر سورة مريم، (فبكى حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة)[1]، واستدل به ورقة قائلاً: (إن هذا الناموس الذي كان يأتي موسى)[2]، وهو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[3]، والمُراد بإخوة لعلات أي الإخوة من الأب، والمعنى: (أصل دينهم واحد وهو التوحيد، وإن اختلفت فروع الشرائع)[4].

ومما يُبرهن لنا على إلهية مصدر ما جاء به الأنبياء الحقيقة التأريخية، فكل مَن اطلع على التوراة والإنجيل، أو كان له علم بما عند أهل الكتاب، أو كان على الحنيفية السمحة، يعلم بهذه الأصول المتفق عليها قطعاً وإن لم يعمل بها، فالعالم لم يَخلُ من آثار النبوءة، وما كانوا يدعون إليه، ويأمرون به، ويخبرون عنه، ولا يزال عند الناس من تلكم الآثار النبوية ما يعرفون به جنس النبوءات، ويُفرقون به

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أم سلمة، (٣/ ١٨٠)، إسناده صحيح، صححه أحمد شاكر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، ح (٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[مريم: ١٦]٣٤٤٣ ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل عيسى عليه السلام، ٢٣٦٥.

(٤) فتح الباري ؛ لابن حجر (٦/ ٤٨٩).

بين النبي وغيره[1]، فحين نسمع القصائد الشعرية، كقصائد أُمَيَّة بن الصَّلْت[2]، التي كانت جُلها في اليوم الآخر، وتعظيم رب العزة، والأنبياء[3]، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ بعد أن استنشد شيئًا من قصائده: « فَلَقَدْ كَادَ يُسْلِمُ فِي شِعْرِهِ»[4]، أو حين نسمع الخطب كخطب قس بن ساعدة[5]، وهو أحد حكماء العرب، وقد كانت خطبه تحوي شيئًا من هذه الأصول، فإخبارهم بها قبل إخبار النبي ﷺ لا يعني أن النبيﷺ أخذ عنهم، بل يعني أن هؤلاء عندهم علم بالأصول المُتفق عليها بين جميع الأنبياء[6]، كما هو الشأن في علم هرقل والنجاشي وورقة، الذين أثبتوا نبوءة النبي ﷺ بأكثر من دلالة، والتي منها اتفاق الأصول التي تدل على وحدة مصدرها الإلهي، بل إن القرآن الذي جاء به محمد ﷺ يُشير إلى علم أهل الكتاب بنبوءته ﷺ حين يحتج على مشركي العرب بصدق نبوءته، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[الشعراء: ١٩٧]، وقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾[يونس: ٩٤]، وقال: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[الرعد: ٤٣]، وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾[الأحقاف: ١٠] وغيرها من الآيات التي تذكر شهادة

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ص ٥٤٤.

(٢) أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، كان مطلعًا على الكتب المقدسة، ينظر: طبقات فحول الشعراء ؛ لابن سلام الجمحي(٢/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: ديوان أمية بن الصلت ٢٢ جمعه وحققه وشرحه د/ سجيح الجبيلي.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر ٢٢٥٥ .

(٥) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني إياد: أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم، في الجاهلية. كان أسقف نجران، كان يفد على قيصر الروم، زائراً، فيكرمه ويعظمه. ينظر: الأعلام ؛ للزركلي (٥/ ١٩٦).

(٦) ينظر: هداية الحيارى ؛ لابن القيم ص ٩٧.

الكتب المتقدمة بمثل ما أخبر به النبي ﷺ، وهذا دليل على صدق نبوءتهم إذ اتفقوا فيما جاؤوا فيه من أصول من غير تواطؤ ولا تشاعر.

ولو أن النبي ﷺ أخذ عن أمية وغيره لأخبروا بذلك، فدعوى أن مصدر القرآن الذي جاء به النبي ﷺ هو من هؤلاء الشعراء والخطباء[1]، لم يقل بها أشد الناس عداءً لنبوءة النبي ﷺ.

إنَّ البحث عن مصدر القرآن الذي جاء به محمدﷺ هو القضية الجوهرية التي تقودنا لصدق نبوءة محمدﷺ، ولو قلنا بالقول الحق من أن مصدره إلهي ولهذا لم تختلف نبوءة محمد ﷺ في الأصول التي دعا إليها عن سابقيه من الأنبياء، لأن المصدر واحد، وإن اختلفت الشرائع، لزال الإشكال.

ومن خلال استقراء القرآن الكريم تبين لي آيات عدة تؤكد اتفاق الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم في أصول المسائل الكلية، والتي تبرهن على وحدة مصدرها الإلهي، فمن هذا:

* الإسلام بمفهومه العام، هو محور دعوة الرسل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[آل عمران: ١٩]، والإسلام هو ما وصى إبراهيم عليه السلام به بنيه، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣١ ــــ ١٣٣]، وينفي الله تعالى عن خليله أن يكون يهوديًا أو

---

(١) ينظر: القرآن في الشعر الجاهلي ؛ ناهد متولي، ومقدمات أولية ؛ طيب تيزيني ص ٣٧٧، وهل اقتبس القرآن شيئاً من التوراة والإنجيل؟ ؛ سامي عامري ص ٦٩.

نصرانيًا أو مشركًا، لأنه مسلم، ومَن كان مسلمًا لا يمكن أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا أو مشركًا، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران: ٦٧][1]، ومَن كان مسلمًا دعا قومه للإسلام، ويُخبر الله تعالى عن قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٧٢]، ويُخبر الله تعالى عن قصة إسلام ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام بقوله عنها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[النمل: ٤٤].

* الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، ونفي عبادة ما سواه، هي دعوة جميع الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم[2]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

وهي دعوة كل نبي لقومه، يقول الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف: ٥٩][3]، ويقول الله عن هود عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[الأعراف: ٦٥][4]، ويقول

---

(١) ينظر كذلك إلى [الأنعام: ٧٨-٧٩].

(٢) ترى كارين أن النبي ﷺ لم يركز في مرحلته الأولى على مضمون التوحيد، وهذا مما لا شك أنه مخالف لحقيقة محور دعوة الأنبياء الدعوة إلى التوحيد. محمد نبي الزمان ص ٦٢.

(٣) وينظر إلى [المؤمنون: ٢٣].

(٤) وينظر إلى [هود: ٥٠].

تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥][1]، ويقول الله عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٧٣][2]، ويقول تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٨ ـــ ٤٠]، ويقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥][3]، ويقول تعالى عن المسيح عيسى ابن مريم: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢][4]، ويقول تعالى عن محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٤ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٤ - ١٠٥].

---

(١) وينظر إلى [هود: ٨٤].

(٢) وينظر إلى [النمل: ٤٥].

(٣) وينظر إلى [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣] و[آل عمران: ٩٥] و[الممتحنة: ٤].

(٤) وينظر إلى [آل عمران: ٥١] و[المائدة: ١١٧] و[الزخرف: ٦٣ ــ ٦٤] و[العنكبوت: ١٦ ــ ١٧].
وأود الإشارة إلى لطيفة لاحظتها في الآيات التي بينت دعوة عيسى عليه السلام لقومه لتوحيد الله وهي إثبات ربوبية الله تعالى له ولبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦] لتأكيد بشرية عيسى عليه السلام وعبوديته لله تعالى وحده.

* **اتفق جميع الأنبياء على الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، ولقد تنوعت الدلالات القرآنية على ذلك، ومنها:**

* **الاستدلال على إمكان البعث ببدء الخلق**، فمَن خلق قادر من باب أولى على البعث، يتبين في قول نوح لقومه، يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧-١٨].

* إخفاء العلم بقيام الساعة، وبيان الحكمة من ذلك، قال تعالى لموسى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٦].

* بيان مصير مَن كفر بالله تعالى يوم القيامة، يقول تعالى عن موسى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [هود: ٩٦-٩٨].

* ربط عمل الدنيا بالآخرة، يتبين في قول إبراهيم الخليل عليه السلام، قال تعالى عنه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٨٢-٩١]، وفي قول موسى عليه السلام: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦][1]، ويقول تعالى عن شعيب لقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦]، وفي قول يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا

---

(١) وينظر كذلك: [طه: ٧٤-٧٦].

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١]، وفي قول مؤمن آل فرعون، قال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠ ۞وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[غافر: ٣٩ - ٤٣].

* بيان الجزاء والحساب الذي يكون في الآخرة، وهذا وارد في صحف إبراهيم وموسى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[الأعلى: ١٦ - ١٩]، وقوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ - ٤٢]، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[البقرة: ١٢٦]، وقال تعالى عن يوسف: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٣٧]، **وقال تعالى عن عيسى عليه السلام لقومه:** ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[المائدة: ٧٢]، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[المائدة: ١٠٩]، وقوله تعالى مُجيباً على عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[المائدة: ١١٩].

* ويتبين اليوم الآخر عند اليهود والنصارى، كما يُبينه القرآن الكريم، قوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٩٤]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وأقوام الرسل ينكرون الإيمان باليوم الآخر، وهذا يدلنا على أن أنبياءهم كانوا يدعونهم إلى الإيمان به، قال تعالى: ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون: ٨١ – ٨٣].

ومما هو مُلاحظ أن القرآن الكريم جاء بتفاصيل أدق وأكثر عن اليوم الآخر، وهذا لا يوجد في الكتاب المقدس[(١)].

* ويُبين الله أصول العبادة لدى أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران: ١١٣ - ١١٤].

* الإخبار عن علامات الساعة، كالإنذار من فتنة المسيح الدجال، والتبشير بمحمد ﷺ[(٢)].

* ومما جاء به جميع الأنبياء الإيمان بالملائكة، والجن، وهو مما اتفقوا عليه من الأصول، والأمم السابقة يُقرون بوجودهم، فالله تعالى حين أقسم بالصافات والذاريات والمُرسلات وهم الملائكة، ذكر المُقسم عليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾[الصافات: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾

---

(١) ينظر: الجواب الصحيح (١/ ٢٠٠).

(٢) بينت هذا في الفصل الرابع: دلالة الإخبار بالمغيبات على نبوة النبي ﷺ.

[الذاريات: ٥-٦]، فالله تعالى لم يُقسم على وجود الملائكة ولا وجوده، لأن الأمم مُعترفة بوجود الملائكة، ووجود الله تعالى، بخلاف توحيد الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر[١]،ومما يُبرهن على اعتراف الأمم بوجود الملائكة، أن من شبهات مُنكري النبوءات أن الأنبياء لم يكونوا ملائكة[٢]، واتهام الأنبياء بالجنون[٣]، وهذا كقولهم لنوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[المؤمنون: ٢٤ــ٢٥]، وقال الله عن فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[الزخرف: ٥١-٥٣].

* والقرآن يُخبرنا أن الرسل جميعاً حملوا ميزان العدل والقسط ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

* ومما هو متفق عليه بين جميع الأنبياء الجانب التعبدي، نلاحظ أن الصلاة والزكاة والصيام والحج جاء بها الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٣]، وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾[مريم: ٥٥]، وقال الله لموسى عليه السلام: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[طه: ١٤]، وقال تعالى عن عيسى: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم: ٣١]، والصوم مفروض على

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ٣١٨-٣٢٠.

(٢) بينت هذا بالتفصيل في الفصل الأول: النبوءة وأدلتها.

(٣) بينت هذا في الفصل الثاني: دلالة الأخلاق على نبوءة النبي ﷺ.

من قبلنا كما هو مفروض علينا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والحج من الشعائر المعروفة التي جاء بها الأنبياء، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٩].

* ومما هو متفق عليه بين الأنبياء أيضاً، ذكر الله تعالى، ومنه الاستغفار، فنوح عليه السلام يوصي قومه بالاستغفار، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ – ١٢]، وهود عليه السلام أيضاً يوصي قومه بالاستغفار، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، ومحمد ﷺ يوصي قومه بالاستغفار، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وليست الأعمال الظاهرة هي المتفق عليها فحسب، بل حتى أعمال القلوب مما هو متفق عليه بين الأنبياء، فالتقوى مما هو مأمور به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وهود عليه السلام يأمر قومه بتقوى الله، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ١٣٢]، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٩][1]، والتوكل على الله تعالى، قال تعالى عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

---

(١) وينظر [الشعراء: ١٨٤].

وفي الحدود التي شـرعها الباري جل وعلا للحفاظ على النفس الإنسـانية، اتفـاق بين الأنبيـاء، ومن ذلـك قول الله تعـالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[المائدة: ٤٥]، فــ (هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار)[١].

ومما اتفقت فيه الأنبياء أيضـاً أنهم بينوا المنكر والباطل ودعوا إلى محاربته وإزالته، سـواءً أكان عبادة أوثان، أو اسـتعلاء في الأرض بغير حق، أو انحرافاً عن الفطرة كفعل قوم لوط، أو عدواناً على البشر ـ وأحوالهم بقطع الطريق والتطفيف بالميزان، وكل هذه أصـول متفق عليها بين جميع الأنبياء، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى: ١٣]، فـ(كل ما ذكر لنا في الكتاب والسنة الصحيحة، مما كان شرعاً لمن قبلنا يكون شرعاً لنا، من حيث إنه وارد في كتابنا، أو سـنة نبينا ﷺ لا من حيث إنه كان شرعاً لمن قبلنا)[٢]، إلا أن فروع الشرائع تختلف، يقول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المـائـدة: ٤٨]، ويـقـول: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[الحج: ٦٧] (أي معبـداً وعبـادة، قـد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة)[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٣٣.

(٢) أضواء البيان؛ للشنقيطي (١/ ٣٧٥)، هناك مَن يزعم أن الأحكام تدرجت فاختلفت كما هو الشأن في تدرج الوحي الإلهي إلى الوحي المتجسد، ينظر: شبهات وهمية حول الكتاب المقدس: القس منيس عبد النور، ص ٣٣، وهناك مَن يزعم أن الأديان واحدة لأنها مسـتمدة من الله لكنها تختلف باختلاف مفسريها. ينظر: الفكر العربي في عصر النهضة: ألبرت حوراني، ص ٣٠٥.

(٣) تيسير الكريم ص ٥٤٥.

إنَّ اتفاق جميع الأنبياء على الأصـول الكلية، وعدم مخالفة واحد منهم للآخر يدل على وحدة مصــدرها من جهة، ومن جهة أخرى يدل على صــدق الأنبياء صـلوات ربي وسـلامه عليهم، ومنهم محمدﷺ، فـــ (إن دعوة محمد بن عبد الله صلوات الله و سلامه عليه هي دعوة جميع المُرسلين قبله، من أولهم إلى آخرهم، فالمُكذب بدعوته مُكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرســل جاؤوا بما جاء به، فإذا كذبه المُكذب فقد زعم أن ما جاء به باطل، وفي ذلك تكذيب كل رســول أرســله الله، وكل كتاب أنزله الله، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صــدق، وأنه كاذب مفترٍ على الله)[1].

وتتميز الشريعة التي جاء بها النبيﷺ بكمالها، حيث جمعت محاسن الشرائع كلها، وزادت عليها حتى صارت أكملها، وهذا الكمال من جهة التشريع فيه دلالة ضـرورية على ربانية مصـدرها، إذ يستحيل أن تداني المعارف البشـرية والشـرائع الوضـعية هذا الكمال، فقد (جاءت شـريعته أكمل شـريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا مُنكر تعرف العقول أنه مُنكر إلا نهى عنه، لم يأمر بشــيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شــيء فقيل ليته لم ينه عنه، وأحل الطيبات، لم يُحرم شيئًا منها كما حُرم في شرع غيره، وحَرم الخبائث لم يُحل منها شــيئًا كما اســتحله غيره، وجمع محاســن ما عليه الأمم، فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا و قد جاء به على أكمل وجه وأخبر بأشياء ليست في الكتب.

فليس في الكتب إيجاب لعدل وقضـاء بفضـل وندب إلى الفضـائل وترغيب في الحســنات إلا وقد جاء به وبما هو أحســن منه، وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شــرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضــلها ورجحانها، وكذلك في الحدود

---

(١) هداية الحيارى ؛ لابن القيم ص ١٨٥.

والأحكام وسائر الشرائع)[1]، كما تتميز الشريعة الإسلامية باليسر والسهولة والوضوح، وأنها لا تفرض بالقوة بخلاف النصرانية[2].

لذا كان التصديق بنبوءة محمدﷺ وما جاء به من أصول المسائل والدلائل تصديقاً لمَن قبله من الأنبياء، لأن النبوءة غرضها واحد، ومصدرها إلهي.

*****

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٤١).

(٢) ينظر: حضارة العرب: غوستاف لوبون ص ١٣٢، ص ١٣٤.

المبحث الثالث

مضمون الرسالة والحقائق الكونية والعلمية[1]

إنَّ القرآن الكريم هو كتاب هداية وتشريع للبشرية كي تعبد ربها على بصيرة وبينة، وقد تضمن الإخبار عن حقائق كونية وعلمية[2] لبيان عظيم قدرة الله تعالى في الخلق والإبداع، وسعة رحمته، وكمال حكمته، لدلالته وهدايته على إثبات وجود الرب المُستحق للعبادة وحده دونما سواه، وأنه قادر على بعث الناس فالبعث أهون من الخلق، يتبين هذا جليّاً من خلال سياق الآيات لكل مَن يقرأها قراءة كاملة لا ابتسار فيها، ومن أمثلة ذلك ما يلي[3]:

* **الآيات التي أخبرت عن مراحل خلق الإنسان**، يقول الله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[الزمر: ٦] ففي هذه الآيات الدلالة على أنَّ الله الذي خلق الإنسان مُستحق للعبادة وحده دونما سواه، فالنبيﷺ حينما أخبر قومه بأن الله هو الذي خلقهم وبين لهم مراحل خلقهم لم يكذبوه في هذا، وإنما كان التكذيب في إفراد الله تعالى بالعبادة، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

---

(١) أود أن أنبه إلى أنه من خلال بحثي وسؤالي عن الجهات المهتمة بـ (الإعجاز العلمي) تبين لي حسب حدود بحثي أنَّ هناك هيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ولها فروع داخلية وخارجية في كل من مصر والجزائر والمغرب والسودان والنمسا. ينظر: http://www.eajaz.org/index.php/Contact-Us/Addresses-Authority-offices.

(٢) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: للزرقاني، (١/ ٢٥)، ومدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم ؛ د/ عماد الدين خليل ص ٥، وص ٤٤؛ ونظم القرآن: يوسف الحداد، ص ٥٢٢.

(٣) هذه بعض الآيات التي يستدل بها أصحاب الإعجاز العلمي، وأوردت الآيات كاملة ليتبين وجه دلالتها.

﴿ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[نوح: ١٣ ـــ ١٨]، دلالة على أن الذي خلق الإنسـان وأوجده ابتداء قادر على بعثه من بعد موته، والنبي ﷺ حينما أخبر قومه بمراحل خلقهم لم يكذبوه، أو حتى يُعارضوه، وحينما أخبر بعودتهم من بعد موتهم كذبوه.

فسـياق الآيات التي أخبرت عن مراحل خلق الإنسـان كان للدلالة على عظمة خالقها لعبادته، وعلى إمكان البعث، ولم يتفرد النبي ﷺ بالإخبار عنها، ذلك أنَّ مراحل خلق الإنسـان معلومة لمَن سـبق لم تتغير ولم تتطور، فالنبيﷺ لم يسـبق إليها في الإخبار عنها، فهذا أمية بن الصـلت يذكر شـيئًا من مراحل خلق الإنسـان، حيث يقول:

أمَرْت بالإنسان من نطفة   تخلَّق في البطن بعد الرحم[1]

ويقول:

كيف الجحودُ وإنّما خُلقَ الفتى   من طينِ صلصالٍ له فخّارُ[2]

ويقول السموءل[3] أيضـًا:

نطفة ما منيتُ يومَ منيت أمرتْ أمرها وفيها بريتُ
كَنَّها الله في مكـانٍ خَفِيٍّ وخَفِيٌّ مكـانُها لـو خَفِيتُ[4]

فمن أين أتى شـعراء العرب في الجاهلية بهذه الأخبار؟! أتوا بها ممَن عنده علم من أهل الكتاب، فالنبيﷺ لم يكن له سـبق الإخبار بالحقائق الكونية، ولو كان

(١) ديوان أمية بن الصلت ص ١١١.

(٢) المرجع السابق ص ٨٢.

(٣) السـموءل بن عادياء من شـعراء اليهود، من أهل تيماء. ينظر: طبقات فحول الشـعراء لابن سـلام (١/ ٢٧٩).

(٤) http://www.adab.com/modules.php?name=Sh٣er&doWhat=shqas&qid=١٩١٧٢&r=&rc=٥

سبق الإخبار هو دليلاً على النبوءة لكان هؤلاء أنبياء لأنهم أخبروا بها قبل محمدﷺ(1)؛ وهذه من الإشكاليات التي تتوجه إلى ما يُعرف بـ (الإعجاز العلمي) الذي يرى أنَّ النبي ﷺ كان له سبق الإخبار بالحقائق العلمية التي تم اكتشافها من خلال العلم التجريبي كمراحل خلق الجنين، ولم تكن لديه الآلات التي تكشف له عن هذه الحقيقة العلمية، وقد توصل العلم الحديث التجريبي إليها بعدما أخبر النبيﷺ عنها، وتحدى بها قومه، وهذا يدل على صدق نبوءة النبي ﷺ (2).

فهل التحدي وقع في جميع الآيات الكونية التي أخبر عنها النبيﷺ في القرآن الكريم؟! وهل التحدي يختص بالآيات الحسية فقط دون المعنوية؟! علماً بأن العرب عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، وهو أمر معنوي وسيأتي مزيد تفصيل في الفصل السادس دلالة النظم والأسلوب.

***الآيات التي أخبرت عن إنبات الزرع،** قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الأنعام: ٩٩ ــــ ١٠٢] سياق الآيات يُبرهن على أن الله وحده خلق الزرع وأوجده وهو وحده المُستحق للعبادة، وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ

---

(1) ينظر: مجلة روز اليوسف عدد ٣٩٠٠ بتأريخ ١٤/ ٣/ ٢٠٠٣م، وانظر:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=١٨٢٣٨٤

(2) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: أ. د/ عبد الله المصلح ود. عبد الجواد الصاوي ص ٥١ـ ٨٥.

فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[الحج: ٥ — ٦]، وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾[فصلت: ٣٩] ففي هذه الآيات استدلال على إمكان البعث، فالله يلفت أنظار كل مَن ينكر البعث إلى أن مُحيي الأرض الميتة قادر على بعث الناس.

فهل في هذه الآيات استدلال على صدق نبوءة النبيﷺ ؟! أم هي في الاستدلال على البعث؟!

* الآيات التي أخبرت عن منافع بعض الحيوانات، بين القرآن الكريم أن الله تعالى خلق الحيوانات لينتفع منها الإنسان، ليستدل بقدرة خالقها على إفراده بالعبادة إن كان ممَن يقر بوجود الله تعالى، وإن كان ممَن ينكر وجود الرب فيستدل بها على أن مَن أوجد هذه الحيوانات هو مَن أوجده، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[النحل: ٦٥ - ٧٠] ففي هذه الآيات بين الله جل وعلا (أن في الأنعام عبرة دالة على تفرد مَن خلقها، وأخلص لبنها من بين فرث ودم ؛ بأنه هو وحده المُستحِق لأن يُعبد، ويُطاع ولا يُعصى)[١].

فالكون آية على وجود الله [٢]، والقرآن الكريم برهن على هذا، فهو لا يتضمن نظريات علمية جاهزة، ولكنه يتضمن موقفاً علميّاً يهتم بالكون الذي أبدعه

---

(١) أضواء البيان، (٢/ ٣٩٦).

(٢) ينظر: الأبطال: توماس كارليل، ص ٧٥-٧٦؛ والعلم والدين في الفلسفة المعاصرة: إميل بوترو، ص ٢٠٦.

الله[1]، لنعبد الله وحده، (فالمُكتشفات العلمية دالة على الربوبية من جهة زيادة التفاصيل الدقيقة المؤكدة إلى افتقار الكون إلى خالق مدبر، دون أن تكون معرفة هذه التفاصيل شرطاً في كمال اليقين، وهي دالة على النبوة من جهة عدم تكذيبها لشيء مما جاء به النبيﷺ)[2].

فالحقائق الكونية الواردة في القرآن مفهومة بحسب معناها اللغوي لمَن خاطبهم القرآن، كما أنها بَيِّنَةُ الدلالة في المراد من ذكرها، بشكل واضح بين يتبين من سياق الآيات، فلا مشقة فيها ولا تكلف، ولو كان المراد بها إثبات نظريات علمية توصل إليها العلم التجريبي في العصر الحديث لكان هذا من تكليف ما لا يُطاق معرفته وفهمه بخطاب يعجز الناس عن إدراكه[3].

ولنضرب على ذلك مثالاً كي تضح الرؤية بشكل أكبر، ورد ذكر الذرة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾[النساء: ٤٠]، وقوله: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾[يونس: ٦١]، وقوله: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣﴾[سبأ: ٣]، وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـــ ٨] فالنبيﷺ والصحابة رضوان الله عليهم وكل مَن له علم بالعربية يفهم المراد من الذَّرَّة بأنها النَّملة الصغيرة[4].

---

(١) ينظر: الإسلام بين الشرق والغرب: علي عزت بيجوفتش، ص ٣٠٥.
(٢) منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية: د/ سعود العريفي، ص ٢٨٧.
(٣) ينظر: نظم القرآن: يوسف الحداد، ص ١٤٧ـ١٤٩.
(٤) ينظر: مجاز القرآن: لأبي عبيدة (١/ ٢٧٨).

فهل في هذه الآيات إشارة إلى علم الذرة الذي توصل إليه علم الفيزياء في العصر الحديث[1]؟! فيكون النبي ﷺ أخبر بحقيقة علمية قبل أربعة عشر قرناً، فيكون هذا الخبر دليلاً على صدق نبوءته !!

(إنَّ المعنى اللغوي بارزٌ ظاهرٌ لآيات القرآن، ولا أدنى إشارة فيه إلى ما يسمى بـ (الإعجاز العلمي) حيث لا تتوفر فيه شروط المُعجزة (الأمر الخارق للعادة، وسلامته من المُعارضة، والتحدي به)، فالقرآن نزل بلغة قومه العرب، ففهموا المراد منه، ليهتدوا به، ولو صح فيه ما يسمى بـ (الإعجاز العلمي) فقد خاطب القرآن الناس قبل أربعة عشر قرناً بما لا طاقة لهم بمعرفته وفهمه، وخطاب يعجز الناس عن إدراكه ليس بمُعجز على الإطلاق)[2].

كما أنَّ (العرب الذين خوطبوا بجميع ما في القرآن منذ نزوله لم يفهموا تلك المعاني المُدعاة في التفسير العلمي، وإلا لزم أن تظهر هذه المُكتشفات على أيديهم منذ فهموها من القرآن، وإذا كانت البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال لم يجز أن تكون هذه المعاني مُرادة من الآيات حين أنزلت، وإذا لم تكن مرادة آنذاك، فما الدليل على أنها مرادة في هذا الزمان، هذا على فرض الاحتمال لها)[3].

فـ (الذين أُنزل عليهم القرآن وخاطبهم النبي عليه الصلاة والسلام قد أحاطوا بمجموعهم علماً بمعناه، وفهموا مراده، ولم يفتهم منه شيء، كما يدل عليه مفهوم قوله تعالى عن الكفار: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[يونس: ٣٩]، وقوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾[النمل: ٨٤].

---

(١) ينظر: معالم القرآن في عوالم الأكوان: أحمد العجوز، ص ٢٩٨ــ ٢٩٩، والقرآن والطب: أحمد محمد سليمان، ص ١٥.

(٢) نظم القرآن والكتاب: يوسف الحداد، ص ١٤٩ بتصرف يسير، وهذا نقد لما يسمى بالإعجاز العلمي من نصراني!!

(٣) منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية: د/ سعود العريفي، ص ٢٩٨.

ولا نعني بذلك أن المُخاطبين بنصوص القرآن والسنة كانوا يعرفون صحة جميع ما أخبرهم به في الأمر نفسه من طريق آخر غير خبر الرسول، بل نقول: إن ما ذكره لهم على نوعين:

الأول: أمور يعرفون صحتها حسّاً وعقلاً كما يعرفون معناها، وإنما يخاطبهم بها لينبههم على لوازمها، فهي مقدمات ودلائل توصل إلى مطالب أخرى، وذلك كالاحتجاج على المشركين بدلائل الربوبية في الخلق والتدبير التي يعرفونها تماماً ويقرون بها، على بطلان عبادتهم لغير الله تعالى، وبطلان قولهم باستحالة البعث للأجساد، فهذا النوع اجتمع فيه أمران: فهمهم التام للمعنى المراد، وعلمهم السابق بصدقه حِسّاً وعقلاً، وبذلك ساغ الاحتجاج به عليهم.

الثاني: أمور يفهمون معناها بمقتضى لغتهم، لكنهم لا يعرفون صدقها حسّاً، وقد يستبعدونها عقلاً أو يظنون استحالتها، والمؤمن يصدقها بمقتضى خبره لا غير، فهذه مطالب يستدل عليها إجمالاً بدلائل النبوة، ولا تنقلب إلى دلائل إلا إذا ثبتت بمصدر آخر صحيح موافق للنبوة، أو وقعت وفق ما أخبر)[1]، والخوض في تفاصيل الغيب الذي أخبر به النبيﷺ فيما يتعلق بالحقائق الكونية والعلمية من المتعسر تحديده، لأنه يفتقد للأدلة القطعية التي تحدد المراد منه، فهو إخبار مُجمل، والتفصيل فيه يفتقر إلى الدليل.

وإنَّ مما يلفت النظر والانتباه أنَّ هناك إكثاراً وتركيزاً على العلم التجريبي خاصة في العصر الحديث، أثر سلباً على منهج الاستدلال على قضية النبوءة، فنجم عنه فريقان: فريق رفض بعض الغيب كآيات الأنبياء الكونية بدعوى العلم التجريبي، وحصروا دلالة صدق النبيﷺ في القرآن فقط، وهذا حاد عن

---

(١) منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية: د/ سعود العريفي، ص ٢٩٢، وينظر: الإعجاز العلمي إلى أين ؟ د/ مساعد الطيار ص ١٩.

الصواب[1]، وفريق استفاد من العلم التجريبي لإثبات صدق نبوءة النبي ﷺ وهو ما يعرف بـــ (الإعجاز العلمي) بدافع الحماس، وعلى هذا الفريق ملاحظات منهجية لابد من تصحيح مسارها[2]، منها:

* مصطلح (الإعجاز والمعجزة) من المصطلحات الحادثة، التي سببت خلطاً كبيراً في دلائل النبوءة[3]، وهي مقرونة بالتحدي، وهذا لم يقع إلا في نظم القرآن وأسلوبه[4]، والتحدي في المكتشفات العلمية (غير وارد فيها بل غير مستساغ، فإن التحدي يكون على دلالة ناجزة لا موعودة، وإذا كانت موعودة فلا بد أن تكون قريبة الأمد...، ومجرد الوصول للحقائق العلمية ومعارضة القرآن بها على طريقة التحدي بنظم القرآن وأسلوبه يقلب الدلالة رأساً على عقب، فلن يَعجزَ المكتشفون عن أن يقولوا عند ذاك: ها نحن قد وصلنا إليها من غير طريق النبوة، بل بجهد سواعدنا وذكاء عقولنا، ولم نعجز عن ذلك، وحسبنا أن النبوة تأيدت بموافقتها لنا، فنحن أولى بالفلج والظفر عند التحدي، فما الجواب حينئذ؟!)[5]... كما أنَّ السُّنَّة النبوية لم يُتحدَّ بها.

* سبق إخبار النبيﷺ للحقائق العلمية والكونية، وهذا غير صحيح هذا يقلب الدلالة كما مر سابقاً.

---

(١) يظهر هذا جليّاً في حياة محمد: لمحمد هيكل، وهامش السيرة: لطه حسين، وقد تأثر بهذا الاتجاه: محمد عبده، وفريد وجدي، وقد رد عليهما مصطفى صبري في كتابه موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين.

(٢) هناك دراسات عديدة حول هذا الموضوع منها: ضوابط الاستشهاد بالعلم التجريبي في تأييد الوحي دراسة تأصيلية تطبيقية: ماجدة العنزي، بحث تكميلي لمرحلة الماجستير، والإعجاز العلمي إلى أين؟: د/ مساعد الطيار، ومنهج الاستدلال بالمكتشفات الحديثة على النبوة والربوبية: د/ سعود العريفي.

(٣) بينت هذا سابقاً في الباب الأول: النبوءة وأدلتها، وهناك مَن يذهب إلى أن مصطلح (الإعجاز) استعمله العلماء من غير نكير، وهذا غير صحيح، ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه: د/ عبد الله المصلح، ص ٢٠، و ص ٢٣.

(٤) يراجع: الفصل السادس: دلالة النظم والأسلوب.

(٥) منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية، ص ٣٠٢-٣٠٣. بتصرف يسير.

والسؤال المهم: لماذا التركيز على العلم التجريبي في هذا العصر؟!

لا ينكر عاقل أن العصر الذي نعيشه هو عصر المكتشفات الحديثة التي تطالعنا بين فينة وأخرى نتاج وسائل العلم التجريبي الحديثة التي تقدمت بشكل متسارع وملحوظ، ولا يعني هذا خلو العصور الماضية من هذا النوع لكن وفق الوسائل المتاحة في كل عصر، وقد حاول البعض الاستفادة منه في إثبات مسائل الدين، وهذا ما يعرف بالتفسير العلمي الذي كان الخلاف حوله مشهوراً ومعروفًا بين العلماء[1]، ما بين مؤيد له، وبين معارض له[2]، وهو مقدمة للإعجاز العلمي[3]، ومفاده أن تتوافق معاني الآيات التي أشارت إلى الكون مع العلوم التجريبية، فيؤُول معنى الآيات إلى النظريات العلمية كما مر في مثال الذرة[4].

أما عن أسباب الفتنة بالعلم التجريبي، فمنها:

* الشعور بالهزيمة النفسية أمام الغرب المتقدم ماديًا بظاهر علوم الحياة الدنيا في مناحٍ كثيرة منها العلم التجريبي، وتأخر المسلمين في هذا الجانب ولَّد لدى فئام من الناس التركيز عليه لمواكبة القوم وإحراز التقدم عليهم بصبغة علمية دينية.

* غياب الاستعلاء بالإيمان واليقين من واقع أمة الإسلام، واهتزاز الثقة بدلائل العقيدة لأنها في نظر بعض الناس تقليدية.

* إغفال كنوز الكتاب والسنة الصحيحة والتي بها يتحقق الاكتفاء المنهجي، ويكون النصر والتمكين وإحراز التقدم على سائر الأمم.

---

(١) هناك مَن يقول بأن الإعجاز العلمي متفق عليه، والتفسير العلمي مختلف فيه. ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: د/ عبد الله المصلح، ود/ عبد الجواد الصاوي، ص ٣٢.

(٢) ينظر: مجموعة اتجاهات التفسير في العصر الراهن: عبد المجيد المحتسب، ص ٢٦٠ـــ٣١٤، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: د/ فهد الرومي (٢/ ٥٦٣ـ ٦٠٤).

(٣) ينظر: منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية: د/ سعود العريفي، ص ٢٩٤.

(٤) هناك مَن يحاول قطع الصلة بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي مع أن مفادهما واحدٌ على اختلاف الوسائل في كل عصر. ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: د/ عبد الله المصلح، ود/ عبد الجواد الصاوي، ص ٣٢.

* التأثر بالمناهج الغربية ومحاولة الاحتذاء بها، دون سبر لغور حقيقتها، واستخدام المنهج الإسقاطي والتلفيقي، مع تجاهل إخفاق الفكر المادي الطبيعي في تفسير وفهم الظواهر الثلاث الكون والحياة والعقل.

ولقد غاب عن هؤلاء القوم المفتونين بالعلم التجريبي الذي بدؤوا بأسلمته أنَّ المكتشفات العلمية لم تصل إلى النهاية، لعدم الإحاطة بخفايا العلوم التجريبية وهذا ما يصرح به علماء الغرب الذين أحرزوا التقدم فيه(١)، كما أن العلم الإنساني يختلف من عصر لآخر، ولكل عصر مكتشفاته، فما وصل إليه عصر من العلوم يكون أقصى ما وصل إليه من العلم في ذلك العصر ولكنه ليس أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني(٢).

فمَن يضمن لنا أن المكتشفات العلمية وصلت إلى النهاية؟! وقد يفاجئنا ما هو جديد! كما (أن تقدمنا الحثيث في العلوم يقربنا حقيقة من الاعتراف بجهالتنا، والإقرار بأن مثل ما نعلمه من الكون في جانب ما نجهله منه كمثل قطرة واحدة من محيط خضم عميق، ذلك أن كل باب جديد يفتحه العلم من دلائل عظمة الكون وامتداده ينفتح معه أفق أوسع للسؤال عما يتصل بهذا الميدان الجديد من المشكلات الكثيرة الغامضة.

وهكذا كان اتساع نطاق المعلومات هو بنفسه اتساعاً لنطاق المجهولات؛... فلا يسع العقل إلا التسليم بأن وراء كل مرحلة يقطعها من عالم الشهادة مراحل أخرى من عالم الغيب، في آماد وآباد، لا يدرك الإنسان نهايتها إلا إذا انقلب المحاط محيطاً، والحادث الفاني أزليّاً باقياً، وصدق القرآن حين يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥])(٣)

---

(١) أينشتاين وألكسيس كيرل ممن اعترف بهذا، ينظر: العالم بين العلم والفلسفة: جاسم العلوي، ص ١٦٧.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن الندوي ص ١٩٣.

(٣) الدين: د/ محمد دراز ص ٨٨.

من الضرورة بمكان أن أبين العلاقة بين العلم والدين؟!

إنَّ مما ينبغي أن يوضـــح ويبين حدود العلاقة بين العلم والدين، فهي في الدين الإسلامي علاقة تكاملية متناسقة لا صراع ولا تناقض ولا تعارض بينهما أبداً، لأن الدين يشتمل على حقائق أساسية كالعقائد والشعائر المتصلة بالعلم، وهذا يجعلنا نهتم بمعرفة حدود العلم حيث هناك ثمة جدل يدور حول حدوده، فمن المحال حصر العلم في العلم التجريبي فقط كما هو واقع العصر الحديث[1] ومن ثم وضعه مقابل الدين.

إنَّ وضـع الدين مقابل العلم التجريبي منهج غير صـحيح لأنه لا تقابل بينهما، فالدين الحق يعترف بالمنهج العلمي التجريبي وسـيلة للمعرفة، لكنه ليس وسـيلة لكل المعارف، ولا هو الوسـيلة الوحيدة لأنه غير كافٍ في الاسـتدلال، فالحواس ليســت هي الطريق الوحيد إلى معرفة كل ما يحتاج الناس إلى معرفته، ولا تناقض بين الا ستدلال بالحس في معرفة ما من شأنه أن يعرف به، وبين الا ستدلال بالعقل في معرفة ما من شـأنه أن يعرف به[2]، وهذه المقابلة بين العلم والدين، والعلم والعقل تذكرنا بمقابلة المتكلمين بين العقل والنقل، وفي حقيقة الأمر أنَّ من يعتمد على المعرفة الحسية فحسب ويرفض المعرفة العقلية هو يرفضها بعقله لا بحسه.

ما سبب مقابلة العلم التجريبي بالدين؟!

هناك من صـور العلاقة بين العلم والعقل والدين بأنها علاقة صـراع وتناقض[3] في ظل ظروف كنسـية غيبت العقل والعلم فحاربتهما تحت مظلة الدين لتهيمن

---

(١) ينظر: العلم والدين في الفلسـفة المعاصـرة: إميل بوترو. ص ٢٠٢، و ص ١٩٩ـــ ٢٠٠، وبسـط التجربة النبوية: عبد الكريم سـروش، المقال ٢، ص ١٠٤؛ والفيزياء ووجود الخالق: جعفر إدريس، ص ٤٥.

(٢) ينظر: الفيزياء ووجود الخالق: جعفر إدريس، ص ٢٩ـــ٣٠، والدين والعلم في الفكر العربي الحديث: د/ عزمي زكريا، ص ١١٢، ١١٦، ١١٨، ١٢٢، والنبوة والعصر، ص ٧٩.

(٣) ينظر: جدلية القرآن: د/ خليل أحمد، جدل الوحي والوعي ص ٩٥ـ ١٠٠.

على البشرية للحفاظ على قدسيتها، من هنا نجم العداء القائم على أشده بين العلم والدين فهناك مَن رفض الدين بنظريات علمية كنظرية النشوء والترقي والتطور[1]، فالعلم قابل للتغير في حين أن الدين غير قابل للتغير، فالدين كما يزعمون من أخطر معوقات التحضر والتطور[2].

وحقيقة الأمر في العلاقة بين العلم والدين أن الحقائق الكونية لا يمكن أن تختلف أبداً مع ما أخبر به الأنبياء، الذين دللت البراهين على صدق نبوءتهم، لذا لا يمكن أن يكون هناك تعارض بينهما، لأن الله وحده هو خالق الكون ومنزل الكتب، وباعث الرسل، وليس إخبار القرآن هو أمراً خاصّاً به وحده، بل كل مَن عنده علم بالكتاب يعلمها وإن أصاب الكتب السابقة شيء من التحريف، وعلى هذا فليس للقرآن ولا للنبيﷺ سبق للإخبار عنها.

وإنَّ مما لابد من معرفته أن ظروف نشأة العلم التجريبي في الغرب كانت نتيجة ثورة علمية على طغيان الكنيسة الذي كان يتستر برداء الدين في العصور الوسطى، فأخذ يحارب العلم والعلماء باسم الدين، لأن السلطة البابوية أرادت تغييب العقول بالكلية بهيمنة كنسية كبتت الفكر المبدع، وأصابته بالشلل، وحطمت جهود من يفكر[3]، ولو تحرك العقل وأفاق من سباته لأنكر ما يحدث، هنا قامت ثورة العقل الأوربي، وقد تمثلت الثورة العقلانية (حركة الإصلاح البروتستانتي) على هيمنة التعاليم الكنسية، فعارضوا الطقوس الدينية، واحتكار رجال الدين للسلطة الدينية، وسلطة البابا المطلقة، فتحرر العقل من قيود الكنسية الدينية وهيمنتها.

---

(١) ينظر: فلسفة النشوء والارتقاء: شيلي شميل، ص ٥١.

(٢) ينظر: مقدمة السوبر مان: سلامة موسى، ص ٢٣.

(٣) ينظر: تاريخ الكنيسة (٤/ ٧٠).

ومن هنا تخلص العقل بثورته من عائق الدين الكنسي الذي كان يقف أمامه ويحول بينه وبين التقدم العلمي فهو بمثابة حجر عثرة أمام البحث العلمي المستقل القائم على العقل والتجربة.

فلم يعد العقل في عصر النهضة مُغيباً ولا مُنقاداً لتعاليم الكنيسة فهو قد نبذها، وبدأ بإحياء الآداب اليونانية والرومانية التي اهتمت بالإنسانيات، مما أكد النزعة الإنسانية التي اتجهت إلى إعلاء الفكر الإنساني ورد القيم إلى العقل لا إلى الدين، ومن شدة الحرص على التراث اليوناني ثم تعلم اللغة اليونانية حرصاً منهم على ترجمة تراثها إلى اللاتينية[1].

وبدأ الاهتمام بالطبيعة الحافلة بالحقائق، فانبعثت صيحة روجن بيكون بتأكيد أهمية العلم التجريبي، فأُنشئت الجمعيات العلمية لتأييد هذه الصيحة، فكانت تمهيداً لنشأة العلوم الطبيعية المؤيدة بالمخترعات والمكتشفات الحديثة، المنعزلة تماماً عن الدين كمصدرٍ لهذه العلوم الطبيعية الكونية.

وهذا الاهتمام البالغ بالعلم التجريبي في عصر النهضة هو ردة فعل للعصور الوسطى[2].

وفي ظل التقدم العلمي الملموس في أوربا والذي تحرر من قيود الكنيسة التي فرضتها على العقول، وتمت تنحية الدين عن الفكر الإنساني.

وتجدر الإشارة إلى أمر ظهر بالغ الأهمية وهو مدى ملاءمة العلم مع الدين ؟! مع الكتاب المقدس ؟! ذلك لأن الكنيسة فرضت آراء علمية قهراً حيث لا تتقبل أي نقاش فيها، إضافة إلى أن الكتاب المقدس قد احتوى على بعض الآراء العلمية التي أثبت العلم الحديث عدم صحتها.

---

(١) ينظر: المرجع السابق.

(٢) أثر الكنيسة على الفكر الأوربي ص ٧٠ ـ ٧٤.

ومن هنا سنلاحظ صراعـاً آخر بين الدين والنظريات العلمية التي دسها بعض رجال الدين في الكتاب المقدس، وبين العلم الحديث القائم على العقل والتجربة، والذي يؤكد مخالفة النظريات العلمية التي أثبتها الكتاب المقدس للعلم، وفي ذلك يقول موريس بوكاي: (وجدت في سـفر التكوين وحده مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسـوخاً في عصـرنا) [1]، ونصبت الكنيسة العداء بمُسمى الدين للنظريات العلمية الحديثة والتي لا تتفق مع نظريات الكتاب المقدس، ولم تسـتطع أن تؤيد العلم الحديث ولا أن تقف بجواره لأنها أسـست صرحها على كتاب مقدس تدعي العصمة له فاحتدمت حدة الصراع المفتعل بين العلم والدين، فنصب العداء للغيب والدين، وتم الاعتماد على كل ما هو ملموس ومحسـوس ومشـاهد ومجرب بدعوى العلم، وكانت الفجوة كبيرة جدّاً بين العلم والدين، أدت إلى تناقضهما.

إنّه من المهم جدّاً قراءة المشـهد الذي ظهر فيه سـلطان العلم التجريبي في الغرب بصورة كاملة لا اجتزاء فيها.

وفي هـذه الأثنـاء احتـك جيـلٌ من أبنـاء المسـلمين بـالغرب ففتنوا بـالمنهج التجريبي، فأولعت نفوسـهم بهذا المنهج، وهم في الوقت ذاته يشـعرون بالهزيمة النفسـية إزاء تقدم الغرب، نتج عن هذا إنكار كثير من أمور الدين التي ترتكز على الغيب، وقراءتها بما هو مشـاهد ومحسـوس، كمسـألة النبوءات وما يتعلق بآيات الأنبياء السابقين، واليوم الآخر، فظهر التأويل وفقاً للعلوم التجريبية، واعتمد على المنهج النقدي العلمي لكل الحقائق الدينية، وهو ذاته المنهج الذي اسـتخدمه الغرب إبان الثورة على الكنيسة.

---

(١) دراسة الكتاب المقدس في ضوء المعارف الحديثة ص ١١.

وتناســى بعض المســلمين المنبهرين بحضــارة الغرب المادية أنَّ الدين الإســلامي لا يرفض الحقائق العلمية وليس بينهما أي عداء البتة، بل هو يهتم بالعقل ويلفت نظره إلى حقائق الكون والعلم ليزداد إيمانه بربه، كما أن القرآن والســنة أثنيا على العلم والعلماء في مواطن عدّة، وصــنف العلماء كتبًا في فضــل العلم وأهله وآدابه، فالدين يشجع على العلم ويثني على العلماء.

فالعلاقة بين العلم والدين في الأدبيات الإســلامية تختلف تمامًا عن العلاقة بين العلم والدين في الأدبيات الغربية.

ثم ماذا لو لم تظهر المكتشفات العلمية ؟! هل يقدح هذا في دلالة صدق نبوءة النبيﷺ؟!

ماذا لو لم يؤمن شخص ما بالمكتشفات العلمية ودلالتها على صدق النبوءة؟!

هل يلزم كل مَن أدرك ورأى المكتشفات العلمية أن يؤمن بنبوءة محمدﷺ؟!

هل تنتفي دلالة صدق نبوءة النبي ﷺ بانتفاء دلالة المكتشفات العلمية؟!

كما أن الاستدلال بــالعلم التجريبي على صدق نبوءة النبيﷺ طريقه طويل شاق عسر، ودلالته ظنية محتملة مضطربة مثل دليل الحدوث، ومما لا شك فيه أن تطويل طرق الاســتدلال من غير حاجة مذموم، وهو على خلاف الطريقة الشــرعية في بناء الأدلة[1]، كما أنه يتنافى مع الوضــوح والبيان الذي اتســمت به أدلة النبوءة والتي ســبق بيانها، مع وفرة الدلائل والبراهين على صدق النبوءة.

ماذا لو اختفت المكتشــفات العلمية الحديثة؟! أو لم تظهر ؟! هل هذا يتفق مع سمات أدلة النبوءة التي لا تقتصر على زمن دون آخر، بل هي مستمرة باقية؟!

فالمكتشــفات العلمية الحديثة قد تُهمل حقائق هامة إهمالاً تامًا، لأن العقول تميل بطبيعتها إلى نبذ الأشــياء التي لا تتلاءم مع إطار معتقدات العصــر الحديث،

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢١).

فالعلماء بشر قبل كل شيء، وهم غارقون في أفكار بيئتهم وعصرهم، وهم لم يهتموا بالتكوين العقلي للإنسان ولا بمطالبه الدينية[1].

وعليه فإنَّ استنساخ المنهج الغربي ومحاولة تطبيقه وأسلمته على العلوم الدينية لن ينتج لنا منهجاً معرفيّاً متكاملاً، بل سينتج لنا منهجاً ملفقاً يتسم بالخداج، فالحقول الدلالية متباينة بين دلائل العلم التجريبي ودلائل صدق النبوءة، فالاستدلال بالمكتشفات العلمية الحديثة يدل صراحة على وجود الله وإمكان البعث، وهذا ما نبه إليه القرآن، ولا يدل مباشرة على صدق نبوءة النبيﷺ.

فالقيام بنقل الأفكار دون أن نمعن النظر في المنظومة الفكرية المتكاملة بمضامينها الفلسفية، أفقد المقدرة على الربط بين الأفكار، لذا لم يكن ثمة إنتاجٌ في تطوير الموقف النقدي تجاه ما ينقل من أفكار، وهذه سمة قصور في الفكر التحليلي العربي[2].

إنَّ المنطلقات الفكرية تتشابه كثيراً بين المتكلمين الذين فتنوا بمنطق اليونان، وبين المعاصرين الذين فتنوا بالعلم التجريبي، إذ أصبح تأويل النصوص الدينية مُستساغاً وفق قانون العقل الذي يتعارض مع النقل تارة، أو قانون العلم التجريبي الذي يتعارض مع النقل أخرى، وكلاهما يستند على العقل في تأويله وإن لم يكن بيناً عند أنصار العلم التجريبي، والرد على هؤلاء يكون بأنه ليس هناك تعارض بين النقل ولا العقل ولا العلم، فوحدة مصدرها تنفي التناقض عنها، فمنزل النقل هو خالق للعقل موجد للكون والعلم باعث للأنبياء، وعدم المخالفة بين الحقائق الكونية والعلمية، وما أخبر به الأنبياء هو دليل على صدق نبوءتهم، لا أن ما جاء به الأنبياء يوافق الحقائق الكونية والعلمية.

---

(١) ينظر: الإنسان ذاك المجهول: ألكيس كاريل ص ٥٣.

(٢) ينظر: الرد على المنطقيين ص ١٦١.

وعدم مخالفة ما جاء به النبي ﷺ للعقل والفطرة والأنبياء الســابقين وللحقائق العلمية والكونية هو أحد الأدلة التي تبرهن على صدق نبوءة النبي ﷺ.

* * * * *

الفصل الخامس

دلالة كثرة الغيوب التي أخبر بها النبي ﷺ

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول

الإخبار عن أمور غيبية مستقبلية

إنَّ حقيقة النبوءة هي الإخبار عن الغيب، كما سبق بيانه في تعريفها(١)، ومَن لم يخبر عن الغيب لا يكون نبيّاً(٢) ومما هو معلوم أن الأنبياء كانوا يُخبرون عن أمور غيبية جُملة وتفصيلاً، منها الإخبار بالمُغيبات المُستقبلية، وهو أحد الأدلة المُشتركة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٣)، ومما أخبروا به ما يلي:

□ إخبار عيسى عليه السلام لقومه بما يأكلون ويدخرون، وهو أمر غيبي، قال تعالى عنه: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٤٩] فهو يُخبرهم بما يأكلون مما لم يُعاينه ويُشاهده معهم في وقت أكلهم، ويُخبرهم بما يدخرون مما يرفعونه فيُخبئونه ولا يأكلونه(٤)، فمَن الذي أخبره؟! وهو يُبين أن إخباره بالغيب الذي لا يعلمه آية على صدق نبوءته.

□ إخبار يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن بما يأتيهما، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[يوسف:٣٧] فيوسف عليه السلام يُخبرهما بالغيب مستدلًّا على نبوءته إذ مصدر ذلك الغيب هو الله تعالى.

وقد يقول قائل: (رأينا المُتنجمة والمُتكهنة تخبر بالغيب كثيراً فتصيب ؟

قيل: إن المُتنجم والمُتكهن معلوم منهما أنهما يُنبئان بالغيب عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه، ولم يكن ذلك كذلك من عيسى صلوات الله عليه ومن سائر أنبياء الله ورسله، وإنما كان عيسى يُخبر به عن غير استخراج، ولا

---

(١) يراجع: الفصل الأول: النبوءة وأدلتها، المبحث الأول: التعريف بالنبوءة.

(٢) ينظر: شرح الأصفهانية ٦٨١.

(٣) ينظر: النبوات (١/ ٤٩٣، ٢/ ٨٠٧)، والجواب الصحيح (٥/ ٤٣٤)،

(٤) ينظر: جامع البيان (٦/ ٤٣٢).

طلب لمعرفته باحتيال، ولكن ابتداء بإعلام الله إياه، من غير أصل تقدم ذلك احتذاه، أو بني عليه، أو فزع إليه، كما يفزع المُتنجم إلى حسابه، والمُتكهن إلى رئيه.

فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها، وبين علم سائر المُتكذبة على الله، أو المُدعية علم ذلك)[1].

(كما أنَّ المتنبئ الكاذب الذي يخبر عن غيب لا بد أن يكذب فيه، ويظهر كذبه، وإن كان يصدق أحياناً في شيء مما يُخبر، لكن كذبه أغلب من صدقه، بل تتناقض أخباره وأوامره، وهذا جرت به سنة الله التي لا تتبدل، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢]، وهذا بخلاف النبي الصادق المصدوق فيما يُخبر به عن الغيوب، توجد أخباره مطابقة صادقة، وكلما زادت أخباره ظهر صدقه)[2].

☐ إخبار جميع الأنبياء عن فتنة المسيح الدجال، يقول النبي ﷺ: «ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر»[3]، فالأنبياء لم يكونوا يعلمون وقت خروجه، ولكنهم يعلمون أنه خارج، ولهذا أنذروا أممهم من ذلك[4]، وهو من أعظم الفتن من آدم إلى قيام الساعة يقول النبي ﷺ: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال»[5]، ووجه دلالة الإخبار بفتنة الدجال والتحذير منه والذي هو من أشراط الساعة على نبوءتهم يتبين من أوجه منها:

---

(١) جامع البيان، (٦/ ٤٣٤) بتصرف يسير، وينظر: التفسير الكبير (٤/ ٢١٦).

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية ص ٦٨١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٧١٣١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، (٧٥٤٨).

(٤) ينظر: شرح سنن أبي داود ؛ عبدالمحسن العباد (٢٥/ ٩١).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية أحاديث الدجال، (٧٥٨٢).

أولاً: إخبارهم بفتنته وهو لم يظهر بعد، إخبار بأمر غيبي سيقع في المستقبل، حيث إنهم أخبروا به قبل أن يكون.

ثانياً: الدجال إذا ظهر بعد مئين وألوف من السنين كما أخبر به الأنبياء كان هذا من آيات صدقهم[1].

ثالثاً: مُحال أن يتواطأ جميع الأنبياء على الإخبار بأمر كاذب، كما أنه لم يثبت أن نقض أحدهم خبر الآخر.

رابعاً: في خبر النبي محمد ﷺ بتحذير الأنبياء من فتنة الدجال خبر عن أمر غيبي ماضٍ، وخبر عن أمر غيبي مستقبلي وهو تحذير الأنبياء جميعاً لأقوامهم من فتنة الدجال.

خامساً: إخبار الأنبياء بأشراط الساعة هو إخبار بالساعة، وكل مَن آمن بالساعة آمن بمَن أخبر بها وهم الأنبياء، وكل مَن كذب الأنبياء كذب بالساعة، قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[الأنعام: ١١٢ - ١١٣][2].

❑ إخبار الأنبياء السابقين وبشاراتهم بنبوءة محمد ﷺ قبل أن يُبعث بمدة طويلة، وهذه البشارات كانت معروفة قبل أن يبعث النبيﷺ، وهذه الدلالة لا ينتفع بها إلا مَن صدق بتلك الكتب التي وردت فيها البشارة به[3] كأهل الكتاب،

---

(١) ينظر: النبوات (١/ ٤٩٥).

(٢) ينظر: النبوات (١/ ٨٥٤-٨٥٥).

(٣) ينظر: إثبات نبوة النبي ﷺ، ص٣٢.

فالبشـارة بالنبيﷺ إخبار عن أمر غيبي سـيقع في المسـتقبل، ويتبين هذا من وجوه عديدة، منها:

- أنَّ (الله تعالى جعل من دين الرســل، أن أولهم يُبشــر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يُصــدق بأولهم ويؤمن به، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران: ٨١])[1].

- البشـارة به في الكتب المقدسـة، فموسـى يُبشـر به[2]، فبعدما نزل من جبل الطور، يقول مُخاطباً لبني إسـرائيل: (قال لي الرب: أُقيمُ لهم نبيّاً من وســط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به) [3].

وقد يقول قائل: وما الدليل على أن هذه البشارة خاصة بمحمدﷺ؟ وقد تكون بشارة بعيسى كما يزعم النصارى، وهذا الذي يراه بطرس[4]؟

يُقال له: النص ذاته يُبرهن على أنه محمدﷺ وليس عيسى.

فموسى يُبشر بنبوءة نبي، والنصارى تدعي لعيسى الإلهية، أو أنه الإله نفسه، فكيف يقول لهم: (أقيم لهم نبيّاً) وهو إله؟ ولقال: أقيم إلهـاً على معتقدهم في عيسى.

---

(١) التدمرية ص١٧٠، وينظر: الرد على المنطقيين (٢/ ١٧٩ـ١٨١).

(٢) ينظر: بذل المجهود في إفحام اليهود ص٧٨ ـ ٨٥.

(٣) التثنية، ١٧ :١٨ـ ٢٢.

(٤) ينظر: أعمال الرسل، ٣: ٢٢ـ٢٦.

صفات النبي الذي بشر به موسى تنطبق على محمدﷺ ولا تنطبق على عيسى، فمن ذلك: (أجعل كلامي في فمه) أي أنه لا يقرأ ولا يكتب، والوحي الذي يأتيه شفاهي، يُغاير ما جاء الأنبياء قبله من صحف مكتوبة، وقد كان عيسى قارئاً[1].

يُبلغ دينه كاملاً (يكلمهم بكل ما أوصيه به) وهذه تحققت في محمدﷺ من جهة خبر عيسى: (وأما المُعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يُعلمكم كل شيء، ويُذكركم بكل ما قلته لكم)[2]،ويقول لهم كما هو وارد في كتبهم: (إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك الروح الحق فهو يُرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به)[3].

ومحمدﷺ يُخبر عن أنه أكمل الدين الذي أوحاه الله إليه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣][4].

كما تبين البشارات مكان خروج النبي محمدﷺ المُبشر به من فاران[5]، حيث جاء فيها: (وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب...)[6].

ومما ورد أيضاً من البشارات في الكتاب المقدس التصريح باسم أحمد، (و سوف يأتي (أحمد) (محماد) (مُشتهي) لكل الأمم)[7] على ما وقع من تحريف في النسخ بين أحمد ومحماد ومُشتهي.

---

(١) ينظر: لوقا، ٤: ١٦-١٨.

(٢) يوحنا،١٤: ٢٦.

(٣) يوحنا،١٦: ١٢-١٣.

(٤) للاستزادة: ينظر: بذل المجهود في إفحام اليهود، ص٦٨، وهل بشر الكتاب المقدس بمحمدﷺ ؛ د/ منقذ محمود السقار، ص ٧٥-٨٢، ومحمد في الكتاب المقدس ؛ عبد الأحد داود ص٣١.

(٥) ينظر: التكوين، ٢١: ٢١.

(٦) الإصحاح، ١٣: ١٧.

(٧) حجاي، (٢: ٧)

ومعنى محماد في اللغة العبرية كما يوضح د/ عبد الأحد داود الخبير باللغات هو الأُمنية الكبيرة أو المُشتهي، فمحماد هي الصيغة العبرية لأحمد التي أضاعها المُترجمون عندما ترجموا الأسماء[1].

وهذه البشارة وغيرها تتفق مع ما أخبر به محمد ﷺ عن عيسى الذي بشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الصف: ٦].

يقول صاحب قصة الحضارة: (لفظ محمد مُشتق من الحمد، وهو مُبالغة فيه، كأنه حمد مرة بعد مرة، ويُمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر به)[2].

ومما ورد من بشارات أيضاً: (وسوف أسأل الأب وسوف يُعطيكم برقليطوس آخر يبقى معكم للأبد)[3]، وبرقليطوس هو الأمجد والأشهر والمستحق للمديح[4].

وأود أن أنبه إلى أن ما حدث من تحريف في الكتاب المقدس بين نسخه، أدى إلى اختلاف بينها، لا يعتد به، خاصة فيما يتعلق بتلك النسخ بالتبشير بالنبيﷺ، ذلك أن كل مَن نقل من العلماء الأوائل يذكر لنا بشارة الكتاب المقدس ببعثة النبيﷺ وورود اسمه[5]، يقول ابن تيمية موضحاً للقضية ذاتها: (قد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه، ورأيت نسخة أخرى من الزبور

(١) ينظر: محمد في الكتاب المقدس ص٥٠.
(٢) قصة الحضارة ؛ ويل ديورانت (١٣/ ٣٧٥).
(٣) يوحنا، ١٤: ١٦.
(٤) ينظر: محمد في الكتاب المقدس ص٢٢٢-٢٢٩.
(٥) ينظر: أعلام النبوة؛ للماوردي ص٩٢، وبذل المجهود في إفحام اليهود، ص ٦٧- ٩٢، والتفسير الكبير(٣/ ٣٧)، والأجوبة الفاخرة؛ للقرافي ص٢٥٣، والجواب الصحيح (٣/ ٣٢٦)، وهداية الحيارى؛ لابن القيم ص٤٠٣، والجواب الفسيح؛ للآلوسي ص٩٧.

فلم أرَ ذلك فيها، وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ما ليس في أخرى)[1].

• توافق ما بشر به الأنبياء من بعثة محمد ﷺ مع ما أخبر به محمد ﷺ مرة بعد أخرى من أن الأنبياء الذين قبله بشروا به، ومن ذلك قوله عن إبراهيم وإسماعيل، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة: ١٢٩]، وبشارة عيسى به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، ويؤكد هذه البشارات النبي ﷺ قائلاً: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى»[2].

ولو فرض أنه قال قائل: هذا غير موجود في كتب أهل الكتاب.

قلنا له: لا يمكن القطع بهذا مطلقًا، إذ الكتب السابقة والأنبياء من قبل بشروا بمحمد ﷺ، وأهل الكتاب ومَن اطلعوا عليه ومَن كان عنده علم به يعلمون يقينًا بمبعثه، كهرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر[3]، والنجاشي ملك الحبشة، وعبدالله بن عمرو بن العاص حينما سأله سائل عن النبي ﷺ قائلاً له: «أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٥]، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٢٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب، (٣٥٦٦)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ؛ (١٥٤٥).

(٣) المقوقس هو جريج بن مينا القبطي. ينظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٧٢).

حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً».

وإيمان مَن آمن بالنبي ﷺ من أهل الكتاب كالنجاشي، بعدما تبين له أنه هو النبي الذي بشرت به كتبهم، هو شاهد تأريخي على تحقق البشارة به والتي أخبر بها الأنبياء السابقون[1].

ولا سبيل لأهل الكتاب إلا تصديق جميع ما ورد في كتبهم من حق، للأخذ به، ومن ذلك البشارة بالنبي محمدﷺ، وقد أخبر الله تعالى عن إيمانهم بالنبي ﷺ في قوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[الإسراء: ١٠٧ – ١٠٨] (أي: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً)[2]، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[القصص: ٥٢ ـ ٥٤]، فأخبر الله تعالى عن مُضاعفة الأجر لأهل الكتاب لإيمانهم بأنبيائهم وبالنبي ﷺ، ويقول النبي ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يؤتون أجرهم مرتين.....، ومؤمن أهل الكتاب الذي كان مؤمناً ثم آمن بالنبي ﷺ فله أجران»[3]، فإخبار النبي ﷺ في القرآن مرة بعد أخرى، واستشهاده بعلم أهل الكتاب بنبوءته، وإخباره بأنه مذكور في كتبهم، مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً في كتبهم[4]، ومن ذلك

(١) ينظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، (١/ ٤٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، (٣٠١١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمدﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، (١٥٤).

(٤) ينظر: الجواب الصحيح (٥/ ١٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾[الأنعام: ١١٤]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء: ١٩٧]، وقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الرعد: ٤٣]، فمعرفة علماء أهل الكتاب بأن ما جاء به محمدﷺ من القرآن هو آية بينة على صدق نبوءته[١]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾[الأنعام: ٢٠]، فالله تعالى يُخبر عن أهل الكتاب: بـ (أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ، وببعثه وصفته، وبلده ومهاجره، وصفة أمته؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾أي: خسروا كل الخسارة، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ونوهت به في قديم الزمان وحديثه)[٢].

ويُخبر محمد ﷺ النبي الأمي بـ (أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[الأعراف: ١٥٧]، لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المُنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المُنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يُوجب نقصان حاله، ويُنفر الناس عن قبول قوله؛ فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته)[٣].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٧/ ١٧١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤٥).

(٣) التفسير الكبير (٧/ ٢٧٦)، وينظر: هداية الحيارى ص٤٣، و ص ١٠٥.

ويؤيد هذا إخبار محمد ﷺ بعلم علماء بني إسرائيل بخبره، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء: ١٩٧]، أي: (أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك: أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟ والمراد: العُدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عَمَّنْ أدركه منهم ومَنْ شاكلهم)(١).

ومما يجب التنبيه إليه أن العلم بصدق نبوءة النبي محمدﷺ لم يحصل فقط بما ورد في التوراة والإنجيل من وصفه، بل بأدلة أخرى تضافرت على ثبوت نبوءته(٢)، فجمهور أهل الأرض لم يكن إسلامهم لما ورد عند أهل الكتاب من بشارة؛ لأن أكثرهم لا يعلمونها، فما عند أهل الكتاب من البشارات بنبوءة النبي ﷺ هي مُعضدة لأدلة نبوءته الأخرى(٣).

كما أن المكذبين بنبوءته من أهل الكتاب لم يُمكنهم إنكار البشارة بالنبي ﷺ، لكن جحدوا أن يكون هو الذي وقعت به البشارة، وأنه نبي آخر(٤).

وعدم وجود البشارة بنبوءته في كتب أهل الكتاب لا يلزم منه أن الأنبياء لم يذكروه، بل يمكن أنهم ذكروه وما نُقل، ويُمكن أن يكون ذُكر في كتب غير هذه الكتب التي بين أيدينا، ويُمكن أنه كان في نسخ غير هذه النسخ فأزيل من بعضها، كل هذا مُمكن ولا يُمكن الجزم بنفيه مطلقاً(٥).

في البشارة بمحمد ﷺ دليل على نبوءة الأنبياء الذين بشروا به، حيث أخبروا بأمر مُغيب عنهم، ووقع ما أخبروا به بمبعثهﷺ، وهو يدل على نبوءة النبي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٣٦).
(٢) ينظر: التفسير الكبير (٢/ ٤٢٤).
(٣) ينظر: هداية الحيارى ص١٦.
(٤) ينظر: المرجع السابق ص٤٧.
(٥) ينظر: الجواب الصحيح (٥/ ١٥٤).

محمدﷺ لإخبار من ثبتت نبوءته بنبوءتهﷺ[1]، (فظهور نبوته تصديق لشهادتهم وشهادة لهم بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات: ٣٧] فإن المُرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه، فمجيئه هو نفس صدق خبره، فكأن مجيئه تصديق لهم إذ هو تأويل ما أخبروا به، ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر: إن تصديقه المُرسلين بشهادته بصدقهم وإيمانه بهم، فإنه صدقهم بقوله ومجيئه فشهد بصدقهم بنفس مجيئه، وشهد بصدقهم بقوله. ومثل هذا قول المسيح: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف: ٦]. فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصديقاً لها، ثم بشر برسول يأتي من بعده، فكان ظهور الرسول المُبشر به تصديقاً له، كما كان ظهوره تصديقاً للتوراة، فعادة الله في رسله أن السابق يُبشر باللاحق، واللاحق يُصدق السابق، فلو لم يظهر محمد بن عبد الله ﷺ ولو لم يُبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله. والله سبحانه وتعالى لا يُخلف وعده ولا يُكذب خبره)[2].

(العلم بنبوة محمد والمسيح وموسى لا يتوقف على العلم بأن مَن قبلهم أخبرهم وبشر بنبوتهم، بل طرق العلم بها مُتعددة، فإذا عُرفت نبوة النبي ﷺ بطريق من الطرق ثبتت نبوته ووجب اتباعه، وإن لم يعلم أن مَن قبله بشر به. وإذا علمت نبوته بما قام عليها من البراهين، فإما أن يكون تبشير من قبله به لازماً لنبوته، وإما أن لا يكون لازماً، فإن لم يكن لازماً لم يجب وقوعه ولا يتوقف تصديق النبي عليه، بل يجب تصديقه بدونه، وإن كان لازماً عُلم قطعاً أنه قد وقع، وعدم نقله إلينا لا يدل على عدم وقوعه، إذ لا يلزم من وجود الشيء نقله العام ولا الخاص،

---

(١) ينظر: المرجع السابق (٥/ ١٥٩).
(٢) هداية الحيارى: لابن القيم، ص١٦٠.

وليس كل ما أخبر به موسى والمسيح وغيرهما من الأنبياء المُتقدمين وصل إلينا، وهذا مما عُلم بالاضطراد)[1].

إذا تطابقت أخبار الأنبياء جميعاً بالإخبار عن الدجال وهو رجلٌ كاذبٌ، يُحذرون أقوامهم من فتنته، فكيف لا تتطابق أخبارهم جميعاً على التبشير بنبوءة محمد ﷺ، وهو رجلٌ صادقٌ أمين[2].

إخبار جميع الأنبياء باليوم الآخر[3]، فبيان البداية والنهاية، والحال والمآل، والعمل والجزاء عليه للإنسان من الضرورات التي بينها الأنبياء، لذا كانت الحاجة ملّحة لبعثتهم، إذ معرفة هذه الأمور من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وحده، والأنبياء الذين يُطلعهم الله على ما شاء من الغيب، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾[الجن: ٢٦ ـ ٢٨]، ولقد أخبر النبي ﷺ بتفاصيل الجنة والنار، واليوم الآخر، وهو غيب عن الخلق كلهم، فأنّى لمحمد ﷺ الأمي أن يخبر بدقائق تفاصيل ذلك اليوم مرة بعد أخرى؟ وقومه يكذبون خبر المعاد الذي نبأهم به بشتى الطرق؟! ومع هذا يمضي محمدٌ ﷺ في خبره عن دقائق وتفاصيل اليوم الآخر، ولا يهاب قومه، بل يمضي ويُعلن هذا الخبر مرة بعد أخرى بكل جرأة دون تهيبٍ منهم.

لو كان محمد ﷺ يأتي بالقرآن من عند أحد غير الله أو من عند نفسه كما يزعم المكذبون لتراجع، ولتردد، ولتلكأ، لكنه كان يمضي واثقاً بكل ما يُخبر به، على

---

(١) هداية الحيارى ص١١٦.

(٢) المرجع السابق ص٥١.

(٣) يراجع: الفصل الرابع: مضمون الرسالة، المبحث الثاني: عدم مخالفة ما جاء به النبي ﷺ للأنبياء السابقين، هناك بينت اتفاقهم على الإخبار باليوم الآخر، وهنا سأبين أنهم جميعاً أخبروا عنه من جهة أنه عن أمرٍ مغيب.

شـــدة ما واجه من قومه من التكذيب، حيث لم تعِ عقولهم قضـــية البعث لليوم الآخر؛ لأنها ليست من إرث عادات وتقاليد آبائهم.

لذا ربط الله تعالى الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[الأنعام: ٩٢]، فما جاء به محمد ﷺ مبني على الإيمان بالبعث والقيامة، وليس لأحد من الأنبياء الإكثار لتقرير هذا مثل ما جاء به محمدﷺ، فلهذا الســبب كان الإيمان بنبوءة محمدﷺ وبصـــحة الآخرة أمرين متلازمين[١]، ولعل ســبب الإكثار في تقرير اليوم الآخر أن النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء، فلا نبي بعده، والســاعة بعده مباشــرة، فكانت بعثته علامة على قرب الســاعة[٢]، يقول النبيﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، قَالَ: وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى»[٣].

وفي إخبار الأنبياء بالأمور الغيبية المســتقبلية ردٌّ على مَن قصــر دليل النبوءة (المعجزة) على اقترانها بزمن دعوى النبوءة فقط[٤]، فبعثة محمد ﷺ وأشــراط الساعة والساعة نفسها أمورٌ غيبية أخبر عنها الأنبياء جميعاً ولم تقع في زمن دعوى نبوءتهم.

❑ إخبار النبيﷺ عن الغيوب الكثيرة التي وقعت في المســتقبل كما أخبر، ومما ورد في القرآن وأخبر به النبي ﷺ ما يلي:

○ إخباره بأنه ســيُغلب الكفار المكذبين بنبوءته، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[آل عمـران: ١٢]، وقـال: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[القمر: ٤٥] فهو يُخبر بـأن مَن أُرســل إليهم

(١) ينظر: التفسير الكبير (٦/ ٣٧٦).

(٢) ينظر: التذكرة: للقرطبي، ص٦٢٥ ـــ ٦٢٦، وفتح الباري شــرح صـحيح البخاري(١١/ ٣٤٩)، وأشراط الساعة ص٨٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، (٢٩٥٢).

(٤) يراجع: الفصل الأول: النبوءة وأدلتها، المبحث الثاني: التعريف بالدليل ومرادفاته.

فكذبوه سيُغلبون، وأنه سيَغلبهم ويقهرهم، وهم يوم ذاك قوة ويد واحدة يُظهرون العداء للنبيﷺ وصحبه الكرام، والنبي ﷺ ومَن آمن به من الصحابة يوم ذاك قلة[1].

○ إخباره بأن الروم ستَغلِب، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾[الروم: ١-٢] (وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوءة، وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله)[2].

○ إخباره عن تحقق رؤياه بدخول مكة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾[الفتح: ٢٧]ف النبي ﷺ يُخبر أصحابه بالرؤيا وهي لم تقع بعد، ثم تتحقق رؤيا النبي ﷺ، ويدخلون مكة، فهذا يدل على صدق نبوءة النبيﷺ.

○ إخباره عن هلاك رؤوس الكفر، وأنهم يُصرون على كفرهم حتى يموتوا، وبيان العذاب الذي يحل بهم[3]، ومن ذلك إخباره عن أبي لهب وزوجه، وأنهما سيموتان على الكفر، وبيان جزائهما في الآخرة، قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾[المسد: ١ — ٥]، فمات عمه وزوجه على الكفر، ولم يعترض أبو لهب وزوجه على ما أخبر به محمد ﷺ، وتَحقُق ما أخبر به النبي ﷺ من هلاك أبي لهب وزوجه لهو دليل على صدق نبوءة النبي ﷺ، ثم أنَّى لمحمد ﷺ أن يتجرأ ليحكم على نهاية وجزاء أبي لهب وزوجه في الدنيا والآخرة إلا إذا كان يُنبئ عن الله تعالى.

(١) ينظر: تثبيت دلائل النبوة ص ١٦-١٧.
(٢) الكشاف (٥/ ٢٣٣).
(٣) ينظر: تثبيت دلائل النبوة ص ٣٥-٣٧، و ص ٥٢-٥٥.

وإخباره عن الأخنس بن شـريق الثقفي، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾[الهمزة: ١-٩].

وإخباره كذلك عن الوليد بن المغيرة، قال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَـٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾[المدثر: ١١-٢٩].

فهو يُخبر عن بقائهم على الكفر، وعن مآلهم، وعقابهم في الآخرة، و بالفعل ماتوا على الكفر فتحقق ما أخبر به النبيﷺ، ولم يعترض أحدٌ على خبره هذا، ولم يُكذبه أحد فيما أخبر، ألا يدل هذا على صدق ما أخبر به محمدﷺ ؟! وأن ما يُخبر به لم يكن من عند نفسه، ولا من عند مخلوق، بل من عند الله وحده.

إنَّ هذا يدل على أن الإخبار عن هذه الغيوب المستقبلية، إنما حصل بوحي من الله تعالى.

☐ إخبار النبي الصادق بما سيكون من العاقبة والنصرة له ولمَن آمن به وصدَّقه، وهلاك كل مَن كذَّب به، ولم يؤمن به، فما يفعله الله تعالى بمُكذبي الأنبياء من إحلال العقوبات من الهلاك والإغراق والأخذ لمَن كذب بهم، والعاقبة والنصرة لمَن آمن بهم، ولو بعد حين، هي آية خاصة بالأنبياء، ليست هي من جنس ما يوجد من العادات المختلفة لغيرهم(١).

---

(١) ينظر: النبوات (١/ ٥٩٤)، وشرح العقيدة الأصفهانية ص٥٦٥، وص٥٦٧.

فالإخبار بالعاقبة والنصــرة دليل على صــدق النبيﷺ، وهو من أعظم الأدلة والبراهين الدالة على صدقه، فهذه هي سنة الله تعالى التي لا تبديل لها، وهي سُنَّة مُطردة لا تنتقض أبداً، قال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[فاطر: ٤٣][(١)]، (وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته: هو اعتبار الشــيء بنظيره؛ وهو التسـوية بين المُتماثلين، والتفريق بين المُختلفين، وهو الاعتبار المأمور به في القرآن؛ قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[آل عمران: ١٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[الحشر: ٢]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[يوسف: ١١١].

وإنما تكون العبرة بالقياس والتمثيل،... فإذا عرفت قصــص الأنبياء، ومَن اتبعهم، ومَن كذبهم، وأنَّ متبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصــرة والســعادة، ولمُكذبهم الهلاك والبوار، جعل الأمر في المســتقبل مثلما كان في الماضــي؛ فعُلم أن مَن صدقهم كان سعيداً، ومَن كذبهم كان شقيّاً، وهذه سُنة الله وعادته)[(٢)].

(ولو كانوا يفتري الأنبياء على الله الكذب بدعوى النبوة لامتنع في حكمة الله أن يؤيدهم وينصــرهم على هذا الوجه المُطرد، ولكان ذلك تلبيســاً للخلق يتنزه عنه أرحم الراحمين، وحكمة الله تعالى لا تقتضي هذا أبداً)[(٣)].

---

(١) ينظر: الرد على المنطقيين ص٣٩١، والنبوات (١/ ٥١٤)، وشرح العقيدة الأصفهانية، ص٧٠١.
(٢) النبوات (٢/ ٩٦٤).
(٣) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ص٤٩٤.

والنصـرة والعاقبة تكون بالنصر الحسـي المُشـاهد المُتمثل في نجاة الأنبياء وأتباعهم، وهلاك مُكذبي الأنبياء، وا ستئصالهم، وتكون بالنصر المعنوي، وذلك بظهور حُجج الأنبياء وبراهينهم الدالة على صـدقهم، وإذلال مُكذبي الأنبياء والظهور عليهم وإن لم يُستأصلوا(١).

وهذه الدلالة تعلم من جهة السـمع بالأخبار المتواترة التي تفيد العلم، وإن لم نشـاهد شـيئاً من آثارها، كتواتر الأخبار بما جرى لموسـى مع فرعون، فنجى الله موسـى والذين آمنوا معه، وأغرق الله فرعون وزمرته، وتواتر الأخبار بقصـة نوح، وتواتر الأخبار بقصة إبراهيم مع النمرود.

وتارة من جهة البصر المشاهد لمَن رآها كمَن شاهد أصحاب الفيل وما أحاط بهم، أو رأى آثارها الدالة عليها، كآثار أصحاب الحِجر، وقوم لوط.

أو بهما جميعاً، كما تشاهد السفن، ويُعلم بالخبر أن ابتداءها كان سفينة نوح، ومَن يُشـاهد أرض الحِجر وما فيها من البيوت المنقورة في الجبال، ويعلم بالخبر تفصيل الحال(٢).

وتتبين دلالة النصـرة والعاقبة على صـدق الأنبياء من جهة إخبارهم عن غيب لم يقع بعد، كإخبار النبي ﷺ عن عاقبة مَن كذب الأنبياء من قبله، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، وفي عقاب فرعون يقول تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]، وقول شعيب لقومه، قال الله تعالى عنه: ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ

---

(١) النبوات (١/ ٢٠٥، ٢٠٩).

(٢) ينظر: النبوات (١/ ٥١٤)، والجواب الصحيح (٣/ ٤٩١)، وشرح العقيدة الأصفهانية ص٥٦٥.

شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾[هود: ٨٩]، وقول مؤمن آل فرعون، قال تعالى عنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[غافر: ٣٠ ـ ٣١]، والإخبار عن النصرة والعاقبة في المستقبل، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[فصلت: ٥٣]، و قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥]،و قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[الفتح: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ [النور: ٥٥]وقال: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[هود: ٤٩]، فقد دلت دلالة العاقبة والنصرة على صحة نبوءة محمد ﷺ لأنه أخبر عن الغيب، وقد وجد هذا المُخبر موافقاً للخبر، ومثل هذا الخبر دليل على صدق محمد ﷺ[1]، فهو (إخبار عن عادته سبحانه في خلقه وحكمته التي لا تبديل لها، أن مَن آمن وعمل صالحاً مكن له في الأرض، واستخلفه فيها، ولم يُهلكه ويقطع دابره، كما أهلك مَن كذب رسله وخالفهم وقطع دابره فأخبرهم سبحانه عن حكمته ومعاملته لمَن آمن برسله وصدقهم، وأنه يفعل بهم كما فعل بمَن قبلهم من أتباع الرسل)[2].

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (١١/ ٣٦٣).

(٢) جلاء الأفهام؛ لابن القيم ص٢٨٦.

فتحقق وقوع ما أخبر به الأنبياء من أمر مُغيب من جهة سُنة الله المُطردة المُشاهدة والمعلومة بنصر أنبيائه ومَن آمن بهم ولو بعد حين، وبهلاك كل مَن كذب بالأنبياء ولو بعد حين، ومن جهة (ارتباط العاقبة بسببها المباشر وعلتها الظاهرة، فالنصر للأنبياء وأتباعهم بسبب صدقهم وإيمانهم، والهلاك للكافرين والانتقام منهم لكفرهم وعنادهم)(١).

وهذا ما يُخبر به النبي محمد ﷺ مرة بعد أخرى، دون أن يتراجع في قوله، ألا يدل هذا على أن القرآن من عند الله تعالى ولم يكن من عند محمد ﷺ؟!

ولا يمكن أن يُعترض على دلالة العاقبة والنصرة بأن الكفار قد يتسلطون، وتكون لهم الدولة في كثير من الأحيان، كما هو شأن نمرود وفرعون وملوك الكفر، فإن هؤلاء لم يدعِ واحدٌ منهم النبوءة، فالاعتراض بمثلهم ليس وارداً على هذه الدلالة.

أمَّا مَن يدعي النبوءة فهذا إمَّا أن يكون نبيّاً صادقاً فينصره الله وأتباعه ويُهلك عدوه، وإمَّا أن يكون مُتنبئاً كاذباً فينتقم الله منه فيقطع دابره(٢).

(كما لا يُمكن أن يُعترض على هذه الدلالة بأنَّ من الأنبياء من قُتِل، كما فعل بنو إسرائيل بأنبيائهم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[البقرة: ٦١] لأن (حال هؤلاء كحال مَن يُقتل من المؤمنين شهيداً في الجهاد، ومعلوم أن مَن كان هذا حاله فهو أكمل ممَن يموت حتف أنفه، ثم إن القتل لا يتعارض مع حقيقة الانتصار والظهور، فإن الدين الذي قُتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر، فتكون لأهله السعادة في الدارين؛ مَن قُتل كان شهيداً، ومَن عاش كان منصوراً سعيداً، وهذا غاية ما

---

(١) الأدلة العقلية النقلية ص٤٩٧، وينظر: إعلام الموقعين: لابن القيم (١/ ١٨١).
(٢) ينظر: الجواب الصحيح (١/ ٤١٦ ـ ٤١٧).

يكون من النصر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[التوبة: ٥٢]، فإذا كان هذا قتل المؤمنين، فما الظن بقتل الأنبياء، ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدارين ما هو أعظم الفلاح)[1].

وقد استدل هرقل بهذه الدلالة على صدق النبي ﷺ حينما كان يسأل أبا سفيان، «قال: فهل قاتلتموه ؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه...، وسألتك هل قاتلتموه ؟ فزعمت أنكم قد قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً، ينال منكم وتنالون منه. وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة» فحصول العاقبة للأنبياء باطراد، مع قلة العَدد والعُدد من أكبر براهين صدقهم وصحة دينهم، فـ(أي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده، لا عدة له ولا عدد ولا مال، فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويُحذرهم من بأسه ونقمته، فتتفق كلمتهم أو أكثرهم على تكذيبه ومعاداته، فيُذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، فيُغرَق المكذبين كلهم تارة، ويُخسَف بغيرهم الأرض تارة، ويُهلَك آخرين بالريح، وآخرين بالصيحة، وآخرين بالمسخ، وآخرين بالصواعق، وآخرين بأنواع العقوبات، وينجو داعيهم ومَن معه والهالكون أضعاف أضعاف أضعافهم عدداً وقوة ومَنعة وأموالاً!!

فهلا امتنعوا إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عدداً وأقوى شوكة ـ بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه ؟ وهلا اعتصموا من عقوبته كما اعتصم مَن هو أضعف منهم من أتباع الرسل ؟)، وهذه النصرة تشمل نصرة دين الحق بالحُجة والبرهان، والسيف والسنان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]،

---

(١) الأدلة العقلية النقلية، ص ٤٩٦، بتصرف، وينظر: الجواب الصحيح (٦/ ٤١٥ - ٤١٦)

وهذا الدليل أكمل وأبلغ في حصـول المقصـود، لأنه لا يدل على مجرد صـدق الرسـل، بل يدل مع ذلك على الترغيب في اتباعهم، والترهيب من خلافهم، فمفاده علم ووعظ لا مجرد علم[1].

☐ إخبار النبي ﷺ عن اليهود بأنَّهم لن يتمنوا الموت، لأنهم كانوا يدعون أنَّ الجنَّة لهم، فأخبر الله نبيه ﷺ بأنهم ليسوا من أمرهم على يقين كما يدعون، وبرهان ذلك أنك إنْ دعوتهم إلى تمني الموت لا يتمنونه أبداً[2]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٩٤ ـ ٩٥]، وفي قولـه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦ — ٧] فمَن الذي أدرى محمداً ﷺ أن اليهود لن يتمنوا الموت؟! هناك مَن أخبر محمداً ﷺ عن هذه النتيجة، إذ كيف يتجرأ محمد ﷺ على الإخبار بهذه النتيجة؟! واليهود لم تكذبه فيما أخبر به ! ألا يدل أن هناك مَن يُنبئ محمداً ﷺ بهذا الخبر والنتيجة؟!

☐ إخبار النبي ﷺ بحفظ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤٢] ويتحقق ما أخبر به النبي ﷺ من حفظ القرآن الكريم بأنَّ حفظه في الصدور والسطور، وقد أجمعت الأمة على حفظه، فلو أن شخصاً أخطأ في تلاوته لابتدر الجميع لتصويبه، ولا يزال القرآن محفوظاً

---

(١) ينظر: الجواب الصحيح (٢/ ٧٢٥).

(٢) ينظر: تثبيت دلائل النبوة ص ٤١١.

منذ أخبر النبي ﷺ بحفظه إلى يومنا هذا فلا يمكن أن يختلف فيه اثنان، والواقع يصدق ذلك[1].

إلى غير ذلك من أخبار الغيب التي أخبر بها النبي ﷺ، والتي تدل بكثرتها وتعددها وتحققها على إعلام الله تعالى للنبي ﷺ بها، حيث لا يمكن أن يتوصل إليها بالاكتساب، وهذا دليل على صدق نبوءة النبي ﷺ[2].

*****

(١) يراجع: الفصل الثالث: دلالة الأمية على نبوءة النبي ﷺ.
(٢) ينظر: إثبات نبوة محمدﷺ؛ للقرطبي ص ٧٥.

المبحث الثاني

إخباره عما يُسأل عنه من المُغيبات

لقد كان محمدﷺ يقول: « سَـلُونِي عَمَّا شِـئْتُمْ »[1]، فأنى لأمي لا يقرأ ولا يكتب أن يقول مقولته هذه بكل جرأة؟! وهو لا يعلم ما هي الأسئلة ولا إجابتها!!

وحينما يُسـأل كان يُجيب دون أن يبرح مكانه، وإن أبطأ بالجواب عنهم حيناً، فإنه في كلتا الحالتين لا يؤثر عنه أنه راجع أحداً، ولا قال لهم أمهلوني أراجع ما تسألون، بل كان يُجيبهم بكل طمأنينة، و صدق، واثقاً بإجابته، على أنه كان يُسأل في علوم عدة لم يعرفها هو ولا قومه، وهنا يكمن السـؤال: أنى لمحمد ﷺ بكل هذه الأجوبة؟!

علماً بأن الأسـئلة التي كانت تطرح على محمد ﷺ، كانت عن أمور ليس لمحمدﷺ بها علم، غالبها تكون عن أمور متنوعة غيبية، مفاجئة، تطرح من قبل المشككين له في نبوءته.

فكان يأتي جوابه في الحاضر، فدل ذلك على صدق نبوءته، وأن الله أوحى إليه، إذ لا يتأتى هذا الجواب لكاذب مهما بلغ من الذكاء والفطنة.

فمن تلك الأسئلة:

❑ سمع عبد الله بن سلام، بقدوم رسول الله ﷺ، وهو في أرض يخترف[2]، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سـائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشـراط الساعة؟، وما أول طعام أهل الجنة؟، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟

---

(١) أخرجه البخاري في صـحيحه، كتاب العلم، باب الغضـب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، (٩٠).

(٢) يَخْتَرِف: أي يجتني الثمر. ينظر: تفسير غريب ما في الصحيحين ص١١٢.

قال: «أخبرني بهن جبريل آنفًا» قال: جبريل؟: قال: «نعم»، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

«أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت»،

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «أي رجل عبد الله فيكم». قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام». فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله »(١).

❑ ومنها أنَّ ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاء حَبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله، فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي»، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال له رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر» قال: فمَن أول الناس إجازة؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾[البقرة: ٩٧] (٤١٢٠).

«فقراء المُهاجرين» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون»، قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «يُنحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلا» قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة، أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل، آنثا بإذن الله». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف فذهب. فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني الله به»(١).

❑ يُسأل النبي ﷺ عن أمور الغيب الماضية، وقد كان يتعنت بها أهل الكتاب والمُشركون، فينزل جبريل في تلك الحالة فيخبره بها في الموضع الذي سألوه فيه، من غير أن يُفارقه أو يذهب إلى أحد من الناس يستعلم، فمن ذلك سؤالهم له عمَّن مضى من الأمم، كسؤالهم عن ذي القرنين، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف: ٨٣]، وقال تعالى عن قصة يوسف: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[يوسف: ٧].

وقد كانوا يسألون عن أمور غيبية، كسؤالهم عن الروح، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]، وسؤالهم عن وقت الساعة، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[الأعراف: ١٨٧]، و[النازعات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق منهما، (٤٧٣).

□ ومن الأسئلة التي وُجهت للنبيﷺ، حينما «سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ»(١) وهي من الآيات العظام والبراهين الكرام على صدق نبوءته، قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ - ٢] (يُخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وآن أوانها، وحان وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مُستعدين لنزولها، ويُريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذبون أن يُريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به و] صدقه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقتين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخييل.

فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المُرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يَدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يُرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بُهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون مَن قدم إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم، لا يقدر أن يسحر مَن ليس مشاهداً مثلكم، فسألوا كل مَن قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا:

﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[القمر: ٢] سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البُهت، الذي لا يُروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكارا منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مُستعدون لمقابلتها بالباطل والرد لها، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾[القمر: ٢] ولم يعد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا، (٤٤٨٩).

الضـــمير على انشــقـاق القمر فلم يقـل: وإن يروهـا بـل قـال: {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُـــوا} وليس قصــدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصــدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[القمر: ٣] كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[القصــص: ٥٠] فإنه لو كان قصــدهم اتباع الهدى، لآمنوا قطعـًا، واتبعوا محمداً ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه من البينات والبراهين والحُجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصــد الشرعية)[1].

وقد يقول قائل: ما وجه دلالة انشقاق القمر على صدق نبوءته ﷺ وهو سيكون عند قيام الساعة[2]؟

قيل له: وجه الدلالة أن الر سول ﷺ قد احتج بذلك حينما سأله كفار قريش أن يُريهم آية.

وهو يُخبر عن أمرين قـد وقعـا وكـانـا وحصــلا ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] ولو كان مما يقع عند قيام الساعة لقال: انشقاق القمر، أو: سينشق القمر، ثـم أخبر بـأنـه آيـة مرئيـة وحُـجـة ثـابتـة: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]، ثم قال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾[القمر: ٣ - ٤] و هذا لا يُقال فيما لم يقع ولم يكن، فتأمل هذا التقريع والتعنيف لتعلم أنه أمر قد كان، ولا يسوغ أن يكون في أمر لم يكن بعد.

هل يلزم من انشــقاق القمر أن يراه الجميع حتى يكون آية على صــدق نبوءة محمد ﷺ؟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٢٣، وينظر: جامع البيان (٢٢/ ٥٦٥).

(٢) ممَن قال بهذا النظام، ينظر: تثبيت دلائل النبوة: للقاضي عبد الجبار، ص ٥٥-٥٦.

ليس ذلك لازماً لأن انشقاق القمر كان بالليل، والناس نيام، لقد رآه القوم الذين طلبوه[1].

☐ ومن ذلك سؤالهم للنبي ﷺ عن وصف بيت المقدس بعدما أخبرهم بحادثة إسرائه، فقد اختبروا صدقه، فسألوه عن وصف بيت المقدس، لأن فيهم مَن قد رآه، فنعته لهم النبي ﷺ نعت مَن يراه بعينه، «قالوا له: تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ قال: فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت، قال فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتى جُعل دون دار غفار، أو عقيل، قال: فنعت وأنا أنظر إليه قال: وكان في القوم مَن قد رآه، فقال القوم: أمّا النعت فوالله لقد أصاب،... وقالوا له: كم للمسجد باب ؟ قال: ولم أكن عددتها، فجعلت أنظر إليه وأعدها باباً باباً،.. فقال رجل من القوم: هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا ؟ قال: نعم والله قد وجدتهم قد أضلوا بعيراً لهم، فهم في طلبه، ومررت بإبل بني فلان انكسرت لهم ناقة حمراء، قالوا: فأخبرنا عن عدتها وما فيها من الرعاة ؟ قال: كنت عن عدتها مشغولاً، فقام فأتى الإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاء، ثم أتى قريشاً، فقال: هي كذا وكذا، وفيها من الرعاء فلان وفلان، فكان كما قال»[2]، فكان ذلك آية على صدق مسراه، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]، وهو آية على صدقه فيما لا يمكنهم معرفته من معراجه، ولعل هذا من حكم الإسراء إلى بيت المقدس، قبل أن يُعرج به إلى السماء، وفي أسئلتهم وإجابته دليل على صدق نبوءته، لأنهم قد علموا أنه لم يره قبل ذلك، فصدقه مَن رآه منهم، فكان ذلك دليلاً على صدقه في المَسرى، فلا يستطيعون تكذيبه فيما لم يروه، فـ (الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السماء إرادة إظهار الحق مَن يريد

---

(١) ينظر: تثبيت دلائل النبوة ص ٥٥-٥٧.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ لابن حجر (٨/ ٦٢٢-٦٢٤).

إخماده، لأنه لو عُرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، فلما ذكر أنه أسري به إلى بيت المقدس، سألوه عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلما أخبرهم بها حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره، فكان ذلك زيادة في إيمان المؤمن، وزيادة في شقا الجاحد والمُعاند)(١).

وتتبين وجوه دلالة الإسراء والمعراج على نبوءة النبي ﷺ في إخباره بالأمور الغيبية المُفصلة في حادثة الإسراء والمعراج، وليس مجرد قطع هذه المسافة، لأن مجرد قطع تلك المسافة يكون لمَن تحمله الجن وقد قال العفريت لسليمان قال تعالى عنه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[النمل: ٣٩]، وحَملُ العرش من قصر في اليمن إلى الشام أبلغ من ذلك، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل: ٤٠]، فهذا أبلغ من قطع المسافة بين المسجدين في ليلة.

ومحمدﷺ أفضل من الذي عنده علم من الكتاب ومن سليمان، فكان الذي خصه الله به أفضل من ذلك، وهو أنه أسرى به في ليلة ليريه من آياته بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يُخبر به، فهذا لا يقدر عليه الجن، وهو نفسه لم يَحتج بالمسرى على نبوءته، بل جعله مما يُؤمن به، فأخبرهم به ليؤمنوا به، والمقصود إيمانهم بما أخبرهم به من الغيب الذي رآه تلك الليلة، وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٦٠]،

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ لابن حجر (٧/ ٢٠١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به»[(1)] وهذا كما قال في الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم: ١٣ - ١٧][(2)].

وصعوده ﷺ إلى ما فوق السماوات وفرض الرب عليه الصلوات الخمس حينئذ، ورؤيته لما رآه من الآيات، والجنة والنار، والملائكة، والأنبياء في السماوات، والبيت المعمور، وسدرة المنتهى، وغير ذلك مما ميزه به الله تعالى عن سائر الأنبياء، وإخباره لقومه بكل هذا يدل على صدق نبوءته ﷺ[(3)].

(فلما أخبر به كذب به مَن كذب من المشركين، وصدق به الصديق وأمثاله من المؤمنين، فكان ذلك ابتلاء ومحنة للناس، كما قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[الإسراء: ٦٠]أي محنة، وابتلاء للناس، ليتميز المؤمن من الكافر، وكان فيما أخبرهم به أنه رأى الجنة والنار، وهذا مما يُخوفهم به، قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٦٠].

والرسول لما أخبرهم بما رآه كذبوه في نفس الإسراء، وأنكروا أن يكون أسري به إلى المسجد الأقصى، فلما سألوه عن صفته، فوصفه لهم، وقد علموا أنه لم يره قبل ذلك، وصدقه مَن رآه منهم، كان ذلك دليلاً على صدقه في المَسرى، فلم يُمكنهم مع ذلك تكذيبه فيما لم يَروه، وأخبر الله تعالى بالمَسرى إلى المسجد الأقصى؛ لأنهم قد علموا صدقه في ذلك، بما أخبرهم به من علاماته فلا يُمكنهم تكذيبه في ذلك)[(4)].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[الإسراء: ٦٠]، (٤٧١٦).

(٢) ينظر: النبوات (١/ ١٤٧).

(٣) ينظر: الجواب الصحيح (٦/ ١٦٨).

(٤) النبوات (١/ ٥٣٢-٥٣٣).

وفي الأسئلة المُتوجهة للنبيﷺ امتحان له، ليعرفوا هل هو صادق أم كاذب في دعوى نبوءته؟

وفي إجابته إخبار لهم بأن إجابته كانت بوحي من الله تعالى، فهو لا يعلم عن هذه الأسئلة شيئاً من ذي قبل، ولو كانت الإجابة من عنده لافتضح أمره لهم، ولو أنه أخذها من أهل الكتاب لبادروه مباشرة بالإفصاح بأنه أخذها منهم، أو من شيوخهم، ولأظهروا أمره للناس ولم يصمتوا.

كما أن العلاقة بين محمد ﷺ وأهل الكتاب، لا سيما اليهود لم تكن علاقة ود، بل إن محمداً ﷺ قتل منهم، وحاصر بعضهم، وأجلى آخرين، وسبى منهم، فلو أخذ عنهم لأفصحوا مباشرة بأخذه.

وقد تواترت الأخبار واستفاضت عن محمد ﷺ مرة بعد أخرى في إفصاحه عن المصدر الذي يتلقى منه، وهو أن ربه أوحى إليه[1].

ففي الأسئلة الواردة من أهل الكتاب والمشركين له دليل على صدق نبوءته، ولم أذكر الأسئلة التي وجهها إليه المسلمون لأن في إجابته عليهم تأكيداً لصدق نبوءته، وهذه الدلالة ليست من هدف البحث، على أهميتها.

* * * * *

(١) ينظر: الجواب الصحيح (٣/ ٤٧٠).

المبحث الثالث

إخباره عن أمور غيبية ماضية

لقد أخبر النبي ﷺ بأمور غيبية ماضية، منها:

❑ إخبار النبي محمد ﷺ عن تفاصيل عقائد اليهود والنصارى في ذات الرب تعالى، قال الله عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة: ٣٠]، وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة: ٦٤]، وعقائدهم في اليوم الآخر، يقول تعالى عنهم: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[التوبة: ٢٩]، ويقول: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ١١١]، وغير هذه الآيات التي كان يُخبر عنها النبيﷺ، وهو لا علم له بها إلا بوحي الله تعالى(١).

كل هذا يُخبر به أمي لم يقرأ ولم يكتب، ولم تكن بلدته بلدة العلماء، ولم يكن فيها كتب للعلماء ولم يكن له علاقة مع مَن له علم بشيء من جملة هذه الأمور من أهل الكتاب(٢).

ثم هو يُخبر بكل هذه الأخبار الغيبية دون خوف أو وجل، أو تراجع، أو تردد، يُخبر بها وهو واثق مُطمئن، بل يُصرح بها على مَرأى من الخلق، مرة تلو أخرى، دون مناقضة، فأنّى لأمي لا يقرأ ولا يكتب أن يأتي بهذه التفاصيل فيقُصها مُفصلة الأحداث دون خوف ولا وجل؟!

---

(١) ينظر: تثبيت دلائل النبوة ص ٩١ وما بعدها.

(٢) ينظر: التفسير الكبير (٨/ ٢٨١).

وإذا كان محمد أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله في باب أسماء الله و صفاته وتوحيده وملائكته وأوليائه وأعدائه، مع العلم بأن في هذه الأمور من التفاصيل الكثيرة ما يمتنع اتفاق اثنين عليه إلا عن مواطأة بينهما، ومحمد لم يواطئ أحداً من الرسل قبله ولا واطؤوه.

والخبر الكاذب إما أن يتعمد صاحبه الكذب، وإما أن يغلط، فالكاذبان المُتعمدان للكذب لا يتفقان في القصص الطويلة والتفاصيل العظيمة.

وكذلك الغالطان لا يتفق غلطهما في مثل ذلك، بل الاثنان من آحاد الناس إذا أخبر كل منهما عن حال بلدة وأخبر الآخر بمثل خبره من غير مواطأة عُرف صدقهما فكيف بالأمور الغائبة التي لا يمكن العلم بها إلا من جهة الله تعالى ؟ فهذا من دلائل نبوءة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهو دليل على نبوءة النبي ﷺ [1].

❑ إخبار النبي ﷺ عن الأمور الغيبية الماضية كقصص الأنبياء السابقين جملة وتفصيلاً.

فمما هو معلوم بداهة وقطعاً أن النبي محمداًﷺ لم يعش أحداث هذه الأخبار الماضية في تلك الأزمنة الغابرة، لأنه لم يولد بعد، وهذا ما يذكره فيما جاء به من وحي، يقول تعالى بعد قصة مريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران: ٤٤]، ويقول تعالى بعد قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾[يوسف: ١٠٢]، ويقول تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا

---

(١) ينظر: الجواب الصحيح (٥/ ١٢٢).

مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[القصص: ٤٤ـــ ٤٦] لعل هذه الآيات تبرهن على أن النبي محمداً ﷺ لم يشهد تلك الأحداث الماضية، وهذا يتضح في النفي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، (فنفى سبحانه شهادته لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها تنبيها للناس على أنه أخبر بالغيب الذي لم يشهده ولم يعرفه من جهة أخبار الناس، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك، ولا عاشر غير قومه، وكل مَن عرف حاله يعلم أنه لم يتعلم شيئًا من ذلك لا من أهل الكتاب ولا ممَن نقل عن أهل الكتاب)[1].

كما تُبين الآيات نفي علم النبي محمد ﷺ بها، وعلم قومه بها، يقول تعالى في أثناء ذكر قصص الأنبياء السابقين عليهم السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾[هود: ٤٩]، (فذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه إليه من أنباء الغيب ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا.

فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لا من أهل الكتاب، ولا من غيرهم، وهو لم يعاشر إلا قومه، وقومه يعلمون ذلك منه، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك ويعلمون أيضـًا أنه هو لم يكن تعلم ذلك، وأنه لم يكن يُعاشر غيرهم، وهم لا يعلمون ذلك، صار هذا حُجة على قومه وعلى مَن بلغه خبر قومه)[2].

فما هو مصدر هذه الأخبار والقصص عن الأمم السابقة التي لم يعش محمد ﷺ بين ظهرانيهم ولم يكن لديه علم بأخبارهم، وهي غيب عنه؟

ففي بيان أنَّ ما يُخبر به من قصص ما هي إلا أنباء غيب أي أنها غائبة عنه، لا علم له بها إلا عن طريق الوحي، كل هذه قرائن تؤكد أن ما أخبر به محمد ﷺ من قصص

(١) الجواب الصحيح (٥/ ١٢١).
(٢) المرجع السابق (٥/ ٣٢٣).

الأمم السابقة كانت وحياً من عند الله وليس من عند محمدﷺ، ولم يتعلمها من بشر، إذ لو كانت من عند محمد ﷺ فكيف يُخبر عنها وهو في الوقت ذاته يقول أنا لم أشهدها؟ فالعقل يقتضي والسياق ضرورة أنَّ هذه القصص لم تكن من إنشاء محمد ﷺ.

فلو كانت القصص من إنشاء محمدﷺ لأخبر بها قبل أن يُبعث، وهو لم يأتِ بشيء منها قبل البعثة، كما أنه لم يتلقَّها عن غيره من البشر، لأنه قد ثبت فيما مضى أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب[1] فأنّى له بكل هذه القصص؟ وأنّى لمخلوق أن يُخبر بكل هذه القصص ؟ ولو تعلمها من قومه لأخبروا بذلك القصص، لكن علمهم وعلم محمدﷺ مُنتفٍ لذلك القَصَص، كما أنه لم يتلقَّها عن الجن لأنه ثبت فيما مضى عدم تلقي النبي ﷺ شيئاً عنهم[2].

وإذا انتفى المصدر الجني والإنسي لم يبقَ إلا أن هناك مصدراً إلهيّاً يوحي إلى محمدﷺ بهذه الأمور الغيبية الماضية.

فعدم اختلاف أحداث القصص التي يخبر عنها النبي ﷺ من جهات عدة، منها: من جهة عدم مخالفتها لتلك القصص التي كان لأهل الكتاب بها علم، كقصة موسى، وعيسى، وداود، فجاء القرآن مُصدقاً لما ورد في التوراة والإنجيل، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[يونس: ٣٧]، ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[يوسف: ١١١]، فالنبي محمدﷺ كان يقص القصص التي لأهل الكتاب من اليهود والنصارى علم بها، وعلى عدائهم للنبي ﷺ إلا أنهم لم يكذبوه فيما يقص، بل بعضهم آمن به كعبدالله بن سلام، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ

---

(١) يراجع: الفصل الثالث: دلالة الأمية على نبوءة النبيﷺ.

(٢) يراجع: الفصل الثاني: دلالة أخلاق النبيﷺ على نبوءته.

﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٣]، وبعض أهل الكتاب كانوا في غاية العداوة له، فلو لم تكن بعض القصص موافقة لما في التوراة والإنجيل لقدحوا فيه ولبالغوا في الطعن فيه، فلما لم يقل أحد ذلك مع شدة حرصهم على الطعن فيه، وعلى تقبيح صورته، علمنا أنه أتى ببعض تلك القصص المُطابقة لما في التوراة والإنجيل، مع أنه ما طالعهما ولا تتلمذ لأحد فيهما، وذلك يدل على أنه ﷺ إنما أخبر عن هذه الأشياء بوحي من قبل الله تعالى (١).

وهناك قصص لم تكن في التوراة التي هي مرجع أهل الملل في تعرف أحوال الأنبياء من لدن آدم إلى موسى كقصة آدم وإبليس، وحوار الله تعالى مع الملائكة، وخروج آدم واستخلافه في الأرض، وقصة ابني آدم، وقصة نوح مع قومه، وابنه، وقصة صالح مع ثمود، وخبر الناقة، وثمود مع عاد، وشعيب مع مدين، وإبراهيم، وأصحاب السبت، والكهف. وكثير من أحوال إبراهيم وإسحق وإسماعيل ويعقوب ويوسف ومثل قصة الخضر مع موسى، ومثل أحوال سليمان وقصته مع العفريت والهدهد، فإن هذه لم تكن في التوراة ولم يسمع عن أحد من أهل الكتاب أنه زوّر ذلك أو كذبه بل انبهروا وعجبوا منه.

كما أن الأمور الغيبية التي يُخبر عنها كالقصص وغيرها من الأمور الغيبية، لا تختلف ولا تتعارض مع القرآن نفسه، فكل مَن يتأمل القرآن الكريم يجد أن أحداث القَصَص لم تتغير ولم تتبدل، ولا ينقض بعضها الآخر، مع أنها تذكر في

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (٨/ ٢٨١)، (٩/ ١٣٠)، وينظر كذلك: الكشاف (٣/ ٢٢٨)، وقد فصلت القول في: الفصل الرابع: دلالة مضمون الرسالة.

أكثر من موطن، بصيغ عدة تتناسب مع السياق، كقصة موسى مع فرعون، وقصة موسى مع بني إسرائيل.

إنَّ ما يُخبر عنه النبيﷺ من القصص الماضية جملة وتفصيلاً هو من باب الخبر، ومُحال أن ما يُخبر به يكون من قبيل الكذب، لأن الكذب مُنتفٍ عنه، فهو صادق يُخبر عن أمور حقيقية، وخبره لا يحتمل إلا التصديق وينتفي عنه التكذيب.

وهذه القصص التي كان يُخبر عنها النبيﷺ لم يعترض عليها أحد في زمنه، وإنما اعتراض مَن اعترض من كفار قريش كان على أن القصص التي كان يقصها عليهم هي ضرب من الأسطورة المنسوجة من الخيال، الذي لا واقع ولا حقيقة له، وقد كان شيءٌ من هذا يُقال في مجالسهم، لذا قالوا عن القصص التي كان يُخبر بها النبي محمدﷺ بأنها أساطير.

سبب آخر لقولهم عن القَصَص التي كان يُخبر عنها النبيﷺ بأنها أساطير أنهم لم يكن لديهم علمٌ بها، بخلاف أهل الكتاب، ذلك أن بعض مُشركي العرب لم يكونوا يؤمنون بالنبوءات أصلاً، فهم حينما يُخبرون بقصص مَن سبق من الأنبياء يعُدون ذلك ضرباً من الخيال الأسطوري.

أما أهل الكتاب فقد كانوا يُقرون بأصل النبوءات فهم يُصدقون ببعضها ويكذبون ببعضها الآخر(١).

فاعتراضهم عليها بأنها أساطير ليس تكذيباً لخبر النبيﷺ، وإنما تكذيبٌ لأصل النبوءة التي لا يؤمنون بها أصلاً، لذا وصفوا أخبار الأنبياء وأممهم السابقة بالأساطير أي الخيال الذي لا حقيقة له كتلك التي كانت تحكى في ناديهم.

ولئن كان وصف بعض كفار قريش للقصص التي كان يُخبر عنها محمدﷺ بالأساطير لإنكار أصل النبوءات، نجد أن هذه الشبهة تنبعث من جديد عند فئام

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (١١/ ٣٨٤).

من الناس بأنه لا توجد أصلاً قصصٌ سابقة، وهي خيال[1]، ومُستندهم هو عدم وجود دليل مادي يُبرهن على قصص الأنبياء، فهم يزعمون أنه لا حقيقة يُثبتها التاريخ كعلم الآثار تدل على جود شخصية إبراهيم عليه السلام وأولاده[2]، والآثار في مصر إن أثبتت تاريخ مصر برمته، إلا أنه لا يوجد أي دليل يدل على وجود موسى، وغرق فرعون بضرب عصا موسى، كما لا يوجد في التاريخ كَعَلَم شخصٌ فاتن يُقال له يوسف[3]، ولا وجود لمملكة أسطورية يقوم عليها داود أو سليمان[4]، ولا يُمكن أن تكون آيات القرآن دليلاً ومرجعاً لهذه الأحداث التاريخية[5].

فقصص الأنبياء الواردة التي أخبر عنها النبي محمد ﷺ في قراءتهم ما هي إلا أساطير[6]، ورموز حيكت لشخصيات خيالية[7].

فما هي الأسطورة ؟

---

(١) من أوائل من شكك في قصص الأنبياء طه حسين في الشعر الجاهلي، ص٣٨، ومحمد أحمد خلف الله في الفن القصصي في القرآن، ص٧٤، وينظر: نقد الفكر الديني ؛ صادق جلال العظم، ص١٥٣، والفكر الإسلامي قراءة علمية؛ محمد أركون، ص٢٠٣، ومدخل إلى القرآن الكريم؛ محمد الجابري، (١/ ٢٥٩).

(٢) ينظر: رب الزمان؛ القمني، ص١٤٠.

(٣) ينظر: المرجع السابق ص١٣٠.

(٤) ينظر: المرجع نفسه، وقصة الخلق، ص١٤٤، والأسطورة والتراث، ص٣٢٧.

(٥) ينظر: إسلام ضد إسلام: الصادق نيهوم، ص٢٦٨.

(٦) ينظر: مدخل إلى القرآن: محمد عابد الجابري، ص٢٥٩، وحوار المشرق والمغرب: حسن حنفي، ص٣٦، والنص والسلطة: نصر أبو زيد، ص١٣٤ــ١٣٥، وتاريخ الفكر العربي: محمد أركون، ص١٠، والفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص٩، ونزعة الأنسنة في الفكر العربي، ص٦٣٦، والعقل بين الوحي والتاريخ: محمد الموزعي، ص١٠٥، ونقد الفكر الديني: صادق العظم، ص١٥٣.

(٧) ينظر: أين هو الفكر الإسلامي: محمد أركون، ص٥٢، وقضايا في نقد العقل الديني: محمد أركون، ص٢٠٠، تاريخية الفكر العربي الإسلامي: له أيضاً، ص٢٩٩،ونقد الفكر الديني: صادق العظم، ص١٥٣، والتأويل والترميز عند الصادق نيهوم، مجلة فضاءات (ع: ٧).

الأسـطورة في الأصـل اللغوي: هي الكلمات المدونة والمكتوبة، لا أصـل لها من الأباطيل، سـواءٌ كانت مما يحيله العقل أو يجيزه، وإن كان الغالب إطلاقها على الأول، ثم اسـتعملـت في التعبير عمّـا لا أصـــل لـه مطلقـاً، وإن لم يكن مَسطوراً[1].

والأسطورة في المعنى الغربي: الميثولوجيا هي علم الأساطير ما يُطابق العقائد الغيبية[2]، وهي مأخوذة من ميتوس MUTHOS يونانية، أوMYTHE ميث الإنجليزية تعني القصة الخيالية غير الواقعية[3].

وعلى وضوح معنى الأسـطورة في المعنى العربي والغربي، إلا أننا نجد معناها عند الحداثيين العرب أنها مجموعة من الخرافات والأقاصيص، تحتوي على جزء ولو ضـعيف من الحقيقة، ثم يكبر ها الخيال ويُنميها[4]، و هذا هو الفارق بين الأسطورة والخرافة [5].

ولي هنا أن أطرح سـؤالاً ألا وهو: هل للخيال حقيقة؟! أم أن الخيال لا حقيقة له أصـلاً؟! وعليه هل تفريقهم بين معنى الأسـطورة والخرافة حقيقي؟! هل هناك حقّـاً فرق بين المعنى الكلاسـيكي (القـديم) والمعنى الإنثربولوجي (الجديـد) للأسـطورة كما يدعون؟! أم أنها مراوغة لفظية شـكلية؟! ومحاولة لإبعاد المعنى العربي للأ سطورة؟! لماذا يو سعون دائرة الأ سطورة لتشمل الدين كله، فالإ سلام وعقـائـده ومبـادئـه ومكونـاتـه كلهـا تتسـم بـالأسـطورة؟! ثم يحورون المعنى الأسـطوري، ليبعدوه عن المعنى المعروف والمعهود في اللغة العربية، وينصـرف الذهن مبا شرة إليه، لماذا التلاعب بالمصطلحات والعبث بمفاهيمها المستقرة؟!

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة: للأزهري، (١٢/ ٢٣٠)، والعين: للفراهيدي، (٧/ ٢١٠).
(٢) ينظر: موسوعة لالاند، (٢/ ٨٥٠)، والمعجم الفلسفي: لصليبيا، (١/ ٧٩).
(٣) ينظر: تاريخ الأسطورة: كارين، ص١٥.
(٤) ينظر: الأسطورة والتراث: للقمني، ص٢٤.
(٥) ينظر: هوامش هاشم صالح على تاريخية الفكر، ص٢١١.

واتهام اللغة العربية بأنها عاجزة عن مواكبة الجديد المتطور في علم الدلالة الألسنية؟!(١)، هل سيُقدم المعنى الأسطوري الجديد شيئًا حيال تعامله مع الدراسات القرآنية والإسلامية وبنيته العقدية تتسم بأنها أساطير؟!

تنهال الأسئلة متتابعة فهي كالبحر الزاخر لا تقف تريد إجابة عقلية منطقية تقتنع بها حيال التفريق بين الأسطورة والخرافة التي يدعيها بعض الحداثيين، وهذا التفريق لا حقيقة له، بل هو ضرب من التمويه.

لتتجلى لنا حقيقة منطقية بأن الأسطورة تقودنا إلى الإيمان بالخرافة، فمجيء الآيات بحقائق لا توافق الواقع هذا نوع من الخرافات، وتسميتها بالأسطورة لا يُقدم ولا يؤخر في هذه الحقيقة شيئًا، ولمّا وقف هذا التماثل بين حقيقة الخرافة وحقيقة الأسطورة أمام مَن يؤمن بها، جاء الجواب في التفريق بينهما بما يؤكد عدم التفريق، إذ النوعية واحدة، لكن الدرجة مختلفة، فإن كانت النوعية واحدة، فمعنى هذا أنهما ينتميان لحقل واحد، مما يعني أنهما من جنس واحد، سواء اتفقت الدرجة أو اختلفت(٢).

مما يُفهم من القراءة الحداثية إنكار شخصيات الأنبياء التي قصها لنا النبي ﷺ، فهي ضرب من الخيال الذي لا حقيقة له! وهي رموز لشخصيات خيالية!

فحقيقة قول الحداثيين بأن قصص القرآن والإخبار بالغيب هو من قبيل الأساطير هو ذاته قول الكفار، فحينما كان يُخبر النبي ﷺ قريشًا بقصص الأمم السابقة ظنوا أن هذا القصص من قبيل قصص النضر بن الحارث التي كانوا يسمعونها في نواديهم، فقالوا عنها: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

---

(١) ينظر: قراءة نقدية: علي حب الله، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) ينظر: أين هو الفكر الإسلامي، محمد أركون، ص٥٢.

[الأنعام: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١][1].

ولم يقتصر الوصف بالأساطير على قصص القرآن، التي كان يُخبر بها محمد ﷺ، بل وصفوا إخباره بالبعث بعد الموت بالوصف ذاته، يقول تعالى عنهم مُبيناً أنهم اتبعوا سبيل من قبلهم: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨١-٨٣][2].

وهو ذاته المعنى الذي يستخدمه الغربيون لإنكار كل ما هو غيبي[3]، وقد اعتمدوا في ذلك على المنهج الديكارتي[4]، كما أن حقيقة القراءة الحداثية ما هي إلا تكرار لقراءة الفلاسفة والباطنية[5]، القائلين بأن الوحي من خيال النبي فقط، له القدرة على استخدامه يقظة ومناماً على حد سواء، والنبوءة لا تتطلب ذهناً كاملاً بل خيالاً خصباً فقط، والوحي صوت باطني يسمعه النبي ﷺ من داخله نتيجة

---

(١) وينظر: [النحل: ٢٤]، [الفرقان: ٥]، [القلم: ١٥]، [المطففين: ١٣].

(٢) وينظر: النمل:٦٧-٦٨، والأحقاف:١٦.

(٣) ينظر: اختلاق الميثولوجيا: لمارسيل ديتيان، ص١٦-١٧، والماهية والخرافة: نور فروب فراي، ص٤٩-٥١، وتاريخ الأسطورة: آرمسترونغ، ص١١-١٥، وينظر: الخرافات والأساطير: د/ سعود العريفي، ص٣٠٧-٣١١.

(٤) يرى بعض النقاد أن كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي ما هو إلا صورة من مقال في المنهج لديكارت، ينظر: مواقف نقدية من التراث: محمود أمين عالم، ص٢٤٨.

(٥) ينظر: التفسير الماركسي: محمد عمارة، ص٥٥، آراء المدينة الفاضلة: للفارابي، ص٩٣-٩٤، والسياسة المدنية، ص٤٩- ٥٠، والعقل والانفعال: لابن سينا، ص٣، والإشارات والتنبيهات، (٢/ ٣٦٧)،والنبوة بين الفلسفة والتصوف: عبدالفتاح القاري، ص١١٣، وقد ناقشهم ابن تيمية في الصفدية، ص١١٢، ومجموع الفتاوى، (١١/ ٢٢٩).

لعملية الاختزان الذهني الكبير عبر التردد على غار حراء[١]، فآلت النبوءة وقصص الأنبياء المؤسطرة إلى الخيال الذي لا حقيقة له[٢].

وقول الحداثيين وكل مَن تأثر بهم[٣]، مُستمد من المنهج الاستشراقي الذي يُشكك في الوحي والنبوءة، دون أن يُصرحوا بالنقل عنهم، وقاموا بدور الشراح الذين أعادوا صياغة وترتيب تلك النتائج وأكثروا من التنويع عليها وغالب الإضافة لدى الشراح الحداثيين العرب إنما هي استلهام النماذج الاستشراقية وفق تطبيقات جديدة[٤].

ومما يُلاحظ هنا أنَّ شبهة كفار قريش هي ذاتها شبهة المُستشرقين والعلمانيين العرب، الكل يتفق على أن القصص القرآني أساطير لا حقيقة لها، إلا أنَّ مُنطلق كل شبهة عند كل فريق يختلف، فمُنطلق شبهة بعض كفار قريش إنكارهم لأصل النبوءات، وهم في الوقت ذاته يؤمنون بوجود ما هو غيبي كإيمانهم بوجود الله،

---

(١) ينظر: مفهوم النص: نصر أبو زيد، ص٤٩، مقدمة رسالة في اللاهوت والسياسة: لاسبينوزا، ت: حسن حنفي، ص١٣٤، وتاريخية الفكر العربي، ص١٨٨، والإسلام والأخلاق والسياسة: ص٨، ومقدمات أولية: طيب تيزيني، ص٥٣٥، ونصر حامد أبو زيد ومنهجه: د/ إبراهيم أبو هادي، ص٢٩٤.

(٢) ينظر: الاتجاه العقدي في التفسير: ياسر المطرفي، (١/ ٢٨٤، و٢٦٧)، ومنهج أركون من التراث والعقيدة: عبدالله المالكي، ص٣٤٧، وظاهرة التأويل في الفكر العربي المعاصر، ص٣١٠.

(٣) كطه حسين في كتابه في الشعر الجاهلي، ينظر للكتاب برمته، ومحمد خلف الله في كتابه الفن القصصي في القرآن الكريم ص١٦٩.

(٤) ينظر: الحقيقة والأسطورة في التوراة: زينون كاسيد، ص٥٢، ومعضلة محمد: بلاشير، ص٦٠، والفكر العربي لفكر الاستشراق: نعمان السامرائي، ص١٢٨، والأثر الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن الكريم: د/ محمد السرحاني، ص٣٨، والغارة التنصيرية على القرآن: عبدالراضي، ص١٥، ص٤٨، وآثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية: محمد خليفة حسن، ص١٠٢، ومعجم افتراءات الغرب على نبي الإسلام: أنور زناتي، ص٢٠.

على أنهم ينكرون توحيد الله وإفراده بالعبادة، وإيمانهم بوجود الملائكة، وإن قالوا بأنهم بنات الله، وكما ينكرون اليوم الآخر، لكنهم يؤمنون بالغيب جملة لا تفصيلاً.

أما مُنطلق المستشرقين وعلمانيي العرب فهو إنكار الغيب أصلاً، وتركيزهم على كل ما هو مادي محسوس، فليس الأمر يترتب على قضية النبوءة فحسب بل هو أعمق من ذلك بكثير.

وعلى هذا فعلمانيو العرب أشد إنكاراً من كفار قريش لقضية النبوءة.

ثمة سؤال يطرح نفسه:

هل القصص القرآني أساطير منسوجة من الخيال البشري الذي لا حقيقة له؟

لماذا أساطير؟

لأنهم (يجعلون كلام الله وهو أصدق الحديث، خرافات وأكاذيب، وهي الغاية في التكذيب)[1]، لكل ما جاء به النبيﷺ، ذلك أن الأساطير هي القصص التي لا حقيقة لها، فالمكذبون للنبي ﷺ يَسِمُون ما جاء به من أخبار بالأساطير التي لا حقيقة لها، فحُجتهم في التكذيب قامت على وصفهم بأن ما جاء به محمدﷺ هو من قبيل الأساطير التي كان المشركون يسمعونها في نواديهم وهي لا حقيقة لها، وهذه حُجة من لا حُجة له ولا برهان له يستدل به على صحة تكذيبه لكل ما جاء به النبيﷺ، ومَن يتأمل سياق الآيات يجد أن الكفار يهرعون مباشرة إلى حُجة الأسطورة لتكذيب النبيﷺ، يقول الله تعالى عنهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الأنعام: ٢٥]، ويقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الأنفال: ٣١]، ويقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[النحل:

(١) الكشاف (٢/ ١٠٤).

٢٤]، ويقول: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، ويقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٧ – ٦٩]، ويقول: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧]، ويقول: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]، ويقول: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٠ – ١٣].

وحيناً يُبينون مصدر هذه الأساطير، يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ذلك أن النضر قال لمّا سُئل عن ما يقول النبي ﷺ، فقال: (ما يقول إلا أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، يعني أنه قال ذلك مُكابرة منه للحق وحسداً للرسول ﷺ، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى، وكان يُحدث قريشاً عن أقاصيص العجم، مثل قصة رستم وإسفنديار، فيستملحون حديثه، وكان صاحب أسفار إلى بلاد الفرس، وكان النضر شديد البغضاء للرسول ﷺ وهو الذي أهدر الرسول ﷺ دمه فقُتل يوم فتح مكة)[١].

وحتى يُروج بُهتانه، ولأنه علم أن هذا الزور مكشوف، وقد لا يُقبل عند الناس، لعلمهم بأن النبي ﷺ أمي، فكيف يستمد قرآنه من كتب الأولين؟ فهيأ لقبول ذلك

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٧/ ١٧٩).

أنه كُتِبَت له، فاتخذها عنده فهو يُناولها لمَن يُحسن القراءة فيُملي عليه ما يقصه القرآن(١).

إنَّ القصص القرآني الذي نزل لم يكن الهدف منه التندر والتجمهر، بل كان الهدف منه هو أخذ العبرة والعظة وتسلية النبي ﷺ للربط على قلبه، وتثبيته بأن ما يلقاه من تكذيب قومه هو سُنة الأولين من الرسل قبله، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠] ليس هذا قاصراً على النبي محمدﷺ فحسب، بل كل مَن سلك سبيل الأنبياء والمرسلين من العقلاء يجد العبرة والعظة، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١] فـ (الاعتبار بالقصة لا يحصُل إلا إذا كانت خبراً عن أمر وقع، لأن ترتب الآثار على الواقعات ترتب طبيعي فمن شأنها أن تترتب أمثالها على أمثالها كلما حصلت في الواقع، ولأن حصولها مُمكن إذ الخارج لا يقع فيه المُحال ولا النادر وذلك بخلاف القصص الموضوعة بالخيال والأكاذيب فإنها لا يحصل بها اعتبار لاستبعاد السامع وقوعها لأن أمثالها لا تعهد، مثل مبالغات الخرافات وأحاديث الجن والغول عند العرب وقصة رستم وأسفنديار عند العجم، فالسامع يتلقاها تلقي الفكاهات والخيالات اللذيذة ولا يتهيأ للاعتبار بها إلا على سبيل الفرض والاحتمال وذلك لا تحتفظ به النفوس)(٢).

كما أن قصص القرآن كلما قُرِئَت تجددت، ولا يزال الناس يقرؤونها، ولم تبلَ ولم تخلق مع كثرة تردادها، لأنها وحي من الله تعالى.

---

(١) ينظر: المرجع السابق (١٨/ ٣٢٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٧٢).

ولنا أن نسمع نوعين من القصص، قصصاً مما يرويه القاصون، وقصصاً من قصص القرآن الكريم، ثمة أثر دائم في النفوس للجميع وليس للأفراد، يستجيب للثانية ولا يستجيب للأولى، يبكي للثانية ولا يبكي للأولى، لا لشيء إلا لأن مصدر الثانية إلهي بينما مصدر الأولى بشري!

فإخباره بالمغيبات الماضية مُفصلة لم تخالف الكتب السابقة على وجه الجملة، ولم يُعترض عليها ولم تتناقض، كل هذا يُخبر به نبي أمي لهو دليل من أعظم دلائل نبوءته التي لا يجد الجاحدون إلى جحدها سبيلاً، ولا يُمكن إسنادها إلى تعليم بشر ولا جن، ولا نسبتها إلى سحر، ولا كهانة لأن كل هذا منتفٍ عن النبي ﷺ كما بينت ذلك سابقاً(١).

مما سبق بيانه في المباحث السابقة، يتبين لنا ما يلي:

- الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى وحده، وهو يُظهره لمَن ارتضى من رُسله، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[الجن: ٢٦-٢٧]، فعلم الغيب خارج عن قدرة الإنس والجن(٢).

- الأنبياء ينفون عن أنفسهم علمهم بالغيب يقول الله تعالى عنهم: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[المائدة: ١٠٩]، ونوح عليه السلام ينفي عن نفسه علم الغيب، حيث يقول لقومه، قال الله تعالى عنه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾[هود: ٣١]، والنبي محمد ﷺ ينفي عن نفسه معرفة الغيب، فيقول لقومه، قال الله تعالى عنه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾[الأنعام: ٥٠]، وقال تعالى عنه أيضاً: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾[ص: ٦٩ - ٧٠]،

---

(١) يراجع: الفصل الثاني: دلالة أخلاق النبي ﷺ.

(٢) ينظر: النبوات (١/ ١٤٩)، وينظر: الجواب الصحيح (٦/ ٨٠-١٥٦)

وحينما قَالَتْ جارية: وَفِينَا نبيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَالَ لها ﷺ: «دَعِي هَذِهِ...»[1]، فالنبي ﷺ أنكر قولها في أنه يعلم الغيب ونهاها عنه، لأن الغيب على الإطلاق لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك تقول عائشة رضي الله عنها: «...، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ وَاللهُ يَقُولُ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل:٦٥]»[2].

فالأنبياء ومنهم النبي ﷺ ينفون عن أنفسهم معرفتهم بالغيب، فهذا يُبين أن علم الغيب على الإطلاق من خصائص الله، وأن الأنبياء لا يعلمون من الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه، وقد أطلع الله نبيه محمداً ﷺ على كثير من الغيوب، ولكنه لم يُطلعه على كل غيب[3].

- ماذا لو كان محمد ﷺ يعلم الغيب دون وحي من الله؟

لكان حاله على خلاف ما هو عليه، من استكثار الخير، واستغزار المنافع، واجتناب السوء والمضار، حتى لا يمسه شيء منها، ولم يكن غالبًا مرة ومغلوبًا أخرى في الحروب، ورابحًا وخاسراً في التجارات، ومُصيبًا ومُخطئًا في التدابير، ولما لم يكن الأمر كذلك ظهر أن علم الغيب المُطلق غير حاصل لديه، لذا يقول الله تعالى عنه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨]، إظهاراً لعبوديته ولانتفاء ما يختص بالربوبية من علم الغيب عنه، أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كما المماليك والعبيد، إلا ما علمني الله به[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، (٣٧٠٠)، وفي كتاب النكاح، باب ضرب الدف في النكاح والوليمة، (٤٧٥٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]: (٢٥٩).

(٣) ينظر: شرح سنن أبي داود؛ لعبدالمحسن العباد (٢٨/ ٢١١).

(٤) ينظر: الكشاف (٢/ ٣٢١)، والتفسير الكبير (٧/ ٣٢٩)، وتيسير الكريم الرحمن ص٣١١.

وفي نفيه ﷺ لمعرفة الغيب وللتصرف في العالم، تعليم للأمة بشيء من حقيقة النبوءة، وتمييز ما هو من خصائصها عمّا ليس منها، وليقلع من عقول المشركين توهم مُلازمة معرفة الغيب لصفة النبوءة، إعلانًا للمشركين بالتزام أنه لا يعلم الغيب، وأن ذلك ليس بطاعن في نبوءته، وإعلامًا للمسلمين بالتمييز بين ما تقتضيه النبوءة وما لا تقتضيه، ولذلك نفى عن نفسه معرفة أحواله المُغيبة، فضلاً عن معرفة المُغيبات من أحوال غيره إلا ما شاء الله أن يُعلمه بوحي منه [١].

وعلى هذا فالإخبار بالأمور المُغيبة هو أحد أدلة صدق النبوءة، وليس هو الدليل الوحيد على صدقها[٢]، فهي تثبت بأدلة أخرى.

- مع كثرة ما يُخبر به النبي ﷺ من الغيوب الماضية والمُستقبلية، ويأمر وينهى عنه من الأمور الكلية، والسُنن العامة، والشرائع والنواميس كلها متشابهة يصدق بعضها بعضًا، فلو كانت من عند غير الله لوجب أن يكون فيها تناقض، لامتناع قدرة البشر عن أن تخبر بهذه الأخبار وما فيها من الغيوب، وتأمر بهذه الأوامر مع سلامة ذلك من التناقض، ولهذا لا يوجد بشر غير نبي يسلم من ذلك، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢])[٣].

- إن الإخبار بالأمور الغيبية لا يكون إلا لنبي، أو مَن يُخبر عن نبي، والخبر عن النبي هو خبر النبي[٤]، ومحمد ﷺ لم يأخذ عن أحد من الأنبياء شيئًا لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب[٥].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ٢٠٧).

(٢) النظام حصر دلالة النبوءة في الإخبار بالمغيبات فقط. يراجع الفصل السادس: دلالة النظم. المبحث الثاني.

(٣) الجواب الصحيح (٢/ ٥٦٠).

(٤) ينظر: النبوات (١/ ١٤٩، ٤٩٥، ٢٤٦).

(٥) يراجع: الفصل الثالث من هذا البحث: دلالة أمية النبي ﷺ.

- تحقيق بعض نبوءات النبيﷺ التي أخبر عنها كإجابته على الأسئلة التي تُوجه إليه، دلالة على صدق النبيﷺ في باقي أخباره(١).
- الإخبار عن الأمور الغيبية ليس خاصّاً بالنبي محمدﷺ، بل هو دليل مُشترك بين الأنبياء، فهو آية على النبوءة لكل مَن عرف وأقر بصدق الأنبياء(٢).
- ما تحقق وقوعه من الأخبار التي أخبر بها الأنبياء يشفع ويعضد لما لم يقع بعد.
- إخباره ﷺ بالتفاصيل الدقيقة التي كان يُخبر عنها من أمور غيبية ماضية لم يُشاهدها هو، ولم يُشاهدها أحدٌ غيره من بني قومه، لأنها خارجة عن نطاقهم، وليست هي في مقدورهم، كإخباره عن خلق السماوات والأرض وبقية المخلوقات، كالملائكة والجن والإنس، وأصل خلقهم، وصفات خالقهم...إلخ، وقصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، كل هذا يُخبر به خبراً مفصلاً، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[يونس: ٣٧]، ويقول: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: ١١١] فالتفصيل هو التبيين، وكل شيء هو الاعتبار بالقصص(٣)، فالتفصيل والتبيين لكل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين(٤)، كالإخبار عن الأمور الغيبية والجلية، وعن الغيوب المُستقبلة المُجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات،

---

(١) ينظر: شبهات وهمية: منيس عبد النور، ص ٣٦.
(٢) ينظر: إثبات نبوة النبيﷺ؛ للقرطبي ص ٣٢، والنبوات (١/ ٤٩٥)، ويراجع: الفصل الثاني: دلالة أخلاق النبيﷺ.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٣/ ٧٢).
(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٤٠٧.

وتنزيهه عن مُماثلة المخلوقات[1] كل هذا يدل على أنه من المُحال أنْ يكون محمدٌ ﷺ مصــدر هذه الأخبار أو غيره من المخلوقات، بل كل هذا يؤكد ويبرهن أنَّ مصدر هذه الغيوب هو الله تعالى وحده.

- إخبار النبي ﷺ بالمُغيبات مع التكرار والإصابة والكثرة أمرٌ خارق لطبيعة البشر[2].

وقد يُقال: إنَّ الإخبار بالمغيبات ليس دليلاً على صــدق النبوءة، لأن علم غير الأنبياء بها مُمكنٌ، فيقال له: إنَّ هذا مُمكن لمَن علمها، ومُمتنع فيمَن لم يعلمها، ولم يكن من أهلها فيعلمها فصــار دليلاً مُمتنعاً، فقريش كانت تســتعين بعلم أهل الكتاب ليختبروا صدق النبيﷺ بطرحهم لبعض الأسئلة، فكان يُجيبهم عن كل ما ســألوه بالتفصــيل، وهو لم يعش بين ظهرانيهم، ولم يكن عنده علمٌ بها، فإخباره خروج عن العُرف إلى ما ليس بعُرف، فصار دليلاً على نبوءته[3].

*****

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٢٧).

(٢) ينظر: أبكار الأفكار: الآمدي ص ١٢٤ـ١٢٥.

(٣) ينظر: أعلام النبوة: للماوردي ص ٦١.

الفصل السادس

دلالة النظم والأسلوب على نبوءة النبي ﷺ

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مفارقات في النظم والأسلوب بين القرآن وغيره

المبحث الثاني: موقف كفار قريش من نظم وأسلوب القرآن

المبحث الأول

مفارقات في النظم والأسلوب بين القرآن وغيره

○ أولاً: بيان وإيضاح لفصاحة العرب:

تميز نوع الإنسـان عن أنواع الحيوانات بالنطق المُعبر عن الفكر فصـار ذلك شرفًا وكرامة له، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[الإسراء: ٧٠]، كذلك تميز لسان العرب ولغتهم عن سائر الألسن واللغات بأسلوب آخر من عذوبة اللسان، ورطوبة اللفظ، و سهولة المَخارج والتعبير عن المعنى المُراد في الضمير، بأوضح عبارة، وأصـح تفسـير، وصـار ذلك شـرفًا وكرمًا لهم، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء: ١٩٥]، وكذلك تميز لسـان النبي ﷺ وأسـلوبه بالفصـاحة البينة، والبلاغة الفائقة، والبراعة المطابقة لما في ضـميره من المعاني، وكذلك تميز القرآن عن سـائر كلماته بأسـلوب آخر خارج عن جنس كلام العرب، وعن كلام النبي ﷺ أيضـًا، بنوع آخر من الفصـاحة والجزالة في النظم والأسـلوب، ما لم تعهده العرب في نظمهم ونثرهم، وسجعهم وشعرهم.

فلقد كان العرب في الجاهلية أهل الفصـاحة والبيان، خُصـوا بالبلاغة والحكم بما لم يُخَصُّ به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يُؤت إنسان، ومن فصـل الخطاب ما يفيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعـًا وخلقة وسـليقة، وفيهم غريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سـبب، فيخطبون ارتجالاً، ويرتجزون أشعاراً، وينثرون حكمـًا وأمثالاً[1].

---

(١) ينظر: الشفا بحقوق المصطفى ؛ للقاضي عياض (١/ ٥٠٠-٥٠٢).

وكانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، أحسنها مسموعًا، وأبينها إبانة عما في النفس، فهم أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة.

وقد كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية معمولاً به، فقد كانت تعرض أشعار العرب عليهم فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردوه كان مردوداً[1].

فالله اختارهم من جميع العرب، واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمداًﷺ[2]، ففي الحديث: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[3]، (وسبب ما اختصوا به من الفضل والله أعلم ما جعل الله لهم من العقول والألسنة والأخلاق والأعمال، وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع، أو العمل الصالح، والعلم له مبدأ؛ وهو قوة العقل الذي هو الفهم والحفظ، وتمام؛ وهو قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة، فالعرب هم أفهم وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بيانًا وتمييزاً للمعاني.

وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق وهي الغرائز المخلوقة في النفس، فغرائزهم أطوع من غرائز غيرهم، فهم أقرب إلى السخاء والحِلم والشجاعة والوفاء من غيرهم، ولكن حازوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير، مُعطلة عن فعله، ليس عندهم عِلمٌ

---

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٩، والظاهرة القرآنية؛ لمالك بن نبي ص ٦١.

(٢) ينظر: المزهر؛ للسيوطي (١/ ٢١١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل النبيﷺ، وتسليم الحجر عليه، (٢٢٧٦).

مُنزل، ولا شريعة مأثورة، ولا ا شتغلوا ببعض العلوم، بخلاف غيرهم فإنهم كانت بين أظهرهم الكتب المُنزلة، وأقوال الأنبياء، فضلوا لضعف عقولهم وخبث غرائزهم.

وإنما كان علم العرب ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب، أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم، أو ما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم والحروب.

فلما بعث الله محمداًﷺ بالهدى تلقفوه عنه بعد مجاهدة شـديدة، ونقلهم الله عن تلك العادات الجاهلية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها، فلما تلقوا عنه ذلك الهدى زالت تلك الريون عن قلوبهم، فقبلوا هذا الهدى العظيم، وأخذوه بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزله الله إليهم، بمنزلة أرض طيبة في نفسـها، لكن هي مُعطلة عن الحرث، أو قد نبت فيها شـجر العضـاء[1] والعوسـج[2]، وصـارت مأوى الخنازير والسـباع، فإذا طهرت عن ذلك المُؤذي من الشجر وغيره من الدواب وازدرع فيها أفضـل الحبوب أو الثمار جاء فيها من الحَب والثمر ما لا يوصف مثله.

فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله سوى الأنبياء، وصـار أفضـل الناس بعدهم مَن اتبعهم بإحسـان رضـي الله عنهم إلى يوم القيامة من العرب والعجم. والله سبحانه أعلم)[3].

ولقد اعتمدت قريش في نقل شـعرها على حافظة الرواة الذين كانوا يروونه مشـافهة في معظمه[4]، لذا اعتراه ما اعترى غيره من المَسـموعات من اختلاف في الرواية، وزيادة ونقصـان، ووضـع واختلاق، لذا اعتنى العلماء بدراسـته، معتمدين

---

(١) العضاء: شجرة ذات شوك. ينظر: لسان العرب: لابن منظور، (١/ ٦٠٢).
(٢) العَوْسَج: شجر كثير الشوك. ينظر: تهذيب اللغة ؛ للأزهري (١/ ٢١٩).
(٣) جامع الرسائل ؛ لابن تيمية، فصل في الدليل على فضل العرب، (١/ ٢٨٩-٢٩٠).
(٤) ينظر: تأريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ؛ د/ شوقي ضيف ص ١٤٢.

في ذلك على ذائقتهم الشعرية، وحسهم النقدي، وقد استطاعوا من خلاله التمييز بين صحيح الشعر ومنحوله[1].

فمنه المنحول المصنوع المُختلق، وهو ضرب من الشعر ساقط لا يُحتج به، ولا يُستشهد به على فصاحة العرب، يقول ابن سلام[2]: (وفي الشعر مصنوع مُفتعل، موضوع كثير لا خير فيه، ولا حُجة في عربيته)[3]، وهذا القسم قد محصه العلماء، وأسقطوه من المُصنفات منذ العصور المتقدمة[4].

ومنه الصحيح الذي لا شك فيه، الذي أجمع العلماء الثقات على صحته، ولذلك ذهب ابن سلام إلى أن ما اتفق عليه العلماء فليس لأحد أن يخرج منه[5]، وهو محفوظ عبر الرواية الصحيحة، والدواوين الموثقة، وهو الذي يعتمد عليه في الاحتجاج والاستشهاد لفصاحة العرب، وعليه لا يمكن التشكيك في الشعر الجاهلي برمته[6].

---

(١) ينظر: الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم؛ د/ عبد الرحمن الشهري ص ٢١٣-٢١٦.

(٢) ابن سَلَّام هو محمد بن سلام الجُمَحِي، الإخباري الأديب، من أعلم الناس وأوثقهم بالشعراء وطبقاتهم، صنف كتاب طبقات الشعراء، توفي سنة ٢٣١هـ. ينظر: معجم الأدباء ؛ لياقوت الحموي (١٨/ ٢٠٤-٢٠٥)، وسير أعلام النبلاء(١٠/ ٦٥١-٦٥٢).

(٣) طبقات فحول الشعراء (١/ ٤٦).

(٤) كما صنع ابن هشام حين أخذ على عاتقه تنقية سيرة ابن إسحاق مما شابها، فتعقب ابن إسحاق ونقد الشعر الذي أورده وبين الفاسد الموضوع وأسقطه، وأوضح نقد العلماء له، وذكر الروايات الصحيحة، ينظر: السيرة النبوية ؛ لابن هشام (١/ ٤). لابن سلام الجمحي جهد لنقد هذا النوع من الشعر المزيف، بين أسباب الوضع وعزاها إلى العصبية القبلية، والرواة الوضاعين، وقد نبه على الرواة الكذابين، وعلى رواة الأخبار الذين يحملون الشعر الزائف، ينظر: طبقات فحول الشعراء (١/ ٥، و٤٧-٤٩).

(٥) ينظر: طبقات فحول الشعراء (١/ ٤).

(٦) هناك مَن يشكك في حقيقة وجود الشعر الجاهلي، كمرجليوت، في مقالته نشأة الشعر الجاهلي، ينظر: المستشرقون والشعر الجاهلي؛ عبد الرحمن بدوي ص ٦، ١٤-٤٨، ودراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ص ٨٧-١٤٢؛ وطه حسين في كتابه في الشعر الجاهلي.

ولقد بُعث النبي محمد ﷺ بلســان قومه، إذ كل نبي يبعث بلســان قومه، قال تعـالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾[إبراهيم: ٤]، أي: (ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حُجة على الله ولا يقولوا: لم نفهم ما خوطبنا به)[١]، فتقوم حجة الله عليهم[٢].

ولســان قريش العربية التي نزل بها القرآن لفظـًا ومعنى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾[الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥][٣]، نزل بلسانهم ليفهموه.

فلغة القرآن الكريم هي اللغة العربية ولم يكن هذا باختيار النبي ﷺ وإنما هو بأمر الله تعالى وحكمته، فالنبي ﷺ يُبلغ عن ربه ما يُوحى إليه بلســان عربي مبين، فهناك علاقة بين لغة القرآن العربية وبين نبوءة النبي ﷺ فهي أحد أدلة صـدق نبوءة النبي ﷺ، فلا يمكن بـأي حـال عزل لغـة القرآن عن النبوءة وأدلتهـا، وهنـاك مَن يحاول الفصــل بين اللغة العربية التي نزل بها القرآن وبين النبوءة، حيث نظروا إلى اللغة العربية على أنها جزء جوهري في بنية النص القرآني تكونت من أيديولوجيا العصـبية العربية، وليسـت هي حقيقة من حقائق الوحي الإلهي الذي جاء به محمد ﷺ فـــ (ليسـت اللغة في الخطاب أداة توصـيل مُحايدة يشـكلّها المنتج للخطاب، فتستجيب بطواعية مطلقة لقصده ونيته، بل إن للغة وجوداً في سياق التداول الثقافي والفكري، يجعلها مُحملة بدلالات قبلية سلبية وإيجابية)[٤].

---

(١) الكشاف (٢/ ٥٠٦).

(٢) ينظر: جامع البيان (١٦/ ٥١٦)، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٧٧).

(٣) ينظر: سورة [يوسف: ٢] و[الرعد: ٣٧] و[طه: ١١٣] و[الزمر: ٢٨] و[فصلت: ٣] و[الشورى: ٧] و[الزخرف: ٣] و[الأحقاف: ١٢].

(٤) الإمام الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية؛ د/ نصر أبوزيد ص ٦٦، وقد رد عليه د/ محمد عمارة في التفسـير الماركسـي للإسـلام ص ٥١، ورفعت فوزي عبد المطلب في نقض كتاب نصـر أبوزيد

○ **ثانيًا: تعريف النظم والأسلوب.**

النَّظْم في اللغة ضم الشيء إلى الشيء الآخر، يقال: نظمت اللؤلؤ أي جمعته في سلك، ومنه نظمت الشعر، وهو أصل يدل على تأليف الشيء مع الترتيب والتنسيق[1].

والأسلوب هو الوجه والطريق والمذهب الذي يصاغ به الكلام[2].

والمُراد هنا نظم وأسلوب القرآن الكريم بلفظه ومعناه؛ إذ إن نظمه وأسلوبه الإلهي المُتفرد دل على صدق نبوءة النبي ﷺ[3]، فـ (نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأتِ أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الخطابة ولا الرسائل، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم،... ليس له نظير في كلام الخلق أجمعين)[4].

= ودحض شبهاته ص ٣٠، والاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد ؛ د/ أحمد الفاضل، ص ١٨٠.

(١) ينظر: العين ؛ للخليل الفراهيدي(٨/ ١٦٦)، وتهذيب اللغة (١٤/ ٢٨٠)، ومقاييس اللغة (٥/ ٤٤٣)، وجمهرة اللغة ؛ لابن دريد (٢/ ٢٤) وأساس البلاغة ؛ للزمخشري، ص ٦٤١ مادة (نظم).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة (١٢/ ٣٠٢)، ولسان العرب (١/ ٤٧١) مادة (سلب).

(٣) تنبيه: تفصيل القول وبسط الكلام في الدلالات اللغوية والبيانية مما يطول المقام به، وهو خارج عن إطار الدراسة العقدية في هذا البحث.

(٤) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٣)، وينظر: إعجاز القرآن ؛ للخطابي ص ٢٧، وإثبات نبوة النبي ﷺ ؛ لأحمد الهاروني ص ١٩، وأعلام النبوة ؛ للماوردي ص ٥٦، والمغني (١٦/ ٦٥)، والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ؛ للزملكاني ص ٥٣-٥٧، والفوائد المشوق لعلم القرآن؛ لابن القيم ص ٤- ٧، ومعترك الاقتران ؛ للسيوطي، (١/ ٢٣)، ونظرية النظم ؛ د/ حاتم الضامن، ص ٥-٢٤.

○ **ثالثًا: هل كان محمدٌ ﷺ شاعراً ؟!**

لقد كانت قريش ذات فصاحة وبيان، في شعرهم ونثرهم، ومحمدٌ ﷺ كان من قريشٍ، ولم يعُدوهُ من جُملة شعرائهم؛ إذ الشعراء معروفون آنذاك، فلم يكن محمد ﷺ منهم، ذلك أنه لم ينظم قصائد الشعر، وإن كان يقول البيت والبيتين من الشعر جريًا على لسانه من غير قصد، ولا عمد، كقوله ﷺ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»(1)

وقد يحكي قول غيره متمثلاً به، كقوله ﷺ: «هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ»(2)، وكقوله ﷺ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا الله بَاطِلُ»(3).

ومما هو معلوم ومعروف أن مَن يقول كلامًا موزونًا من غير قصد، أو يُردد البيت والبيتين عن غيره، لا يُقال عنه شاعر(4).

بخلاف مَن يقول كلامًا موزونًا مقفى بقصد أولي، فهذا يُقال عنه شاعر، ولكلامه شعر (5).

ثمة سؤال يطرح نفسه، ألا وهو:

هل هناك مُفارقة في النظم والأسلوب بين القرآن وغيره ؟!

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ...﴾[التوبة: 25]، (4314)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، (1776).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، (6145)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، (1796). والبيت لعبد الله بن رواحة.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، (6146)، ومسلم في صحيحه، كتاب الشعر، (2256). والبيت للبيد. ينظر: ديوان لبيد بن ربيعة. ص 127.

(4) ينظر: الكشاف (4/ 29)؛ والتفسير الكبير (26/ 92)، وفتح الباري (9/ 429) و(14/ 6).

(5) ينظر: تهذيب اللغة (1/ 420)، ومقاييس اللغة (3/ 194)، مادة (شعر)، وكشاف اصطلاحات الفنون؛ للتهانوي ص 1030.

إنَّ الإجابة على هذا السؤال ستبرهن لنا صدق نبوءة محمدﷺ من كذبها، وأنَّ القرآن هو من عند الله تعالى، وأنه دليل على صدق نبوءته، وستكون من وجوه، منها:

الوجه الأول: مفارقة بين نظم القرآن وأسلوبه وبين نظم وأسلوب كلام الإنس والجن.

لقد أيقن صناديد كفار قريش بأن نظم وأسلوب القرآن الذي كان يتلوه محمد ﷺ مغاير تماماً لكلامهم، بل ولكلام الشياطين أيضاً، لأن العرب كانت تعتقد بوجود الشياطين، وهي التي كانت تلهم الشاعر تارة، وتعين الكهنة، والسحرة، وتأتيهم بالأخبار الغائبة[1]، وكانوا يعتقدون أيضاً بأن للرجل تابعاً من الجن، ويسمونه رئيّاً[2].

فالقرآن عندهم ليس من صنيع البشر ولا الجن، وسأبرهن على ذلك بأقوالٍ لصناديد قريش، منها:

*قول الوليد بن المغيرة[3]، حين جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له: اقرأ عليّ، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (٢٤/ ١٥٠)؛ ومجموع الفتاوى (٢/ ٥١)؛ وأديان العرب ومعتقداتها في طبقات ابن سعد؛ هالة الناشف، ص ٥٠، والشعر الإسلامي في صدر الإسلام؛ د/ عبد الله الحامد، ص ٢٣. وفي الواقع المعاصر نجد مَن يربط الشعر والكهانة بالجن في العقل العربي، ويعدها هي الأساس الثقافي لظاهرة الوحي على أساس أن القرآن تشكل من الواقع، وهذا مُخالف لحقيقة الوحي وما جاء به، ينظر: مفهوم النص؛ نصر أبوزيد ص ٣٤، والنص والسُلطة الحقيقية؛ له أيضاً ص ١٠٠.

(٢) ينظر: السيرة ؛ لابن هشام (١/ ٣١٣ـ ٣١٥)، ونبوة محمد ﷺ في القرآن ؛ د/ حسن عتر، ص ٢١٦ـ ٢١٧.

(٣) الوليد بن المغيرة من زعماء قريش وقاداتهم، مات بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ينظر: الأعلام (٨/ ١٢٢).

﴿وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ٩٠]،قال: أعد، فأعاد النبيﷺ، فقال: (والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثمر، وإن أسفله لمُغدق، وما يقول هذا بشر)[١]، والشاهد هو قوله: وما يقول هذا بشر، فهو إقرار من الوليد بأن القرآن ليس من صنيع البشر، فممَن يكون إذاً؟!

وفي رواية أخرى، يُبين فيها الوليد عِلمه بالشعر، والرجز، الإنسي والجني، وأنه لا يُشبه شيئاً من الذي يقوله محمد ﷺ ــ القرآن ــ، حيث يقول: (...، وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا،...)[٢].

*قول عتبة بن ربيعة، الذي علم بقول السحرة والكهنة والشعراء، فذات يوم وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد، قال: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأكلمه، فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل منا بعضها، ويكف عنا، قالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول اللهﷺ، فقال له عتبة: يا محمد، أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله؟ فلم يُجبه، قال: فيم تشتم آلهتنا؟ وتضلل آباءنا؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة، عقدنا ألويتنا لك، فكنت رأسنا ما بقيت، وإن كان بك الباءة، زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت، وإن كان بك المال، جمعنا لك من أموالنا ما تستغني بها أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله ﷺ ساكت، لا يتكلم، حتى إذا فرغ عتبة، قال رسول الله ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد، قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[فصلت: ١-٣]، فمضى رسول الله ﷺ، فقرأها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى بيديه خلف ظهره،

---

(١) السيرة ص ٢٩٢، ودلائل النبوة؛ للبيهقي، (٢/ ٢٠١)، والبداية والنهاية (٣/ ٨١).
(٢) السيرة ص ٢٩٦، ودلائل النبوة (٢/ ٧٥)، والبداية والنهاية (٣/ ٧٩).

معتمداً عليهما، يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها، ثم قال: سمعت يا أبا الوليد، قال: سمعت، قال: فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي **أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا السحر، ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه،** فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه مُلككم، وعِزُّه عِزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سَحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم)، ويقول: **(فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلامًا ما سمعت أذناي قط كلامًا مثله، وما دريت ما أرد عليه)**[1]، فعتبة هنا ينفي أن يكون سمع قولاً مثل القرآن الذي تلاه عليه محمدٌ ﷺ، بل ويؤكد نفيه بأنه ليس بشعر، ولا بسحر، ولا بكهانة، فهو ينفي أن يكون من جنس كلام البشر والجن.

* قول النضر بن الحارث، وقد كان من أكبر المُعارضين للنبي ﷺ، وكان يُعد من الخبراء المُحنكين بمكة، وقف يومًا، فألقى خطبة في جمع من قريش، يقارن فيها بين ما جاء به محمد ﷺ وبين ضروب السحر والكهانة والجنون والشعر، وقومه من الحذاق في هذه الأمور، وأوضح فيها أن القرآن مُغاير ومُفارق لغيره، حيث يقول: **(يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمدٌ فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله، ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن، لا والله، ما**

---

(١) السيرة ص ٢٦٩، ودلائل النبوة (٢/ ٧٥)، والبداية والنهاية (٣/ ٧٩).

هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة تخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر، لا والله، ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه. وقلتم: مجنون، لا والله، ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش؛ فانظروا في شأنكم، فإنه والله، لقد نزل بكم أمر عظيم)[1].

هذه شهادة النضر الذي كان من شياطين قريش، وكان يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة.

* قول أُنَيْس الغفاري[2]، وكان أحد الشعراء، فبعدما سمع القرآن، بَيّن مُفارقة نظمه وبيانه لنظم الكهنة، والشعراء، وأثبت صدق نبوءة النبي ﷺ بهذه المفارقة، حيث يقول: **(لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقوال الشعراء، فوالله ما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، ووالله إنه لصادق وإنهم لكاذبون)**[3].

تقودنا اعترافات صناديد قريش إلى أن القرآن مُغاير تماماً في نظمه وأسلوبه لكلام الشعراء منهم، وهم أدرى الناس بهم، وعليه لا يمكن أن يكون ما جاء به محمد ﷺ من القرآن شعراً، لأن محمداً ﷺ ليس بشاعر، فقريش لم تعده من جملة شعرائهم، وهم ينفون أن يكون ما يأتي به محمد ﷺ من جنس كلام الشعراء، وهذا ما نفاه القرآن عن محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١ — ٤٣]، لبيان أن القرآن من

(١) دلائل النبوة (٢/ ٧٧).

(٢) أُنَيْس الغفاري: أخو أبي ذر الغفاري، وكان أكبر منه، ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير، ص ٨٣، والإصابة في تمييز الصحابة؛ لابن حجر (١/ ١٣٦)،

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام أبي ذر الغفاري، (٣٨٦١)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي ذر الغفاري، (٢٤٧٣).

رب العالمين، وليس هو من وحي الخيال الذي توسوس به الشياطين[1]، وللرد على مزاعم المشركين القائلين عن النبي ﷺ بأنه شاعر، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[الأنبياء: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[الطور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٦-٣٧]، مع أن العرب كما بينت سابقاً معترفون بأن القرآن ليس من جنس شعرهم، ومحمد ﷺ لم يعدوه من شعرائهم، ولكنهم تجوزوا في الافتراء ومخالفة الحقائق للكيد والمكابرة[2].

كما نفى القرآن عن النبي ﷺ تعلم الشعر، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[يس: ٦٩] أي: (وما علَّمنا محمداً الشعر، وما ينبغي له أن يكون شاعراً)[3]، لأن (الشعر مُستفاد من الشعور، فهو يفيد إشعار النفس بما يُحركها، وإن لم يكن صدقاً، بل يورث محبة أو نفرة، أو رغبة أو رهبة، لما فيه من التخييل، وهذا خاصة الشعر)[4]، ففي الشعر تخييل وتزويق للقول، أما القرآن فهو ذكر للحقائق والبراهين[5]، فالشعر له تأثير في النفس من جهة التحريك والتأثير لا من جهة التصديق والعلم والمعرفة، بخلاف القرآن حق نزل من حق، فهو قول الصدق والحق، يعطي علماً واعتقاداً، وتصديقاً وعملاً[6].

كما أن الشعر يكون من الشيطان تارة، فيكون كذباً وإثماً، ويكون من النفس أخرى، فيكون فيه غيٌّ واتباعٌ للشهوات، فهذا من الشعر المذموم، ومنه ما يكون

---

(١) ينظر: الشاهد الشعري ؛ د/ عبد الرحمن الشهري، ص ٣٨.
(٢) ينظر: إعجاز القرآن ؛ للرافعي، ص ١٦٢، و ص ٢٤٧.
(٣) جامع البيان (٢٠/ ٥٤٩).
(٤) مجموع الفتاوى: لابن تيمية، (٢/ ٤٢).
(٥) ينظر: المحرر الوجيز؛ لابن عطية (٤/ ٥٣١).
(٦) ينظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٤٢-٤٤).

حقًا[1]، و هذا يتبين في قول الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[الشعراء: ٢٢٤ ــ ٢٢٧] ففرّق سبحانه بين محمد ﷺ وبين الشعراء، فذكر أوصاف الشعراء، وبين حالهم، وحال أتباعهم، ليدرك العاقل الفرق بين القرآن والشعر، والفرق بين محمدﷺ والشعراء، فحالة الشعراء، ووصفهم الثابت، فمن يتبعهم هم الغاوون عن طريق الهدى، المُقبلون على طريق الغي والردى، فهم في أنفسهم غاوون، وتجد أتباعهم كل غاو ضال فاسد، وغوايتهم وشدة ضلالهم أنهم في كل واد من أودية الشعر يهيمون، فتارة في مدح، وتارة في قدح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وآونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

ومن صفات الشعراء أيضًا أنهم يقولون ما لا يفعلون فأقوالهم تخالف أفعالهم، فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت: هذا أشد الناس غرامًا، وقلبه فارغ من ذاك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب، وكما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحُم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان، هذا وصفهم.

فانظر، وتأمل أيها العاقل في صفات الشعراء وصفات الرسول ﷺ، وحال أتباع الشعراء وأتباع الرسولﷺ، وفي كلام الشعراء والغرض منه وفي كلام الرسولﷺ والغرض منه، فهل تطابق حالة وصفات الرسول محمد ﷺ حالة وصفات الشعراء، أو يقاربهم؟! أم هو مُخالف لهم من جميع الوجوه؟! فالنبي ﷺ الراشد

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٥١).

البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعاله ولم تخالف أقواله أفعاله؟! الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له.

ولما وصف الله الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم مَن آمن بالله ورسوله، وعمل صالحًا، وأكثر من ذكر الله، وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم.

فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة، وآثار إيمانهم، لا شتماله على مدح أهل الإيمان، والانتصار من أهل الشرك والكفر، والذب عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث على الأخلاق الفاضلة[1].

(وكيف يكون القرآن شعراً والشعر كلامٌ موزونٌ مقفّى له معان مناسبة لأغراضه التي أكثرها هزل وفكاهة؟! فأين الوزن في القرآن؟! وأين التقفية؟! وأين المعاني التي ينتجها الشعراء؟! وأين نظم كلامهم من نظمه، وأساليبهم من أساليبه؟!)[2].

وحين تأملت القصائد الشعرية للعرب وجدتُ أنها تأخذ نمطًا معينًا في نظمها وأسلوبها، فالشاعر يقف على الأطلال ويصف دابته التي ترافقه، ومن ثم يتغزل في محبوبته، ومن ثم يشرع في المدح أو الهجاء، فلا شيء تمس الحاجة إليه في صلاح دنيا ودين[3]، وإن كانت قصائدهم تحتوي على بعض الحكم، لكن لا علاقة لها بالدين، وهذا ما لا نجده في القرآن الكريم، فهو يتحدث إلى الرسول أو يتحدث

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (٢٤/ ١٥٠)؛ وتيسير الكريم الرحمن ص ٥٩٩.

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٥٧).

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز ؛ لعبد القاهر الجرجاني، ص ٨.

عنه ولا يتركه يُعبر عن فكره الشخصي، وهو يشتمل على الدعوة لعبادة الله تعالى والأحكام والجزاء و...إلخ، فهو دعوة ملتزمة بمنهج لا تحيد عنه، خالفت الشعر في الغاية فبعدت عن مناهجه وطرائقه(١).

ولقد عثرت على نص لابن كثير يوضح ما وجدته بعد تأمل في الفارق بين القصيدة والقرآن، حيث يقول: (وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع، أو شيء من المُشاهدات المُتعينة التي لا تفيد شيئًا إلا قدرة المُتكلم المُعبر على التعبير عن الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيها بيتًا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند مَن يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممَن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا وكلما تكرر حلا وعلا ولا يَخلق عن كثرة الرد، ولا يَمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن) (٢).

فكيف يكون محمد ﷺ شاعراً وهو يذم بعض الشعراء في الكتاب الذي جاء به؟! وينفي عنه أن يكون شاعراً، في وقت كانت قريش تتفاخر بالشعر والشعراء وتتباهى بهم، وحينما تعرضت قريش بالأذى للنبي ﷺ قال لحسان رضي الله عنه:

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن ؛ للباقلاني ص ٥٤-٥٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل حسان بن ثابت، (٢٤٥٠).

«إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ الله وَرَسُولِهِ»، ويقول: «هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى »[1]، ولو كان النبي ﷺ شاعراً لباشر ذلك بنفسه، ولما اتخذ شاعراً له، لنعلم بأن الأمر يتعلق بمسألة نبوءة محمد ﷺ، وأن القرآن دليل يُبرهن على صدق نبوءته، وأنه وحي من عند الله.

ولو قلنا تنزلاً بأن القرآن شعرٌ، ومحمداً ﷺ شاعرٌ، لسهل على كفار قريش وغيرهم أن يُحاكوه، وأن يأتوا بمثله، فيُعارضوه، وحرصهم معلوم بشتى الطرق والسُبل لإبطال دعوة نبوءة محمدﷺ، وهذا لم يقع مطلقاً[2].

هذا شيء من المُغايرات والمُفارقات بين القرآن وشعر الجاهلية.

وبهذا تبطل دعوى القائلين بأن القرآن الذي جاء به محمدﷺ منحول من الشعر الجاهلي[3].

لقد كانت قريش تعتقد بأن للرجل تابعاً من الجن، يسمونه رئيّاً، فظنوا أن بعض الجن يتراءى للنبيﷺ فيوهمه بأنه نبي مُرسل، وفي هذا يقول عتبة بن ربيعة للنبيﷺ قبيل أن يسمع منه شيئاً من القرآن: (... وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّاً تراه قد غلب عليك، وكانوا يُسمون التابع من الجن رئيّاً، فربما كان ذلك، بذلنا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٦ - ٥٧).

(٢) ينظر: محمد ﷺ بين الحقيقة والافتراء؛ محمد أبو ليلة ص ١٢٣.

(٣) ينظر: القرآن في الشعر الجاهلي؛ ناهد محمود متولي، http://www.nahedmetwaly.com/books/books.htm، حيث أجلبت الباحثة بخيلها ورجلها على أن القرآن منتحل من الشعر الجاهلي، ومقدمات أولية؛ لطيب تيزيني، ص ٣٧٧، ومفهوم النص؛ د/ نصر أبوزيد، ص ١٤٥، ومآلات القول بخلق القرآن؛ د/ ناصر الحنيني، ص ٦٨.

والحداثيون ربطوا بين النبوة والشعر: ينظر: أسئلة الشعر في حركة الخلق وكمال الحداثة وموتها؛ أدونيس، ص ١٤٠ ــ ١٤١، و ص ١٦٨ ــ ١٧٠، والمجموعة الكاملة؛ لجبران خليل، ص ٢٥٢، ونقد النص؛ علي حرب، ص ٢٠٨، والحداثة في العالم العربي دراسة عقدية؛ د/ محمد العلي، (٣/ ١٣٥١)، يراجع: الفصل الرابع من هذا البحث: مضمون الرسالة.

لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك)[1]، وقد رد الله عليهم زعمهم هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢] (أي: ليس هو من بُغْيتهم ولا من طلبتهم؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو نور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، حمله وتأديته، ولما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء مُلئت حرسًا شديدًا وشهبًا في مُدّة إنزال القرآن على رسوله، فلم يَخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه، لئلا يشتبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[الشعراء: ٢١٢]، كما قال تعالى مُخبرًا عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن:٨])[2].

والجن لما سمعت القرآن من النبي ﷺ اعترفت بأنه حق، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؟ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ؟ فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ بِنَخْلَةَ، عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ

---

(١) السيرة (٢/ ١٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٦٥)، وينظر: التفسير الكبير (٢٤/ ١٤٧).

الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَـمِعُوا الْقُرْآنَ، اسْـتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّـمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[الجن: ١ – ٢]»[1]، وقد قالت الجن كما ذكر الله عنهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأحقاف: ٢٩ -٣١].

وهنا مفارقة ومغايرة في ردة الفعل بعد سماع القرآن، فصناديد قريش على اعترافهم بالمُغايرة والمُفارقة بين نظم القرآن وغيره، وأنه خارج عن منطوق الإنس والجن، إلا أنهم لم يؤمنوا به، وكان لهم موقف من القرآن ومن النبيﷺ[2]، بخلاف النفر من الجن لما سمعوا القرآن آمنوا به وبلغوا قومهم.

وعلى وضوح هذه المُفارقة بين نظم وأسلوب القرآن وغيره من كلام، والتي أقر بها فصحاء العرب من صناديد قريش، ونفر من الجن، بأن القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ليس هو من جنس قولهم، وخارج عن مقدورهم، إلا أن هناك مَن يُحاول التشكيك في هذه المفارقة، لنزع قداسة وإلهية مصدر القرآن، قائلاً: (مع أن الآثار الفنية شعراً كانت أو نثراً أو رسوماً أو منحوتاً أو روائع موسيقية أو غيرها،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر، (٧٧٣)، ومسلم في صحيحه، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، (٤٤٩)، وينظر: إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات: محمد علي الشوكاني، ص ٤٤.

(٢) سأبينه في المبحث الثاني من هذا الفصل بمشيئة الله تعالى.

كل أثر منها مُعجز بطريقته الفريدة، ولا سبيل إلى الإتيان بمثلها رغم بشريتها)[1]، وهذا القول الفجّ لم يقل به فصحاء قريش ولا كل مَن يعرف اللغة العربية، للتباين بين مصدر القرآن ومصدر غيره من كلام البشر، وإن كان لكل واحد من بني البشر أسلوب خاص في الكتابة والصناعة إلا أنه محدود بقدرة البشر، وبالإمكان مُحاكاته، فالقول بإطلاق تفرد أسلوب البشر وعدم الإتيان بمثله فيه مغالطة علمية، ومخالفة للحقيقة والواقع.

فالقرآن يوضح الفارق بين الإله الحق والإله العاجز، بين كلام الله الحق، وكلام الجن الباطل[2].

الوجه الثاني: مُفارقة بين القرآن والحديث [3].

في الوجه السابق بينت المُفارقة بين القرآن وكلام الخلق، للبرهنة على أن مصدر القرآن إلهي، وفي هذا الوجه سأبين المفارقة بين القرآن الذي كان لمحمد ﷺ دور التبليغ بما أوحاه الله إليه دون تدخل منه، وبين الحديث الذي كان يقوله النبي ﷺ.

فمما لا شك فيه أن محمداً ﷺ كان يقرأ القرآن ويقول الحديث بعد نبوءته، فهل هناك مُفارقة بين القرآن والحديث؟!

هل كان القرآن والحديث من إنشاء محمد ﷺ ؟!

---

(١) الإسلام بين الرسالة والتاريخ ؛ عبد المجيد الشرفي ص ٥١، وينظر: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ؛ طيب تيزيني ص ٢٨٩، ومن العقيدة إلى الثورة ؛ حسن حنفي، (٤/ ١٩٦)، وظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر ص ٣١٢-٣١٣.

(٢) ينظر: محمد نبي هذا الزمان ص ٦٦.

(٣) تنبيه: ليس الحديث هنا عن حُجية القرآن والسنة الصحيحة والعمل بهما، لأن مذهب السلف يقوم على حُجية الكتاب والسنة، ووجوب الأخذ بهما، وأنه لا تعارض بينهما البتة. ينظر: الحُجة في بيان المحَجة؛ لأبي القاسم الأصفهاني (٢/ ٤٢٥ــ ٤٢٦)، والأحكام ؛ لابن حزم (١/ ٩٨-١٠٠) ومختصر الصواعق ؛ لابن القيم (٢/ ٤٤١).

إنَّ تجلية المُفارقة بين القرآن والحديث ستجيب على هذا السؤال.

إننا حينما نطالع القرآن والحديث نجد بينهما مفارقات في النظم والأسلوب، من وجوه عدة، منها:

❖ **مُفارقة من جهة مصدر النظم والأسلوب:**

القرآن هو كلام الله المنزل غير المخلوق، على محمد ﷺ بواسطة جبريل، المنقول إلينا بالتواتر، المُتعبد بتلاوته.

والحديث النبوي هو كل ما أثر عن النبيﷺ بعد البعثة من قول وعمل وتقرير[1].

والحديث القدسي، هو الحديث الذي يرويه الرسول ﷺ عن ربه، لفظاً ومعنى[2].

ومن هنا أستطيع أن أجلي الفرق بين القرآن والحديث، من وجوه عدة، منها[3]:

* القرآن كلام الله أي إن لفظه ومعناه من الله، بواسطة جبريل، وهو الوحي الجلي، بينما الحديث النبوي لفظه من النبي ﷺ ومعناه وحيٌ من الله، والحديث القدسي لفظه ومعناه من الله تعالى بوحي جلي أو خفي، يرويه النبيﷺ عن ربه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٣ ـ ٤] فـ (الوحي وحيان:

وحيٌ أمرنا بكتابته، وتعبدنا بتلاوته، وهو القرآن الكريم.

ووحيٌ لم نؤمر بكتابته، ولم نُتعبد بتلاوته وهو السنة)[4].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١٨/ ١٠ـ١١)، وأصول الحديث ؛ د/ محمد عجاج الخطيب، ص ٢٧.

(٢) ينظر: الرسالة المُستطرفة ؛ للكتاني ص ٦٠، والضياء اللامع من الأحاديث القدسية الجوامع ؛ صالح الفوزان ص ٣، والأحاديث القدسية جمعاً ودراسة ؛ عمر محمد (١/ ٧).

(٣) ينظر: قواعد التحديث؛ للقاسمي، ص ٦٤ـ ٦٩، وأصول الحديث ص ٢٩ـ ٣٠.

(٤) أضواء البيان (٨/ ٣٧).

* القرآن لا يُضاف إلا لله تعالى، فيقال: قال الله تعالى، والحديث القدسي يرويه النبيﷺ عن ربه، فيقال فيه: (قال الرسولﷺ فيما يرويه عن ربه)، والحديث النبوي يرويه الصحابي عن النبيﷺ فيقول: قال الرسولﷺ.

* القرآن مُنزل من الله إلى جبريل ثم محمدﷺ، بينما الحديث النبوي هو رواية الصحابة عن الرسول ﷺ، قد تختلف الروايات في بعض ألفاظ الأحاديث، حسب المواقف التي يقول فيها النبي ﷺ الحديث، أو بحسب الرواة عنه، والحديث القدسي يرويه النبي ﷺ عن ربه، ومن ثم يروي الحديث الصحابة رضوان الله عليهم، لا بد من ذكر السند حيال نقله، بخلاف القرآن الكريم.

* القرآن مُتعبد بتلاوته وقراءته فهو يُقرأ في الصلاة، ويُضاعف الأجر عند تلاوته، بينما الحديث النبوي والقدسي لا يُتعبد بتلاوته في الصلاة.

* القرآن منقول إلينا بالتواتر، وهذا من عوامل حفظه، فهو قطعي الثبوت، بخلاف الحديث النبوي والقدسي منه المتواتر والآحاد، وفي الآحاد الصحيح والضعيف، وللحفاظ عليه صنف العلماء العديد من المصنفات لمعرفة الحديث دراية ورواية[1].

* تسمى الجملة من القرآن آية وسورة، وهذا لا يوجد في الحديث.

❖ مُفارقة من جهة الدلالة:

* القرآن دليل على صدق نبوءة النبي محمد ﷺ، فهو حينما أظهر نبوءته، كان القرآن دليلاً على صدق نبوءته إذ هو برهان وآية من عند الله تعالى أيد بها النبيﷺ

---

(١) ينظر لأشهر المصنفات في مصطلح الحديث في: تيسير مصطلح الحديث؛ د/ محمود الطحان، ص ١١-١٤.

وبرهن على صـــدق نبوءته، بخلاف الحديث النبوي الذي كان يقوله النبيﷺ لم يستدل به على صدق نبوءته، وإن تضمن بعض دلائل النبوة كالإخبار بالمُغيبات.

* ادعى كفار قريش أن لهم القدرة على أن يقولوا مثل القرآن، وطلبوا من النبي ﷺ أن يُبدله، فطلب الله منهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله، فلم يأتوا، ليظهر عجزهم للملأ[1]، هذا كان خاصّاً بنظم وأسلوب القرآن فقط، أما الحديث فلم يؤثر في التاريخ أي اعتراض عليه من قبل كفار قريش، وعليه لم تكن هناك أي مطالبة بالإتيان بمثله.

* القرآن بلفظه وبيانه بهر قريشـاً وأيقنوا أنه ليس من قبيل كلام البشـر مطلقاً، بخلاف الحديث.

❖ مُفارقة من جهة النظم والأسلوب:

* لوكان الأســلوب القرآني صـورة لتلك الفطرة المُحمدية، لوجب أن ينطبع على ســائر الكلام المُحمـدي، لأن الفطرة الواحـدة لا تكون فطرتين، والنفس الواحدة لا تكون نفسين، ونحن نرى الأسـلوب القرآني فنراه ضـرباً وحده، ونرى الأســلوب النبوي فنراه ضــربـاً وحـده لا يجري مع القرآن، فجميع عبـارات الرسـولﷺ وجمله يتميز عنها النص القرآني تميزاً صــارخـاً، إذ نلحظ في القرآن أسلوبـاً ونظمـاً فريداً لا ينبعث من بشر[2].

فالقرآن والحديث كانا في زمن النبوءة، وحيال النظر فيهما نجد أن في الأحاديث النبوية ألفاظـاً مرتبطة بالحياة اليومية كالمُد والصــاع... ونحوها، لا وجود لها في القرآن، كما نلاحظ اختلافـاً بين القصـص الواردة في القرآن والواردة في الحديث من جهة الأسلوب، ونلاحظ أيضـاً أسلوب القسم، ففي القرآن يُقسم الله تعالى بما شاء

---

(١) سيأتي مزيد إيضاح وبيان بمشيئة الله في المبحث الثاني من هذا الفصل.
(٢) ينظر: النبأ العظيم: دراز، ص ٩٨-٩٩.

من مخلوقاته كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١ -٣]، وقوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ١ -٤]، أما في الحديث فالقسم لا يكون إلا بالله تعالى وحده، كما أن القرآن الكريم يخلو من تأريخ الأحداث بخلاف الحديث، فلو كان محمدﷺ مؤلف القرآن لغلبه لسانه على تلك الألفاظ والأساليب التي يستخدمها في الحديث، فنجدها في القرآن وشيءٌ من ذلك لم يحدث.

كما أن لنظم وأسلوب القرآن تأثيراً في النفوس، حيال قراءته، وسماعه، وهذا بخلاف الحديث يُقرأ وليس لنظمه وأسلوبه تأثير.

وقد عُلم بالضرورة بأن لكل قائل أسلوبه وطريقته في النظم والبيان، ومما هو مقطوع به أن القرآن والحديث يُمثلان أسلوبين لكل منهما طابعه، ونظمه الخاص به، لنعلم بأن القرآن لفظه ومعناه من عند الله تعالى، وليس هو من عند محمد ﷺ، والسنة لفظها من النبيﷺ، ومعناها من الله تعالى[1].

ولو كان القرآن من أسلوب محمد ﷺ لما لمسنا فرقًا بينه وبين الحديث مع أن كليهما يجريان على لسانه.

الوجه الثالث: مُفارقة بين القرآن والتوراة والإنجيل[2].

مما لا شك فيه أن التوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، والقرآن الذي نزل على محمدﷺ، جميعها كلام الله تعالى، إلا أن نظم

---

(١) ينظر: للدراسة التي اعتنت بهذا الجانب وهي بعنوان: القرآن والحديث مقارنة أسلوبية ؛ د/ إبراهيم عوض، برمتها، والظاهرة القرآنية؛ لمالك بن نبي ص ١٧٢، وإتقان البرهان، د/ فضل عباس (١/ ١٥١).

(٢) تنبيه: التفريق هنا بين القرآن والكتب السابقة من جهة الأسلوب والنظم فقط، لا من جهة المعاني التي تحتويها، لأن الكتب السابقة تحتوي على الإخبار بالمُغيبات كالإخبار ببعثة النبيﷺ، ينظر: إعجاز القرآن؛ للباقلاني ص ٧٩، والتمهيد ؛ ص ١٨٠، وتفسير القرطبي (١/ ٥٢)، وأعلام النبوة؛ للماوردي، ص ١١١-١١٢، والشفا ؛ للقاضي عياض (١/ ٣٩٠)، والنبوات (٢/ ٥١٩-٥٢٠).

وأسلوب القرآن مُفارق ومُغاير للتوراة والإنجيل، يقول ابن جرير: (ومن أشرف المعاني التي فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه العجيب، وتأليفه البديع)[1]، وسأجلي هذه المفارقة من وجوه، منها:

* **من جهة اللغة،** لقد نزلت التوراة باللغة العبرية على موسى عليه السلام، والنص العبري الأول مفقود[2]، وترجماتها الموجودة لا يُعرف أصلها الذي ترجمت عنه، ولغة الإنجيل التي نزل بها هي الآرمية، والموجود من الأناجيل اليوم ليس هو باللغة الآرمية بل هو مُترجم، أين النص الأصلي المُترجم عنه؟! غير موجود، ولا يُعرف، والأناجيل الموجودة اليوم تختلف لغاتها من اليونانية إلى العبرانية وبينها من الاختلاف ما يلحظه كل مُطالع لها.

أما القرآن الكريم فقد نزل باللغة العربية، لغة قريش، وقد انبهروا بنظمه وأسلوبه، واعترفوا بأنه ليس من جنس كلامهم ولا كلام الجن، ولم يستطيعوا معارضته، فطلب الإتيان بالمثل (التحدي) وهو خاص بالقرآن فقط، فهو دليل على صدق نبوءة النبي ﷺ و هذا ما اختص به النبي ﷺ دون غيره من الأنبياء، «وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ».

ولا يزال نظمه وأسلوبه باللغة العربية التي نزل بها منذ نزوله على محمد ﷺ إلى يومنا هذا، لم يتغير ولم يتبدل، وهذا دليل على صدق نبوءة النبي ﷺ، وتُرجمت معاني القرآن، فلم يختلف مضمونها لتعلم بأنه حق نزل من حق تكفل الله بحفظه[3].

---

(١) جامع البيان، (١/ ٦٥).

(٢) ينظر: بذل المجهود في إفحام اليهود ؛ السموءل بن يحيى ص ١٢٥ـ ١٣٤.

(٣) ينظر: الجواب الصحيح (٢/ ١٣)، وتفسير القرآن: لابن كثير (١/ ٥٧).

* من جهة الحفظ، لقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، بينما وُكِل حفظ التوراة إلى الأحبار، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[المائدة: ٤٤].

* من جهة النقل، فلقد نُقل القرآن بالتواتر، وشاهد الصحابة رضوان الله عليهم تنزله على النبيﷺ، وهذا بخلاف الأناجيل التي بأيدي النصارى كُتِبت بعد أن رُفع المسيح، وهذا يعني انقطاع السند بين المسيح وبين مَن كتبها، وما كُتب كان من كلام المسيح، وليس من كلام الله تعالى، فهي من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النبيﷺ من أقواله وأفعاله وتقريراته والتي ليست هي قرآناً[1].

* من جهة النظم والأسلوب، لو أردنا النظر إلى نظم وأسلوب التوراة والإنجيل فإن القارئ فيهما يجد نفسه أنه يطالع كتاب قصص، لا يشعر فيه بأن الله يُخاطب الأنبياء، أو يُخاطب القارئ له، بل كل ما يجده هو حكايات للأنبياء، حيث التعبير بشكل واسع وبتفاصيل دقيقة عن النبي، وهذا ما لا يجده القارئ للقرآن الكريم، فالقرآن من أوله إلى آخره نراه يتحدث إلى الرسول ليُخاطب الناس، لا يتركه أبداً يُعبر عن فكره الشخصي، في كل حرف منه يتبين أن المتكلم هو الله، والمتلقي هو محمدﷺ.

كما أن الله تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم في القرآن، ولما خاطب النبي ﷺ خاطبه بالنبي فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾[الأنفال: ٦٤]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾[المائدة: ٤١]، كما نلاحظ بيان مصدر القرآن صراحة في قوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[النساء:

(١) ينظر: المصدر نفسه (٢/ ١٤).

١٦٣]، و﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾[البقرة: ١١٩]، و﴿ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥][1]، وتأمل في تلك الآيات التي تُصَدَّر بـــ (قل) قال تعالى: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾[البقرة: ٨٠]، و﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡ﴾[آل عمران: ١٥]، و﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام: ١٤٩]، و﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾[الأعراف: ٢٩]، و﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[طه: ١١٤]، وغيرها كثير، لتعلم بأن ما يفهمه العربي بالسليقة أن هذا توجيه الخطاب للرسول، وتعليمه ما ينبغي أن يقول، فهو يُبلغ عن ربه، وأن محمداًﷺ لا دخل له في إنشاء الوحي[2]، لا يعرف زمانه ولا مكانه، ولم يكن تلبية لطلبه، فذات محمدﷺ تشغل فيه مكاناً ضئيلاً، إذ نادراً ما يتحدث القرآن عن تأريخ محمدﷺ، لم يرد قط الحديث عن آلامه العظمى أو مَسراته، ولك أن تتأمل النازلة التي أصابته في أوج دعوته بفقد عمه وزوجه، حدث كهذا لم يَرد له أي ذكر في القرآن الكريم، ليدرك أي قارئ للقرآن أن محمداً ﷺ ما هو إلا مُبلغ عن ربه[3]، فالقرآن بالطبع ليس سرداً لحياة محمدﷺ، فإنه كشف عن الخالق أكثر من كونه كشفاً عن النبيﷺ[4].

كما أن نظم وأسلوب التوراة والإنجيل لا يوجد له أي تأثير على النفس البشرية، وهذا بخلاف نظم القرآن وأسلوبه له تأثير عجيب على النفوس فهمت معانيه أم لم تفهمه، عربية كانت أم عجمية، مؤمنة به أم كافرة، ليُدرك كل قارئ له أو مستمع له أن هذا ليس من صنيع البشر البتة، والدليل على هذا ما كان من حال صناديد قريش حينما سمعوا القرآن وذكرت شيئاً من هذا في اعترافاتهم في مطلع

---

(١) ينظر: مدخل إلى القرآن الكريم ؛ د/ محمد دراز، ١٢٦.

(٢) ينظر: مباحث في علوم القرآن ؛ د/ صبحي الصالح، ص ٢٩ـ ٣٠، ومع المفسرين والكتاب ؛ أحمد محمد جمال ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) ينظر: الظاهرة القرآنية ص ١٩٦.

(٤) ينظر: سيرة النبي محمد: كارين ص ٧٦.

هـذا المبحـث، ومـا حـدث لجبير بن مطعم يقول: «سَـمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِـالطُّورِ فَلَمَّـا بَلَغَ هَـذِهِ الآيَـةَ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»[١]، وفي كل مرة يُقرأ أو يُسمع تجده مُتجدد التأثير والوقع، لا يَخلق مع كثرة الرد، يشـعر فيه الإنسـان بأن الله يُخاطبه، ولعل الواقع يشهد بذلك[٢].

ألا يدل ذلكم التأثير على أن هذا ليس هو في وسـع محمدﷺ ؟! لنعلم بأن ما جاء به ليس من صنعه، بل هو من ربه، ولنعلم بأن نظم القرآن وأسلوبه أحد الأدلة الدالة على صدق نبوءته.

*****

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الطور، (٤٨٥٤).

(٢) ينظر: إعجاز القرآن؛ للخطابي ص ٧٠، والإعلام بما في دين النصـارى من الفسـاد ؛ القرطبي ص ٣٢٧.

المبحث الثاني

موقف كفار قريش من نظم وأسلوب القرآن

هل اعتراف صناديد العرب بمُباينة نظم وأسلوب القرآن عن سائر الكلام، وأنه ليس من جنس كلام البشر ولا الجن قادهم للاعتراف بصدق نبوءة محمد ﷺ؟!

للأسف لم يقدهم اعترافهم إلى التسليم لهذه الحقيقة، على اعترافهم بأن أي قدح في نظمه وبيانه سَيُعْلَم بأنه باطل، فحاولوا التلبيس والتدليس، والعناد والمُماحكة، بطرق متنوعة، وأساليب شتى، منها:

* عمدوا إلى تنفير الناس بالكذب والزور، تارة على القرآن، وأخرى على النبي ﷺ، لأن القرآن الذي جاء به محمدﷺ سفه آلهتهم ومعبوداتهم، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾[ص: ٤ــ ٥]، ولأن محمداًﷺ خُص بالذكر من بينهم، قال تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾[ص: ٨].

ومن صور كذبهم وإفكهم:

* زعموا بأن القرآن سحر؛ ذلك أنه أقرب الأقوال من جهة تأثيره، وفي هذا يقول الوليد بن المغيرة: (فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر، فتقولوا هو سحر يُفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وبين زوجته، وبين المرء وعشيرته)[1]، قال تعالى في ذم الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾[المدثر: ١١ – ٢٦].

---

(١) دلائل النبوة؛ للبيهقي (٢/ ٧٥).

* ادعوا زوراً وبهتاناً أن القرآن هو قول شاعر، مع أنَّ قريشاً لم تعد محمداًﷺ من جملة شعرائها إلا أنهم وصموه بالشاعر مُكابرة ومخالفة للواقع والحقيقة، وسبق بيان ذلك[1].

* ادعوا زوراً وبهتاناً أن ما يسمعونه من محمد ﷺ من القرآن إنما هو تعليم رجل أعجمي للنبي ﷺ[2]، فذكر الله بهتانهم ورد عليه، بحجة اللسان العربي، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل: ١٠٣].

* ادعوا زوراً وبهتاناً أن القرآن من كلام محمدﷺ افتراه، وأعانه عليه آخرون، فرد الله عليهم بأنه مُنزل من عنده، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان: ٤ ـ ٦].

* لقد تنوعت وتعددت مُحاولات تلبيسهم وتدليسهم، فعمدوا إلى التواصي على عدم سماع القرآن، ومُمانعة سماعه، لأنهم يُدركون أنه مُباين لكلامهم، وله تأثير، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، (فالذين كفروا هنا هم أئمة الكفر، يقولون لعامتهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، فإنهم علموا أن القرآن كلام هو أكمل الكلام شريفَ معان، وبلاغةَ تراكيبَ وفصاحةَ ألفاظٍ، وأيقنوا أن كل مَن يسمعه وتُداخل نفسَه جزالةُ ألفاظه وسُمُو أغراضه قضى له فهمُه أنه حق اتباعُه، وقد أدركوا ذلك بأنفسهم ولكنهم غالبتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالأوا ودبروا تدبيراً لمنع الناس من

---

(١) يراجع المبحث الأول من هذا الفصل.

(٢) وقد فندت هذا الادعاء والذي يليه في الفصل الثالث: دلالة أمية النبيﷺ على نبوءته.

استماعه، وذلك خشية من أن تَرقَّ قلوبهم عند سماع القرآن فصرفوهم عن سماعه...، لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ رجاءَ أن تغلبوا محمداً بصرف مَن يُتوقع أن يتبعه إذا سمع قراءته، وهذا مُشعر بأنهم كانوا يجدون القرآن غالبَهم إذ كان الذين يسمعونه يُداخل قلوبهم فيؤمنون، أي فإن لم تفعلوا فهو غالبكم)[1].

* ثم تمادوا في تلبيسهم بأن طلبوا من محمدﷺ أن يأتيهم بغير هذا القرآن، لاختبار حاله، وليجعلوا ذلك حُجة عليه، أو أن يُبدله، ليثبتوا أنه من عند محمدﷺ، وأنه قادر على مثله، مع اعترافهم بأن القرآن ليس في مقدور البشر، ولا هو من جنس نظمهم، لكنهم تمادوا في التكذيب به[2]، فتعنتوا وطلبوا تغييره أو تبديله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[يونس: ١٥ – ١٦].

* ومن تماديهم زعمهم بأن لهم القدرة على قول مثل القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الأنفال: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[الأنعام: ٩٣].

فها هنا دعوى وهي:

أن كفار قريش لهم القدرة على الإتيان بمثل القرآن.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٤٤).

(٢) الكشاف (٢/ ٢٢٨).

ولا بد من دليل لهذه الدعوى حتى يتبين صـــدقها من كذبها، وكفار قريش يوقنون بأن دعواهم مُجردة من الدليل الذي يدل على صـــدقها، باعترافهم بأن القرآن مُباين مُغاير لكلامهم.

وإقرارهم هذا لا يفيد شـيئًا، فالتلبيس والتدليس الذي ســلكوه أدى بهم لهذه الدعوى، ودعواهم خالية من الدليل.

ولتأكيد بطلان هذه الدعوى، ولإقامة الحُجة عليهم، فقد بين الله تعالى كذبهم في افترائهم هذا، في أكثر من آية، لتقوم الحُجة عليهم، وعلى كل مَن يســلك ســبيلهم، ويقتفي أثرهم، ليتبين كذبهم للناس كافة، وتظهر حقيقة عجزهم، بطريقين:

الطريق الأول: خبر مُجمل، بحقيقة عدم قدرتهم على الإتيان بمثل هذا القرآن، وهو أمر غيبي، تحقق وقوعه في عدم مقدرتهم، ولو أنهم قدروا لكذبوا خبره، وهذا لم يقع منهم، ولا من غيرهم، لأنه إذا لم يقع منهم فعدم وقوعه من غيرهم من باب أولى.

ويتبين هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإســراء: ٨٦ – ٨٨]، حيث (يذكر تعالى نعمته وفضـــله العظيم على عبده ورسـوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

ثم نبه تعالى على شــرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رســوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتضافروا، فإن هذا أمر لا يُستطاع)[1].

ومما يُلاحظ في ســياق الآيات الســابقة أن ليس فيها ما يدل على طلب الإتيان بمثل القرآن، ولا خبر عن تكذيب الكافرين بالقرآن، ولا بيان بأن القرآن مُنزل من عند الله تعالى[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾[البقرة: ٢٤] إخبار بأمر غيبي، بعدم قدرتهم على الإتيان بمثل القرآن على التأبيد[3]، فنفى فعلهم بـــ (لن) الدالة على نفي في المســتقبل مؤبد مؤكد[4]، ووقع الأمر كما أخبر النبيﷺ إذ لم يكن بقدرة أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن.

(وهذه الآية دالة على النبوءة من وجوه أربعة:

أحدها: أنا نعلم بالتواتر أن العرب كانوا في غاية العداوة لرســول الله ﷺ، وفي غاية الحرص على إبطال أمره، لأن مُفارقة الأوطان والعشــيرة وبذل النفوس والمُهج من أقوى ما يدل على ذلك، فإذا انضــاف إليه مثل هذا التقريع وهو قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ فلو كان في وســعهم وإمكانهم الإتيان بمثل القرآن، أو بمثل سورة منه لأتوا به، فحيث إنهم ما أتوا به ظهر صدق نبوءة محمدﷺ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٧)، وينظر: أضواء البيان (١/ ٤٨٧)، و(٢/ ١٥٦)، و(٧/ ٤٦٠).

(٢) هذا يلاحظ في آيات الخبر المفصــل بالمطالبة بالإتيان بمثل هذا القرآن، من خلال ســياق الآيات، وسيأتي تفصيل ذلك بمشيئة الله تعالى في الطريق الثاني.

(٣) ينظر: الكشـــاف (١/ ١٠٢)، والمحرر الوجيز؛ لابن عطيـة (١/ ٩٤)، وتفســير القرآن العظيم (١/ ١٩٩)، وأضواء البيان (٢/ ١٥٦)،

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٣٤٢).

وثانيها: وهو أنه ﷺ وإن كان متهماً عندهم فيما يتصل بدعوى نبوءته، فقد كان معلوم الحال في وفور العقل والفضل والمعرفة بالعواقب، فلو تطرقت التهمة إلى ما ادعاه من النبوة لما استجاز أن يتحداهم ويبلغ في التحدي إلى نهايته، بل كان يكون وجلًا خائفاً مما يتوقعه من فضيحة يعود وبالها على جميع أموره، حاشاه من ذلك ﷺ، فلولا معرفته بالاضطرار من حالهم أنهم عاجزون عن المُعارضة لما جَوَّز من نفسه أن يحملهم على المعارضة بأبلغ الطرق.

وثالثها: أنه ﷺ لو لم يكن قاطعاً بصحة نبوءته لما قطع في الخبر بأنهم لا يأتون بمثله، لأنه إذا لم يكن قاطعاً بصحة نبوءته كان يجوز خلافه، وبتقدير وقوع خلافه يظهر كذبه، فالمُبطل المزور البتة لا يقطع في الكلام ولا يجزم به، فلما جزم دل على أنه ﷺ كان قاطعاً في أمره.

ورابعها: أنه وجد مخبر هذا الخبر على ذلك الوجه لأن من أيامه ﷺ إلى عصرنا هذا لم يخل وقت من الأوقات ممَن يُعادي الدين والإسلام وتشتد دواعيه في الوقيعة فيه. ثم إنه مع هذا الحرص الشديد لم توجد المُعارضة قط.

فهذه الوجوه الأربعة في الدلالة على صدق نبوءة النبي ﷺ مما تشتمل عليها هذه الآية، وذلك يدل على فساد قول الجُهال الذين يقولون إن كتاب الله لا يشتمل على الحُجة والاستدلال)[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[يونس: ٣٧] (أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر)[2]، (فلم ينفِ مجرد فعله، بل

---

(١) التفسير الكبير (٢/ ٣٥١ـ ٣٥٢) بتصرف يسير، وينظر: تثبيت دلائل النبوءة ص ٤٠٠، والجواب الصحيح (٥/ ٤٢٧ـ ٤٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٨).

احتمال فعله، وأخبر بأن مثل هذا لا يقع، بل يمتنع وقوعه، فيكون المعنى: ما يمكن ولا يحتمل ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله، فإن الذي يفتريه من دون الله مخلوق، والمخلوق لا يقدر على ذلك)[1]، فما من (كلام يتكلم به الناس وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنىً، إلا وقد قال الناس نظيره، وما يشبهه ويقاربه؛ سواء كان شعراً، أو خطابةً، أو كلاماً في العلوم، والحِكَم والاستدلال، والوعظ، والرسائل، وغير ذلك. وما وُجد من ذلك شيء، إلَّا ووُجد ما يُشبهه ويُقاربه.

والقرآن ممّا يعلم الناس؛ عربهم، وعجمهم أنّه لم يُوجد له نظيرٌ، مع حرص العرب، وغير العرب على معارضته فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية. وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية. كلّ ذلك لا يوجد له نظيرٌ في العالم)[2].

الطريق الثاني: خبر مُفصل، بالطلب المتفاوت القدر، بأساليب متعددة، ليظهر عجز كفار قريش، العرب الفصحاء البلغاء لأنفسهم، ويتبين عجزهم للملأ، لإقامة الحُجة عليهم بعد ذلك بصدق نبوءة النبي ﷺ.

فالله تعالى طلب منهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة، ليقيم الدليل على أن ذلك ليس في قدرتهم، ولإيضاح بطلان دعواهم الكاذبة، وصدق نبوءة محمد ﷺ.

طلب الله منهم أن يأتوا بسورة من مثله، في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة: ٢٣]،أي: (وإن كنتم أيها المُشركون من العرب والكفار من

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٥)، وينظر: التفسير الكبير (١٧/ ٧٦).
(٢) النبوات (١/ ٥١٦-٥١٧).

أهل الكتابين في شــك، وهو الريب، مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندي، وأني الذي أنزلته إليه، فلم تؤمنوا به ولم تصـدقوه فيما يقول، فأتوا بحُجة تدفع حُجته؛ لأنكم تعلمون أن حُجة كل ذي نبوة على صـــدقه في دعواه النبوة أن يأتي ببرهان يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق، ومن حُجة محمد ﷺ على صـــدقه وبرهانه على نبوته، وأن ما جاء به من عندي، عجز جميعكم وجميع مَن تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم عن أن تأتوا بسورة من مثله. وإذا عجزتم عن ذلك، وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والذرابة، فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز. كما كان برهان مَن ســلف من رسلي وأنبيائي على صـدقه وحُجته على نبوته من الآيات ما يعجز عن الإتيان بمثله جميع خلقي.

فيتقرر حينئذ عندكم أن محمداً لم يتقوله ولم يختلقه، لأن ذلك لو كان منه اختلاقاً وتقولاً لم تعجزوا وجميع خلقي عن الإتيان بمثله، لأن محمداً ﷺ لم يعد أن يكون بشراً مثلكم، وفي مثل حالكم في الجسـم وبسطة الخلق وذرابة اللسـان، فيمكن أن يظن به اقتدار على ما عجزتم عنه، أو يُتوهم منكم عجز عما اقتدر عليه)[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧-٣٨].

وطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤]

---

(١) جامع البيان: لابن جرير، (١/ ٣٩٦).

(فلم يكتفِ بعجز المدعوين، بل أمرهم أن يدعوا إلى مُعاونتهم كل مَن استطاعوا أن يدعوه من دون الله، وهذا تعجيز لجميع الخلق، الإنس والجن، والملائكة)[1].

وطلب منهم أن يأتوا بحديث مثله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾[الطور: ٣٣-٣٤].

(يقول الله جل ثناؤه: ما كان هذا القرآن ليختلقه أحد من عند غير الله، لأن ذلك لا يقدر عليه أحد من الخلق، والمشركون يقولون: بأن محمداً افترى هذا القرآن من نفسه، فاختلقه وافتعله. والله تعالى يرد عليهم هذه الدعوى، فيقول لنبيه محمدﷺ: قل يا محمد لهم: إن كان كما تقولون أني اختلقته وافتريته، فإنكم مثلي من العرب، ولساني وكلامي مثل لسانكم، فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن، أو بعشر سور مفتريات.

فإن لم تفعلوا ذلك فلا شك أنكم كذبة في زعمكم بأن محمداً افتراه؛ لأن محمداً لن يعدو أن يكون بشراً مثلكم، فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورة مثله، أو بعشر سور، فالواحد منهم عن أن يأتي بجميعه أعجز) [2].

ومما يُلاحظ على سياق الآيات التي ورد فيها الطلب بالإتيان بمثل نظم وبيان القرآن أنه كان سياقاً واحداً، وهو النقاش مع الكافرين المُكذبين بالقرآن وبنبوءة النبيﷺ، وأنه يسبق الآيات بيان لتشكيك الكافرين في القرآن، وزعمهم أنه ليس كلام الله، وأن محمداً ﷺ افتراه، فنسبه إلى الله، فتأتي آيات الطلب لتفند هذا الزعم

---

(١) النبوات، (٢/ ٨٦٠).

(٢) جامع البيان (١٢/ ١٨٢) بتصرف.

وتزيل التشــكيك، وتختم آيات الطلب بالإتيان بالمثل بإثبات مصـــدر القرآن، وتقرير أنه كلام لله تعالى، أوحاه إلى رسوله ﷺ[1].

ثمة أمور تحتاج لتجلية وبيان، لإيضاح وجه الدلالة، منها[2]:

* دلالة القرآن الكريم على صـــدق نبوءة النبي ﷺ من جهة دلالة النظم والأســلوب، وخروج ذلك من مقدور الخلق، فهذا ثابت للقرآن منذ أن نزل باعتراف صناديد قريش، وهذا مُتحقق بفضل الله سواء وقع التحدي أو لم يقع.

* الطلب بالإتيان بمثل القرآن لم يكن ابتداءً، وإنما لما قالوا: افتراه، تحداهم ليثبت عجزهم.

* الطلب بالإتيان بمثل هذا القرآن مُوجه للعرب الفصـــحاء البلغاء، فإنْ عَجَزَ العرب الفصحاء البلغاء عن الإتيان بمثل هذا القرآن فعجز غيرهم ممَن جاء بعدهم أولى، فإن مُعارضـــته من قبل كفار قريش لم تقع، ولن تقع، لا في أيام النبوة ولا بعدها، وهي لم تقع لا من العرب ولا من غيرهم.

فبعض المُتنبئين[3] الذين زعموا زوراً وبهتانـاً قدرتهم على معارضـة القرآن، لم يستطيعوا معارضته، وهذا ناجم عن فرط جهلهم، وقصور عقولهم، إذ محاولاتهم

(١) ينظر: إعجاز القرآن البياني؛ د/ صـلاح الخالدي، ٧٨- ٨٠، والبيان في إعجاز القرآن له أيضـاً ص ٦٨.

(٢) ينظر: مداخل إعجاز القرآن؛ لمحمود شـاكر ص ١٥٨، وما بعدها، ومقدمة محمود شـاكر لكتاب مالك بن نبي ص ٢٤ وما بعدها، وإعجاز القرآن البياني ٧٨ـ ٨٠، والبيان في إعجاز القرآن ص ٦٨.

(٣) كمسـيلمة الكذاب، وطليحة بن خويلد الأسـدي، والأسـود العنسـي، وسـجاح بنت الحارث التميمية. وهناك محاولات لمعارضـة القرآن لكنها أيضـاً باءت بالفشـل، كمحاولة ابن الراوندي، وأبي العلاء المعري، وابن المقفع، ذكر ذلك ابن الجوزي في تلبيس إبليس، ص ١٢١ـــ ١٢٢، والطبيب الكندي، ذكر ذلك القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٣)، والحلاج، ذكر ذلك البغدادي في الفرق بين الفرق: ص ١٩٨، ينظر: القرآن الكريم ومنزلته بين السـلف ومخالفيهم؛ محمد هشـام طاهري (١/ ٣٩٩)، وهناك محاولة لأنيس شـروس في كتابه فرقان الحق، لكن كل المحاولات باءت بالفشل.

البائسة آلت بالفشل، لعوار بيانهم ونظمهم، وركاكة أسلوبهم، لكل مَن عرف لغة العرب، وهذا كما نقل من ترهات مسيلمة في قوله: الفيل وما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب طويل، وخرطوم وذيل، وقوله: والزارعات زرعاً فالحاصدات حصداً والطاحنات طحناً، (إلى غير ذلك من كلامه، ولا يخفى ما في ذلك من الركاكة والفهاهة، وما فيه من الدلالة على جهل قائله، وضعف عقله، وسخف رأيه، حيث ظن أن هذا الكلام الغث الرث الذي هو مضحكة العقلاء ومُستهزأ الأدباء مُعَارِضٌ لما أعجزت الفصحاء مُعارضته وأعيت الألباء مناقضته من حِين البعثة إلى زماننا هذا)[1].

كما أن معارضتهم للقرآن الكريم كانت مبنية على دعوى تنبئهم، وهو مُرتبط بأسباب سياسية ومادية لم تكن دينية، وهم أناس كاذبون، لم يُعرف عنهم صدق قط، ولم يبلغوا الكمال في أخلاقهم لكل مَن عرفهم وسبر أحوالهم[2].

* الهدف من الطلب هو إظهار عجز كفار قريش، وبيان كذبهم وافترائهم للوصول للنتيجة، وهي الإقرار والاستيقان بأن القرآن الذي لم يستطع العرب الفصحاء أن يأتوا بمثله وعجزوا عن الإتيان بمثله في الطلب المتفاوت القدر، دليل على أنه من عند الله تعالى، وإن كان من عند الله تعالى كان ذلك دليلاً على صدق نبوءة النبي ﷺ التي كذبوا بها، وهذه النتيجة ليست مُلزمة للعرب فقط، بل هي مُلزمة للعرب وغيرهم، وللجن والإنس.

* قليل القرآن وكثيره في دلالة النظم والأسلوب على صدق نبوءة النبيﷺ سواء.

---

(١) غاية المرام في علم الكلام ؛ للآمدي ص ٣٤٤.

(٢) ينظر: معارضة القرآن في المعيار الأسلوبي ممَن أدعى النبوة أنموذجاً ؛ د/ مشكور العوادي، ص ١٦-٢٩، ومدعو النبوة والرد عليهم ؛ د/ يحيى ربيع، ص ٢٨٦، و ص ٣٠٢.

فـ (إن قيل لو كان القرآن بُرهانـاً مُعجزاً لخرج كثيره وقليله عن القدرة، وقليله مقدور عليه، وهو أن يجمع بين ثلاث كلمات أو أربع، فكذلك كثيره، لأن الشـيء إذا دخلـت أوائلـه في جنس المُمكن خرجـت أواخره من جنس المُمتنع، فعنـه جوابان:

أحدهما: أن قليله وكثيره خارج عن القدرة إذا انتظم إعجازه وهو كأقصـر سورة منه فبطُل هذا الاعتراض.

والثاني: أنه ليس القدرة على الكلمة والكلمتين منه قدرة على اسـتكمال ما يقع من التحدي كالمفحم في الشـعر لا تكون قدرته على الكلمة والكلمتين من بيت من الشـعر قدرة على نظم بيت كامل من الشـعر)[1]، و(لا يلزم مَن كان قادراً من العرب البُلغاء على الكلمة والكلمات من القرآن أن يكون قادراً على مثله، أو مثل سورة من سـوره الطوال، ولهذا نجد كثيراً من الناس يقدر على الكلمة، والكلمات البليغة، والبيت والبيتين من الشـعر، ولا يقدر على وضـع خطبة أو رسـالة، ولا نظم قصيدة)[2].

* المثلية التي طالب الله فيها كفار قريش تقتصـر على مثلية نظم وأسـلوب القرآن[3]، فلا يهم إن كان المعنى مفترى أو مُختلقـاً، ذلك لأن العرب متفوقون في الفصاحة والبيان، مشهود لهم، معروف عنهم، والهدف من طلب الإتيان بالمثل في

---

(١) أعلام النبوة: للماوردي، ص ٦٧.
(٢) أبكار الأفكار: للآمدي ص ١٢٤.
(٣) ينظر: جامع البيان: للطبري، (١/ ٦٥)، المحرر الوجيز ؛ لابن عطية، (١/ ٥٩ ـــ ٦٠)، وينظر: الكتاب؛ لسـيبويه (١/ ٨)، والصـناعتين؛ للعسـكري ص ١٦٧، والحيوان؛ للجاحظ (٤/ ٩٠)، وتأويل مشـكل القرآن؛ لابن قتيبة ص ٢٩٩، والرسـالة العذراء؛ لابن المدبر ص ١٧، والبلاغة؛ للمبرد ص ٥٩، والإمتاع والمؤانسـة؛ للتوحيدي (١/ ١٠٧)، والنكت في إعجاز القرآن؛ للرماني ص ١٠٧، وإعجاز القرآن؛ للخطابي، ص ٢٧، والرسالة الشافية ودلائل إعجاز القرآن؛ للجرجاني، ومقدمة ظاهرة القرآن؛ لمحمود شاكر ص ٢٨، والتحدي بالقرآن؛ د/ محسن الخالدي ص ١٣.

النظم والأسلوب فقط هو لإظهار عجزهم لما ادعوا أن لهم القدرة على الإتيان بمثله، ولبيان أنه من عند الله تعالى لما ادعوا أنه افتراء من عند محمدﷺ، أما مضمون ومعنى القرآن كالإخبار بالمُغيبات والأحكام والشرائع الواردة فيه[1] فهذا ليس في مقدور كفار قريش، وهو يحتاج إلى تصديق لا إلى قدرة، ولا يعني إثبات هذا الوجه نفي الوجوه الأخرى من القرآن الدالة على صدق نبوءة النبيﷺ، وإنما الهدف هو التفريق بين الوجه الذي كان فيه الطلب بالإتيان بالمثل (التحدي)، والوجوه الأخرى التي لم يقع فيها أي طلب (تحدٍّ).

* كل مَن يدعي أن له القدرة على الإتيان بمثل هذا القرآن في أي زمان، تقام عليه الحُجة ذاتها بطلب الإتيان بمثله، والنتيجة معروفة، هي عجزه عن الإتيان بمثله، لأن القرآن حُجة باقية مستمرة[2].

* إنَّ في تكرار الطلب بالإتيان بالمثل مع طول المدة التي كان فيها القرآن يتنزل، واستمرار ذلك، مع امتناع تحقق ذلك من الجاحدين المكذبين مع وجود الداعي التام المؤكد لإبطال دعوة نبوءة محمدﷺ، لدليلاً على عجز الثقلين عنه، إذ عدم الفعل مع كمال الداعي، يستلزم عجز القدرة، وإلا لوجد المقدور[3].

* هذه الدلالة هي أحد الأدلة التي دل عليها القرآن، وليست هي الدلالة الوحيدة على صدق نبوءة النبيﷺ؛ وهي باقية ولم تنقضِ[4].

---

(١) هناك مَن قال بأن التحدي وقع في الاتيان بمثل الشريعة التي جاء بها النبيﷺ. ينظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين: مصطفى صبري، (١/ ٢٨)، (٤/ ١٣٤ـ١٣٥).

(٢) ينظر: إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم ؛ للقاضي عياض (١/ ٦٠١)، والفصل في الملل والنحل ؛ لابن حزم (٢/ ٤٨ـ٤٩)، والجواب الصحيح (٥/ ٤٢٦)، والفوائد المشوق إلى علم القرآن وعلم البيان؛ لابن القيم ص ٤.

(٣) ينظر: الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٧).

(٤) هناك مَن يزعم أن دلالة النظم والأسلوب انقضت بعهد الذين أدركوا الإعجاز عن طريق الذوق فآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك، كالمراغي وفريد وجدي ذكر ذلك عنهما مصطفى صبري في

* إنَّ أي محاولة تهدف إلى التشكيك في فصاحة وبيان العرب من قريش يردها التأريخ، وستنعكس تلك المحاولات التي تشكك في وجود الشعر الجاهلي إلى التشكيك في دلالة نظم وأسلوب القرآن، وقد قامت هذه الدلالة على فصاحة وبيان العرب، وبيان عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن.

فنقض هذه المقدمة - ثبوت الشعر الجاهلي - ينقض هذه الدلالة برمتها.

وهناك مَن يحاول أن يفسر عجز العرب في عدم معارضتهم للقرآن الكريم بأن الله تعالى صرف هممهم عن معارضة القرآن الكريم، لأنه ينفي دلالة النظم والأسلوب، ولا يرى فيها دلالة على صدق نبوءة النبيﷺ، مع الاعتراف بالمصدر الإلهي للقرآن الكريم[1].

وهناك مَن ينزع القداسة الإلهية عن آيات القرآن الكريم لأنسنته، فيقول بأن الله صرف العرب عن معارضته[2].

= موقف العلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، (١/ ٢٧)، (٤/ ٣٩٦)؛ وهناك مَن يقول: بان دلالة النظم والأسلوب حُجتها ظاهرة في زمن النبيﷺ، ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه: د/ عبد الله المصلح، ص ١٢، وهناك مَن يضعف دلالة النظم والأسلوب ليقوي دلالة (الإعجاز العلمي) ينظر: المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم: د/ زغلول النجار، ص ١٨.

(١) من هؤلاء: النظام، وحصر دلالة القرآن في نبوءة النبي ﷺ في الإخبار بالمغيبات، ينظر: الفرق؛ للبغدادي ص ١٠٣، و ص ٢٦٦، ومقالات الإسلاميين ؛ لأبي الحسن الأشعري (١/ ٢٩٦)، وطبقات المعتزلة ؛ للقاضي عبد الجبار ص ٧٠، والمواقف ؛ للإيجي (٣/ ٦٦٤، ٦٥٣)، وقد رد عليه الجاحظ، وعيسى بن صبيح المردارن راهب المعتزلة، ينظر: الملل والنحل؛ للشهرستاني، ص ٣١، والفرق بين الفرق؛ للبغدادي ص ١٢٢، وابن رشد، المعتمد لديه دلالة القرآن على نبوءة النبيﷺ ما تضمنته من الشرائع ويضعف غيرها من الدلالات كدلالة النظم والأسلوب، ينظر: مناهج الأدلة؛ لابن رشد، ص ٢١٧، والمفيد، ينظر: أوائل المقالات ص ٣١، والطوسي، ينظر: الاقتصاد ص ٢٩٠، وابن مطهر، في كشف المراد ص ٣٣٢.

(٢) من هؤلاء: أدونيس في الثابت والمتحول (٢/ ٨٤ــ ٨٥)، ونصر أبوزيد في مفهوم النصص ١٤٥، وفي نقد الخطاب الديني، ص ٩٦، وطيب تيزيني، في النص القرآني ص ٢٩٥، وأنور خلوف في

إنه لمَن المعلوم أن قدرة العرب على الفصاحة والبيان مازالت قائمة بهم قبل طلب المعارضة، وبعد ظهور عجزهم عن الإتيان بمثله، وهذا يُبرهن على عجزهم التام عن معارضة الدليل الذي يثبت صدق نبوءة محمد ﷺ، ويُبرهن على أنه من عند الله، إذ لو كان مقدوراً عليه لعارضوه.

والقول بسلب القدرة عنهم يُبطل فائدة آيات المُطالبة والإتيان بالمثل (التحدي)[1]، ويجعل دلالة القرآن على صدق النبوءة دلالة خارجية، فتتنزل دلالة القرآن الذاتية[2].

* بعدما عجز كفار قريش عن الإتيان بمثل هذا القرآن من جهة النظم والأسلوب وهم الفصحاء البلغاء، عدلوا إلى الأمور الشاقة التي تتضمن الخطر على النفس والمال، ولا توصلهم إلى بغيتهم ولو نالوا منها غاية المراد، فلجؤوا لأسلوب الحرب بالسيف والسنان، لصد دعوة النبي محمد ﷺ، وأنى لهم ذلك، فبان عجزهم البياني والبدني، أفلا يفيدنا عجز الأولين والآخرين واختيارهم لأشق الطرق على النفس والعِرض أن يكون دليلاً ظاهراً على أن مضمون القرآن حق، وأنه دليل صدق على نبوءة النبي ﷺ[3].

القرآن بين التفسير والتأويل ص ٩٣-٩٥، وهشام جعيط، في الوحي والقرآن والنبوة ص ٢٩-٣٠، و ص ٧٩، وسيمائية القرآن بين الحجاج والإعجاز: محمود المصفار ص ٨٩-٩١.

(١) ينظر في الرد على القائلين بالصرفة في: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز؛ للرازي ص ٨٠، والفوائد المشوق إلى علم القرآن وعلم البيان؛ لابن القيم ص ٣٨٦، والقول بالصرفة في إعجاز القرآن عرض ونقد؛ د/ عبد الرحمن الشهري برمته، والصرفة ودلالتها لدى القائلين بها ورد المعارضين لها: د/ سامي عطا حسن برمته.

(٢) ينظر: الأدلة العقلية النقلية ص ٥٣٦.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن؛ للقاضي عبد الجبار ص ٢٦٤، وإعجاز القرآن؛ للباقلاني ص ٦٨-٧٠، ودلائل الإعجاز؛ للجرجاني ص ٨٧، وأعلام النبوة؛ للماوردي ص ٦٨.

* هناك عوامل نفسية واجتماعية هي التي دعت كفار قريش لتكذيب النبي ﷺ مع اعترافهم أن ما جاء به من القرآن مُباين ومُفارق لكلام الإنس والجن، ويمكن رجعها إلى عامل المنافسة على المناصب الاجتماعية التي كان العرب يحرصون عليها أشد الحرص، وظنوا أن النبوة منها، فهذا أبو جهل يقول عن القرآن الذي يسمعه من النبي ﷺ: (إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحِجابة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: مِنا نبي، والله لا أفعل)، وقوله: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: مِنا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه)[1]، وقد ضموا إلى شركهم مُعاندة الحق، ومُكابرة الرسول، ومُعاداته، والاستخفاف بكتاب اللّه وشرائعه، والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد من أهل زمانه، قال الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف: ٣١]،وأرادوا بعظم الرجل: رياسته وتقدّمه في الدنيا، وعزب عن عقولهم أن العظيم مّن كان عند الله عظيماً[2]. وقال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾[ص: ٦] (أي: إن هذا القول الذي يقول محمد، ويدعونا إليه، من قول لا إله إلا الله، شيء يريده منا محمد يطلب به الاستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعًا ولسنا مُجيبيه إلى ذلك)[3].

---

(١) دلائل النبوة؛ للبيهقي (٢/ ٢٠٧).
(٢) ينظر: الكشاف؛ للزمخشري (٤/ ٢٤٧ـ٢٤٨).
(٣) جامع البيان (٢١/ ١٥٢).

كما أن الإرث للتقاليد والعادات وتبعية مَن سبق من آبائهم هو الذي أثر في كفار قريش لرفض دعوة النبي محمد ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠] فـ(الله تعالى أمرهم بأن يتبعوا ما أنزل الله من الدلائل الباهرة، فهم قالوا لا نتبع ذلك، وإنما نتبع آباءنا وأسلافنا، فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد)[١]، وحقيقة اتباعهم لآبائهم وجدان لا علم معه حاصلاً ولا متوهماً[٢].

- الإقرار بمُقدمات القضايا وحده لا يكفي، بل لا بد من الالتزام بنتائجها، فثمة تشابه في موقف كفار قريش من قضيتين أساسيتين، هما: التوحيد والنبوءة، ففي قضية التوحيد، أقروا بربوبية الله تعالى كالخلق، والرزق، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[العنكبوت: ٦١]، وعبدوا الأصنام لتقربهم إلى الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣]، إلا أنهم لم يُوحدوا الله في العبادة قال تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[ص: ٥]، وأنكروا البعث والنشور قال تعالى عنهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[ق: ٣]، والله قد أقام الحُجة عليهم فيما أنكروه من البعث والنشور بما أثبتوه من الخلق والإيجاد، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) التفسير الكبير (٥/ ١٨٨).

(٢) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ؛ للإمام أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (١/ ٧٥).

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

هذا الموقف ذاته يتكرر في قضية النبوءة، فهم أقروا بأن نظم وبيان القرآن خارج عن مقدور الإنس والجن - كما سبق وأن بينت ذلك في اعترافات صناديدهم - وأنه ليس من عند محمد ﷺ، ومع ذلك أنكروا أن يكون القرآن دليلاً على صدق نبوءة النبي ﷺ.

فحقيقة إقرارهم بمُقدمات القضايا لم يقدهم إلى الالتزام بنتائجها، فمَن يُقر بأن الله هو الخالق الرازق لا بد أن يُوحده في العبادة، ومَن يُقر بأن القرآن الذي جاء به محمدﷺ خارج عن مقدور الخلق، وليس هو من جنس كلامهم، لا بد من أن يُقر بصدق نبوءة محمدﷺ وصدق ما جاء في القرآن.

* سُنة الله في خلقه، أنه ما بعث نبيّاً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص النبي محمدﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس[١].

فإن قيل: كيف هذا وقد بعث النبي ﷺ إلى كافة الخلق؟

قيل: بُعِث من العرب بلسانهم، والناس تَبَعٌ لهم، ثم بثَّ الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عز وجل ويترجمون لهم بألسنتهم.

كما أن نزول القرآن على النبي ﷺ بلسان واحد كاف، لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله لجميع الألسن.

ونزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والخلاف.

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٧٧).

ولما كان نزوله بلسان واحد كافياً كان أولى الألسنة قوم الرسول، لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه[1].

فإن اعترض أعجمي بأن يقول: من أين يُبين لي هذا الرسول الشريعة وأنا لا أفهمه؟ قيل له: أهل المعرفة باللسان يعرفون ذلك، وفي ذلك كفايتك.

فإن قال: ومن أين تتبين لي دلالة النبوءة وأفهم النظم والأسلوب وأنا لا أفقه اللغة؟

قيل له: الحُجة عليك في إذعان أهل الفصاحة، وبإذعانهم قامت الحُجة على البشر[2].

وبهذا الإيضاح والبيان لوجه دلالة النظم والأسلوب يتبين لكل مَن أراد الحق، ورام العدل، أن القرآن الكريم خارج عن محمد ﷺ فهو من عند الله تعالى أيّد به نبيهﷺ ليكون برهاناً على صدق نبوءته، كما أن دلائل صدق نبوءة محمدﷺ في القرآن الكريم تعددت، ودلالة النظم والأسلوب إحداها، وليست هي مُنحصرة فيها.

*****

(١) ينظر: معالم التنزيل (٤/ ٣٣٥).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٤/ ٩٠).

الفصل السابع

دلالة عتاب النبي ﷺ على نبوءته

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تعريف العتاب

المبحث الثاني: آيات عتاب النبي ﷺ

المبحث الأول

تعريف العتاب

○ **معنى العتاب:**

يأتي العِتَاب بمعنى اللوم، ومنه عاتَبهُ مُعاتَبَةً وعِتاباً كلُّ ذلك إذا لامه، والمقصد من التَّعَتُّبِ والمُعاتَبَةِ والعِتابِ حُسْنُ المُراجعة، والتذكير والإشفاق عليه والنصيحة له[1]، وفي الحديث «كان يقول لأَحَدِنا عند المَعْتِبَة: ما لَهُ تَرِبَتْ جبينه ؟»[2]، وإنما يُعَاتَب مَنْ ترجى عنده العُتْبَى: أي الرُّجُوع عن الذَّنْب والإساءَة[3]، ولهذا لا يُستعتب الكفار والظالمون يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[الروم: ٥٧][4].

ولقد ورد في القرآن الكريم آيات يُعاتب الله تعالى فيها النبي ﷺ كما سيأتي ذكرها في المبحث الثاني إن شاء الله تعالى ـ فعتاب الله تعالى لنبيه ﷺ يكون على أمر قد صدر وبدر منه للرجوع عنه، فهل يتعارض هذا مع عصمة الله للنبي ﷺ؟!

فهذه مسألة تحتاج لتجلية وبيان لتستقيم دلالة آيات عتاب النبيﷺ على صدق نبوءته، ولأن الخلط حدث فيها من جهتين:

* من جهة مفهوم عصمة الأنبياء.

* ومن جهة القول بعصمة الأنبياء من الصغائر بعد النبوءة.

وهذا خلل منهجي في مسائل النبوءة، يتبين من وجوه عدة، منها:

- **الوجه الأول:** تحرير مفهوم عصمة الأنبياء وأن الأنبياء معصومون فيما

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة (٤/ ١٨٣)، وتهذيب اللغة (١/ ٢٤٦)، ولسان العرب (١/ ٥٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، (٥٥٨٦).

(٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٨٢).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٤/ ٢٤٤)، وأضواء البيان (٢/ ٤٢٢).

يُبلغونه عن الله، لم يرد هذا المفهوم في الكتاب والسنَّة، والوارد هو لفظ الصادق، وأن النبي صادق مُصدق[١]، فالنبي أنبأه الله تعالى، وما أنبأه الله به لا يكون كذباً، وما أنبأ به النبي ﷺ عن الله لا يكون كذباً لا خطأً ولا عمداً، فلا بد أن يكون صادقاً فيما يُخبر به عن الله[٢].

وهذا يعني أن الله تعالى حفظ نبيه ﷺ عن الكذب فيما يُبلغه عنه، وحفظه من شياطين الإنس والجن من تغيير ما بُعث به، ومنعه من تبليغ أمر ربه، وبهذا المعنى يتحرر مفهوم عصمة الأنبياء في القرآن الكريم، يقول ابن تيمية رحمه الله: (ولفظ العصمة في القرآن جاء في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]؛ أي من أذاهم، فمعنى هذا اللفظ في القرآن: هو الذي يحفظه الله عن الكذب خطأً وعمداً....، وقد يكون معصوماً على لغة القرآن: بمعنى أن الله عصمه من الشياطين؛ شياطين الإنس والجن، وأن يُغيروا ما بُعِث به، أو يمنعوه عن تبليغه، فلا يكتم، ولا يكذب، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾[الجن: ٢٦ - ٢٨] فهو يسلك الوحي من بين يدي الرسول ومن خلفه، وهذا في معنى عصمته من الناس؛ فهو المُؤيد، المَعصوم بما يحفظه الله من الإنس والجن، حتى يُبلغ رسالات ربه كما أمر، فلا يكون فيها كذب ولا كتمان)[٣]، فالأنبياء مَعصومون فيما يُخبرون به عن

---

(١) لابن تيمية كلام نفيسٌ حول الاقتصار على ألفاظ القرآن ختمت به البحث في مفهوم (المعجزة). يراجع: الفصل الأول: النبوءة وأدلتها، المبحث الثاني: التعريف بالنبوءة والدليل، المطلب الثاني: التعريف بالدليل ومرادفاته. وينظر: النبوات (٢/ ٨٧٦).

(٢) ينظر: النبوات (٢/ ٨٧٣)، مفهوم العصمة حرر على اشتقاق النبي من النبأ، يراجع الفصل الأول من هذا البحث: النبوءة وأدلتها، والنبي الذي يُخبر عن الله تعالى يتصف بالصدق وينتفي عنه الكذب. يراجع: الفصل الثاني من هذا البحث: دلالة أخلاق النبي ﷺ.

(٣) النبوات (٢/ ٨٧٥ـ٨٧٨).

الله تعالى، وفي تبليغ رسالاته وهذا معلوم بدليل العقل والشرع والإجماع [١].

- **الوجه الثاني**: الأنبياء قبل النبوءة[٢] هم كعامة الناس لا مزية لهم عن غيرهم، وإن كانوا هم من أخيار الناس خُلقاً ونسباً، وتميزهم عن بقية الناس كان باصطفاء الله تعالى لهم حيث نبأهم، فالحديث عن مسألة النبوءة يكون بعد الاصطفاء لا قبله، وهذا بخلاف أدلة النبوءة يكون الحديث فيها قبل النبوءة كبشارة الأنبياء السابقين بنبوءة محمد ﷺ.

- **الوجه الثالث**: عصمة الأنبياء تكون من الله تعالى لأنبيائه بعد النبوءة.

- **الوجه الرابع**: العصمة بعد النبوءة لا يدعيها الأنبياء مُطلقاً، فهم لا يقولون إننا معصومون لأقوامهم، وهذا يلحظه كل متأمل لسير الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، ذلك أن العصمة من الله تعالى لأنبيائه، لا يدعيها نبي الله الصادق.

- **الوجه الخامس**: الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم مَعصومون فيما يُبلغون عن الله تعالى وعن الكبائر[٣]، وتقع منهم الصغائر لكنهم لا يُقرون عليها، فالله عاصمهم من الإقرار عليها، وسرعان ما يتوبون إلى الله تعالى، فعتاب الله لنبيه ﷺ لا يتنافى مع وقوع الصغيرة منه، فهو لا يُقَر عليها، يقول ابن تيمية: (وعامة ما يُنقل عن جمهور العلماء (أنهم مَعصومون عن الإقرار على الصغائر)[٤] ولا

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٨٩، و٢٩٥)، والجواب الصحيح، (١/ ٤٤٦)، والنبوات، (٢/ ٨٧٣).

(٢) هناك مَن قال بعصمة الأنبياء قبل النبوءة كبعض المعتزلة، ينظر: شرح الأصول الخمسة، ص ٥٧٣، والمغني، (١٥/ ٣٠٤)، والمسألة على خلاف بينهم، والإمامية، ينظر: أوائل المقالات: للمفيد ص ٢٩ -٣٠، والاقتصاد ؛ للطوسي ص ٢٦٠، وكشف المراد: لابن المطهر ص ٣٢٦.

(٣) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض (٢/ ٣٣٧)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩١)، وشرح الأصول الخمسة ص ٣٧٥، والمغني (١٥/ ٢٧٩)، وعصمة الأنبياء: للرازي ص ٣، والتفسير الكبير (٣/ ٧).

(٤) تنبيه: أصل العبارة (أنهم غير معصومين عن الإقرار على الصغائر) والمعنى لا يستقيم بوجود (غير) لذا حذفتها حتى يستقيم المعنى وهو عصمة الأنبياء عن الإقرار على الصغائر.

يُقرون عليها ولا يقولون إنها لا تقع بحال)[1].

- **الوجه السادس**: النزاع في عصمة الأنبياء من الصغائر بعد النبوءة[2]، والنزاع الذي أحدثته مقالات الفرق والطوائف في عصمة الأنبياء يتناقض مع أصول ما قرروه من أن دلالات الألفاظ لا تفيد اليقين، وأن العقل مُقدم على النقل حيال التعارض، فمن (العجائب أنك تجد أكثر الغلاة في عصمة الرسول أبعد الطوائف عن تصديق خبره، وطاعة أمره، وذلك مثل الرافضة والجهمية ونحوهم ممَن يَغلون في عصمتهم، وهم مع ذلك يَردون أخباره وقد اجتمع كل مَن آمن بالرسول على أنه مَعصوم فيما يُبلغه عن الله فلا يستقر في خبره خطأ كما لا يكون فيه كذب فإن وجود هذا وهذا في خبره يُناقض مقصود الرسالة ويُناقض الدليل الدال على أنه رسول الله)[3].

- **الوجه السابع**: المتأمل في آيات القرآن الكريم يجد العديد من الآيات التي تذكر توبة واستغفار الأنبياء مما صدر منهم من الصغائر بعد النبوءة، يقول ابن تيمية: (والله تعالى لم يذكر في القرآن شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقروناً بالتوبة والاستغفار كقول آدم وزوجته: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣]،وقول نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هود: ٤٧]، وقول الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[الشعراء: ٨٢]، وقول موسى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾الأعراف:١٥٥]، وقوله:

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢٠)، وينظر: منهاج السنة (٣/ ٢٢٠).
(٢) من المعتزلة مَن يرى جواز وقوع الصغائر غير المُنفرة من النبي، ينظر: شرح الأصول الخمسة؛ ص ٥٧٣، والمغني (١٥/ ٢٧٩، ٢٨٠)، والكشاف: للزمخشري (١/ ٢٧٥)، ومن الأشاعرة من قال: بعصمة الأنبياء من الصغائر، ينظر: الإحكام، (١/ ٢٤٤)، وعصمة الأنبياء: للرازي ص ٤-١٠، والشيعة قالوا بالعصمة مطلقاً، ينظر: النكت الاعتقادية: للمفيد ص ٣٣.
(٣) درء التعارض (٥/ ٢٨٥).

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾[القصص: ١٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف: ١٤٣]، وقوله تعالى عن داود: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾[ص: ٢٤ ـ ٢٥]، وقوله تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾[ص: ٣٥])[١]، وقوله تعالى عن محمدﷺ: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح: ٢]، فهذا القرآن يُبين لنا توبة واستغفار الأنبياء مما وقع وصدر وبدر منهم من الصغائر بعد النبوءة، وإن لم يقع منهم شيء على قول مَن يقول بهذا فما فائدة التوبة والاستغفار التي يذكرها الله تعالى عنهم بعد صدور الذنب منهم ؟!

- فمما يُلاحظ حقيقة على بعض المُصنفات في التفسير والسيرة النبوية والكتب العقدية حيال حديثها عن عصمة النبيﷺ تأثرها بالقائلين بعصمة الأنبياء من الصغائر، والغلو في جانب القول بعصمة النبيﷺ من الصغائر بعد النبوءة، وهذا تسبب في إحداث خلل حيال تحريرهم لمسألة آيات عتاب النبي ﷺ؛ فحين تأملت الدراسات التي بحثت في آيات عتاب النبيﷺ وجدتها أنها تقول: بعصمة الأنبياء بعد النبوءة من الصغائر [٢]، معولين على قول مَن سلفهم [٣]، وهو خلاف ما نُقل عن جمهور العلماء، لأن تدارس سير الأنبياء لا يقوم على جانب الغلو فيهم ولا جانب التفريط والإجحاف بحقهم، فلا نقدسهم، ونعتمد على العاطفة الجياشة لمحبتهم فنضل عن الطريق الحق، فندعي عصمتهم المُطلقة، ونترك الآيات البينات

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٦).

(٢) ينظر: آيات عتاب المصطفى ﷺ في ضوء العصمة والاجتهاد ؛ د/ عويد عواد المطرفي، ص ٧٧، وعتاب الرسول ﷺفي القرآن تحليل وتوجيه؛ د/ صلاح الخالدي، ص٢٠.

(٣) من القائلين بعصمة الأنبياء من الصغائر والكبائر القاضي عياض، ينظر: الشفا بحقوق المصطفى (١٢٦-١٢٧).

التي أنزلها الله تعالى، وهو الذي اصطفاهم ونبأهم، وهو العليم الحكيم، ولا نطعن فيهم، ونَسِمَهم بما هم منه براء كما فعل الذين من قبلنا من اليهود والنصارى.

- **الوجه الثامن:** وقوع الصغائر من الأنبياء وتوبتهم دلالة على بشريتهم، وفيه دلالة على الاقتداء بهم في استغفارهم، وبيان حالهم بعد التوبة والاستغفار، وأنهم معصومون عن الإقرار على الصغائر.

*****

المبحث الثاني

آيات عتاب النبي ﷺ

هناك آيات جاءت على غير ما يُحبه النبي ﷺ ويهواه، فيُعاتبه الله حيناً، ويأذن له في الشيء والنبي ﷺ لا يميل إليه، وفي هذا دلالة على أن القرآن الكريم لم يكن من إنشائه، فمن هذه الآيات ما يلي:

أولاً: زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها، والذي كان بسبب تحريم التبني، حيث كان زيدٌ ابناً للنبي ﷺ بالتبني، والنبي ﷺ هو مَن زَوَّجَ زيداً حِبَّه بزينب ابنة عمته، ثم يأتي زيدٌ للنبي ﷺ ويشتكي من زينب، ثم يُطلق زيد زينب، ثم تنزل الآيات في تزويج زينب للنبي ﷺ، وقد كانت تفاخر بذلك زوجات النبي ﷺ، قائلة لهن: «إِنَّ الله أَنْكَحَنِي فِي السَّمَاءِ»[1]، وتنزل الآيات البينات في هذه الحادثة، تقول عائشة رضي الله عنها: «وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[الأحزاب: ٣٧]»[2]، (فالله أعلم نبيه ﷺ بأن زيداً يُطلق زينب، وأن النبي ﷺ يتزوجها، وهي في ذلك الوقت تحت زيد، فلما شكا زيد إلى النبي ﷺ من زينب، قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فعاتبه الله على قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ بعد علمه أنها ستصير زوجته هو ﷺ، وخشي مقالة الناس أن يقولوا لو أظهر ما علم من تزويجه إياها أنه يريد تزويج زوجة ابنه في الوقت الذي هي فيه في عصمة زيد، فلما طلقها زيد علم أن المنافقين سيرجفون بالسوء، فلما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء)، (٧٤٢١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[النجم: ١٣]، (٢٨٨).

أمره الله بذكر ذلك للأمة وتبليغ خَبره بلّغه ولم يكتمه مع أنه ليس في كتمه تعطيل شرع ولا نقص مصلحة، فلو كان كاتماً لكتم هذه الآية التي هي حكاية سر في نفسه وبينه وبين ربّه تعالى، ولكنه لمّا كان وَحياً بلّغه لأنه مأمور بتبليغ كل ما أُنزل إليه.

والدليل على هذا أمران:

الأول: قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾[الأحزاب: ٣٧]، وهذا الذي أبداه الله جل وعلا هو زواجه إياها في قوله ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[الأحزاب: ٣٧]، ولم يبدِ جل وعلا شيئاً من أن النبي ﷺ أحب زينب رضي الله عنها كما قال البعض[(١)]، ولو كان ذلك هو المراد لأبداه الله تعالى، وكيف يُحبها النبي ﷺ وتقع في نفسه وهو الذي زوجها من ذي قبل لزيد؟![(٢)].

الأمر الثاني: أن الله جل وعلا صرّح بأنه هو الذي زوجه إياها، وأن الحكمة الإلهية في ذلك التزويج هي قطع تحريم أزواج الأدعياء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾[الأحزاب: ٣٧] الآية، فقوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾[الأحزاب: ٣٧]، تعليل صريح لتزويجه إياها لما ذكرنا، وكون الله هو الذي زوجه إياها لهذه الحكمة العظيمة صريح في أن سبب زواجه إياها ليس هو مَحبته التي كانت سبباً في طلاق زيد لها كما زعموا، ويوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾[الأحزاب: ٣٧] الآية ؛ لأنه يدل على أن زيداً قضى وطره منها، ولم تبق له بها حاجة، فطلقها

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١١٥)، والكشاف (٣/ ٥٤٠)، ومعالم التنزيل (٦/ ٣٥٤)، وأحكام القرآن: لابن عربي (٦/ ٣٦٢)، وتفسير الطبرسي، (٢٢/ ١٤٣)، والجواب الكافي؛ لابن القيم ص ٢٦٤، وفتح القدير؛ للشوكاني (٤/ ٢٨٤)، والتحرير والتنوير (٢٢/ ٣٢)، والهرطقة المئة: يوحنا الدمشقي، ص ٥٦ ــ ٥٧، وحياة محمد؛ لإيميل درمنغم ص٢٩٩، ومحمد في المدينة مونتجومري وات ص٥٠٢، وحضارة العرب؛ غوستاف لوبون ص١١٢، ونساء النبي ﷺ ؛ لعائشة بنت الشاطئ ص١٣٥ـ١٤٥، وكبرى اليقينيات؛ للبوطي ص٢٢٥، وتيسير الكريم الرحمن ص٦٦٥.

(٢) ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة؛ لابن حجر (٢/ ٦٠٠).

باختياره، والعلم عند الله تعالى)[1].

وحتى تتم دلالة الحادثة تأمل خاتمة الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، (أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحَتَّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ)[2]، وسياق الآيات التي بعدها ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾[الأحزاب: ٣٨]، (أي: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دَعِيُّه زيد بن حارثة.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ وهذا حُكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حَرج، وهذا رَدٌّ على مَنْ تَوَهَّم مِن المنافقين نقصًا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودَعيه، الذي كان قد تبناه.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: وكان أمره الذي يقدِّره كائنًا لا محالة، وواقعًا لا محيد عنه ولا مُعدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن)[3].

فلو كان مصدر القرآن الكريم من عند النبي ﷺ لم يظهر هذه الحادثة ولأخفاها، فحدث كهذا ينبغي أن يتوارى محمد ﷺ عن إبدائه لو كان القرآن من عنده، لكن لما لم يكن القرآن من عند محمد ﷺ وكان من عند الله تعالى ذكر الله تلك الحادثة، والنبي ﷺ بلغها قومه، ولا زالت آيات هذه الحادثة تُقرأ إلى يومنا هذا.

ثانيًا: حين أراد الخروج لتبوك لغزو الروم، أذن لمَن أذن له في التخلف عنه من المنافقين، فأنزل الله عليه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن؛ للشنقيطي (٦/ ٢٤١) بتصرف، وينظر: أحكام القرآن (٦/ ٣٦٢)، وتفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٢٥)، وزاد المعاد (٤/ ٢٦٦)، ومع المستشرقين والمفسرين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش؛ د/ زاهر الألمعي، لكن يلحظ على الكتاب القول بعصمة النبي ﷺ المطلقة، وهو خلاف ما عليه جمهور العلماء.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٢٦).

﴿صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[التوبة: ٤٣]، فهذا عتاب من الله تعالى لنبيه ﷺ حين أذن للمنافقين الذين استأذنوه.

(يقول جل ثناؤه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ يا محمد، ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك، من قبل أن تعلم صدقهم من كذبهم.

﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ لأي شيء أذنت لهم؟

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ يقول: ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك إذ قالوا لك: (لو استطعنا لخرجنا معك)، حتى تعرف مَن له العذر منهم في تخلفه، ومَن لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمَن أذنتَ له منهم على علم منك بعذره، وتعلمَ مَنِ الكاذبُ منهم المُتخلفُ نفاقًا وشكًّا في دين الله)[1].

ففي هذه الآية دلالة على عدم معرفة النبي ﷺ بالغيب، إذ لو علم نفاقهم لما أذن لهم، كما أن النبي ﷺ حين أذن لهم دون معرفة لسبب استئذانهم عاتبه الله، فهذه الآية تدل دلالة واضحة على أن القرآن لم يكن من عند النبي ﷺ، ولو كان من عنده لما أظهر هذه الحادثة ولأخفاها كما هي عادة كثير من الناس.

ثالثًا: يقول عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ: «لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ ؟ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا، قَالَ: أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ، فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا، قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٢٧٣)، وينظر: الكشاف (٢/ ٤٢٤)، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ١٥٩)، والتحرير والتنوير (١٠/ ٢١١).

﴿أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1].

وجاء في الحديث: « أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ لَمَّا تُوُفِّيَ، جَاءَ ابْنُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْطِنِي قَمِيصَكَ أُكَفِّنْهُ فِيهِ، وَصَلِّ عَلَيْهِ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ، فَقَالَ: آذِنِّي أُصَلِّي عَلَيْهِ، فَآذَنَهُ،... »[2]، فالنبي ﷺ كفن عبدالله بن أبي في قميصه، بعدما سأله عبدالله بن عبدالله بن أبي أن يكفن أباه فيه، فقد كانت له عند النبي ﷺ يد، فأحب أن يكافئه عليها[3]، وسأله أن يستغفر لأبيه، وأن يُصلي عليه.

والنبي ﷺ خُيِّر بين الاستغفار وعدمه فاختار الاستغفار، وصلى على عبدالله ابن أبي، ثم نهاه الله تعالى عن الصلاة على المنافقين.

ويتوجه النهي عن الصلاة على المنافقين بأنه خاص بالنبي ﷺ، إذ النبي ﷺ لم ينهَ أمته عن الصلاة عليهم، لأن صلاة النبي ﷺ عليهم يُرجى منها الرحمة والمغفرة لهم[4]، وقيل بأن النهي خاص ببعض المنافقين، ودليله إسرار النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان عن المنافقين الذين نُهي أن يصلي عليهم[5].

وفي هذه الحادثة ثمة إشكال ظاهر متوهم، يمكن توجيهه بما يلي:

(جزم عمر بأنه منافق، فجرى على ما كان يطلع عليه من أحواله، وإنما لم يأخذ النبي ﷺ بقوله، وصلى عليه، إجراء له على ظاهر حُكم الإسلام، كما تقدم تقريره، واستصحاباً لظاهر الحُكم، ولما فيه من إكرام ولده الذي تحققت صلاحيته، ومصلحة الاستئلاف لقومه، ودفع المفسدة، وكان النبي ﷺ في أول

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (٤٦٧١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب «الْكَفَنِ فِي الْقَمِيصِ الَّذِي يُكَفُّ أَوْ لَا يُكَفُّ وَمَنْ كُفِّنَ بِغَيْرِ قَمِيصٍ»، (١١٩٠).

(٣) ينظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الكسوة للأسارى، (٣٠٠٨).

(٤) هذا توجيه الإمام الشافعي رحمه الله، في كتاب أحكام القرآن (١/ ٢٩٧)، والأم (١/ ٢٥٩).

(٥) هذا توجيه ابن حجر رحمه الله تعالى في فتح الباري (١٠/ ١٩٦).

الأمر يصبر على أذى المشركين، ويعفو ويصفح، ثم أُمر بقتال المشركين، فاستمر صفحه وعفوه عمَن يُظهر الإسلام ولو كان باطنه على خلاف ذلك لمصلحة الاستئلاف وعدم التنفير عنه، ولذلك قال: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1]، فلما حصل الفتح ودخل المشركون في الإسلام، وقل أهل الكفر وذلوا، أُمر بمُجاهرة المنافقين، وحملهم على حُكم مُر الحق، ولا سيما وقد كان ذلك قبل نزول النهي الصريح عن الصلاة على المنافقين، وغير ذلك مما أُمر فيه بمُجاهرتهم، وبهذا التقرير يندفع الإشكال عمّا وقع في هذه القصة بحمد الله تعالى، قال الخطابي: إنما فعل النبي ﷺ مع عبد الله بن أبي ما فعل، لكمال شفقته على مَن تعلق بطرف من الدين، ولتطييب قلب ولده عبد الله الرجل الصالح، ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم، فلو لم يجب سؤال ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح، لكان سُبَّة على ابنه، وعاراً على قومه، فاستعمل أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهي فانتهى)[2].

والنبي ﷺ عامل عبدالله بن أبي بظاهره، فاستغفر له وصلى عليه، ولم يقتله، وفي هذا: (سياسة عظيمة، وحزم وافر، لأن الناس يرون الظاهر، والظاهر أن عبد الله بن أبي كان من المسلمين، ومن أصحاب الرسول ﷺ، فلو عوقب مَن يُبطن خلاف ما يُظهر لم يعلم الناس ذلك الباطن فينفرون عمّن يفعل هذا بأصحابه)[3].

فلو كان القرآن من عند محمد ﷺ لما أظهر هذا النهي، ولأخفاه، لا سيما وأنه اختار الاستغفار.

ليُبرهن القرآن ذاته بأنه ليس من خطاب محمدﷺ ولا من إنشائه، بل هو وحي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، بَاب قَوْلُهُ: (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)، (٤٥٢٥).

(٢) فتح الباري (٨/ ٣٣٤).

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين؛ لابن الجوزي (١/ ٧٠١).

من الله تعالى.

ويمكن توجيه فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن (ما صدر عن عمر مع ما عُرف من شدة صلابته في الدين، وكثرة بُغضه للكفار والمنافقين، وهو القائل في حق حاطب بن أبي بلتعة مع ما كان له من الفضل كشهوده بدراً وغير ذلك، لكونه كَاتَب قريشاً قبل الفتح: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقد نافق، فلذلك أقدم على كلامه للنبي ﷺ بما قال، ولم يلتفت إلى احتمال إجراء الكلام على ظاهره لما غلب عليه من الصلابة المذكورة...)[١].

رابعاً: قال النبي ﷺ لعمه أبي طالب: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»[٢] فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣]، (يعني: ما يليق ولا يحسُن للنبي وللمؤمنين به ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾أي: لمَن كفر به، وعَبَدَ معه غيره ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضاً فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه،

---

(١) فتح الباري (٨/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ما كان للنبي والذين ءامنوا أن يستغفروا للمشركين)، (٤٦٧٥)، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، بَاب الدَّلِيلِ عَلَى صِحَّةِ إِسْلَامِ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ مَا لَمْ يَشْرَعْ فِي النَّزْعِ وَهُوَ الْغَرْغَرَةُ وَنَسْخِ جَوَازِ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ وَالدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الشِّرْكِ فَهُوَ فِي أَصْحَابِ الْجَحِيمِ وَلَا يُنْقِذُهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ الْوَسَائِلِ، (٣٥).

ويُوالوا مَن والاه اللّه، ويُعادوا مَن عاداه اللّه، والاستغفار منهم لمَن تبين أنه من أصحاب النار مُناف لذلك، مُناقض له، ولئن وُجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ما كان ﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾[التوبة: ١١٤] في قوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾[مريم: ٤٧] وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدوٌ لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾[التوبة: ١١٤] موافقةً لربه وتأدبـًا معه.

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾[التوبة: ١١٤] أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار والإنابة إلى ربه.

﴿حَلِيمٞ﴾[التوبة: ١١٤] أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عمّا يصدر منهم إليه، من الزلات، لا يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجُرمه، فأبوه قال له: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ [مريم: ٤٦] وهو يقول له: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾[مريم: ٤٧].

فعليكم أن تقتدوا به، وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة: ٤] كما نبهكم الله عليها وعلى غيرها)[١].

فلو كان القرآن من عند محمد ﷺ أكان يستغفر ؟ وهو يُصرح بقوله: «ما لم أنه عنك»، إنَّ محمداًﷺ لا يعلم الغيب، وإلا لم يستغفر، إنه يُبلغ عن ربه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي﴾[التوبة: ١١٣] لتدرك أن القرآن لم يكن من عند محمدﷺ وإنما هو وحي من الله تعالى لمحمدﷺ، وهو يُبلغ ما يُوحى إليه، دون أن يكون له أي تدخل في الوحي الذي يُبلغه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٥٣، وينظر: جامع البيان (١٤/ ٥٠٩).

خامسًا: قصة أسارى بدر كما يرويها عمر رضي الله عنه: «فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الأُسَارَى؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهِ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلَامِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قال: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ ـ نَسِيبًا لِعُمَرَ ـ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأنفال: ٦٧]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[الأنفال: ٦٩]، فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ»[1].

ففي هذه الآيات يُعاتب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ يوم بدر حين أسرَ المشركين وأبقاهم لأجل الفداء، وهذا رأي أبي بكر رضي الله عنه الذي مال إليه النبي ﷺ، وكان رأي عمر بن الخطاب في هذه الحال قتلهم واستئصالهم، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: (ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يُريدون أن يُطفئوا نور الله ويَسعوا لإخماد دينه، وأن لا يبقى على

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإِمْدَادِ بِالْمَلَائِكَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَإِبَاحَةِ الْغَنَائِمِ، (٤٦٨٧).

وجه الأرض مَن يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عَرَض قليل بالنسبة إلى المصلحة المُقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصولة، فالأوفق أن لا يُؤسروا.

فإذا أثخنوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم.

يقول تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾أي: كامل العزة، ولو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفعل، لكنه حكيم، يبتلي بعضكم ببعض.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾به القضاء والقدر، أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم أيها الأمة العذاب ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم ولم يحلها لأمة قبلها)[1].

أتراه لو كان القرآن من عند النبيﷺ يُعلن مثل هذه الحادثة التي خالفت ما ذهب إليه؟ إذ لو كان من عنده لاقتصر الأمر على ما مال له من رأي، لكنه لما كان من عند الله تعالى أظهر خلاف ما مال إليه النبي ﷺ من رأي مُبيناً له السبب، مُعاتباً له، ولتكون هذه الحادثة سبباً لإحلال الغنائم لهذه الأمة، وأن ثمة أموراً تترتب على قتل أسرى المشركين، لأن التشريع من عند الله تعالى وحده العليم الحكيم، وليس هو من عند محمدﷺ، وفي هذا دلالة بينة واضحة على أن النبي ﷺ يُبلغ عن ربه ما

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٦ بتصرف.

يُوحي إليه.

سادساً: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[التحريم: ١] استفهام، و (هذا الاستفهام استفهام إنكار يتضمن النهي؛ فإن الله لا يستفهم لطلب الفهم والعلم فإنه بكل شيء عليم؛ ولكن مثل هذا يُسميه أهل العربية استفهام إنكار، واستفهام الإنكار يكون بتضمن الإنكار مضمون الجملة: إما إنكار نفي إن كان مضمونها خبراً، وإما إنكار نهي إن كان مضمونها إنشاء، والكلام إما خبر وإما إنشاء، وهذا كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣])(١).

فالله تعالى ينهى نبيه ﷺ عن تحريم ما أحل الله له.

فلو كان القرآن من عند محمدﷺ أتراه يَستنكر على فعله الذي فعله؟! ويُصرح به على مَسمع الناس أجمع؟! فهذا الحدث كان بينه وبين زوجاته فلو كان القرآن من لدن محمد ﷺ لأخفى هذا الأمر ولم يُبده للناس، لكن القرآن لم يكن من لدن محمـــد ﷺ وإنما كان من الله تعالى وحده والنبي يُبلغ عن ربه كل ما يُوحيه الله تعالى إليه، حتى وإن كانت آيات تعاتب النبي ﷺ.

سابعاً: كان رسول الله ﷺ يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طَمع في إسلامهم، فبينما هو يُخاطبهم ويُناجيهم إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ـ وكان ممَن أسلم قديماً ـ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويُلح عليه، ووَدَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة صناديد قريش؛ طمعاً ورغبة في هدايتهم، فعَبَس أي قضب جبينه لإظهار غضبه، وتولى ولم يلتفت لسؤال ابن أم مكتوم الأعمى، ليُقبل على الآخرين، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٢٩).

﴿عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ - ١٠]، ذكر غيرُ واحد من المُفسرين أنها نزلت مُعاتبة للنبي ﷺ على عبوسه وتوليه عن الأعمى، الذي جاء يسأله، وهو أعمى البصر لا البصيرة، ومَن كانت هذه حالته فهو أجدر بالعناية به، مع أنَّ عبوس النبي ﷺ وتوليه لا يراه ابن أم مكتوم لأنه أعمى، لكنه تعليم الله لنبيه ﷺ، للموازنة بين مراتب المصالح ووجوبِ الاستقراء لخفياتها، كيلا يفته الاهتمامُ بالمهم منها في بادئ الرأي مُهمّاً آخر مساوياً في الأهمية أو أرجح، ولذلك يقول علماء أصول الفقه: إن على المُجتهد أن يبحث عن مُعارض الدليل الذي لاح له، والإشارة إلى اختلاف الحال بين المشركين المُعرضين عن هَدي الإسلام وبين المسلمين المُقبلين على تتبع مواقعه، وقرن ذلك بالتذكير بإكرام المؤمنين وسموّ درجتهم عند الله تعالى.

وهو تنبيه لفائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الأنبياء، ووعظ الوعاظ، وتذكير المُذكرين، فإقبالك على مَن جاء بنفسه مُفتقراً لذلك منك، هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرُضك للغني المُستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك مَن هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك ألا يزّكّى، فلو لم يَتزكَّ، فلست بمُحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: لا يُترك أمرٌ مَعلوم لأمر مَوهوم، ولا مَصلحة مُتحققة لمَصلحة مُتوهمة، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المُفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره(١).

وثمة وقفة تلفت الانتباه لنعلم بأن القرآن ليس من عند النبي ﷺ وإنما هو من عند الله تعالى وحده، يَعبس النبي ﷺ ويتولى عن ابن أم مكتوم لانشغاله بصناديد

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٤/ ١٠٢)، والتفسير الكبير (٣١/ ٥٢)، وتفسير القرآن العظيم (٨/ ٣١٩)، وأضواء البيان (٨/ ٤٣٠)، والتحرير والتنوير (٣٠/ ١٠١)، وتيسير الكريم الرحمن ص٩١٠.

الكفر رجاء إسلامهم وإسلام مَن تحتهم، فيُعاتبه الله تعالى بقرآن يُتلى، ليَسمع بهذه الحادثة الكل فتذيع وتنتشر، ولو كان القرآن من عند النبي ﷺ لأخفى الأمر، ولم يُعلنه، لأن ابن أم مكتوم لم يرَ عبوس النبي ﷺ في وجهه لأنه أعمى.

وأمر آخر يلفت الانتباه حقّاً، ما هو موقف النبي ﷺ من ابن أم مكتوم بعد نزول هذه الآيات التي كانت حادثته سبباً في نزولها، وانتشارها ومعرفة الجميع بها؟

لقد كان موقف النبي ﷺ من ابن أم مكتوم كلما رآه أكرمه، وقد استخلفه على المدينة مرتين إبان سفره، وكان مؤذنه للصلاة[1].

إنَّ آيات عتاب النبي ﷺ تدل على أن القرآن لم يكن من عند محمدﷺ، فلو كانت مثل هذه (التقريعات صادرة عن وجدانه، مُعبرة عن ندمه، ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرّط من رأيه، أكان يُعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحُرمة آرائه؟ بل إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه)[2].

ولو كان القرآن فرضاً من عنده لما أظهر العتاب والمُخالفة، ولكان موافقاً له في كل حالاته، فـ (لا أدل على أن الوحي القرآني خارج عن الذات المُحمدية من مخالفة القرآن في عدة مواطن لرأيه الشخصي ولطبعه الخاص)[3]، وفي هذا دلالة على صدق النبي ﷺ، ونفي الكذب عنه، لأن الكاذب لا يُبين المواقف المُخالفة لرأيه المُعاتبة له لينشرها على مسامع الناس بل يُخفيها، كما لا يتأخر الكاذب في

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٤/ ١٠٢)، وتفسير القرآن العظيم (٨/ ٣١٩)، وأضواء البيان (٨/ ٤٣٠).

(٢) النبأ العظيم؛ د/ محمد دراز، ص٢٥.

(٣) القرآن والمستشرقون؛ للتهامي نقرة، ص٣٥.

افتراء الكذب عند الحاجة الماسة إليه[1]، وتتأكد لنا دلالة أخرى وهي عدم علم النبي ﷺ بالغيب إلا من خلال الوحي، فلو كان يعلم الغيب لما عاتبه القرآن في بعض الأمور التي اختارها النبي ﷺ، ووُجه للعمل والحكم بها.

ليتأكد لكل قارئ للقرآن أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ، ولتكون آيات عتابه ﷺ أحد أدلة صدق نبوءته، وأن القرآن لم يكن من عنده البتة، وإنما هو وحي من الله تعالى.

وتدل هذه المواقف وغيرها على أن القرآن من عند الله وحده، فالله تعالى يستدرك على نبيه محمد ﷺ، وينسخ ما يُلقي الشيطان، ليُحكم الله آياته، وليُعلم بأن القرآن كلام الله تعالى، وليس هو من إنشاء محمد ﷺ، ولا من عند أحد من الخلق، يقول ابن تيمية رحمه الله: (ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته؟ هذا فيه قولان، والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك، والذين منعوا ذلك من المُتأخرين طعنوا فيما يُنقل من الزيادة في سورة النجم بقوله: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى، وقالوا: إن هذا لم يثبت، ومَن علم أنه ثبت: قال هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم ولم يلفظ به الرسول ﷺ.

ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضاً، وقالوا في قوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[الحج: ٥٢]: هو حديث النفس.

وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف، فقالوا: هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه، والقرآن يدل عليه بقوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَلِيَعْلَمَ

---

(١) ينظر: دين الإسلام؛ لايتنز ص١٣٢، والأدلة الجلية على صدق خير البرية ﷺ؛ د/ عبدالمحسن المطيري ص١٥٦، والنبأ العظيم ص٢٣.

ﭐلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[الحج: ٥٢ـ٥٤]. فقالوا: الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث، والقرآن يوافق ذلك، فإن نسخ الله لما يُلقي الشيطان، وإحكامه آياته، إنما يكون لرفع ما وقع في آياته، وتمييز الحق من الباطل، حتى لا تختلط آياته بغيرها.

وجعل ما ألقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ذلك ظاهراً يسمعه الناس لا باطناً في النفس.

والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ.

وهذا النوع أدل على صدق الرسول ﷺ، وبُعده عن الهوى من ذلك النوع، فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه، وكلاهما من عند الله، وهو مُصدق في ذلك، فإذا قال عن نفسه إن الثاني هو الذي من عند الله، وهو الناسخ، وإن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك، كان أدل على اعتماده للصدق، وقوله الحق، وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها: «لو كان محمد كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ ﴾[الأحزاب: ٣٧]».

ألا ترى أن الذي يُعظم نفسه بالباطل، يُريد أن يَنصر كل ما قاله ولو كان خطأ، فبيان الرسول ﷺ أن الله أحكم آياته، ونسخ ما ألقاه الشيطان هو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب، وهذا هو المقصود بالرسالة فإنه الصادق المصدوق ﷺ، ولهذا كان تكذيبه كفراً محضاً بلا ريب)[1].

---

(١) مجموع الفتاوى: لابن تيمية، (١٠/ ٢٩١).

فهذه المواقف تؤكد وتبرهن على أن القرآن وحي من عند الله تعالى، وليس هو من عند محمدﷺ، وهذه الدلالة هي أحد الأدلة التي تبرهن على صدق نبوة النبيﷺ وليست هي الدلالة الوحيدة.

*****





الفصل الثامن

دلالة تأخر نزول الوحي مع مسيس الحاجة إليه على نبوءة النبي ﷺ

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول:	**تأخر الوحي في حادثة الإفك**
المبحث الثاني:	**تأخر الوحي في تحويل القبلة**
المبحث الثالث:	**تأخر الوحي في الإجابة عن سؤال كفار مكة**
المبحث الرابع:	**تأخر الوحي في بيان الآيات المجملة**
المبحث الخامس:	**تأخر الوحي في صلح الحديبية**
المبحث السادس:	**تأخر الوحي في قصة المجادلة**



المبحث الأول

تأخر الوحي في حادثة الإفك[1]

حينما خاض المُنافقون في عِرض زوج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، وطال الأمر والناس يخوضون، لم ينزل الوحي في تلك الفترة فأبطأ عن النبيﷺ، تقول عائشة رضي الله عنها: «وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَة، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ الله، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي الله وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ الله عَلَيْهِ»[2].

فهذه الحادثة تدل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولو ادعى معرفة الغيب لبرّأ زوجَه، وهو يدل على صدق النبي ﷺ حيث لم يظن ولم يقل ما ليس له به علم.

بل إن النبي ﷺ كان يطلب مشورة قومه فيمَن قذف زوجَه، حيث يقول ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي[3]، وَايْمُ الله مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ قَطُّ»[4]، فالنبي ﷺ (استشارهم فيما يفعل بمَن قذف عائشة؟ فأشار عليه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير بأنهم واقفون عند أمره، موافقون له فيما يقول ويفعل، ووقع النزاع في ذلك بين السعدين، فلما نزل عليه الوحي ببراءتها أقام حد القذف على مَن

---

(١) تنبيه: أهدف إلى بيان دلالة الحادثة على صدق نبوءة النبي ﷺ فقط.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، (٢٥١٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، (٢٧٧٠).

(٣) الأَبْنُ التهمة، أي اتهموها، وقذفوها. ينظر: الفائق في غريب الحديث والأثر: للزمخشري، (١/ ١٣)، والنهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، (١/ ١٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾[النور: ١٩]، (٤٧٥٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، (٤٩٧٤).

وقع منه)[1]، ولو فرضـــنا أن القرآن من عند محمد ﷺ فهل يســتدعي الأمر أن يستشير صحابته فيمَن قذف عِرضه ؟!

ولو كان أمر القرآن إلى النبيﷺ وهو من إنشائه لذبّ عن عِرض زوجه مُباشرة دون أن ينتظر بُرهة ليحمي عِرضـــه، ولنســبه إلى الوحي، حتى تنقطع ألســنة المتهوكين، لكنه ما جرؤ على مثل هذا أبداً، لتعلم بأن القرآن لم يكن من صــنيع محمد أبداً [2].

*****

(١) فتح الباري؛ لابن حجر العسقلاني (١٣/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: النبأ العظيم ص٢٠.

المبحث الثاني

تأخر الوحي في تحويل القبلة

(حين هاجرَ النبي ﷺ إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضْعَةَ عَشَرَ شهرًا، وكان يُحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء)[1]، فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾[البقرة: ١٤٤]،فتَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ»[2].

(يقول الله لنبيه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[البقرة: ١٤٤] أي: كثرة تردده في جميع جهاتها، شوقًا وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وَجْهِكَ﴾ ولم يقل: بصرك لزيادة اهتمامه، ولأن تقليب الوجه مُستلزم لتقليب البصر)[3].

ولو كان القرآن من عند محمدﷺ لما تأخر كل هذه المُدة، لشيءٍ يُحبه ويتشوف إليه، فيُقلب وجهه مرة بعد أخرى إلى السماء، ولقال بتحويل القبلة مباشرة، ولم يُبين تشوقه ويصف حاله، لكنه الوحي الإلهي من عند الله تعالى[4].

*****

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٥٨) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، (٣٩٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، (٥٢٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٧١، وينظر: التحرير والتنوير (٢/ ٢٦).

(٤) ينظر: الأدلة الجلية على صدق خير البرية ﷺ ؛ د/ عبدالمحسن المطيري، ص١٥٩.

المبحث الثالث

تأخر الوحي في الإجابة على سؤال كفار مكة

انقطع الوحي عن النبي ﷺ لفترة؛ بعدما سـأله كفار مكة عن أمور أخبرهم بها أحبار يهود، ووعدهم النبي ﷺ بالإجابة في يوم غد ولم يقل إن شـاء الله، وها هي ذي القصـة أذكرها لتتبين لنا حقيقة مصـدر القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، (بَعثت قريش النضـر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيط[1]، إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، و صِفوا لهم صِفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من عِلم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسـألوا أحبار يهود عن رسـول الله ﷺ، ووصـفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بِهِن، فهو نبي مُرسـل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَول فَرَوا فيه رأيكم: سـلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبَؤه؟ وسـلوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يُخبركم فإنه رجل مُتقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضـر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشـر قريش، قد جئناكم بفصـل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسـأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسـول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا: فسـألوه عمّا أمروهم به، فقال لهم رسـول الله ﷺ: «أخبركم غداً بما سـألتم عنه»، ولم يَسـتثنِ، فانصـرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه

---

(١) عُقبة بن أبي معيط، يكنى بأبي الوليد، وكان من أشـد الناس أذىً لرسـول الله، ﷺ وعداوة له وللمسلمين، أُسر ببدر وقتل صبراً. ينظر: الكامل في التاريخ: لابن الأثير (١/ ٢٦٤).

جبريل، عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدًا، واليوم خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها، لا يُخبرنا بشيء عمّا سألناه عنه. وحتى أحزنَ رسول الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل، عليه السلام، من عند الله عز وجل، بسورة أصحاب الكهف، فيها مُعاتبته إياه على حزنه عليهم، وخَبَر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥])(١).

في هذه الحادثة دلالة على صدق نبوءة النبي ﷺ من جهة، وتوجيه للنبي ﷺ من جهة أخرى.

أما من جهة دلالة الحادثة على صدق نبوءة النبي ﷺ: فلوكان القرآن من عنده لم يحتج إلى هذا التأخر في البيان، ولأجابهم مباشرة عما سألوا عنه، ولم يُلجئهم للغد، وبعدما ألجأهم للغد كي يُجيبهم على ما سألوا لم ينزل عليه الوحي، فيتأخر، وهي فترة كافية لأن يأتي محمد ﷺ بالجواب من عنده، لكنه لم يفعل ذلك مُطلقًا، ألا يدل هذا على أنَّ محمداً ﷺ لا دور له في الوحي إلا التبليغ بما يُنبئه الله به ؟! فزمن نزول الوحي لا يعلمه محمدﷺ، والوحي لا ينزل تلبية لطلبه.

كما أن في إجابته بعدما نزل عليه الوحي ﷺ للأسئلة المُوجهة إليه دليلاً آخر على صدق نبوءته؛ لأنه أخبر بأمور غيبية لا يعلمها إلا نبي، والنبي ﷺ أمي لم يقرأ ولم يُطالع أي كتاب، ولم يكتب بيديه كما بينت سابقًا، فلما وافق ما أخبر به ما هو معلوم عند أهل الكتاب، دل ذلك أيضًا على صِدق نبوءته؛ وهذا يتبين من قولهم: (فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يُخبركم فإنه رجل مُتقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم).

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن (١٧/ ٥٩٣)، وتفسير القرآن العظيم (٥/ ١٣٦).

أما عن توجيه الله تعالى لنبيه، فيتبين في حكمة الله التي اقتضت أن يتأخر نزول الوحي ليستثني النبي ﷺ فيما بعد عمّا في غد، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣ ــ ٢٤]، (إرشاد من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله، عز وجل، علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قَالَ: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَام: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قل إِنْ شَاءَ الله، فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ الله، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ الله لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»[1])[2].

وفي الدلالتين اللتين تضمنتهما هذه الحادثة دلالة أخرى، فمحمد ﷺ تتوجه إليه أسئلة ويعد بالإجابة عليها غداً، ثم لا يُخبر بها لتأخر نزول الوحي، ويَحزن لذلك ثم يتم توجيهه بأمر الاستثناء فيما يتعلق بالمستقبل، هذا فيه دلالة على أن القرآن لم يكن من لدن محمد ﷺ البتة، وإنما هو إلهي المصدر.

*****

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب)، (٣١٧١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب الاستثناء، (٣١٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤٨)، وينظر: معالم التنزيل (٣/ ١٨٧)، وأضواء البيان: (٣/ ٢٥٢)، وتيسير الكريم الرحمن ص٤٧٤.

المبحث الرابع

تأخر الوحي في بيان الآيات المجملة

قد كان يأتي النبي ﷺ القول المُجمل الذي لا يَستبين له ولا لأصحابه تأويله، حتى ينزل الله عليه بيانه بعد ذلك، ومن ذلك لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] شق ذلك على صحابة الرسول ﷺ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ الله كُلِّفْنَا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ الله فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا الله تَعَالَى فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]»(١).

فلو كان القرآن من عند محمد ﷺ لأعلمهم بالأمر من البداية ولأزال الإشكال من فوره عنهم، لأنه لم يكن ليكتم عنهم العلم وهم في أشد الحاجة إليه، ولم يكن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يُطاق، (١٧٩).

ليتركهم في هذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم وهو بهم رؤوف رحيم، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها، وبيانها، ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان، ربما لتتجلى للجميع حقيقة أن محمداً ﷺ لا يعلم شيئًا عن القرآن إلا بوحي الله إليه، فهو مُبلغ عن ربه، وليتبين لنا دلالة صدق نبوته من هذا التأخر في بيان ما أجمل [1].

*****

(١) ينظر: النبأ العظيم ص٢٨-٢٩.

المبحث الخامس

تأخر الوحي في صلح الحديبية

أذِن الله تعالى للمؤمنين أن يُقاتلوا مَن يعتدي عليهم أينما وجدوه، غير ألا يُقاتلوا في الحرم مَن لم يُقاتلهم فيه بنفسه، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾[البقرة: ١٩٠]، ولمّا «خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ[1] فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ، فَوَالله مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ، حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ[2]، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ، فَأَلَحَّتْ[3]، فَقَالُوا: خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ[4]، خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا، فَوَثَبَتْ[5]، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ، حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ، عَلَى ثَمَدٍ[6] قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ[7] النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَالله مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ،

---

(١) الغميم: ماء بين عسفان وضجنان. ينظر: فتح الباري: لابن حجر، (١/ ١٦٣).

(٢) قترة الجيش: القترة بفتح القاف والمثناة الغبار الأسود، ينظر: فتح الباري: لابن حجر، (٥/ ٣٣٥).

(٣) فألَحَّت: أي لَزِمتْ مكانَها من ألَحَّ على الشيء إذا لَزِمه وأصَرَّ عليه، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٤٤٩).

(٤) خَلأَتِ النَّاقَةُ خِلَاءً إِذَا حَرَنَتْ. والحِرَانُ: أَنْ يَقِفَ فَلَا يَتَحَرَّكَ وَإِن ضُرِبَ. ينظر: غريب الحديث: للحربي (٢/ ٤٤٦).

(٥) فوثبت أي قامت، ينظر: فتح الباري: لابن حجر، (٥/ ٣٣٦).

(٦) الثَمَد: بالتحريك: الماء القليل، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، (١/ ٦٤٠).

(٧) يَتَبَرَّضُه الناس تبَرُّضاً أي: يأخذونه قليلاً، والبَرْضُ الشيء القليل، ينظر: المرجع السابق، (١/ ٣٠١).

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ[1] فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ[2]، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا[3]، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي[4]، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ، فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ، يَقُولُ: قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ[5]، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ[6] جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي

---

(١) بديل بن ورقاء الخزاعي، شهد وابنه عبد الله حنيناً والطائف وتبوك. ينظر: أسد الغابة: لابن الأثير (١/ ١٠٦).

(٢) العوذ المطافيل: يريد النساء والصبيان، ينظر: تفسير غريب ما في الصحيحين: للحميدي، (١/ ١٩٠).

(٣) فَقَد جموا: أي استراحُوا وكثُروا، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، (١/ ٨١٤).

(٤) حتى تَنْفرد سالِفَتي: السالِفَة: صَفْحة العُنُق وهما سالِفَتان من جانِبَيه. وكَنَى بانفرادِها عن الموت لأنها لا تَنْفرد عمَّا يليها إلا بالموت. وقيل: أراد حتى يُفَرَّق بين رأسي وجَسَدي، ينظر: النهاية في غريب الحديث: لابن الأثير، (٢/ ٩٨١).

(٥) عروة بن مسعود عم والد المغيرة بن شعبة، أحد أكابر قومه، كانت له اليد البيضاء في صلح الحديبية، أسلم في السنة التاسعة من الهجرة. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، (٤/ ٤٩٣).

(٦) بَلَّحوا: وأصل التبليح الإعياء والعجز والفتور، يقال: بلح الرجل إذا انقطع من الإعياء فلم يقدر على الحركة وعجز عنها، ينظر: تفسير غريب ما في الصحيحين: للحميدي، (١/ ١٩٠).

وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ اقْبَلُوهَا، وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: ائْتِهِ، فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا[1] مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟ فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ[2] قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ، وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ[3]، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ[4]، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَّا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ، ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ،

---

(١) أَوْشَاباً من الناس: الأَشْوَاب والأَوْبَاش والأَوْشَاب: الأخلاط من الناس والرَّعاع، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٤٠٨).

(٢) المغيرة بن شعبة، أسلم عام الخندق وشهد الحديبية، كان داهية من دهاة العرب، توفي سنة خمسين من الهجرة. ينظر: أسد الغابة (٣/ ٤٠).

(٣) المِغْفَرُ هو ما يَلْبَسُه الدَّارِعُ على رأسه من الزَّرَدِ ونَحوه، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، (٣/ ٧٠٣).

(٤) نَعْل السيف: الحديدةُ التي تكون في أسفل القِراب، المرجع السابق، (٥/ ١٨٥).

وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ، فَبُعِثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ، وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَذَا مِكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ، إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو،... فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللهمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللهمَّ ثُمَّ قَالَ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ،... فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً[1]، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ

(١) ضُغْطَةً أي عَصراً وقَهراً، يقال: أخذتُ فلاناً ضُغطة بالضَّم إذا ضَيَّقْتَ عليه لتُكرِهه على الشَّيْء، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٩٣).

اللهِ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ[1] فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ، قَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَجِزْهُ لِي، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: بَلَى فَافْعَلْ، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ، وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللهِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟ قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ ؟ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ[2]، فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ،... فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا، قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا

---

(١) الرَّسْفُ والرَّسِيفُ: مَشْيُ المُقَيَّد إذا جاء يتحاملُ برِجْله مع القَيد. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٥٨٣).

(٢) غَرْزِه الغَرْز رِكاب كُورِ الجَمل إذا كان من جِلْد أو خَشَب، أي اعْتَلِق به وأمْسِكْه واتَّبِع قوله وفِعْله ولا تُخالِفه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣ / ٦٦٢).

مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، حتى بلغ: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ، حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَالله إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَالله إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ[١]، وَفَرَّ الْآخَرُ، حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ رَآهُ: لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: قُتِلَ وَالله صَاحِبِي، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله قَدْ وَالله أَوْفَى الله ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي الله مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ[٢]، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ[٣]، قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ[٤]، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ

---

(١) بَرَدَ: أي مات، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٩٣).

(٢) ويلُ أمِّه مِسْعَرُ حرْب لو كان له أصحابٌ، يقال: سَعَرْتُ النار والحرْبَ إذا أوقدتَهما وسعَّرتهما بالتشديد للمبالغة. والمِسعر والمِسْعار: ما تُحرّكُ به النارُ من آلةِ الحديد. يَصِفُه بالمبالغة في الحَرْب والنّجدة. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، (٢م٩٢٩).

(٣) سِيفَ البحر: أي ساحلَه، ينظر: النهاية في غريب الأثر: لابن الأثير، (٢/ ١٠٥٩).

(٤) أبو جندل بن سهيل، أسلم بمكة، ومات باليمامة، ينظر: الاستيعاب: لابن عبد البر، (٢/ ١٦).

عِصَابَةٌ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ، وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٤ – ٢٧]»[1].

بعد سرد قصة الحديبية تتبين حقيقة أن القرآن لم يكن من عند محمد ﷺ، تأمل يأتي النبي ﷺ وصحبه البيت مُحرمين ويُردون من قريش، ويَمكثون قرابة السنتين لصلح الحديبية، ويوافقون على الشروط التي تملى عليهم، ولا يُملي النبي ﷺ شرطًا واحداً عليهم، ويتحمل هو وصحبه المتاعب، فلو كان محمدﷺ يعلم الغيب لمّا أقدم على الذهاب إلى مكة، ولو كان القرآن من عنده لما احتاج للصُلح وإملاء الشروط عليه، ويتحمل الحصار هو وصَحابته، فهو إما أن يَحكم في الأمر بدءاً فلا يذهب لمكة، وإما أن يدخلها، لكنه كما قال ﷺ لعمر الفاروق رضي الله عنه: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، تأخر نزول القرآن خلال فترة الصُلح يدل على أن القرآن لم يكن من إنشاء محمدﷺ، وإنما هو من عند الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، (٢٥٢٩).

تعالى، فثمة حِكَم إلهية كانت من صلح الحديبية، لم يعلمها النبيﷺ، ولا صحبه الكرام رضي الله عنهم، (فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس، ولمّا كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس، كلم بعضهم بعضًا، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمُنازعة، ولم يُكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل مَن كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، يعني من صناديد قريش، ومما ظهر من مصلحة الصُلح المذكور أنه كان مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجًا، وكانت الهُدنة مِفتاحًا لذلك، ولمّا كانت قصة الحديبية مقدمة للفتح سُميت فتحًا، والصُلح كان مُغلقًا حتى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صد المسلمين عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيمًا للمسلمين، وفي الصورة الباطنة عِزًا لهم، فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية، وظهر مَن كان يُخفي إسلامه، فذل المشركون من حيث أرادوا العِزة، وأُقهروا من حيث أرادوا الغلبة)[1].



(١) فتح الباري (٥/ ٣٤٨)، وينظر: النبأ العظيم ص٢٩ـ ٣١.

المبحث السادس

تأخر الوحي في قصة المجادلة

جاءت المُجادِلة للنبي ﷺفقالت: (يا رسول الله، طالت صُحبتي مع زوجي، ونفضت له بطني، وظاهَرَ مِني؛ فقال رسول الله ﷺ: حَرُمْتِ عَلَيْهِ، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي، ثم قالت: يا رسول الله طالت صُحبتي، ونفضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: حَرُمْتِ عَلَيْهِ، فجعل إذا قال لها: حرُمتِ عليه، هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي، قال: فنزل الوحي،... قال: ادْعي زَوْجَكِ، فتَلاها عَلَيْهِ رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١] الآيات)[١].

فمحمد ﷺ يقول للمرأة التي ظاهرها زوجها بأنها حَرُمَت عليه، فتُحاوره مرة بعد أخرى، وفي كل مرة يقول: «حَرُمتِ عليه»، ثم ينزل الوحي بآيات يَتبين فيها حُكم الظِهار، فلو كان القرآن من عند محمدﷺ لبين حُكم الظِهار من أول مرة، ولو كان من عنده لأخفى هذا الحكم كي تتفق إجابته، لكنها الدلالة على أنَّ محمداًﷺ مُبلغ عن ربه، وينقل وحي الله تعالى له، وقد كان حُكم الظِهار معروفًا معلومًا عند العرب، لذا أجاب النبي المرأة بأنها حَرُمَت عليه، وبعد نزول الوحي على النبيﷺ تأتي كفارة الظهار، لِيُعلم أنَّ القرآن من عند الله تعالى، وأحكام وإحكام هذا الدين هو من لدن الله تعالى وحده.

وفي هذه الحادثة دلالة على أن القرآن وحي من عند الله تعالى.

* * * * *

---

(١) جامع البيان: لابن جرير، (٢٣/ ٢٢٠).

مما سبق بيانه في المباحث السابقة يتبين لنا أن لو كان القرآن من قول النبي محمدﷺ لوضح وبين قوله في تلك المواطن المُلحة التي كانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم فيها، إذ الأمر لو كان إليه لوجد له مقالاً ومجالاً، لكنها كانت تمضي الليالي والأيام، ولا يجد في شأنها قرآناً يتلوه على الناس، وحينا يأتي القرآن مُخالفاً لحُكمه الذي قضى به بدءاً، ففي هذا دلالة على أن القرآن لم يكن من عند النبي محمدﷺ البتة[1]، وإنما هو وحي من الله تعالى ينزل في الوقت الذي يريده الله تعالى، ففي الوقت الذي تشتد حاجة النبي محمد ﷺ يتأخر الوحي ولا ينزل، فلم يكن الوحي في يوم من الأيام ينزل بناءً على طلب النبي ﷺ.

*****

---

(١) ينظر: النبأ العظيم ص٢٣ـ ٢٤، وآراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره عرض ونقد ؛ د/ عمر رضوان (١/ ٣٨٨).

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً، فها هي رحلة البحث والتنقيب في مسألة عظيمة يدور عليها مَدار الدين في تجلية أدلة صدق نبوءة النبي محمدﷺ من القرآن الكريم تنتهي من رقمها على هذه صفحات، لتبدأ رحلتها في فكر القارئ، لنساهم معاً في البناء المعرفي لقضايا الدين، فإن ثبوت صدق نبوءة النبي ﷺ بالأدلة والبراهين يعني التسليم التام لكل ما جاء به للعمل به تعبداً لله وحده، فإن الناظر في المُماحكات العقلية في الواقع، والمُشاهد لجدال الفكر العَلموي في الساحة، يدرك مدى أهمية دراسة مسائل النبوءة وضرورتها، لأن التذبذب في قبول أحكام الشريعة، ورد شيء منها بإملاءات العقل، والريب الذي يتلجلج في النفس فيخفت حيناً صوته، ويعلو حيناً قلمه، يوحي بأن ثمة خللاً في الإيمان بالنبوءة، وهذا الخلل لا بد من إصلاحه بدراسة دلائل صدق النبوءة، لترسيخ اليقين، وبيان الحق، وإحقاقه، لتفعيل الدين والشريعة التي بلغها النبي عن رب العالمين.

إنّ الراكض خلف سراب التنوير العقلاني والحداثة والكشف العرفاني لن يروي ظمأ المعرفة، حتى وإن جدَّ سيره وجاء عنده لم يجده شيئاً، ومَن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

لقد أدركت من خلال دراستي هذه ضرورة دراسة مسائل النبوءة وأدلتها، لإقامة دين الله وشرعه الذي ارتضاه الله لنا، فأكمله، وأتم نعمته علينا.

كما أني خلُصت ببعض النتائج، والتي منها:

١. اكتفاء الشريعة الإسلامية وكمالها في المسائل والدلائل، وهو سمة من سمات هذه الأمة التي أنعم الله بها على هذه الأمة.

٢. الإيمان بالنبوءة لا بد أن يُبنى على دلائل يقينية توجب التسليم بكل ما جاء به الرسولﷺ، حتى لا يكون للشك مجالٌ، فيؤمن بالنبيﷺ إيماناً ليس مشروطاً بعدم المُعارض.

٣. المقصود من بيان أدلة صدق نبوءة النبي ﷺ التصديق بمضمون أخباره، فإن مَن لم يُصدق بمضمون أخباره كان بمنزلة مَن آمن بالوسيلة، ولم يحصل له المقصود.

٤. دلائل النبوءة متنوعة ومتعددة فهي من جنس أدلة الربوبية وهذا لأهميتها، وعليه لا يمكن حصر دلالتها في دليل دون غيره، ومنها ما يُستدل به على مُنكري جنس النبوءة، ومنها ما يُستدل به على مُنكري نوع النبوءة.

٥. يتفاوت الناس في التصديق بالآيات المُتنوعة، وما حدث الخلل في منهج الاستدلال على قضية النبوءة إلا من جهة الاستدلال عليها بدليل واحد لا يرى المُستدل به غيره، ويريد أن يحمل الناس كلهم عليه تكلفاً، ويهمل أو يضعف باقي الأدلة، والمنهج الاستدلالي لا يقف عند دليل واحد دون آخر لأنه يبحث عن الحق.

٦. الاكتفاء المنهجي الشرعي بما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة لتجلية مسائل الدين ودلائله، والتي منها دلالة القرآن على نبوءة النبيﷺ، كما أن الاكتفاء المنهجي الشرعي يكون في باب المُصطلحات الشرعية فالآية والبرهان والحُجة والسلطان والصدق واردة في القرآن، بخلاف المُعجزة، والإعجاز والعصمة.

٧. نشأ كثير من المُصطلحات الوافدة والدخيلة إبان حركة الترجمة، والتأثر بفلاسفة اليونان، لذا كان لا بد من ضبطها وفق منهجية شرعية لتأصيل كثير من مسائلها، فهو بابٌ مهمٌ جداً، تغير على إثره كثيرٌ من المفاهيم

الشـرعية، وتُركت لأجله مُصـطلحات شـرعية واردة في الكتاب والسُّـنَّة الصـحيحة، وتسـببت في حدوث خلط كثير من المسـائل والدلائل كمصـطلح (المُعجزة والإعجاز)، فـ (الإعجاز) أعمّ من التحدي، إذ التحدي كان في نظم القرآن وأسـلوبه فقط، وهو باقٍ إلى أن يشـاء الله تعالى.

٨. العلاقة بين مسـألة النبوءة وأدلتها مع مسـائل الدين الأخرى، لا تنفك، وهذه هي القراءة الشـمولية المُتكاملة التي تفتقر إليها الساحة، وكثيراً ما نجدها في قراءة المُخالف، فلا يُمكن أن تكون القراءة العِضـين لمسـائل الدين الإسـلامي وأدلته والتي منها النبوءة والتي تُفقدها شـموليتها، ولا يُمكن أن تكون القراءة المَبتورة للسـياقات والمَقاصـد، والتي تُذهب كمالها، ولا يُمكن أن تكون القراءة المُتجزئة لمجموعها التي تُضـعف قوتها، فتجعلها مهترئة مُتجزرة.

٩. اتصـاف النبيﷺ بالكمال الأخلاقي، لينتفي عنه ضـده، فكون النبي ﷺ يتصف بكمال الصدق ينتفي عنه الكذب ويستحيل عليه.

١٠. معنى أمية النبيﷺ أنه لا يقرأ من كتاب ولا يكتب بيديه، ووجه دلالة أمية النبيﷺ على صدق نبوءته ليست مُستقلة، بل هي مع ما أخبر به من أمور هذا الدين.

١١. إنّ عدم مناقضـة ما جاء به النبيﷺ للعقل والفطرة لا يعني اسـتغناءهما عمّا جاء به، لأن معرفة العقل والفطرة بشـرية محدودة، تدرك الكليات بعمومها، ولا تحيط بالجزئيات، ولا بمقاصد الشريعة التي بينها النبيﷺ.

١٢. الأدلة العقلية برهنت على إمكان النبوءة، وصدق النبيﷺ، وبرهنت على أن العقل وحده لا يكفي لإصلاح جميع شؤون الحياة، بل لا بد للناس من كتاب مُنزل يحكم حياتهم.

١٣. المُكذبون بنبوءة النبيﷺ لا يمتلكون حُجة بينة واضحة، وإنما هي ادعاءات مُجردة من الأدلة والبراهين القطعية لصدّ الناس عن اتباع النبي ﷺ.

١٤. ليس هناك تأثرٌ بَيْن النبوءات السابقة ونبوءة النبي ﷺ، بل هي دلالة على وحدة مصدرها الإلهي، ولا يعني الاتفاق في أصول المسائل التأثر والأخذ ممَن سبق، لانتفاء شرطيّ التأثر، ولأنه يُفضي للتسلسل المُمتنع.

١٥. صححت الدراسة بعض الأخطاء المنهجية التي أحدثت خللاً في قضية الاستدلال على النبوءة، والتي منها الاستدلال بالمُكتشفات الحديثة، فهي تدل على الربوبية من جهة خلق الله لها، وتدل على النبوءة من جهة أن ما جاء به النبيﷺ لا يتعارض مع الحقائق العلمية، وليس لأن النبيﷺ سبق بالإخبار بها، إذ الكتب السابقة أخبرت بحقائق الكون.

١٦. دلالة الإخبار بالمُغيبات دلالة مُشتركة بين الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم.

١٧. دللت الدراسة بأقوال صناديد كفار قريش على أنَّ القرآن ليس هو من جنس كلام الإنس والجن، وجلت المُفارقة بين القرآن وغيره، إلا أنَّ اعترافهم لم ينفعهم، لأنهم لم يُقروا بنبوءة النبيﷺ، كاعترافهم بتوحيد الربوبية مع عدم الاعتراف بتوحيد الإلهية.

١٨. القرآن الكريم من أوله إلى آخره لم يتحدث عن شخص النبيﷺ وحياته، فلم يذكر أبرز حدث في حياة النبي ﷺ وفاة زوجه خديجة رضي الله عنها،

وعمه أبي طالب، بل كانت آيات عِتابه تتجلى للملأ، وتُقرأ في علن ويُخبر بها النبيﷺ لتُدرك أن القرآن لم يكن من لدن محمدﷺ.

١٩. ورد ذكر اسم النبيﷺ في القرآن أربع مرات، وورد ذكر عيسى ست عشرة مرة، وموسى أربعًا وعشرين ومئة مرة، ولو كان القرآن من عند النبيﷺ لأكثر من ذكر اسمه كما هي عادة كثير من المؤلفين.

٢٠. يتبين من أسلوب ونظم القرآن الكريم أن هناك جهة أخرى تخاطب النبيﷺ كما في قوله تعالى: (قل).

٢١. القرآن الكريم كان يَتنزَّل على النبيﷺ وهو لا يعلم وقت نزوله، ففي الأوقات التي تتجلى الحاجة لنزوله يتأخر الوحي، وهذا يُسفر عن حقيقة مُهمة بأنَّ دور النبي محمدﷺ هو التبليغ عن الله تعالى بكل ما يوحيه إليه.

٢٢. دلالة القرآن على صدق نبوءة النبيﷺ اشتملت على الدليل والمدلول، فهي دلالة تضمنية وهي من أقوى الأدلة وأظهرها وأبينها، ولا يعني هذا الاستغناء عن غيرها.

٢٣. مسائل الدين ودلائله خاصة النبوءة تعتمد على الغيب المَبني على البراهين القطعية اليقينية النقلية العقلية، فينبني التسليم عليها، وزحزحة هذا المفهوم تكون بالمفهوم المادي وغيره هو هدم للدين برمته.

٢٤. جلَّت الدراسة أن الشبهات التي أثارها مُنكرو النبوءات قديمًا ما زالت تثار حديثًا، مع تباينٍ في المُنطلقات الفكرية.

٢٥. أسفرت الدراسة عن أنَّ التكذيب لنبوءة النبيﷺ لم يكن لذات النبيﷺ، وإنَّما لِـمَا جاء به من حق مُخالفٍ لكثير من عادات وتقاليد الآباء، إضافة إلى الحسد على المناصب ظنًا منهم أنَّ النبوءة تُكتسب للرياسة كالرفادة والسقاية.

٢٦. الخطاب الليبرالي والعلماني والعقلاني مُضطرب في تقديم حاجات النفس والروح والعقل الفطرية لذا وقع التناقض الصارخ في الأدبيات الغربية.

٢٧. ليس من هدف الدراسة حصر أدلة القرآن، بل الإشارة إلى أهمها، لتحريك العقل في التفكير والتأمل والتدبر، ولن تقف الدلائل عند هذه الصفحات، فقد يفتح الله على غيري بدلائل أخرى.

وما حصرته في هذه النقاط مبسوط في مكانه، ومظانّه من هذه الدراسة.

وأمّا عن أبرز التوصيات التي تفتقت من رحلة هذا البحث، فهي كالآتي:

٢٨. الاهتمام بتأصيل مسائل الدين وأدلتها، فهو بابٌ مهمٌّ للبناء المعرفي وفق تكوين منهجي، واكتفاء شرعي مستمد من مشكاة الوحيين.

٢٩. الاعتناء بكتب السيرة النبوية ودلائل النبوءة وتنقيتها من الروايات الضعيفة ففي الروايات الصحيحة غُنية، لكمال الدين بأدلته الصحيحة.

٣٠. القراءة الشاملة والكاملة لمسائل الدين ودلائله فهي كتلة واحدة لا يمكن أن تدرس بمَعزل عن بقيتها، وهي القراءة الإسلامية الصحيحة، والاستفادة من هذه القراءة لنقد القراءات العضين المُجتزأة.

٣١. يتوجب على الهيئات المَعنية بالإعجاز العلمي أن تضم نخبة من الشرعيين المُتخصصين في العقيدة والكتاب والسنَّة لتصحيح مسار الاستدلال بالمُكتشفات العلمية على مسائل الدين.

٣٢. السعي الجاد بالتوصية لترجمة كثير من البحوث العلمية التي تُعنى بالتأصيل لمسائل العقيدة وأدلتها، خاصة مسألة النبوءة وأدلتها من القرآن

الكريم لتقديمها للغرب، لأنهم بنوا معظم دراساتهم على أصـول مُحرفة، وليتعرف الغرب على النبي ﷺ والقرآن.

٣٣. عقد الدورات التدريبية العلمية وورش العمل حول الأدلة على أصـول الدين، للبرهنة على صدق ويقين المسائل وأدلتها مما لا يحتمل الشك، وفي هذا صـد لتيار الإلحاد الذي يطرق أبواب العقول! وفتح لمجالات الحوار مع الشبيبة وغيرهم ممَن لديهم تساؤلات وجودية كبرى.

إختامًا أهمس: بأنه حريٌّ بكل مَن وقف على هذا البحث أن يُسـدد ما به من خلل، وأن يستر ما فيه من زلل، بنصيحة كاتبته، فلقد علمت الأوائل والأواخر أن النقص من طبيعة البشر، خصوصـًا إذا سُطرت الأسطر من وفاضٍ ليس لديه من العلم إلا القليل، وكتبت صفحات هذا البحث بقلم كليل.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحثة...
syalbadry@gmail.com

ثبت المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: المصادر والمراجع.

١. أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والنبي محمد عليه الصلاة والسلام. دحض أباطيل عابد الجابري وهاشم جعيط حول القرآن ونبي الإسلام: د/ خالد كبير علال. ن: دار المحتسب. ط: ب. ٢٠٠٨م.

٢. الأبطال: لتوماس كارليل. ترجمة: محمد السباعي. ن: مكتبة مصر. ط: ب.

٣. أبكار الأفكار في أصول الدين: سيف الدين الآمدي (ت:٦٣١هـ). تحقيق: أ. د./ أحمد المهدي. ن: دار الكتب. القاهرة. ط: ٢.

٤. الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد: د/ أحمد محمد الفاضل. ن: مركز الناقد الثقافي. ط: ١. ٢٠٠٨م.

٥. اتجاهات التفسير في العصر الراهن: عبد المجيد المحتسب. ن: مكتبة النهضة الإسلامية. عمان. ط: ٣. ١٤٠٢هـ.

٦. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: د/ فهد الرومي. ن: مؤسسة الرسالة. ط: ٢. ١٤١٤هـ.

٧. إتقان البرهان في علوم القرآن: أ. د/ فضل حسن عباس. المجلد الأول. ن: دار الفرقان. الأردن. ط: ١. المجلد الثاني. ن: دار النفائس. الأردن. ط: ٢.

٨. آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية: د/ محمد خليفة حسن. ن: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ط: ١. ١٩٩٧م.

٩. إثبات نبوة محمد ﷺ: لأحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر القرطبي المعروف بابن المزين (ت:٦٥٦هـ). تحقيق: د/ أحمد آيت بلعيد. ن: دار الكتب العلمية. بيروت. ط: ب.

١٠. إثبات نبوة النبي ﷺ: لأحمد بن الحسين بن هارون الهاروني (ت:٤٢١هـ). تحقيق: خليل أحمد الحاج. ن: المكتبة العلمية. ط. ب.

١١. أثر الاتجاه العقدي في التفسير دراسة نظرية تطبيقية على الاتجاه الفلسفي: ياسر المطرفي. بحث ماجستير. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. قسم العقيدة.

١٢. الأجوبة الفاخرة: لأحمد بن إدريس القرافي. ن: دار الكتب العلمية. بيروت. ط: ١. ١٤٠٦هـ.

١٣. الأحاديث القدسية جمعاً ودراسة: عمر محمد. رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية. قسم الحديث.

١٤. أحكام القرآن: لأحمد بن علي الرازي الجصاص أبي بكر (ت:٣٧٠هـ). تحقيق: محمد الصادق قمحاوي. ن: دار إحياء التراث العربي. بيروت ط: ١٤٠٥هـ.

١٥. أحكام القرآن: ل محمد بن إدريس الشافعي (ت:٢٠٤هـ)جمعه أحمد بن الحسين البيهقي (ت:٤٥٨هـ) ن: مكتبة الخانجي. القاهرة. ط: ٢. ١٤١٤هـ.

١٦. الإحكام في أصول الأحكام: لعلي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبي محمد (ت:٤٥٦هـ). ن: دار الحديث. القاهرة. ط: ١. ١٤٠٤هـ.

١٧. اختلاق الميثولوجيا: لمارسيل ديتيان. ترجمة: د/ مصباح الصمد. ن: المنظمة العربية للترجمة. ط: ١. ٢٠٠٨م.

١٨. الأدلة الجلية على صدق خير البرية ﷺ: د/ عبدالمحسن المطيري. ن: سلسلة كتاب البيان. ط: ب.

١٩. الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد. د/ سعود عبدالعزيز العريفي. ن: دار عالم الفوائد. ط: ١. ١٤١٩هـ.

٢٠. أديان العرب ومعتقداتها في طبقات ابن سعد: هالة الناشف. رسالة مقدمة على الدائرة العربية في الجامعة الأمريكية. للحصول على درجة الماجستير. بيروت. ١٩٧٢م.

٢١. آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره دراسة ونقد: د/ عمر إبراهيم رضوان. ن: دار طيبة. الرياض. ط: ب.
٢٢. آراء أهل المدينة الفاضلة. لأبي النصر الفارابي (ت:٣٣٩هـ). ن: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده. ط. ب.
٢٣. الأربعين في أصول الدين. فخر الدين الرازي. تقديم وتعليق: أحمد حجازي السقا. ن: مكتبة الكليات الأزهرية. ط. ب.
٢٤. إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات: لمحمد بن علي الشوكاني. ن: دار الكتب العلمية ـ بيروت ط:١. ١٩٨٤م.
٢٥. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد. لإمام الحرمين الجويني. (ت: ٤٧٨هـ) حققه وعلق عليه وقدم له وفهرسه. د/ محمد يوسف موسى وعلي عبدالمنعم عبدالحميد. ن: مكتبة الخانجي بمصر. ط. ب.
٢٦. أساس البلاغة: لمحمود بن عمر الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود. ن: دار الكتب العلمية. بيروت. ط: ١. ١٤١٩هـ.
٢٧. الاستيعاب في معرفة الأصحاب. لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر القرطبي النمري. ت. ٤٦٣هـ. صححه وخرج أحاديثه. عادل مرشد. ن: دار الإعلام. ط: ١. ١٤٢٣هـ.
٢٨. أسد الغابة في معرفة الصحابة. لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن الأثير. ت. ٦٣٩هـ ن: المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ. ط. ب.
٢٩. الأسس الفلسفية للعلمانية: عادل ظاهر. ن: دار الساقي. بيروت. ط: ١. ١٣٩٣م.
٣٠. الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي: د/ خديجة العزيزي. ن: دار بيسان. بيروت. ط: ١. ٢٠٠٥م.
٣١. الإسلام: هنري ماسيه. ترجمة: بهيج شعبان. ن: عويدات للنشر. ط: ٣.

٣٢. الإسلام بين الرسالة والتاريخ: عبدالمجيد الشرفي. ن: دار الطليعة. بيروت. ط: ١. ٢٠٠١م.

٣٣. الإسلام بين الشرق والغرب: علي عزت بيجوفتش. ترجمة: محمد يوسف عدس. ن: مؤسسة العلم الحديث. بيروت. ط: ١. ١٤١٤هـ.

٣٤. إسلام ضد إسلام: الصادق النيهوم. ن: رياض الريس. لندن بيروت. ط: ١. ١٩٩٥م.

٣٥. الإسلام في الأسر: الصادق النيهوم. ن: رياض الريس. لندن بيروت. ط: ٢. ١٩٩٥م.

٣٦. الإسلام منهج حياة: فيليب حتي. ترجمة: عمر فروخ. دار العلم للملايين. ١٩٧٢م. ط: ب.

٣٧. الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر: لمونتجري وات. ترجمة: عبدالرحمن عبدالله آل الشيخ. ن: الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٨م.

٣٨. أسئلة الشعر في حركة الخلق وكمال الحداثة وموتها: أدونيس. ن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ١٩٧٩م.

٣٩. الإشارات والتنبيهات: لأبي علي بن سينا مع شرح نصير الدين الطوسي. تحقيق: سليمان دنيا. ن: دار المعارف. القاهرة. ط: ٣.

٤٠. أشراط الساعة: د/ يوسف بن عبدالله الوابل. ن: دار ابن الجوزي. ط: ٢.

٤١. الإصابة في تمييز الصحابة: لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني. تحقيق: علي محمد البجاوي. ن: دار الجيل. بيروت. ط: ١٤١٢هـ.

٤٢. أصول الحديث علومه ومصطلحه: د/ محمد عجاج الخطيب. ن: دار المعارف. ط:١٠.

٤٣. أصول الدين. عبد القاهر بن طاهر البغدادي. (ت: ٤٢٩هـ) ن: طبعته ونشرته مدرسة الإلهيات بدار الفنون النوركية. إستانبول. ط: ١. ١٣٤٦هـ.

٤٤. الأصول من الكافي: لمحمد بن يعقوب الكليني. صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري. ن: دار صعب. بيروت. ط: ٤. ١٤٠١هـ.

٤٥. الأضحوية في المعاد: لابن سينا. تحقيق: حسن عاصي. ن: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. بيروت. ط: ٢. ١٤٠٧هـ.

٤٦. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي. ن: عالم الكتب. بيروت. ط. ب.

٤٧. الإعجاز العلمي إلى أين: د/ مساعد الطيار. ط: ١. ١٤٣١هـ.

٤٨. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: د/ عبدالله المصلح ود/ عبدالجواد الصاوي. ن: دار جياد. ط: ١. ١٤٢٩هـ.

٤٩. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه: د/ عبدالله المصلح. ن: دار جياد. ط: ٣. ١٤٣٢هـ.

٥٠. إعجاز القرآن البياني: د/ صلاح الخالدي. ن: دار عمار. الأردن. ط: ٥. ١٤٢٩هـ.

٥١. إعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء دراسة نقدية ومقارنة: محمد بن حسن موسى. ن: دار الأندلس الخضراء. جدة. ط: ١. ١٤١٧هـ.

٥٢. إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة. د/منير سلطان. ن: منشأة المعارف الإسكندرية. ط. ب.

٥٣. إعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن القيم. ت. ٧٥١هـ. راجعه وقدم له وعلق عليه. طه عبدالرؤوف سعد. ن: دار الجيل. ط. ب.

٥٤. أعلام النبوة: لعلي بن محمد الماوردي(ت:٤٥٠هـ). ن: دار الكتب العلمية. لبنان. ط: ١. ١٤٠٦هـ.

٥٥. أعلام النبوة الرد على الملحد أبي زكريا الرازي: لأبي حاتم أحمد بن حمدان الورسناني الرازي (ت:٣٢٢هـ). ن: دار الساقي. المؤسسة العربية للتحديث الفكري. بيروت. لبنان. جنيف. ط: ١. ٢٠٠٣م.

٥٦. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام وإظهار محاسن الإسلام: لمحمد بن أحمد ابن أبي بكر بن فرح القرطبي أبي عبد الله. تحقيق: د. أحمد حجازي السقا. ن: دار التراث العربي. القاهرة. ط: ١٣٩٨هـ.
٥٧. الأعلام قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. خير الدين الزركلي. ن: دار العلم للملايين. ط: ٦. ١٩٨٤م.
٥٨. الأعمال الشعرية: لجبران خليل جبران. جمع: أنطوان القوال. ن: دار الجيل.ط: ١. ١٤١٤هـ.
٥٩. الاقتصاد في الاعتقاد: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي. تقديم: د/ عادل العوا. ن: دار الأمانة. بيروت. ط: ١. ١٣٨٨هـ.
٦٠. الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: لمحمد بن الحسن الطوسي. ن: دار الأضواء. بيروت. ط: ٢. ١٤١٩هـ.
٦١. إكمال المعلم في فوائد صحيح مسلم: للقاضي عياض بن موسى اليحصبي(ت:٥٤٤هـ). تحقيق: يحيى إسماعيل. ن: دار الوفاء. ط: ١. ١٤١٩هـ.
٦٢. الأم: محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله (ت:٢٠٤هـ) ن: دار المعرفة. بيروت. ط: ٢. ١٣٩٣هـ.
٦٣. الإمام الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية: نصر حامد أبو زيد. ن: المركز الثقافي العربي. المغرب. ط: ١. ٢٠٠٧م.
٦٤. الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي. تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل. ن: دار الكتب العلمية. بيروت لبنان. ط: ١٤٢٤, ١ هـ. ٢٠٠٣ م.
٦٥. أمية النبي المصطفى ﷺ: أ.د. خليل إبراهيم ملا خاطر العزامي. ن: دار القبلة للثقافة الإسلامية. جدة. ط: ٢. ١٤٢٦ هـ.

٦٦. الانتصار والرد على ابن الراوندي ما قصد به الكذب على المسلمين والطعن عليهم: لأبي الحسين عبدالرحيم بن محمد الخياط المعتزلي. تحقيق: د/ نيبرج. ن: الدار العربية للكتاب. ط: ٢. ١٤١٣هـ.

٦٧. الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها: د/ سعيد الغامدي. ن: دار الأندلس الخضراء. المملكة العربية السعودية. ط: ٢. ١٤٢٥هـ.

٦٨. الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به. لأبي بكر بن الطيب الباقلاني. ت. ٤٠٣هـ. تحقيق وتعليق وتقديم. محمد زاهد الحسن الكوثري. ن: مؤسسة الخانجي. ط: ٢. ١٣٨٢هـ.

٦٩. أوائل المقالات في المذاهب والمختارات: لمحمد بن النعمان المفيد. صححه عباس قلي. ن: مكتبة حقيقت. إيران. ط: ٢.

٧٠. آيات عتاب المصطفى ﷺ في ضوء العصمة والاجتهاد: د/ عويد بن عياد المطرفي. ن: الفيصلية. مكة المكرمة. ط: ٣. ١٤٢٦هـ.

٧١. الأيديولوجية الصهيونية: د/عبدالوهاب المسيري. ن: عالم المعرفة. سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ١٩٨٧م. إشراف أحمد مشاري العدواني. ١٩٩٠م.

٧٢. أين هو الفكر الإسلامي المعاصر: محمد أركون. ترجمة: هاشم صالح. ن: دار الساقي. بيروت. ط: ٢. ١٩٩٢م.

٧٣. البحر المحيط: لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي. ت. ٧٤٥هـ. دراسة وتحقيق وتعليق. عادل أحمد عبد الموجود. وعلي محمد معوض. شارك في تحقيقه. د/ زكريا عبدالمجيد النوني. ود/ أحمد النجولي الجمل. قرظه. عبدالحي الغرماوي. ن: دار الكتب العلمية. ط١. ١٤١٣هـ.

٧٤. البداية والنهاية: لابن كثير. ت: ٧٥٠ هـ. ن: مكتبة المعارف. بيروت. ط: ٢. ١٤١١هـ.

٧٥. بذل المجهود في إفحام اليهود: السموءل بن يحيى بن عباس المغربي (ت:٥٧٠هـ). تحقيق: عبدالوهاب طويلة. ن: دار القلم. دمشق. ط: ١. ١٤١٠هـ.

٧٦. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني (ت:٦٥١هـ) تحقيق: د/ خديجة الحديثي ود/ أحمد مطلوب. ن: مديرية الأوقاف بالعراق. ط: ب.

٧٧. بسط التجربة النبوية: د/ عبدالكريم شروس. ترجمة: أحمد القبانجي. ن: دار الفكر الجديد. العراق. ط: ب. ٢٠٠٦م.

٧٨. بصائر الدرجات: لأبي جعفر محمد بن الحسن الصفار. ن: مؤسسة العلمي. ط: ١.

٧٩. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ). تحقيق: محمد علي النجار. عبدالعليم طحاوي. ن: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ط: ٣. ١٤١٦هـ.

٨٠. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت: ٨٤٩هـ).تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ن: المكتبة العصرية. لبنان. صيدا. ط: ب.

٨١. البلاغة: لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد(ت:٢٨٥هـ) تحقيق: د/ رمضان عبدالتواب. ن: مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. ط: ٢. ١٤٠٥هـ.

٨٢. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود شكري الألوسي. عني بشرحه وضبطه: محمد بهجة الأثري. ط: ٢.

٨٣. بيان تلبيس الجهمية: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية(٧٢٨هـ). ن: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ط: ١. ١٤٢٦هـ.

٨٤. البيان في إعجاز القرآن: د/ صلاح الخالدي. ن: دار عمار. الأردن. ط: ٥. ١٤٢٩هـ.

٨٥. البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبدالسلام هارون. ن: مكتبة الخانجي. ط: ٧. ١٩٩٨م.

٨٦. بين الأصالة والتغريب في الاتجاهات العلمانية: حسين سعد. ن: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. ط: ١. ١٩٩٣م.

٨٧. تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية: د/ مهدي السامرائي. ن: المكتب الإسلامي. دمشق. ط: ١. ١٣٩٧هـ.

٨٨. تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي. تحقيق مجموعة من المحققين. ن: دار الهداية. ط: ب.

٨٩. تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي: د/ شوقي ضيف. ن: دار المعارف القاهرة. ط: ٢٨.

٩٠. تاريخ الأسطورة: كارين أرمستونغ. ن: الدار العربية. ط:١. ١٤٢٩هـ.

٩١. تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان. ترجمة: نبيه فارس ومنير بعلبكي. ن: دار العلم للملايين. بيروت. ط: ٧. ١٩٧٧م.

٩٢. تاريخ الفكر العربي: محمد أركون. ن: عالم الثقافي العربي. ط: ٣. ١٩٩٨م.

٩٣. تاريخ القرآن: تيدور نولدكه. ترجمة: جورج تامر. ن: دار جورج المز. نيويورك. ط. ب. ٢٠٠٠م.

٩٤. تاريخية الدعوة المحمدية في مكة: هاشم جعيط. ن: دار الطليعة. بيروت. ط: ١. ٢٠٠٧م.

٩٥. تأويل مشكل القرآن. لابن قتيبة. ت٢٧٦هـ. ت: أحمد صقر. ن: المكتبة العلمية. ط. ب.

٩٦. تثبيت دلائل النبوة: للقاضي عبدالجبار بن أحمد الهمذاني (ت: ٤١٥هـ) حققه د/ عبدالكريم عثمان. ن: دار العربية. بيروت. ط: ب.

٩٧. تجديد الفكر الديني في الإسلام: محمد إقبال. ترجمة: عباس محمود. ن: دار الهداية. ط: ٢. ١٤٢١هـ.

٩٨. التحدي بالقرآن: د/ محسن سميح الخالدي. رئيس قسم أصول الدين. جامعة النجاح. نابلس. بحث منشور بالنت. library.com/arabic-http://www.muslim

٩٩. التحديات العقدية المعاصرة في مقام النبوة: عبد الوهاب أحمد حسن. رسالة ماجستير كلية الإمام الأعظم بغداد. إشراف: أ. د: عابد توفيق الهاشمي. ١٤٣٢هـ.

١٠٠. تحديث العقل الإسلامي: محمد سعيد العشماوي. بحث مقدم إلى الندوة العلمية حول التراث وآفاق التقدم في المجتمع العربي المعاصر في عدن. ٣.٨ ١٩٩٢م.

١٠١. تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد: إبراهيم محمد البيجوري. ن: دار الكتب العلمية. بيروت. ط: ١. ١٤٢٢هـ.

١٠٢. تحقيق المذهب: لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي. ت: أبي عبدالرحمن الظاهري. ن: عالم الكتب. الرياض. ط: ١. ١٤٠٣هـ.

١٠٣. تربية الجنس البشري: لسنج. ترجمة: د/ حسن حنفي. ن: مكتبة السائح. طرابلس. ط: ٢. ٢٠٠٦م.

١٠٤. تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي: د/ يوسف احنانة. ن: مطبعة اليديني. الرباط. ط: ب. ٢٠٠٣م.

١٠٥. التعريف بالقرآن والحديث: محمد الزفزاف. ن: مكتبة الفلاح. ط: ب. ١٩٧٨م.

١٠٦. التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني. تحقيق: إبراهيم الأبياري. ن: دار الكتاب العربي. بيروت. ط: ١. ١٤٠٥هـ.

١٠٧. تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل: لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي. ت. ٥١٦هـ. حققه وخرج أحاديثه. محمد عبدالله النمر. وعثمان جمعة ضميرية. وسليمان الحرش. ن: دار طيبة. ط: ١. ١٤٠٩هـ.

١٠٨. تفسير التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن عاشور. ن: الدار التونسية للنشر. تونس. ط. ١٩٨٤م.

١٠٩. تفسير القرآن: لأبي المظفر منصور بن محمد التميمي السمعاني (ت: ٤٨٩هـ). ت: ياسر إبراهيم وبلال غنيم. ن: دار الوطن. ط:١. ١٤١٨هـ.

١١٠. تفسير القرآن العظيم: لابن كثير. ت: سامي السلامة. ن: دار طيبة للنشر والتوزيع. ط: ٢. ١٤٢٠هـ.

١١١. تفسير القرآن الكريم: لابن عثيمين. ن: دار ابن الجوزي. ط: ١. ١٤٢٣هـ.

١١٢. التفسير الكبير=مفاتيح الغيب: لفخر الدين الرازي. ت. ٦٠٦هـ. ن: دار الكتب العلمية. بيروت. ط: ١. ١٤٢١هـ. توزيع. عباس أحمد الباز..

١١٣. التفسير الماركسي للإسلام: محمد عمارة. ن: دار الشروق. ط: ٢. ١٤٢٢هـ.

١١٤. تفسير المنار: محمد رشيد بن علي رضا. ن: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٠م.

١١٥. تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم: لأبي عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي. ت: ٤٨٨هـ. دراسة وتحقيق: د/ زبيدة محمد سعيد عبدالعزيز. ن: مكتبة السنة. ط: ١. ١٤١٥هـ.

١١٦. التفكير الفلسفي الإسلامي: د. سليمان دنيا. ن: مكتبة الخانجي. ط: ١. ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

١١٧. تلبيس إبليس: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ). ن: دار الفكر. بيروت. لبنان. ط: ١. ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١١٨. تهافت التهافت: لابن رشد. ن: إصدار مركز دراسات الوحدة العربية بإشراف د. محمد عابد الجابري. ط: ١٩٩٨, ١م.

١١٩. تهافت الفلاسفة: لأبي حامد الغزالي: تحقيق: د. سليمان دنيا. ن: دار المعارف. مصر. ط: ٧.

١٢٠. تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد الأزهري (ت: ٣٧٠هـ) تحقيق: رياض قاسم. ن: دار المعرفة. بيروت. ط: ١. ١٤٢٢هـ.

١٢١. التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم عرض ونقد: منى شافعي. ن: دار اليسر. القاهرة. ط: ١. ١٤٢٧هـ.
١٢٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. ن: مؤسسة الرسالة. ط: ١. ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.
١٢٣. تيسير مصطلح الحديث: د/ محمود الطحان. ن: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. ط: ب.
١٢٤. الثابت والمتحول بحث في الإبداع والإتباع عند العرب: لأدونيس. ن: دار الساقي. بيروت. ط: ٨. ٢٠٠٢م.
١٢٥. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني والخطابي والجرجاني. ت: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام. ن: دار المعارف. ط: ٤.
١٢٦. جامع الأصول في أحاديث الرسول: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ). تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط. ن: مكتبة الحلواني. مطبعة الملاح. مكتبة دار البيان. ط:١.
١٢٧. جامع البيان في تفسير القرآن بالقرآن: لابن جرير الطبري. ت: د/عبدالمحسن التركي. ط. دار هجر.
١٢٨. جامع الرسائل: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ). تحقيق د. محمد رشاد سالم. ن: دار العطاء ـ الرياض. ط: الأولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
١٢٩. الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١ هـ). تحقيق: هشام سمير البخاري. ن: دار عالم الكتب، الرياض. ط: ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٣م.
١٣٠. جدلية القرآن: د/ خليل أحمد. ن: دار الطليعة. بيروت. ط: ١. ١٩٧١م.
١٣١. جريدة الاتحاد الإماراتية ٢/ ٦/ ٢٠٠٦م - ٩/ ٤/ ٢٠٠٦م.

١٣٢.جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام: لابن قيم الجوزية. ت: ٧٥١هـ. خرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط. ن: مكتبة المؤيد. الرياض. مكتبة دار البيان. دمشق. ط: ٢. ١٤١٣هـ.

١٣٣.جمهرة اللغة: لابن دريد: محمد بن الحسن بن دريد أبو بكر. تحقيق: رمزي منير بعلبكي. ن: دار العلم للملايين. ط: ١. ١٩٨٧م.

١٣٤.الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: لابن تيمية. ت: ٧٢٨هـ. تحقيق وتعليق: د/علي الألمعي. ود/عبدالعزيز العسكر ود/أحمد الحمدان. ن: دار الفضيلة. الرياض. ط: ١. ١٤٢٤هـ.

١٣٥.الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح: لنعمان محمد لألولسي. تحقيق: د/ أحمد السقا. ن: دار البيان العربي. القاهرة. ط: ١. ١٤٠٨هـ.

١٣٦.الجواب الكافي: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. ن: دار المعرفة. ط: ب.١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

١٣٧.حجة القراءات: عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة. تحقيق: سعيد الأفغاني. ن: مؤسسة الرسالة. بيروت. ط: ١٤٠٢ , ٢ هـ.

١٣٨.الحجة في القراءات السبع: للحسين بن أحمد بن خالويه أبي عبد الله. تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم. ن: دار الشروق. بيروت. ط: ١٤٠١ , ٤هـ.

١٣٩.الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة: أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني (ت: ٥٣٥هـ) تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي ومحمد بن محمود أبي رحيم. ن: دار الراية. ١٤١٩هـ. ١٩٩٩م.

١٤٠.الحد الأرسطي أصوله الفلسفية وآثاره العلمية: سلطان العميري. ن: دار الميمان. الرياض. ط: ١. ١٤٣٢هـ.

١٤١.الحداثة في العالم العربي دراسة عقدية: د. محمد العلي. رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه. جامعة الإمام محمد بن سعود. كلية أصول الدين. الرياض. قسم العقيدة.

١٤٢.الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم دراسة نقدية: د/ الجيلاني مفتاح. ن: دار النهضة. سوريا. ط: ١. ١٤٢٤هـ.
١٤٣.الحدود في الأصول: أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني. قرأه وقدم له وعلق عليه: محمد السليماني. ن: دار الغرب الإسلامي. ط: ١. ١٩٩٩م.
١٤٤.الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية: سيد محمود القمني. ن: مكتبة مدبولي. القاهرة. ط: ٤. ١٤١٦هـ.
١٤٥.حصاد العقل: محمد سعيد عشماوي. ن: دار سينا. القاهرة. ط: ٢. ١٩٩٢م.
١٤٦.الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادئها: لأبي يعلى المودودي. ترجمة: محمد عاصم الحداد. ن: الدار العربية. بيروت. ط: ب.
١٤٧.حضارة الغرب: غوستاف لوبون. ترجمة: عادل زعيتر. ن: مؤسسة هنداوي. ط: ب.
١٤٨.حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة: د/ محمد خليفة التميمي. ن: أضواء السلف. ط: ١. ١٤١٨هـ.
١٤٩.حقيقة المعجزة وشروطها عند الأشاعرة دراسة نقدية: د/ عبدالله القرني. بحث منشور في النت.
١٥٠.الحقيقة والأسطورة في التوراة: زينون كوسيد وفسكي. ترجمة: محمد مخلوف. ن: دمشق. الأهالي - ط: ١. ١٩٩٦.
١٥١.حوار المشرق والمغرب نحو إعادة بناء الفكر القومي العربي: حسن حنفي ومحمد عابد الجابري. ن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط: ١. ١٩٩٠م.
١٥٢.حياة محمد: لإيميل درمنغم. ترجمة: عادل زعيتر. ن: دار العالم العربي. ط: ١. ٢٠١٣م.
١٥٣.حياة محمدﷺ: محمد هيكل. ن: د ار المعارف.القاهرة.ط:١٤.
١٥٤.الحيوان: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ن: دار الجيل.١٤١٦هـ.

١٥٥.الخرافات والأساطير مفهومها التراثي والغربي وموقف الإسلام منها: د/ سعود العريفي. بحث منشور في مجلة التأصيل للدراسات الفكرية المعاصرة. ع٣. ١٤٣٢هـ.

١٥٦. خرافية أمية سيد ولد عدنان: محمد وجدي.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٧٣٩٣٩

١٥٧.الخلل المنهجي في دليل الحدوث: سلطان العميري. بحث منشور في مجلة التأصيل. ع١. ١٤٣١هـ.

١٥٨.الداعي إلى الإسلام: لعبدالرحمن بن محمد الأنباري النحوي (ت:٥٧٧هـ). تحقيق: سيد حسين باغجوان. ن: دار البشائر الإسلامية. بيروت. ط: ١. ١٤٠٩هـ.

١٥٩.دائرة المعارف الإسلامية. أصدرها بالعربية: أحمد الشنتناوي. إبراهيم زكي خورشيد. عبدالحميد يونس. ن: دار الفكر. القاهرة. ١٩٣٣م.

١٦٠.الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. ت: ٧٥٦هـ. تحقيق: د/ أحمد محمد الخراط. ن: دار القلم. دمشق. بيروت. ط: ١. ١٤١٤هـ.

١٦١.دراسات إسلامية: حسن حنفي. ن: دار التنوير. بيروت. ط: ١. ١٩٨٢م.

١٦٢.دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي: ترجمها عن الألمانية والإنجليزية والفرنسية د/ عبدالرحمن بدوي. ن: دار العلم للملايين. ط: ٢. ١٩٨٦ م.

١٦٣.الدفاع عن القرآن ضد منتقديه: د/ عبدالرحمن بدوي. ترجمة: كمال جادالله. ن: الدار العالمية للنشر. ط. ب.

١٦٤.دفاع محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره د/ عبدالرحمن بدوي. ترجمة: كمال جادالله. ن: الدار العالمية للنشر. ط. ب.

١٦٥.دلالة القرآن الكريم على أن النبيﷺ أفضل العالمين: عبدالله الغماري. ط: ١. ١٤١٨هـ.

١٦٦. دلائل الإعجاز: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي أبو بكر. تحقيق: محمود محمد شاكر أبي فهر. ن: مكتبة الخانجي ـ مطبعة المدني. ط: ب.

١٦٧. دلائل الحائرين: لموسى بن ميمون القرطبي الأندلسي (ت: ٦٠٣هـ). تحقيق: د/ حسين آتاي. ن: مكتبة الثقافة الدينية. ط: ب.

١٦٨. دلائل النبوة: لأبي الحسن عبيد الله بن محمد بن أحمد (ت: ٤٥٨هـ). تحقيق: وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: د/ عبد المعطي قلعجي. ن: دار الكتب العلمية ـ ودار الريان للتراث. ط: ١. ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٦٩. الدين: د/ محمد دراز. ن: دار القلم. الكويت. ط: ب. ١٤٠٠هـ.

١٧٠. الدين والثورة في مصر من عام ١٩٥٢ إلى ١٩٨١م: حسن حنفي. ن: مكتبة مدبولي. القاهرة. ط: ب.

١٧١. الدين والدولة في إثبات نبوة النبي ﷺ: علي بن ربن الطبري. حققه وقدم له: عادل نويهض. ن: دار الآفاق. ط: ب.

١٧٢. الدين والعلم في الفكر العربي الحديث: د/ عزمي زكريا. ن: المكتبة المصرية. ط: ب.

١٧٣. ديوان أمية بن الصلت. جمعه وحققه: د/ سجيع الجبيلي. ن: دار صادر. ط: ١. ١٩٩٨م.

١٧٤. ديوان لَبِيد بن ربيعة بن مالك، أبي عقيل العامري الشاعر معدود من الصحابة (ت: ٤١هـ). اعتنى به: حمدو طمّاس. ن: دار المعرفة. ط: ١٤٢٥, ١ هـ ـ ٢٠٠٤ م.

١٧٥. رب الزمان: سيد محمود القمني. ن: دار قباء. القاهرة. ط: ٢. ١٩٩٨م.

١٧٦. الرد الشافي الوافر على من نفى أمية سيد الأوائل والأواخر: أحمد بن حجر آلبوطامي البنعلي. ط: ٣. ١٤١٠هـ.

١٧٧. الرد على المنطقيين: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية. تقديم وضبط: د/ رفيق العجم. ن: دار الفكر اللبناني. ط: ١. ١٣٩٣م.

١٧٨ .الرسالة: محمد بن إدريس الشافعي. دراسة وتحقيق: أحمد شاكر. ن: مكتبة الحلبي، مصر. ط: ١ . ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م.
١٧٩ .الرسالة الشافية: لأبي بكر عبدالقادر الجرجاني. ضمن ذخائر العرب. ثلاث رسائل في الإعجاز. تحقيق: محمد خلف الله. د/ محمد زغلول. ن: دار المعارف. ط: ٤.
١٨٠ .الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة: محمد بن جعفر الكتاني. تحقيق: محمد المنتصر محمد الزمزمي الكتاني. ن: دار البشائر الإسلامية ـ بيروت. ط: ٤. ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م.
١٨١ .رسالة في اللاهوت والسياسة: سبينوزا. ترجمة وتقديم د / حسن حنفي. مراجعة: فؤاد زكريا. ن: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر د. ط: ب.
١٨٢ .رسائل فلسفية: لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي. ن: دار الآفاق. بيروت. ط: ٥. ١٤٠٢هـ.
١٨٣ .الرسل والرسالات: عمر الأشقر.
١٨٤ .الروض الأنف في شرح غريب السير: عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت: ٥٨١هـ). ط: ب.
١٨٥ .زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ). ط: ب.
١٨٦ .زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن قيم الجوزية. حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط. ن: مؤسسة الرسالة. ط: ٢٨. ١٤١٥هـ.
١٨٧ .الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي: محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي أبو منصور. ن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩. تحقيق: د. محمد جبر الألفي.
١٨٨ .الزنادقة عقائدهم وفرقهم وموقف أئمة المسلمين منهم: د/ سعد بن فلاح العريفي. ن: دار التوحيد. ط: ١ . ١٤٣٤هـ.

١٨٩. السببية عند الأشاعرة دراسة نقدية: جمعان بن محمد الشهري. ن: دار طيبة الخضراء. ط: ١. ١٤٣٢هـ.

١٩٠. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. لمحمد ناصر الدين الألباني. ن: المكتبة الإسلامية. عمان. الدار السلفية. الكويت. ط: ١. ١٤٠٣هـ. ط: ٢. ١٤٠٤هـ.

١٩١. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة: لمحمد ناصر الدين الألباني. ن: مكتبة المعارف. الرياض. ط: ١. ١٤٠٨هـ.

١٩٢. السياسة المدنية: للفارابي. mos tafa.com-www.al

١٩٣. سير أعلام النبلاء: للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي. ت: ٧٤٨هـ. ن: مؤسسة الرسالة. ط: ٧. ١٤١٠هـ.

١٩٤. السيرة النبوية: لابن هشام. حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي. ن: دار القبلة للثقافة الإسلامية. مؤسسة علوم القرآن. جدة. ط: ٢.

١٩٥. السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة: محمد فريد وجدي. جمعها وقدم لها: د/ محمد رجب بيومي. ن: الدار المصرية اللبنانية. القاهرة. ط: ١. ١٤١٣هـ.

١٩٦. سيمائية القرآن بين الحجاج والإعجاز وحدة تحليل الخطاب: أ. د/ محمود المصفار. ن: شركة المنى. صفاقس. ط: ب.

١٩٧. الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم اهميته وأثره ومناهج المفسرين في الاستشهاد به: د/ عبدالرحمن بن معايضة الشهري. ن: دار المنهاج. الرياض. ط: ١. ١٤٣١هـ.

١٩٨. شبهات وهمية حول الكتاب المقدس: د/ منيس عبدالنور. ن: كنيسة قصر الدوبارة. ط: ٣. ١٩٩٨م.

١٩٩. شرح الأصول الخمسة: للقاضي عبد الجبار بن أحمد (ت: ٤١٥هـ). تعليق: أحمد الهاشم. حققه وقدم له: د/ عبدالكريم عثمان. ن: مكتبة وهبة. ط: ٣. ١٤١٦هـ.

٢٠٠.شرح العقيدة الطحاوية: لعلي بن علي بن محمد بن أبي العز(ت:٧٩٢هـ). تحقيق: د/ عبدالمحسن التركي. شعيب الأرنؤوط. ن: مؤسسة الرسالة. ط: ٢. ١٤٢١هـ.
٢٠١.شرح المقاصد لمسعود بن عمر التفتازاني (ت:٧٩٣هـ). تحقيق: د/ عبدالرحمن عميرة. ن: عالم الكتب. ط: ٢. ١٤١٩هـ.
٢٠٢.شرح جوهرة التوحيد: لإبراهيم الباجوري. نسقه وخرج أحاديثه: محمد أديب الكيلاني. وعبدالكريم تتان. راجعه وقدم له: عبدالكريم الرفاعي. ط: ب.
٢٠٣.شرح سنن أبي داود: عبدالمحسن العباد. ط: ب.
٢٠٤.الشعر الإسلامي في صدر الإسلام: د/ عبدالله الحامد. ط: ٢. ١٤٠٢هـ.
٢٠٥.الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض اليحصبي (ت:٥٤٤هـ) تحقيق: علي محمد البيجاوي. ن: دار الكتاب العربي. بيروت. ١٤١٤هـ.
٢٠٦.الشفاء (الإلهيات): لابن سينا. تحقيق: د/ محمود قاسم. ط: ب. وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
٢٠٧.الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. ن: دار العلم للملايين. بيروت. ط: ٢. ١٣٩٩هـ.
٢٠٨.صحيح البخاري: للحافظ أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري. ت: ٢٥٦هـ. اعتنى به: أبو صهيب الكرمي. ن: بيت الأفكار الدولية. ط: ب. ١٤١٩هـ.
٢٠٩.صحيح السيرة النبوية: محمد ناصر الدين الألباني. ن: المكتبة الإسلامية. عمان. الأردن. ط: ١.
٢١٠.صحيح مسلم: للحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. ت: ٢٦١هـ. اعتنى به: أبو صهيب الكرمي. ن: بيت الأفكار. ط: ب. ١٤١٩هـ.
٢١١.الصرفة ودلالتها لدى القائلين بها ورد الطاعنين لها: د/ سامي عطا حسن. جامعة آل البيت.

٢١٢. الصفدية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس. تحقيق: د. محمد رشاد سالم. ن: دار الفضيلة. ط: ٢. ١٤٠٦هـ.

٢١٣. الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري.

٢١٤. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لابن القيم. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه وقدم له: د/علي بن محمد الدخيل الله. ن: دار العاصمة. الرياض. ط: ٣. ١٤١٨هـ.

٢١٥. صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام: لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي. تعليق: د/ علي سامي النشار. ن: مكتبة عباس الباز. ط. ب.

٢١٦. الضعفاء الكبير: لأبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي المكي. حققه ووثقه: عبدالمعطي أمين قلعجي. ن: دار الباز. ط: ١.

٢١٧. ضوابط الاستشهاد بالعلم التجريبي في تأييد الوحي دراسة تأصيلية تطبيقية: ماجدة العنزي. بحث تكميلي مقدم لقسم الثقافة مسار العقيدة. جامعة حائل.

٢١٨. الضياء اللامع من الأحاديث القدسية الجوامع: صالح الفوزان. ن: مكتبة ابن خزيمة. ط: ٣. ١٤١٢هـ.

٢١٩. الطبقات الكبرى: لابن سعد. ن: دار بيروت. دار صادر. ط: ب. ١٣٧٧هـ.

٢٢٠. طبقات المعتزلة: للقاضي عبد الجبار. تحقيق: فؤاد سيد. ط: ب.

٢٢١. طبقات فحول الشعراء: لمحمد بن سلام الجمحي. ت: ٢٣١هـ. تحقيق: محمود محمد شاكر. ن: مطبعة المدني. القاهرة. ط: ب.

٢٢٢. الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية: ساسي سالم الحاج. ن: مركز دراسات العالم الإسلامي. ط:٢.

٢٢٣. الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي. ترجمة: عبد الصبور شاهين. تقديم: محمد دراز. محمود شاكر. ن: دار الفكر. دمشق. ط: ٤. ١٤٢٠هـ.

٢٢٤. ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر دراسة نقدية: د/ خالد السيف. ن: مركز التأصيل. ط: ١. ١٤٣١هـ.

٢٢٥. العالم بين الفلسفة والعلم: جاسم العلوي. ن: المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط: ١. ٢٠٠٥م.

٢٢٦. عتاب الرسول ﷺ في القرآن تحليل وتوجيه: د/ صلاح الخالدي. ن: دار القلم دمشق. ط: ب.

٢٢٧. العرف وأثره في الأحكام: لمحمد جميل علي. ن: دار آفاق للتقنيات الحديثة. ط: ب. ٢٠٠١م.

٢٢٨. عصمة الأنبياء: لفخر الدين الرازي. تقديم ومراجعة: محمد حجازي. ن: دار الثقافة الدينية.

٢٢٩. عقائد الإمامية: لمحمد رضا المظفر. عني بتحقيقه والتعليق عليه: محمد بن جواد الطريحي. ن: مؤسسة الإمام علي. قم. ط: ١. ١٤١٧هـ.

٢٣٠. العقيدة البرهانية لأبي عمرو عثمان السلالجي. تحقيق: نزار حمادي. ن: مؤسسة المعارف للنشر. ط: ١.

٢٣١. عقيدة العادة عند الأشاعرة: د/ جابر السميري. بحث منشور.

٢٣٢. عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية: د/ أحمد سعد الحمدان. ن: دار طيبة. ط: ١. ١٤٠٥هـ.

٢٣٣. علل الشرائع: للصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، ص٢٢٦، ت: ٣٨١ هـ.

٢٣٤. العلم الشامخ في تفضيل الحق على الاباء والمشايخ ويليه: الأرواح النوافخ: صالح ابن مهدي المقبلي اليمني. ن: مصر. ط: ١. ١٣٢٨هـ.

٢٣٥. العلم والدين والفلسفة: إميل بوترو. ترجمة: د/ أحمد الأهوازي. ن: دار الهيئة المصرية العامة. ط: ب.

٢٣٦. العلمانيون العرب وموقفهم من الإسلام: مصطفى باحو. مذكرة مصورة.

٢٣٧. العلمانيون والقرآن الكريم تاريخية النص: د/ أحمد الطعان. ن: دار ابن حزم. المملكة العربية السعودية. ط: ١. ١٤٢٨هـ.

٢٣٨. العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها: لمحمد بن أحمد الذهبي (ت: ٧٤٨هـ). ن: مكتبة أضواء السلف. ط: ١. ١٤١٦هـ.

٢٣٩. على هامش السيرة النبوية: طه حسين. ن: دار المعارف. ط: ب.

٢٤٠. العين: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي. ن: دار ومكتبة الهلال. ط: ب.

٢٤١. الغارة التنصيرية على أصالة القرآن: عبد الراضي عبد المحسن. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه. ١٤٢١هـ.

٢٤٢. غاية المرام في شروط المأموم والإمام: رملي محمد رملي ت: عبدالمحسن بن عبدالملك بن دهيش. ن: مكتبة الأسدي. ط: ب. ٢٠٠٤م.

٢٤٣. غاية المرام في علم الكلام: لسيف الدين الآمدي. ت: ٦٣١هـ. تحقيق: حسن محمود عبداللطيف. ن: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. القاهرة. ط: ب. ١٣٩١هـ.

٢٤٤. غزو من الداخل: قراءة في الفكر الديني المستنير: جمال سلطان. ن: الزهراء للإعلام العربي قسم النشر. ط: ب. ١٩٨٨م.

٢٤٥. الفائق في غريب الحديث: لمحمود بن عمر الزمخشري. ضبطه وصححه وعلق حواشيه: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ط: ١. ١٣٦٧هـ.

٢٤٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني. طبعة جديدة ومنقحة ومصححة عن الطبعة التي حقق أصلها ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبدالباقي. لفضيلة الشيخ: عبدالعزيز بن باز. ن: دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط: ٢. ١٤١٨هـ.

٢٤٧.فتح الباري شرح صحيح البخاري: لعبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي بن رجب. تحقيق: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد. ن: دار ابن الجوزي. الدمام. ط:٢. ١٤٢٢هـ.

٢٤٨.الفتوحات: محيي الدين ابن عربي. تحقيق: د/ عثمان يحيى. ن: الهيئة المصرية العامة. ط: ب. ١٣٩٢هـ.

٢٤٩.الفرق بين الفرق: لعبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت:٤٢٩هـ). تحقيق: محيي الدين عبدالحميد. ن: دار المعرفة. ط: ب.

٢٥٠.الفرقان الحق. ط: ١. ن: WINE PRESS.OMEGA

٢٥١.الفروق اللغوية: للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري. ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي. ن: دار الكتب العلمية. بيروت. ط: ب.

٢٥٢.فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال: لأبي الوليد ابن رشد. ت: محمد عمارة. ن: دار المعارف. ط: ٣.

٢٥٣.الفصل في الملل والأهواء والنحل: لأحمد بن علي بن حزم (ت:٤٥٦هـ). تحقيق: محمد إبراهيم نصر ود/ عبدالرحمن عميرة. ن: مكتبات عكاظ. ط: ١. ١٤٠٢هـ.

٢٥٤.فصوص الحكم: لابن عربي. تعليق سماحة آية الله العظمى الإمام الخميني. ن: دار المحجة البيضاء. ودار الرسول الأكرم. بيروت. ط: ١. ١٤٢٢هـ.

٢٥٥.الفكر الإسلامي قراءة علمية: محمد أركون. ترجمة: هاشم صالح. مركز الإنماء القومي. بيروت. ط: ٢. ١٩٦٦م.

٢٥٦.الفكر الإسلامي نقد واجتهاد: محمد أركون. ترجمة: هاشم صالح. ن: المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.

٢٥٧.الفكر العربي في عصر النهضة: ألبرت حوراني. ترجمة: كريم عزقول. ن: دار النهار. بيروت. ط: ٣. ١٩٧٧م.

٢٥٨. الفكر العربي والفكر الاستشراقي بين إدوارد سعيد ومحمد أركون: نعمان السامرائي. ن: دار صبري. الرياض. ١٤٠٩هـ.

٢٥٩. فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي

٢٦٠. فلسفة العلم في القرن العشرين: د/ يمنى الخولي. سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. إشراف: د/ أحمد العدواني. ١٩٢٣ـ ١٩٩٠م.

٢٦١. فلسفة المشروع الحضاري: أحمد جاد عبدالرزاق.

٢٦٢. الفلسفة النسوية: إشراف وتحرير د/علي عبود المحمداوي. ن: ضفاف. ط: ١. ١٤٣٤هـ.

٢٦٣. فلسفة النشوء والارتقاء: شبلي شميل. ن: مطبعة المقتطف. القاهرة. ط: ٢. ١٩١٠م.

٢٦٤. الفن القصصي في القرآن الكريم: محمد أحمد خلف الله. ن: دار سينا. القاهرة. ط: ٤. ١٩٩٩م.

٢٦٥. الفوائد المشوق لعلم القرآن: لابن القيم.

٢٦٦. في الشعر الجاهلي: طه حسين. ن: دار المعارف. تونس. ط: ب.

٢٦٧. الفيزياء ووجود الخالق: د/ جعفر إدريس شيخ. من سلسلة مجلة البيان. ط: ١. ١٤٢٢هـ.

٢٦٨. قاموس الكتاب المقدس. مجموعة من أساتذة النصارى. ن: دار الثقافة المسيحية. ط: ٢.

٢٦٩. القاموس المحيط: للفيروز آبادي. ن: دار المأمون. ط.١٣٥٧هـ.

٢٧٠. قراءات نقدية في الفكر العربي المعاصر: علي حب الله. ن: دار المحجة البيضاء. لبنان. ط: ١. ١٤١٩هـ.

٢٧١. القرآن الكريم ومنزلته بين السلف ومخالفيهم دراسة عقدية: محمد هشام طاهري. ن: دار التوحيد. ط: ١. ١٤٢٦هـ.

٢٧٢. القرآن بين التفسير والتأويل المنطق العقلي: أنور خلوف. ن: دار حوران. ط: ١.

٢٧٣. القرآن في الشعر الجاهلي: ناهد محمود متولي.
http://nahedmetwaly.com/books/books.htm

٢٧٤. القرآن والحديث مقارنة أسلوبية د/ إبراهيم عوض. ن: مكتبة زهراء الشرق. ط: ب. ١٤٢١هـ.

٢٧٥. القرآن والطب: أحمد محمد سليمان.

٢٧٦. قصة الحضارة: ول ديوارنت. ترجمة: زكي نجيب محفوظ. ن: دار الجيل. بيروت.

٢٧٧. قضايا في نقد العقل الديني: محمد أركون. ن: دار الطليعة. ط: ١. ١٩٩٨م.

٢٧٨. قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى: د/ عبدالوهاب المسيري. ن: نهضة مصر للطباعة. ١٩٩٩م.

٢٧٩. قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث: محمد جمال الدين القاسمي. تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى. ن: مؤسسة الرسالة. ط: ١. ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٨٠. القول بالصرفة في إعجاز القرآن عرض ونقد: عبدالرحمن الشهري. ن: دار ابن الجوزي. ط: ٢. ١٤٣٢هـ.

٢٨١. الكافية في الجدل: الجويني. تحقيق: فوقية حسين محمود. ن: مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة. ط: ب.١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢٨٢. الكامل في التأريخ: لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن الأثير المعروف بابن الأثير. ت: ٦٣٠هـ. تحقيق الشيخ: خليل مأمون شيحا. ن: دار المعرفة. بيروت. ط: ١. ١٤٢٢هـ.

٢٨٣. كبرى اليقينيات الكونية: محمد سعيد البوطي. دار الفكر. ط: ٨.

٢٨٤. كتّاب النبي صلى الله عليه وسلم: د. محمد مصطفى الأعظمي. ن: المكتب الإسلامي، ط: ٢، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٢٨٥. الكتاب والقرآن قراءة معاصرة: د/ محمد شحرور. ن: دار الأهالي دمشق. ط: ب.

٢٨٦. كتب الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم دراسة عقدية نقدية: د/ أحمد عاكش. رسالة دكتوراه جامعة الإمام محمد بن سعود. الرياض. قسم العقيدة.

٢٨٧. كشاف اصطلاحات الفنون: محمد علي التهانوي. ن: دار صادر. بيروت.

٢٨٨. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري. وبذيله الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف: لابن حجر. ن: دار المعرفة. ط: ب.

٢٨٩. كشف المشكل من حديث الصحيحين: لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي. تحقيق: علي حسين البواب. ن: دار الوطن الرياض. ط: ب.١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٢٩٠. الكشف عن مناهج الأدلة: لابن رشد. تحقيق: د/ محمود قاسم. ن: دار الأنجلو. ط: ٢. ١٩٦٤م.

٢٩١. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي. ت: ١٠٩٤هـ. قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه د/ عدنان درويش ود/ محمد المصري. ن: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. ط: ب. ١٩٧٦م.

٢٩٢. لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن. تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين. ن: دار الكتب العلمية - بيروت. ط: ب. ١٤١٥هـ.

٢٩٣. لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول: لأبي الحجاج يوسف بن محمد المكلاتي (ت:٦٢٦هـ). تحقيق: د/ فوقية حسين. ن: دار الأنصار. القاهرة. ط: ١. ١٩٧٧م.

٢٩٤. لسان العرب: لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور. ن: المكتبة التجارية. مصطفى أحمد الباز. دار صادر. بيروت. ط: ب.

٢٩٥. لعبة المعنى في فصول نقد الإنسان: علي حرب. ن: المركز الثقافي الوطني. ط: ١.

٢٩٦.لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة: لعبدالملك الجوينير (ت: ٤٧٨هـ). تحقيق: فوقية حسين. ن: عالم الكتب. بيروت. ط: ٢. ١٤٠٧هـ.

٢٩٧.ماذا تريد العلمانية: مصطفى باحو. ضمن سلسلة بحوث في العلمانية. مصور.

٢٩٨.مآلات القول بخلق القرآن: د/ ناصر الحنيني. بحث منشور في مجلة التأصيل. ع١/ ١٤٣١هـ.

٢٩٩.الماهية والخرافة: نور ثروب فراي. ن: وزارة الثقافة. دمشق. ط:١٩٩٢م.

٣٠٠.مباحث في علوم القرآن: د/ صبحي الصالح. دار العلم للملايين. ط:٢٤. كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م.

٣٠١.مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى. ت: ٢١٠هـ. عارضه بأصوله وعلق عليه: د/ محمد فؤاد سزكين. ن: مكتبة الخانجي. ط: ب.

٣٠٢.المجالس المستنصرية. تحقيق: د. محمد كامل حسين. ن: دار الفكر العربي. ط: ب. ١٣٦٦هـ.

٣٠٣.مجمع البيان في تفسير القران: لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي. ن: دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع. ط: ١. ٢٠٠٥م.

٣٠٤.مجموع الفتاوى: لابن تيمية. جمع: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي. ن: مؤسسة الرسالة. ط: ب. ١٤١٨هـ.

٣٠٥.المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى المديني الأصفهاني أبو موسى. تحقيق: عبد الكريم العزباوي. ن: جامعة أم القرى. ط: ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٣٠٦.مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة: محمد حميد الله. بيروت: دار النفائس، ط: ٦، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٣٠٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لعبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي. ت: ٥٤٦هـ. ت: عبد السلام عبدالشافي محمد. ن: دار الكتب العلمية. مكتبة الباز. ط: ١. ١٤١٣هـ.

٣٠٨. محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين: للرازي. وبذيله كتاب تلخيص المحصل: لنصير الدين الطوسي. راجعه وقدم له: طه عبدالرؤوف سعد. ط: ب.

٣٠٩. المحكم والمحيط الأعظم: لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي. ت:٤٥٨هـ. تحقيق عبد الحميد هنداوي. ن: دار الكتب العلمية. بيروت.٢٠٠٠م.

٣١٠. المحلى: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبي محمد: (ت:٤٥٦هـ). تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي. ن: دار الآفاق الجديدة. بيروت. ط: ب.

٣١١. محمد رسول الله في الكتب المقدسة: سامي عامري. ن: مركز التنوير الإسلامي. ط: ب. ٢٠٠٦.

٣١٢. محمد رسول الله ﷺ: محمد رضا. mostafa.com-www.al

٣١٣. محمد صلى الله عليه وآله بين الحقيقة والافتراء في الرد على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودينسون: محمد محمد أبو ليلة. ن: دار النشر للجامعات. ط: ١٩٩٩ , ١م.

٣١٤. محمد في الكتاب المقدس: عبدالأحد داود. ترجمة: فهمي شما. ن: دار الضياء. قطر. ط: ٢. ١٤٠٥هـ.

٣١٥. محمد في المدينة: مونتجومري وات. ترجمة شعبان بركات. ن: المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. ط: ب.

٣١٦. محمد في مكة: مونتجومري وات. ترجمة شعبان بركات. ن: المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. ط: ب.

٣١٧. المخصص: لأبي الحسين علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده. ت: ٤٥٨هـ. ن: دار الكتب العلمية. ط: ب.

٣١٨. مداخل إعجاز القرآن: محمود شاكر. ن: مطبعة المدني. ط: ١. ٢٠٠٢م. ١٤٢٣هـ.
٣١٩. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: لابن قيم الجوزية. ت: ٧٥١هـ. تحقيق وتعليق: محمد المعتصم بالله البغدادي. ن: دار الكتاب العربي. ط: ١. ١٤١٠هـ.
٣٢٠. مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل ومقارن: د/ محمد دراز. ترجمة: محمد عبدالعظيم علي. ط: ١٤٠١, ٣هـ.
٣٢١. مدخل للقرآن الكريم: د/ محمد عابد الجابري. ن: مركز دراسات الوحدة العربية. ط: ١. ٢٠٠٦م.
٣٢٢. مدعو النبوة والرد عليهم: د/ يحيى ربيع. حولية كلية الشريعة بقطر. ١٩٩٤م.
٣٢٣. مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين: د/ أكرم ضياء العمري. ط: ب.
٣٢٤. المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق: فؤاد علي منصور. ن: دار الكتب العلمية. بيروت. ط: ١. ١٩٩٨م.
٣٢٥. مشارق الأنوار على صحاح الآثار: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي. ن: المكتبة العتيقة ودار التراث. ط: ب.
٣٢٦. مع المستشرقين والمفسرين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش دراسة تحليلية: د/ زاهر الألمعي. ط: ٤. ١٤٠٣هـ.
٣٢٧. مع المفسرين والكتاب: أحمد محمد جمال. ن: دار الكتاب العربي. ط: ب. ١٩٥٣م.
٣٢٨. معارضة القرآن في المعيار الأسلوبي ممن ادعى النبوة أنموذجاً أ.د/ مشكور العوادي. مجلة مركز دراسات الكوفة. ع ٧. ٢٠٠٧م.
٣٢٩. معالم القرآن في عوالم الأكوان: أحمد العجوز. ن: دار الندوة الجديدة. بيروت. ط: ب. ١٤١٧هـ.

٣٣٠.معاني القرآن الكريم: للنحاس. تحقيق: محمد علي الصابوني. ن: جامعة أم القرى. مكة المكرمة. ط: ١٤٠٩ , ١هـ.

٣٣١.معاني القرآن وإعرابه: للزجاج أبي إسحاق إبراهيم السري. ت: ٣١١هـ. شرح وتحقيق: د/ عبدالجليل عبدة الشلبي. ن: عالم الكتب. ط: ١. ١٤٠٨هـ.

٣٣٢.معترك الأقران في إعجاز القرآن: للسيوطي. تحقيق: أحمد شمس الدين ن: دار الكتب العلمية. ط: ب. ١٩٨٨م.

٣٣٣.المعتقدات الدينية لدى الغرب: عبد الراضي محمد عبد المحسن. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. ط: ١. ١٤٣١هـ.

٣٣٤.المعجزة: زمزم رجال. رسالة ماجستير. جامعة أم القرى. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. ١٤٠٢هـ.

٣٣٥.المعجزة وسبات العقل: لجورج طرابيشي. ن: دار الساقي. ط: ١. ٢٠٠٨م.

٣٣٦.معجم افتراءات الغرب على الإسلام: أنور محمود زناتي www.rasoulallah.net تصميم وإخراج موقع نصرة رسول الله.

٣٣٧.معجم الأدباء: لياقوت الحموي. ت: ٦٢٣هـ. ن: دار المأمون. ط. ب. ١٣٥٥هـ.

٣٣٨.المعجم الفلسفي: جميل صيليبيا. الشركة العالمية للكتاب. بيروت. ١٩٩٤م.

٣٣٩.معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: لأبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي. ت: ٧٤٨هـ. تحقيق: طيار آلتي قولاج. ن: مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي. إستانبول. ط: ١. ١٤١٦هـ.

٣٤٠.المعرفة في الإسلام مصادرها ومجالاتها: د/ عبدالله القرني. ن: دار عالم الفوائد. ط: ١. ١٤١٩هـ.

٣٤١.المغرب في ترتيب المعرب: لأبي الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز. تحقيق: محمود فاخوري وعبدالحميد مختار. ن: مكتبة أسامة بن زيد. حلب. ط: ١. ١٩٧٩م.

٣٤٢. المغني في أبواب التوحيد والعدل: إملاء القاضي أبي الحسين عبدالجبار. ت: ٤١٥هـ. تحقيق: د/ أحمد فؤاد الأهواني. مراجعة: د/ إبراهيم مدكور. إشراف: د/ طه حسين. ن: وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. ط: ١. ١٣٨٢هـ.

٣٤٣. مفتاح دار السعادة: لابن القيم. تحقيق: محمد بيومي. ن: مكتبة الإيمان. ط: ب.

٣٤٤. مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. ن: دار القلم. الدار الشامية. ط: ١. ١٤١٢هـ.

٣٤٥. مفهوم الأمية في القرآن: أحمد شحلان دراسة مقارنة تحليلية في اللغات السامية. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. ع ١ / ١٩٧٧م.

٣٤٦. مفهوم النبوة في القرآن الكريم: أسماء هريدي. رسالة ماجستير. جامعة عين شمس. كلية الآداب. ١٤٢٢هـ.

٣٤٧. مفهوم النص دراسة في علوم القرآن: نصر أبو زيد. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط: ٥. ٢٠٠٠م.

٣٤٨. مفهوم الوحي عند التأويلية المعاصرة في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة: لطيفة المعيوف. بحث ماجستير. جامعة الملك سعود. قسم العقيدة. ١٤٢٠هـ.

٣٤٩. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ). بعناية: هلموت رتز. ن: دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط: ٣.

٣٥٠. مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. ت: عبدالسلام هارون. ن: دار الفكر. ط: ب.

٣٥١. مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر نشأة وتأسيساً: طيب تيزيني. ن: دار دمشق. ط: ١. ١٩٩٤م.

٣٥٢. مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن ابن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ(دار الكتب العلمية. بيروت ط: ١. ١٣٩٣م.

٣٥٣.ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي. ن: دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٥٤.الملل والنحل: لأبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ). تحقيق: عبد الأمير علي مهنا وعلي فاعور. ن: دار المعرفة. ط: ١. ١٤١٠هـ.

٣٥٥.من العقيدة إلى الثورة: حسن حنفي. ن: المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط: ١. ١٩٨٨م.

٣٥٦.من فيصل التفرقة إلى فصل المقال أين هو الفكر الإسلامي: محمد أركون. ترجمة: هاشم صالح. ن: دار الساقي. بيروت. ط: ٢. ١٩٩٥م.

٣٥٧.مناهل العرفان: محمد عبدالعظيم الزرقاني. تحقيق: بديع اللحام. ن: دار قتيبة. ط: ١. ١٤١٨هـ.

٣٥٨.المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن: أحمد أبو زيد. ن: مكتبة المعارف. الرباط. ط: ١.

٣٥٩.المنقذ من الضلال: لأبي حامد الغزالي. تحقيق: د/ جميل صيليبيا ود/ كامل عياد. ن: دار الأندلس. بيروت. ط:١١. ١٩٨٣م.

٣٦٠.منهاج السنة النبوية: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. ن: مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود. الرياض. ط: ١. ١٤٠٦هـ.

٣٦١.منهج أركون من التراث: عبدالله المالكي. رسالة ماجستير. جامعة أم القرى. قسم العقيدة.

٣٦٢.منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية الحديثة على النبوة والربوبية: د/ سعود العريفي. بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها. ج١٩. ع٤٣. ١٤٢٨هـ.

٣٦٣.منهج حسن حنفي وموقفه من أصول الاعتقاد دراسة نقدية: د/ فهد القرشي. بحث دكتوراه. جامعة أم القرى. قسم العقيدة. ١٤٣١هـ.

٣٦٤.الموافقات في أصول الشريعة: للشاطبي. شرح: عبدالله دراز. ن: دار الكتب العلمية. بيروت. ط: ب.

٣٦٥.المواقف في علم الكلام: لعبدالرحمن بن أحمد الإيجي. ن: عالم الكتب. ط: ب.

٣٦٦.مواقف نقدية من التراث: محمود أمين عالم. ن: دار الفارابي. ط: ٢. ٢٠٠٤م.

٣٦٧.موسوعة لالاند الفلسفية: أندريه لالاند. ت: خليل أحمد خليل. ن: عويدات. بيروت. ط: ٢. ٢٠٠١م.

٣٦٨.الموقف الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن الكريم: د/ محمد السرحاني. ن: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ط:١٤٢٧هـ.

٣٦٩.موقف العقل والعلم من رب العالمين وعباده المرسلين: مصطفى صبري. ن: دار إحياء التراث. بيروت. ط: ٢. ١٤٠١هـ.

٣٧٠.موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين دراسة تحليلية: د/ صالح الدميجي. ن: مجلة البيان. ط: ١. ١٤٣٣هـ.

٣٧١.النبأ العظيم: د/ محمد دراز. ن: دار القلم بالكويت. ط: ب.

٣٧٢.نبوءات الرسول ﷺ ما تحقق منها وما يتحقق: محمد ولي الله الندوي. ن: دار السلام. مصر. ط: ٨. ١٤٢٧هـ.

٣٧٣.النبوة بين الفلسفة والتصوف: عبدالفتاح الفاوي. ن: دار الفجر. ط: ١.

٣٧٤.نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الفكر الاستشراقي المعاصر، د. خضر شايب، مكتبة العبيكان، الرياض، ط: ١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٣٧٥.نبوة محمد ﷺ في القرآن: د/ حسن عتر. ن: دار البشائر. ط: ١. ١٤١٠هـ.

٣٧٦.نبوة محمد ﷺ من الشك واليقين: د/ فاضل السامرائي. ن: دار عمار. ط: ١. ١٤٢٥هـ.

٣٧٧.النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ: علي مبروك. ن: دار التنوير. لبنان. ط: ١. ١٩٩٣م.

٣٧٨.النبوة والعصر ردود على الشبهات حول رسالة ونبوة النبي محمدﷺ: محمد رشدي عبيد. ن: دار المعرفة. لبنان. ط: ١. ١٤٣١هـ.
٣٧٩.نزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيدي: محمد أركون. ن: دار الساقي. ط: ٢. ٢٠٠٦م.
٣٨٠.نساء النبيﷺ: لعائشة بنت الشاطئ. ن: دار الهلال. ط: ٥. ١٣٩١هـ.
٣٨١.النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة: طيب تيزيني. ن: دار الينابيع. دمشق. ط: ٢. ٢٠٠٦م.
٣٨٢.النص والسلطة الحقيقية إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة: نصر أبو زيد. ن: المركز الثقافي. الدار البيضاء. ط: ٥. ٢٠٠٦م.
٣٨٣.نصر حامد أبو زيد ومنهجه د/ إبراهيم أبو هادي. رسالة دكتوراه. جامعة أم القرى. قسم العقيدة.
٣٨٤.نظرية النظم: د/ حامد الضامن. منشورات وزارة الثقافة والإعلام. ط: ب. ١٩٧٩م.
٣٨٥.نظم القرآن والكتاب: يوسف درة الحداد. ن: المكتبة البولسية. لبنان. ط: ب. سلسلة من الدروس القرآنية.
٣٨٦.نقد الحقيقة: علي حرب. ن: المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط: ٣. ٢٠٠٥م.
٣٨٧.نقد الخطاب الديني: نصر أبو زيد. ن: دار سينا. القاهرة. ط: ١. ١٩٩٢م.
٣٨٨.نقد الفكر الديني: صادق جلال العظم. ن: دار الطليعة. بيروت. ط: ١. ١٩٩٢م.
٣٨٩.نقد النص: علي حرب. ن: المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط: ٣. ٢٠٠٠م.
٣٩٠.نقض كتاب نصر حامد أبو زيد ودحض شبهاته: رفعت فوزي عبدالمطلب. ن: مكتبة الخانجي. ط: ١.
٣٩١.نهاية الإقدام في علم الكلام: عبد الكريم الشهرستاني (ت:٥٤٨هـ). حرره وصححه: ألفرد جيوم. ن: مكتبة الثقافة الدينية. ط: ب.

٣٩٢.نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: للرازي. ن: مطبعة الآداب والمؤيد بمصر القاهرة. ط: ب. ١٣١٧هـ.

٣٩٣.النهاية في غريب الحديث والأثر: للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير. ت: ٦٠٦هـ. تحقيق: محمود الطناحي. وطاهر الزواوي. ن: دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي وشركاه. ط: ١. ١٣٨٣هـ.

٣٩٤.هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: د/ محمد أحمد الحاج. ن: دار القلم. دمشق. ط: ١. ١٤١٦هـ.

٣٩٥.الهرطقة المئة: يوحنا الدمشقي. ط: ب. ١٩٩٧م.

٣٩٦.هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ: د/ منقذ السقار. ن: دار الإسلام للنشر والتوزيع ط: ١. ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٣٩٧.هموم الفكر والوطن: حسن حنفي. ن: دار قباء. القاهرة. ط: ٢. ١٩٩٨م.

٣٩٨.الوحي والقرآن والنبوة: هاشم جعيط: ن: دار الطليعة. بيروت. ط: ١. ٢٠٠٠م.

٣٩٩.اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر: عبد الوهاب الشعراني. ن: طبعة مصر. ط: ب. ١٩٨٩م.

*****